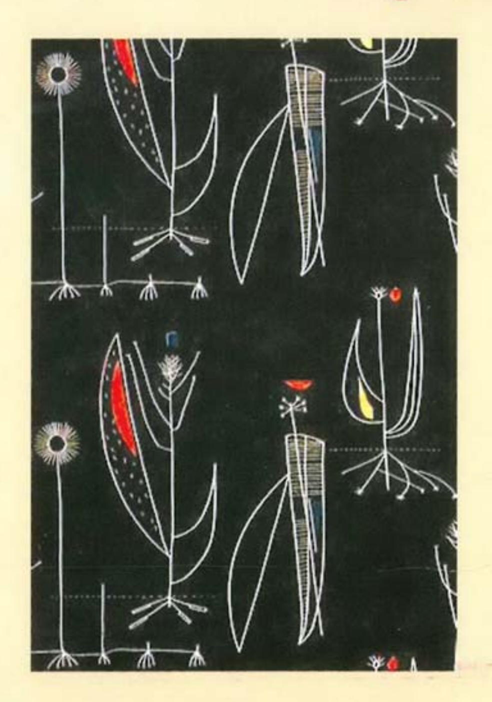
نغوجي واثيونغو

تويجات الدم



ترجمة: سعدي يوسف



نغوجي واثيونغو

تويجات الدم

رواية

ترجمة:

سعدي يوسف




نغوجي واثيونغو
تويجات الدم

تفويض وإقرار

أنا الموقع أدناه سعدي يوسف بن شهاب والمشهور في أعماله الأدبية بـ(سعدي يوسف) تولد 1934 بالبصرة بريطاني الجنسية أحمل جواز سفر رقم540253921 صادر عن إدارة الجوازات في المملكة المتحدة- لندن بتاريخ 5 تموز 2005أفوض السيد سامي أحمد إضافة إلى صفته مديراً ومالكاً لدار التكوين بدمشق المرخصة بقرار وزارة الإعلام السورية برقم 122 تاريخ 2000/7/1 بنشر أعمالي الأدبية والشعرية وترجماتي عن أي لغة أخرى، وكل ما يتعلق بحقوقي كشاعر ومترجم وأعتبره وكيلاً حصرياً له حق حماية حقوقي في ما ذكر، واختصام الغير وحق توكيل محامٍ أوآخر وعزلهم إذا لزم الأمر. ومفوضاً إياه بكل ما يلزم باقتصاء حقوقي بهذا المجال والدفاع عنها واختصام الآخرين بصفتهم أشخاصاً عاديين أو أشخاصاً اعتباريين، وفوضته بتسجيل هذا الحق أمام الجهات المعنية من اتحاد ناشرين عرب أو سواه. وتصديق هذا التفويض حيث يلزم والحصول على صور مصدقة وفق ما يقتضيه التفويض واختصام المتجاوزين على أي حق من حقوقي كشاعر ومترجم وفي كل ما يتعلق بالأعمال التي صدرت باسمي، وطلب إلقاء الحجز والتعويض واختصامهم بالوكالة عني أمام أي مرجع قضائي أو إداري .

المقر بمضمونه

سعدي يوسف

لندن 26.05.2010

نغوجي واثيونغو، روائي ومسرحي وكاتب قصص قصيرة. كان يوماً رئيس قسم الأدب بجامعة نيروبي. قضى فترة اعتقال دون محاكمة في سجن مشدد الحراسة، في كينيا.اشتهر نغوجي بروايته «**لا تبك يا بني**» عام 1964. ثم تلتها روايتاه «**النهر**» و«**حبة القمح**» لتؤكدا أن نغوجي كاتب ذو مطامح كبرى. أما قصصه «**حيوات سرية**» فتتناول كل الموضوعات التي برزت في كتاباته منذ نضال المقاتلين "الماوماو" في كينيا المستعمرة. كما كتب بالاشتراك مع ميسيري موغو مسرحية «**محاكمة ددان كيماثي**» وهو بعث آسر للبطل الكيني الذي قاد قوات "الماوماو" ضد البريطانيين. كما نشر أيضاً مسرحيتي «**هذه المرة غداً**» و«**الناسك الأسود**».أما كتابه "**تصفية استعمار العقل**" فهو جزء من نقاش مستمر على امتداد القارة حول مصير أفريقيا. والآن روايته «**تويجات الدم**».

Ngugi wa Thiong'o
Petals of Blood

نغوجي واثيونغو؛ تويجات الدم؛ رواية

ترجمة : سعدي يوسف

طبعة جديدة منقّحة، 2012

لـ **دار التكوين** للتاليف والترجمة والنشر

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963112257677

ص. ب: 11418، دمشق. سوريا

www.attakwin.com
info@attakwin.com

القسم الأول

المســير

الفصل الأول

1* جاؤوا في طلبه ذلك الأحد. كان قد عاد للتو من خلوته الليلية على الجبل. كان يرتاح فوق سريره، والكتاب المقدس مفتوح على «سفر الرؤيا»، حين جاء شرطيان، أحدهما طويل، والآخر قصير، ودقا الباب.

سأله القصير الذي يحمل ندبة كالنجم فوق حاجبيه الأيسر: «أأنت السيد منيرا؟».

«نعم».

«وتدَّرس في المدرسة الابتدائية لـ«الموروغ الجديدة»؟

«وأين تظنك واقفاً الآن؟».

«آه... نعم. نريد أن نتأكد تماماً. فالقتل ليس بالأمر الهين».

«عم تتحدث؟».

«أنت مطلوب في مركز شرطة الموروغ الجديدة».

«لأي سبب».

«القتل طبعاً. القتل في الموروغ».

وأسرع الطويل الذي لم يتكلم حتى الآن إلى القول:

«المسألة بسيطة، يا سيد منيرا... استجواب روتيني وحسب».

«دع الشرح. أنت تؤدي واجبك في هذا العالم. لكن دعني أرتدي سترتي».

نظر الشرطيان إلى بعضهما، مستغربين من استقباله النبأ هذا الاستقبال البارد. عاد وهو يحمل الكتاب المقدس بيد واحدة.

قال الشرطي القصير «إنك لا تخلِّف الكتاب أبداً، يا سيد منيرا». كان متأثراً، وخائفاً قليلاً من قوة الكتاب.

«علينا الاستعداد، دوماً، لبذر البذرة، في هذه الأيام الأخيرة، قبل قيامته الثانية. فكل العلامات ـ الصراع، القتل، الحروب، الدم ـ متنبأ بها، هنا».

سأله الشرطي الطويل، «كم أمضيت في المورروغ؟».

كان يريد أن يتجه بالحديث إلى غير نهاية العالم وقيامة المسيح الثانية. فهو مواظب على الكنيسة، ولا يريد أن يتورط في الجانب الخطأ.

«إذن... بدأتما استجوابكما الروتيني؟».

«لا... إن حديثنا هذا خارج الموضوع. مجرد حديث. ليس لدينا شيء ضدك، يا سيد منيرا...

«اثنتي عشرة سنة!» هكذا أخبرهما.

وردا بصوت واحد «اثنتي عشرة سنة؟».

«نعم، اثنتي عشرة سنة في هذه الأرض الخراب»ز

«إذن... كنت هنا قبل أن تشيد المورروغ الجديد؟».

2* جلس عبد الله، على كرسي، خارج جحره، في تلك المنطقة من المورروغ، المسماة «أورشليم الجديدة». لم يبقوه في المستشفى طويلاً. أحس بهدوء غريب بعد محنة الليل. لكنه لم يستطع، حتى

الآن، أن يفهم ما وقع حقاً. قد يستطيع ذلك في حينه. هكذا فكر. لكن، أتراه قادراً يوماً ما على تفسير هذا التحقق لما كان رغبة فقط، أو مقصداً؟ كم تمنى هذا منذ زمن طويل. رفع رأسه ليرى شرطياً ينظر إليه.

«عبد الله؟».

«نعم».

«أنا شرطي. وأنت مطلوب للمركز».

«الآن؟».

«نعم».

«كم سأتأخر؟».

«لا أعرف. يريدون منك أن تسجل إفادة، وتجيب عن بضعة أسئلة».

«لا بأس. دعني أدخل هذا الكرسي في البيت».

لكنهم، في المركز، أدخلوه زنزانة، وأغلقوها. احتج عبد الله على هذه الخديعة. صفعه شرطي على وجهه. أراد أن يقول شيئاً في تدفق مباغت لغضب قديم ومرارة جديدة لهذا الاستفزاز الأخير.

3* ذهب ضابط شرطة إلى المستشفى حيث أدخلت «وانجا».

قال له الطبيب «أخشى ألا تستطيع رؤيتها، فهي ليست في حالة تؤهلها للإجابة عن أسئلة. إنها ماتزال في الهذيان، تصرخ باستمرار: النار! النار! أخت أمي... خالتي العزيزة... أطفئوا النار، أطفئوا النار! وأشياء مماثلة».

«سجل كلماتها، فربما قدمت لنا دليلاً في حالة».

«لا، إنها ليست في حالة خطرة... صدمة وهلوسة فقط. وفي عشرة أيام...».

4* كاريغا كان يغط في نومه. لقد عاد متأخراً من اجتماع تنفيذي استمر طوال الليل، لنقابة عمال «شركة تقطير تنغيتا الموروغ». سمع طرقة على الباب. قفز من سريره وهو في مبذلته. رأى عند الباب قوة شرطة مسلحة. خطا ضابط ذو بدلة خاكي إلى الأمام.

«ما الأمر؟».

«أنت مطلوب في مركز الشرطة».

«لماذا؟».

«استجواب روتيني».

«ألا ينتظر هذا الاستجواب حتى الغد؟».

«أخشى ألا يمكن هذا».

«دعني أبدل ملابسي...».

دخل، وأبدل ملابسه. تساءل مع نفسه، كيف يتصل بالآخرين. لقد استمع إلى أنباء الساعة السادسة، وعرف أن الإضراب قد جرى منعه. لكنه كان يأمل في أن الإضراب سيستمر حتى لو ألقي عليه القبض.

وضعوه في سيارة لاندروفر، ومضوا به.

حدث أن أكيني، وهي تستعد للذهاب إلى صلاة الصبح في كنيسة الموروغ، نظرت باتجاه بيته. إنها تفعل هذا، دائماً، بصورة أوتوماتيكية، وعاهدت نفسها على التخلص من هذه العادة. شاهدت

اللاندروفر تمضي بعيداً. أسرعت إلى بيته ـ لم تدخل ثمة أبداً ـ ووجدت الباب مغلقاً بالقفل.

في ظرف ساعات قليلة، انتشر النبأ. وسار العمال غاضبين إلى مركز الشرطة مطالبين بإطلاق سراحه. خرج ضابط شرطة وتحدث إليهم بلهجة لينة تثير الاستغراب.

«رجاء... تفرقوا بسلام. إن كاريغا، هنا، لغرض استجواب روتيني. والأمر ليس متعلقاً بقراركم البارحة، القيام بإضراب. الأمر يتعلق بحادث قتل ـ قتل في الموروغ».

قال أحدهم: «قتل العمال!».

«عاش نضال العمال!».

«قتل الحركة العمالية!».

توسل الضابط يائساً... تفرقوا رجاء».

«تفرقوا أنتم، فرقوا طغيان الشركات الأجنبية، وسعاتها المحليين!».

«يسقط الحكم الأجنبي بواسطة السود! يسقط استغلال عرق جباهنا!».

الحشد يزداد غضباً وتهديداً. أشار الضابط إلى مساعديه. فاستدعوا آخرين جاؤوا ببنادقهم، وطردوا العمال المحتجين إلى وسط الموروغ. وجرح عامل أو عاملان جراحاً خطيرة، فأدخلا المستشفى.

كان العمال يفتحون عيونهم على قوتهم الخاصة. هذه المواجهة المتحدية، لم تحدث في الموروغ، قبلاً.

5* أصدرت إحدى الصحف «الديلي موثبيس» طبعة خاصة، تحمل العنوان الرئيسي:

اغتيال مزيغو، جوي، كيميريا

ألقي القبض على رجل، يظن أنه محرض نقابي، بعد أن أحرق حتى الموت، في الموروغ، البارحة، صناعي بارز واثنان من رجال التربية، معروفون باعتبارهم المديرين الأفارقة لشركة تقطير تنغيتا العالمية المحدودة، وذلك بعد ساعات فقط من اتخاذهم قراراً بعدم رفع الأجور.

ويعتقد أنهم أغروا بدخول بيت هاجمهم فيه قتلة مأجورون.

إن الثلاثة خسارة لالموروغ لا تعوض. فقد شيدوا الموروغ من قرية صغيرة تعود إلى القرن التاسع عشر، وتذكر بأيام كراف وريبمان، إلى مدينة صناعية حديثة تفخر بزيارتها حتى الأجيال التي ولدت بعد اغارين وأرمسترونغ... إلخ... إلخ... كان كيميريا وجوي شهيرين، وأبوين مؤسسين لـ«المنظمة الثقافية الكينية»... إلخ... إلخ...



الفصل الثاني

1* لكن هذا كله، كان بعد اثنتي عشرة سنة، منذ أن دخل جودفري منيرا، الموروغ، للمرة الأولى، على حصان معدني، تتبعه سحابة غبار خفيفة، حتى باب المنزل ذي الحجرتين، المكسو بالطحلب، حيث كانت ساحة مدرسة، يوماً ما.

ترجل، ووقف ساكناً. يده اليمنى على خاصرته، ويده اليسرى تمسك بالحصان، عيناه ذواتا الخطوط الحمراء تستطلعان الأشنات الرمادية الجافة على ما كان جداراً في لون المغرة البيضاء. أسند، متمهلاً، الحصان المعدني إلى الجدار، وانحنى، وهو يفك أزرار سرواله، ويطبطب عليها قليلاً بيديه، في إيماءة رامزة، ما دام الغبار عالقاً بها، وبحذائه... عنيداً، قبل أن يخطو قليلاً إلى الوراء، ليستطلع ثانية، الباب، والجدران المتداعية، وسقف الصفيح الذي تآكلته الشمس. فجأة، اتجه بكل عزمه، نحو الباب، محاولاً المقبض، وهو يدفع الباب بكتفه الأيمن. اندفع هادياً، في حجرة تملؤها العناكب الميتة، وأجنحة الذباب على نسيج العنكبوت الذي يرتقي الجدران حتى الأفاريز.

ها هو ذا، آخر، يدخل القرية. انتشر النبأ في الموروغ. الأطفال يتجسسون عليه، على جهوده الهائجة، لتنظيف المكان واقتلاع الأعشاب، وكانوا يبلغون الشيوخ والعجائز كل شيء. قال المسنون إنه سيذهب مع الريح: ألم يأت آخرون قبله؟ من تراه يود الإقامة في هذه الأرض الخراب غير معطوبي الأطراف ـ ليبتلع الشيطان عبد الله ـ وذوي الأحقاء الهرمة ـ بارك الله نياكينيوا، المرأة العجوز. المدرسة

نفسها، كانت مبنى ذا حجرات أربع، وجدران طين متداعية، وسقف صفيح فاغر الثقوب، ومزيد من العناكب وأجنحة الذباب الميت ورؤوسه. أثَمة عجب في أن يفر المعلمون منذ النظرة الأولى؟

كان أكثر التلاميذ صبيانياً رعاة، ممن لا يكملون، في الغالب، عاماً دراسياً، بل يتبعون آباءهم، وراء المراعي الجديدة والمياه لماشيتهم. لكن منيرا بقي. وبعد شهر كنا جميعاً نتهامس ـ أهو مجنون قليلاً؟ ثم إنه ليس كبير السن؟ أتراه نذير شر؟ ـ كان همسنا يزداد، خاصة حين يقيم دروسه تحت أشجار الأكاسيا، قرب الموضع الذي يشاع أنه قبر «نديمي» الأسطوري، الذي كانت روحه تهيم على بلاد الموروغ، قبل أن يأتي الاستعمار، ويبدل نظام الأشياء. إنه يستهزئ بـ«نديمي»، هكذا قال مواثي واموجو المقدس في الجبل والسهل، وقدم وصفة رادعة. ففي الليل، وتحت ستار الظلام، خرأت المرأة العجوز، خرأة كالجبل، بين مبنى المدرسة وأشجار الأكاسيا. في الصباح رأى التلاميذ الأمر، فهالهم، حتى لقد هربوا، عائدين إلى ذويهم. راوين حكاية عجيبة عن المعلم الجديد.

ظل منيرا، يخب بحصانه، أسبوعاً أو نحوه، على امتداد التلال والسهوب، مطارداً تلاميذه الهاربين. أدرك واحداً منهم. ترجل عن حصانه، وتركه يسقط على الأرض، وجرى وراء التلميذ.

سأله وهو يمسكه من كتفه «ما اسمك؟».

«موريوكي».

«ابن من؟».

«وامبوي».

«هذه أمك؟».

«نعم».

«وماذا عن أبيك؟».

«يشتغل في مكان بعيد».

«أخبرني: لِمَ لا تحب المدرسة؟».

كان الولد يرسم علامات على الأرض بإبهامه الأيمن، رأسه مائل إلى ناحية، وهو يكتم، بصعوبة، ضحكته.

كان يقول كمن يبكي «لا أدري، لا أدري».

تركه منيرا يذهب، بعد أن وعده موريوكي بالعودة إلى المدرسة، وحتى يجلب الآخرين معه. وهكذا عادوا حذرين: كانوا ما يزالون يظنونه ناقص العقل قليلاً، وأنه هذه المرة لن يغامر خارج الجدران المغلقة.

انتظرت منيرا خارج سياج المدرسة. ترجل من حصانه المعدني. توقف جانباً، ظاناً أنها تريد المرور فقط. لكنها وقفت وسط الممشى الضيق معتمدة على غصن.

«من أين أتيت: أثمة طرق معبدة؟».

«نعم».

«وضوء يجيء من أسلاك على أشجار يابسة، ليجعل الليل نهاراً؟».

«نعم».

«ونساء ذوات كعوب عالية؟».

«نعم».

«وشعر مدهون، رائحة جلد الماعز المسفوع؟».

«نعم».

نظر إلى وجهها الذي حفرته الأخاديد، إلى النور في عينيها. ثم نظر، عبرها، إلى المدرسة الخاوية، إذ كانت الساعة الرابعة. وفكر: ماذا تريد؟

«إنهن جميلات وفاهمات كما يشتهي الرجل الأبيض: أليس كذلك؟».

«بلى... إنهن فاهمات أكثر من اللازم، أحياناً».

«لقد غادرنا شبابنا وشاباتنا. ناداهم المعدن البراق. إنهم يذهبون، والشابات فقط يَعُدْن، بين الحين والآخر، ليضعن المولود الجديد في عهدة أمهاتهن اللواتي أعجزهن نبش هذه الأرض بحثاً عن لقمة عيش. هن يقلن: هناك في المدينة، لا مكان إلا لشخص واحد... مستخدمينا. إنهم لا يريدون أطفالاً في الغرف الصغيرة داخل الباحات الصغيرة. أسمعت يوماً بأمر كهذا؟ بأطفال لا يريدهم أحد؟ الشبان أيضاً. بعضهم يمضي فلا يعود البتة. آخرون يأتون أحياناً ليروا زوجاتهم اللواتي خلفوهن... فينفخون أحشاءهن سريعاً، ويمضون بعيداً، حتى لكأن أوهير أو موتونغو يدفعانهم. كيف نسميهم؟ جيل أوهير وموتونغو الجديد؟ أليست هذه الأمراض الجلدية والأوبئة نفسها هي التي أوهنت شعبنا بمواجهة غزو مزونغو؟ أخبرني إذاً، ما الذي جاء بك إلى هذا المكان المهجور؟ انظر إلى عبد الله. جاء من هناك، وبم أتانا؟ بحمار. تخيل الأمر الآن، حمار، وأنت... ماذا جئت تأخذ من قريتنا؟ الأبناء الباقين؟».

فكر لحظات. قطف تفاحة صفراء ناضجة، وسحقها بين أصابعه: أما من زاوية آمنة يختبئ فيها المرء ويعمل شيئاً، يبذر بذرة، ويرى ثمارها؟ رائحة التفاحة المتمرة تصدم منخريه. أحس بشيء مباغت، أيها الرب خلصنا من ماضينا، وبحث كالمجنون عن منديل في جيوبه، ليكتم عطاسه.

قطرة مخاط وقعت على وجه المرأة المغضن. صرخت المرأة، وفرت فزعة.

بعد لحظة، نظر إلى الممشى، فلم ير للمرأة أثراً وراء شجرة التفاح، أو أي موضع آخر. لقد اختفت.

تمتم مع نفسه، غريبة، غامضة. اعتلى حصانه المعدني، وانطلق، بطيئاً، نحو دكان عبد الله. عبد الله أيضاً، قادم جديد في الموروغ. لقد جاء هو مع «جوزيف» الصغير الهزيل، في وسطنا، على عربة حمار، ملآى بأنواع الأدوات والصحون والبطانيات الرخيصة المحملة في أكياس سيزال ممزقة، وشراشف قذرة معقودة في هيئة حقائب موقتة. هتف ننجوغو سخراً حين رأى الثالوث العجيب: سيكون هذا العام مشهوداً. وحين سمع طلبهما الأكثر عجباً، قال: كيف يفكر المرء في مثل هذا المكان الصحراوي بإنقاذ الدكان الطيني الذي كان يملكه يوماً، دارشاه... في الأساطير الألمورغية. تستطيع أن تأخذ الشبح... الذكريات، اللعنات، وكل شيء. هكذا قال نجوغو العجوز مشيراً إلى المبنى، المائل بسقفه وجدرانه، إلى جهة، والذي لا يمكن تمييزه عن العشب اليابس والتراب الأحمر.

اعتدنا الازدحام في دكانه الصغير، والنظر بعجب، إلى رجله المقطوعة، ووجهه البائس، والاستماع إلى سيل شتائمه المنصب على جوزيف. وسرعان ما غدونا سعداء، لأننا وجدنا، أخيراً، مكاناً نبتاع

منه الملح والفلفل. لكن حماره يقلقنا، فهو يلتهم العشب كثيراً، ويعب الماء كثيراً. بعد شهر أخذ عبد الله يقدم خدمات شرب، إلى جانب بضاعته من الملح والفلفل والجوغو أنغا.

في أيام الجمعة، أو السبت، كان الرعاة يجيئون من سهول الموروغ، ويهبطون على المخزن، يشربون، ويسمرون، ويغنون عن أبقارهم وماعزهم. إن لديهم مالاً كثيراً من مبيع ماعزهم في سوق روا ـ ايني، ولم تكن للمال أخرى لديهم، إذ يحملونه مخبأ داخل ملابسهم الحمراء في علب صفيح صغيرة معلقة بخيوط حول رقابهم.

بعد هذا يختفون، أياماً، أو أسابيع، قبل أن يهبطوا ثانية، على عبد الله.

دخل منيرا، الدكان، من الباب الخلفي، وجلس على طرف مصطبة متداعية. كان يتمتم مع نفسه، إنه لأمر غريب، كان يستعيد مواجهته مع المرأة العجوز، وهو ينتظر البيرة التي سوف يأتي بها جوزيف. وما كاد يبدأ الشرب، حتى انضم إليه ثلاثة رجال مسنين، حسني البنية، وجلسوا حول الطاولة معه. كان موتوري ونجوغونا ورورو فلاحين أغنياء، كما كانوا حكماء هذه الجماعة الزراعية، يفصلون المنازعات بين الأسر المختلفة، وكذلك بين هذه الجماعة الزراعية ورعاة السهول. أما المنازعات والمشكلات الأكثر خطورة، فكانت من نصيب «العراف» مواثي واموغو. حيوا منيرا، وبدؤوا يتحدثون عن الطقس.

«من أين أتيت؟ أهو جاف مثل هذا المكان؟».

«إنه... حسناً... ساخن دائماً في كانون الثاني».

«الفصل نفسه طبعاً ـ فصل الجيثيميتو».

«أهذا هو اسمه؟».

«هـؤلاء الأطفـال... إن في رؤوسـكم الكـثير مـن رطانـة الأجنبي. هل كان موسم حصادكم جيداً؟ هنا كان الموسم فقيراً، ولا نعرف إن كانت حبوب الذرة والفاصوليا، ستكفينا حـتى نهايـة أمطـار الناجاهي... هذا إن جاءت الأمطار..».

استعجل منيرا قائلاً: «أنا في الحق لست مزارعاً».

لقد كان هذا الحـديث مـن الناجـاهي والغاثـانو والمـويري يـشعره بالارتباك.

«نعرف هذا، نعرف... إن يدي المسومي هما كتـاب بحـد ذاتهمـا. ألست أرى أهل المدينة حـين يزورونـنـا؟ أيـديهم لم يمـسها التـراب، حتى لكأنهم يرتدون النوغوم».

كان مطمع نجوغونا، دائماً، أن يلبس يوماً، النوغوم على مفاصـل أصابعه، تشبهاً ببعض سادة المباري الـذين عـرفهم في شـبابه. بعـض البيوت الشهيرة، كانت من الغـنى، ووفـرة الأبقـار والمـاعز، بحيـث تحتاج إلى رعـاة يقومـون بخدمتـها. كـان هـؤلاء الرعـاة يطمعـون في الحـصول علـى معـزى أجـرا، لينطلقـوا أحـراراً، في أرض الجماعـة البكر، أو المراعي التي لا يدعي ملكيتها أحد.

أما الآخرون من رؤساء الأسر الكبيرة والعـشائر فكـان لـديهم مـن الزوجات والأبناء ما يكفيهم في العمل، كما أن لديهم مـن البنـات مـا يكفي لجلب ثروة أكبر. لكـن رفاهـا مثـل هـذا قـد تجنـب نجوغونـا. فالأرض لا تغل كثيراً، وما من أرض بكر يلجأ إليهـا كمـا كـان الأمـر قبل الاسـتعمار الاسـتيطاني. أبنـاؤه مـضوا إلى المـزارع الأوروبيـة أو المدن. وليس له من بنات، ومـا الفائـدة منـهن هـذه الأيـام؟ إنَّ لـدى

نجوغو العجوز عدداً منهن، ولم يجلبن له إلا الهم بدل الماعز. لذا كان على نجوغونا، مثل كل الفلاحين الآخرين في كل الأكواخ المنتشرة حول بلاد الألموروغ، أن يرضى بأرضه الصغيرة، وأدواته البائسة، وعمل أسرته الصغيرة، لكنه ظل يأمل.

كان موتوري يقول: «لم تكن الأمطار كافية في موسم المويري الأخير، والآن، ننظر إلى الشمس والريح وطيور الثنغوروري في السماء، خائفين من انحباس المطر. ما يزال بيننا وبين أمطار الناجاهي، قمران، بالطبع... لكننا نخاف هذه الطيور».

لم يكن منيرا ليهتم بالزراعة. حاول أن يميل بالحديث إلى نواح أخرى... وكان عبد الله هو المنقذ.

سأله عبد الله «أتظنك مستطيعاً تدبير المدرسة وحدك؟».

«بعد أن تبدأ صفوف السنة الأولى والسنة الثانية دوامها، أستطيع أن أحصل على معلمين».

«صفوف السنة الأولى والسنة الثانية؟».

أجاب «حسناً، صفوف السنة الثانية في الصباح، وصفوف السنة الأولى بعد الظهر».

قال عبد الله «يجب أن تكون متفانياً جداً».

ولم يدر منيرا إن كان ما قيل سخرية أم ثناء. لكنه حاول الإجابة بإخلاص.

«بعض من درس منا، كنا نميل إلى ترك النضال في سبيل الحرية للناس الاعتياديين، وقفنا خارج الأغنية، كما يمكنني القول... أما الآن، ومن الاستقلال، فإن لدينا الفرصة لأداء الدين، فرصة أن نبين

أننا لم نختبر الوقوف خارجاً... لهذا... حسناً... اخترت الانتقال إلى هذه... إلى المورروغ».

قال عبد الله: «أنا متأكد من أن بعض الناس بدأ منذ الآن يجري وراء معدته فقط». وشعر منيرا، ثانية، بالنبرة غير المريحة، شيئاً ما.

حتى لكأن عبدا لله يشك، أو يعادي، حماسته، ورسالته.

قال «لا أتحدث بلسان الجميع ـ لكن يبدو أنه ما تزال ثمة حماسة، وإيمان بقدرتنا جميعاً على أن نعمل شيئاً يجعل من استقلالنا حقيقة».

قال موتوري «هكذا يكون الكلام. إنها لكلمات طيبة».

اغتنم منيرا هذه الفرصة ليوضح مشاريعه المقبلة عن المدرسة، ويطلب معاونته في مهمته.

بعد الغسق، غادر المزارعون الثلاثة الدكان، وذهبوا مترنحين إلى بيوتهم... ولكن ليس قبل أن يبلغوا نياكينيوا ما عرفوا، كانوا يعتمدون، بصورة أثقل، على عصيهم، وهم يسيرون، محمري العيون قليلاً، غائمي الأصوات قليلاً: إنه جيد. هكذا أخبروا الآخرين المجتمعين في كوخ نياكينيوا. إنه جيد، هكذا قالوا، ونظر أحدهم في عيني الآخر، نظرة العارف.

أمسى واحداً منا. غنى الأطفال أغنية «أيويو» بأصوات عالية. غنوا أيضاً «كامو وا نجوروغي اينا ندوتو كوغورو»، وفكروا بالبراغيث تأكل أصابع أقدامهم، فقصعوها على الأرض. تلاميذ هربوا من المدرسة ليغنوا أغنية الرعاة، أو ليتسلقوا، ويهبطوا أشجار المباريكي في الحقول الفسيحة. آخرون ظلوا ينتحبون أسبوعاً أو نحوه، ثم سلكوا أيضاً درب الماشية. إننا في ستينيات القرن العشرين، لا في ستينيات القرن التاسع عشر، هكذا فكر منيرا، وهو مستاء قليلاً.

ثانية مضى في التلال، وأدرك بعض التلاميذ، فطلب منهم أن يخبروا الآخرين بأنه قد دعا إلى اجتماع مدرسي. لم يحضر الاجتماع سوى خمسة. خاطبهم من منصة طين: «اسمعوا، لقد أظهرتم بحضوركم شيئاً أكثر من الاجتهاد الاعتيادي، لقد أظهرتم ذكاء، ولذلك نجحتم إلى صف المبتدئين باللغة الإنجليزية. لكنكم محتاجون إلى معلم يتحمل كل هذا العداء والإهمال من جانب أناس يضادون النور والتقدم». أنهى اجتماعه المدرسي الأول، بأن أقسم، صامتاً، ألا يعود إلى هذا المكان الذي تخلى عنه الرب. إن محاولته الواعية الأولى لمتابعة الأغنية، قد انتهت بإخفاق واندحار جديدين.

هكذا، انطلق، ثانية، على صهوة حصانه المعدني، فارساً في سحابة غبار، بينما كانت عيون عديدة تسخر لفشله، خلف الأسيجة. تقدمت نياكينيوا العجوز في الممشى المترب، ونادته صائحة. بينما كانت النسوة في الحقول يغنين، ساخرات، عن فارس آخر في الزمان البعيد، حين كانت الموروغ، الموروغ حقاً: الآن نرى أبناء مونورو، أين سلالة «نديمي»؟

لم يأبه. فقد جعلوا منه، خلال شهر، شخصاً أحمق. وحتى عبد الله الذي غدا دكانه ومشربه ملاذه اليومي، لن يساعده. «إنهم يشكون بعض الشك بالغرباء والأمور الغريبة. منذ الوهلة الأولى لم يحبوا حماري. ما يزالون لا يحبونه. ولماذا؟ بسبب الحشيش. تصور». كان يميل على جوزيف شاتتما، قبل أن يميل إلى منيرا، هامساً بنبرة متآمرة «معلم... أصحيح أن المرأة العجوز خرأت جبلاً في ساحتك؟ فعل لا يسمى. ها! ها! جوزيف، هات بيرة أخرى للمعلم. لكن هل حدث الأمر حقاً؟». ويضحك الأعرج لضيق منيرا.

الضحات، والذكريات، والطريق إلى روا ـ ايـني عاصـمة مقاطعـة جيري، لم تحسن مزاج منيرا. وفكر منيرا بـأن الطريـق خـداع غـشاش مثل أولئك الساحرات الشريرات، والأطفال المزعجين، والمقعـدين، بينما كانت دراجته تخب وسط الحفر والأخاديد والعقبات.

كان هذا الطريق، في أحد الأيام، خطاً حديدياً يصل الموروغ بـروا ـ ايني، ينقل الخشب والفحم النباتي ولحاء السنط من غابات الموروغ ليطعم المكائن والرجـال في روا ـ ايـني. لقـد أكـل الخـط الحديـدي الغابات، وبعد أن أنهى مهمته، رفع الخط، وصارت الأرض طريقـاً ـ نوعاً من طريق ـ لا يفصح عن مجـده الـسابق في الاسـتغلال ـ ابتـسم مرة، وهو يبلغ المنبسط الأخير للطريـق المعبـد المتلـوي بـين مـزارع القهوة التي كان يملكها البيض. حتى هنـا لم يتمهـل، بـل ظـل ينـدفع خلال الغاية، كي يتجنب الشاحنات التي يضحك سائقوها، ويقومـون بإشارات بذيئة: دع الدراجة ترضع ثدي الشاحنة.

بانت أمام عينيه مباني روا ـ ايني، وبدأ له فجأة أنه لم يفكر ببـديل. تذكر سبب اختياره الموروغ أول الأمر، وبـدل كـل أصـوات الغـضب في داخله، حل الخوف من العمل في ليمورو، بمواجهة الظـل الماثـل لنجاح أبيه، إزاء إخفاقه هو... وهكذا يكون قد اعترف بإخفاقه.

هذه الفكرة جعلتـه يتوقـف. ترجـل عـن دراجتـه. اعتمـد عليهـا، وراقب المشهد عبر السياج.

خارج روا ـ ايني، ولمسافة ميل، ثمة ميـدان للغولـف، مقـصوص العشب بعناية بالغة.

كان ثلاثة أفارقة يضحكون من رابع مكـرش يلـوح بالعـصا دون أن يضرب الكرة. بينما يقف الغلمان المساعدون ذوو الملابس الممزقـة،

على مسافة معينة مثقلين بحقائق عصي الغولف والكرات البيض. آه لهذا العالم، واعتلى منيرا دراجته، مسرعاً، خلال روا ـ ايني.

كان مكتب مزيغو بالغ الترتيب، صينية للبريد الوارد، صينية للبريد الصادر، وثالثة للبريد المتنوع، إضافة إلى العديد من أقلام الحبر والأقلام عند كل دواة من الدوى الثلاث الضخمة. على الحائط علقت خارة لمقاطعة جيري، مبين عليها مختلف المدارس بدبابيس الرسم.

«كيف حال مدرستك؟» سأله مزيغو، وهو يستدير قليلاً على كرسيه الدوار. ونظر إلى خارطة الدبابيس.

«أرسلتني إلى مدرسة خاوية. لا معلمين».

«ظننتك تريد موضع سلام؟ موضع تحد؟».

«حتى... لا تلاميذ».

«الحق أنني لا أعرف سر هذه المدرسة، فلا معلم يريد البقاء هناك، حتى المعلمون غير المدربين سوف نستخدمهم بالتأكيد.

«ولكن...».

«سأكون هناك قريباً، سأقوم بجولة هناك. ألديكم طرق جيدة؟ أنت تعرف هذه السيارات اللعينة ـ مضايقة حقيقية، العبء الحقيقي للرجل الأسود ـ صدقني، أيها السيد... أي... أي ـ منيرا ـ أن الدراجة أقل إزعاجاً».

نظر، الآن، إلى منيرا، وشفتاه منفرجتان عن ابتسامة هازئة، وكأنه يقول: كان يجب أن تعرف ـ تحاول الهروب... وفكر منيرا، ترى كيف عرف مزيغو الأمر؟ وتذكر، فجأة، الشاحنات وسائقي السيارات الذين أرغموه على اتخاذ الغابة طريقاً إلى هنا، ورأى كثيراً من الذكاء

في امتداح مزيغو، الدراجات. تحول غضبه الداخلي إلى ضحك، فقهقه حتى أوجعته أضلاعه، وأحس بالتحسن، وبنوع من خفة النفس.

سأله مزيغو «أنت لا تصدقني، إذاً؟».

كان منيرا يفكر الآن بعبد الله الكسيح، ونياكينيوا العجوز، والأطفال الذين يفضلون رعي الماشية وتسلق أشجار الماريكي على الذهاب إلى المدرسة. وقابل بين طريقتهم المباشرة وهذا التباهي، قابل بين دهشتهم وبين الخوف وراء الوجوه التي تجلس في الزوايا الخلفية لسيارات المرسيدس الفاخرة، أو خلف جدران تلك المنازل التي كانت مخصصة للأوروبيين فقط، أو في النوادي الخاصة، قابل بين إخلاصهم وبين الكروش المنتفخة بالخبث والخديعة، المتمشية على امتداد ساحة الغولف، وهي تتفاوض حول الصفقات، وحين استعاد كلمات عبد الله، أحس بشعور لطيف إزاء المورروغ.

ربما لم يفهم نياكينيوا، عبد الله، نجوغو، نجوغونا، رورو، والآخرين جميعاً...

هكذا فكر منيرا. لم يقل كلمة واحدة عن الاستقالة أو طلب النقل. جمع طباشير ودفاتر وورق كتابة.

«هل أنت جاد يا سيد مزيغو... هل تعني ما قلت قبل قليل؟ إن باستطاعتي أن أستخدم معلمين غير مدربين؟».

«نعم، يا سيد منيرا، شرط أن تأتي بهم إلي، لإجراء معاملة التعيين الرسمية. أريد أن تتوسع تلك المدرسة، وأن تفتح كل الصفوف فيها».

* * *

بدأت ليلة في بيت فرآها بـ«روا ـ ايني». وفي اليوم التالي عبر إلى مقاطعة كيامبو، فقد أراد أن يمضي يوماً أو يومين في منزله بـ«ليمورو» قبل أن يعود إلى الموروغ.

عملياً، كانت حياته كلها في «ليمورو» حتى الآن. فبعد أن غادر سيريانا عام 1946 درس في عدة مدارس حول ليمورو: ريروني، كاماندورا، تيكونو، غاثريني، أما السنوات الست الأخيرة فكانت في مانغو. لذا، أحس بنبضات قلبه تتسارع وهو يعود إلى مربع ماضيه. لكنه تألم لأنه ما يزال يعتمد على أبيه في الحصول على مكان لداره. لقد فكر دائماً بأن يشق طريقه بنفسه، لكنه ظل يدور حول ممتلكات أبيه، دون أن يكون في الوقت نفسه، بعضاً منها.

الأمر ليس هكذا مع أخوته الأكثر نجاحاً. فأحد أخوته ذهب إلى إنجلترا، وعاد بمهنة ناجحة في المصارف، والآخر أتم دراسته في ماكيريري وهو يعمل الآن في شركة نفط. وما يزال أخ ثالث يدرس الطب في جامعة ماكيريري. أما أختاه فقد أتمت الأولى دراستها الثانوية، وهي الآن في إنجلترا تتدرب على التمريض، والثانية بكلية غودارد، فيرمونت، بالولايات المتحدة الأمريكية، تدرس كي تنال بكالوريوس إدارة الأعمال. لكن أخته موكامي ماتت أخيراً، وهو ما يزال يحس بأسى عميق لذكراها، لأنها ـ وإن كانت أصغر منه كثيراً ـ كانت تقف إلى جانبه، ولا تنظر إليه بوصفه امرأً فاشلاً. كانت حية الروح، متمردة. وقد ضربت مرتين لمصاحبتها الأولاد في السطو على الخوخ والكمثرى في مزرعة فواكه أبيها. وحتى بعد قبولها في مدرسة كينيا العليا، كانت حين تعود في إجازة، تنضم إلى مجموعة العمال، وتساعد في اقتطاف أزهار حشيشة الحمى. كانت أمها تلومها «أنهم يقبضون أجراً على عملهم!». أما انتحارها ـ ألقت بنفسها من أعلى

المقلع المشرف على مستنقعات مانغو ـ فقد كان قولها النـهائي لكلمـة «لا» في وجه عالم متعب.

أبوه، حزقيال، الطويل، القاسي في تعاليه المتقشف، كـان مالـك أرض غنيـاً، وشـيخاً محترمـاً في تسلـسل الكنيـسة المـشيخية. كـان طويلاً، وبخيلاً في قداسـته المتقـشفة. يـؤمن بـأن الأطفـال يجـب أن يغتذوا حبوب الذرة المغلية مع القليـل مـن الفاصـولياء، والـشاي بـلا سكر مع قطرات حليب، متوجة كلها بكلمات الله والـصلوات. كـان، بالرغم مـن ضـآلة جراياتـه، ناجحـاً في اجتـذاب العمـال المخلـصين للعمل في مزرعته. ولقد ظل عاملان في خدمة أبيـه منـذ امتلـك مـنيرا ذاكرة ـ وهما ما يزالان يرتديان تلك الثياب المهلهلة، وإخفاف النبات أحذية. عبر السنين استخدم أيدي عديدة، بعضها جاء حتى من أمـاكن بعيدة، مثل غاكي، ميتومو، غوسيلاند ـ لمساعدته في زراعة حقولـه، واقتطاف أزهار حشيشة الحمى طوال العام، وتجفيفها، وجني الأحمر الناضج في كانون الثاني، وصـفه في صـناديق، وأخـذ الـصناديق إلى الدكاكين الهندية ليباع هناك. ويكاد هؤلاء العمال يـشتركون في شـيء واحد: الخضوع للسيد. إنهم يدعونه الأخ حزقيال، أخانا في المـسيح. وهم يجتمعون في ساحة البيت، بعد العمل، للصلاة والشكر.

ثمة بالطبع، مـن تملكتـهم أرواح شـيطانية، دفعتـهم إلى المطالبـة بزيادة الأجور، وخلق متاعب في المزرعة مما أدى إلى طردهم. ولقـد حاول أحدهم تنظيم العمال في فرع لنقابة عمال المزارع، تلك النقابـة التي تقوم بنشاطها في المزارع الأوروبية. وكان يقول إن ليس ثمة فـرق بين المستخدم الأوروبي والمستخدم الإفريقي للعمال، وقد طرد هـذا أيضاً، على الفور، بل جرى استنكار أمـره في موعظـة كنـسية، وقـدم باعتباره مثالاً لـ«محن وإغراءات الأخ حزقيال» لكن منيرا، وهو فـتى،

لاحظ سريعاً، أن العمال حين يكونون في منازلهم بالمزرعة، بعيدين عن بيت أبيه، يغدون أقل تكلفاً، وأكثر حرية، حتى وهم يشكرون السيد. إنهم يغنون بقناعة وقداسة أكثر. لقد أحس بالروع قليلاً من قناعتهم التامة وإيمانهم بالجنة هذا الإيمان الحرفي. في واحد من هذه اللقاءات، خلال إجازته من سيريانا، أحس منيرا بارتعاشة خفيفة في قلبه، وبشعور بفداحة الخطيئة التي ارتكبها منذ وقت يسير، كانت فعلته الأولى مع امرأة سيئة في كاميريثو، اسمها أمينة. أحس بالحاجة إلى أن يعترف، وإلى أن يطهره السيد، لكنه وهو على وشك أن يقول، شعر بأنهم لن يصدقوا اعترافه ـ وكيف تراه واجداً الكلمات على أي حال؟ بدلاً من هذا، مضى إلى البيت، مؤمناً بأنه قد باح للرب بسره، وقرر أن يفعل شيئاً بصدد خطاياه. سرق علبة كبريت، وجمع كومة حشيش وروث بقر يابساً، وأقام ما يماثل بيت أمينة في كاميريثو، حيث أذنب بحق الرب، ثم أشعل ما أقامه. وراقب اللهب، وأحس أنه قد تطهر بالنار. ثم مضى إلى البيت مطمئن النفس إلى رضا الله. سلاماً. لكن الروث اتقد ثانية بالنار، ليلاً، وأذكت، وأذكر الريح النار في لهب امتد إلى هري المزرعة، وكاد يلتهمه لولا اكتشافه في حينه.

في الصباح سمعهم يتحدثون عن الأمر ـ يقولون: ربما فعله جيران حاسدون ـ وقرر الصمت. لكنه أحس كما لو أن أباه يعرف الحقيقة، مما زاد في شعوره بالذنب.

امرأة واحدة ظل منيرا يتذكرها: كانت، وإن لم تذهب قط إلى الكنيسة، أكثر قداسة من الآخرين، وأكثر إخلاصاً في عزلها وانفرادها داخل كوخها الذي تحيطه خمس من أشجار السرو. كان كوخها في منتصف المسافة بالضبط بين بيتهم الكبير وبيوت العمال. كان لمريم

العجوز ابن اعتاد اللعب مع منيرا قبل أن يذهب هذا إلى سيريانا. وحتى حين عاد منيرا من سيريانا ظلا متصاحبين، وإن قليلاً، لكن الصحبة كانت كافية لأن يشعر منيرا بالصدمة حين سمع في 1953 بأن ابن مريم قد ألقي عليه القبض وهو يحمل أسلحة إلى الماو ماو، ثم أعدم شنقاً. لكن السبب الرئيسي لتذكره إياها هو أنها كانت تحتج دائماً على الأجور المنخفضة، وعلى عدم دفع الأجور في حينها، بينما كان الآخرون يثقون بكلمات أبيه وحسن نيته. كانت تحترم حزقيال، لكنها لا تخشاه. أما حزقيال فلم ينهرها يوماً، ولم يستغن عنها. وقد سمع منيراً اسمها يذكر أثناء الحديث عن فقد أبيه أذنه اليمنى ـ قطعها ثوار الماو ماو ـ وأخيراً، أثناء الحديث عن انتحار موكامي. لكنه لن ينسى هروباته الطفولية إلى كوخ مريم، حيث الشاي والبطاطا المشوية على الفحم.

وقف منيرا الآن، حيناً عند شجرات السرو، حيث كان كوخ مريم، قبل أن تنقل مع الآخرين إلى قرية التجميع الجديدة، في كاميريثو. ما الذي حدث لها؟ لقد أدهشه، أنه وهو في عزلته مدارياً إخفاقه في سيريانا، قد فقد العلاقة مع الحياة النشطة في ليورو. كان منها، وليس منها في الوقت ذاته... كل شيء عن ماضيه منذ سيريانا كان غامضاً، غير حقيقي، ضبابياً... كما لو أن ثمة شرخاً كبيراً في استمرارية حياته وذكرياته. لذا، كان قراره النهائي بالذهاب إلى المورروغ بمثابة فعله الأول الواعي لقطع العلاقة بحالة اللاكينونة.

لعب مع طفليه، متسائلاً حيناً، عن صورته في ذهنهما الطري. أيمتلك ذلك التقشف والتنزه مثل أبيه؟ حدثهما عن المورروغ. وتناول الذباب المزدحم على عيون الصبيان الرعاة وأنوفهم حتى صاحت زوجته: «كيف تستطيع ـ؟» أخبرهم عن المورروغ المسكونة بـ«ماريمو»

تلك المرأة العجوز العوراء التي تخرأ جبالاً، وأولئك الكسيحون الذين تنهال الشتائم من أفواههم القذرة انهيالاً، حتى صاحت زوجته ثانية «كيف تستطيع ـ؟» دون أن يتم جملته. لم يكن مسلياً، وأحس أنه مثار سخرية في عيونهم غير الضاحكة. حسناً. سأقرأ لكم شيئاً من الكتاب المقدس، فتهلل وجه زوجته بشراً. وقال لهم المسيح: ادخلوا في القرى والأماكن المظلمة في الأرض، وأوقدوا مصباحي الذي زيته الروح القدس. ليكن. آمين. ما إن ذهب الأطفال إلى النوم، حتى استدارت نحوه بعينين نصف قاسيتين، نصف راغبتين. كان يمكن لها أن تمسي جميلة، لكن حياتها صالحة أكثر مما ينبغي، وقراءتها الكتاب المقدس وصلواتها أكثر مما ينبغي... هكذا نضبت شهوتها، ولم يبق فيها سوى النور البارد للروح.

«كان عليك أن تخجل، من الكلام البذيء مع الأطفال. عليك أن تعرف أن هذا العالم ليس مقامنا، وأن علينا الاستعداد للعالم الآخر».

«لا تقلقي» فأنا نفسي لست من هذا العالم... حتى لست من ليمورو... ربما الموروغ... للتغيير...

* * *

هكذا استحدث منيرا حصانه المعدني داخل الموروغ، لكن الناس، هذه المرة، خرجوا لتحيته، فعلاً. وذهبت المرأة العجوز إلى المدرسة، وقالت له: «عدت حقاً. ليباركك الله. وبصقت في راحتيها للبركة. ارتد قليلاً، لكنه سعيد الآن لأن نياكينيوا لا تعاديه».

استأنف التدريس، مرتاحاً لتقبلهم إياه. لقد سعده إنصات التلاميذ الصامت ـ أولئك العائدون إلى المدرسة ـ. وبدت الموروغ منتبهة، فجأة، إلى صوته.

* * *

أضحى معلماً يومياً من عالم الموروغ، الفارس الحامي للمعرفة لدى التلاميذ الذين يأخذون دروساً خارجية. الصف الثاني، أو ما سماه صف المبتدئين بالإنجليزية، يداوم صباحاً. الصف الأول يداوم بعد الظهر. والتلاميذ يدخلون، ويخرجون كما شاؤوا، وقد نظر إلى اضطراب النظام هذا، وحتى إلى الحديث عن الجفاف، نظرة فهم ولا مبالاة.

كان يكفيه أن ينظر إليه رجال الموروغ الكبار ونساؤها باعتباره معلِّمَ أبنائهم، والرجل الذي يحمل في رأسه حكمة العصر الجديد. وقد امتدحوا فيه كونه، وهو من العالم الثاني، قد قبل الإقامة بينهم.

إنهم يستطيعون أن يروا في عينيه رغبته في البقاء، عينيه غير القلقتين، بينما كانت عيون الآخرين طافحة برغبة الهروب، وعند أقل شكوى كان أولئك يمضون فلا يعودون أبداً.

منيرا ظل مقيماً. كانوا يراقبونه قلقين. في نهاية كل شهر يذهب إلى روا ـ ايني ليتسلم مرتبه، وهم يرونه يعود إليهم دائماً، فيقولون بين أنفسهم: «هذا الرجل سيبقى». إنهم الآن يأتونه بالبيض، وبدجاجة أحياناً، وكان يتقبل هداياهم بامتنان. كان يتمشى عبر الجبل، متتبعاً الممرات المنتشرة، والناس يتنحون جانباً، مفسحين له الطريق باحترام، فيرد عليهم بانحناءة صغيرة من رأسه، أو بابتسامة. وكان يأنس لسوقهم، الذي هو ملتقى أصدقاء، أكثر منه موضع تبادل بضائع، ومساومة على أسعار. إنهم يلتقون على الجبل حيثما دعت الحاجة، في الأمسيات، قبل المغيب. أهل السهول يأتون بالحليب وأعمال الخرز والجلود أحياناً، كي يبادلوها بالسعوط والفاصولياء والذرة. وبإمكان المرء أن يبر أموره بلا نقود، إلا حين يذهب إلى دكان عبد الله أو روا ـ ايني. المال، أو الطعام، أو الملابس، تصلح

مادة للتبادل. كان يحتفظ بالمال لشراء أشياء استعمال أخرى. مرة رأى رمحين وسكاكين معروضة للبيع، وقد دهش حين عرف أنها من صنع موتوري. أسرت إليه نياكينيوا «أنه لا يستطيع صنعها إلا في موضع مواثي، ففي طرق الحديد وليه بالمنفاخ والمطرقة يجب أن يحتمي من العيون الحاسدة والشريرة».

وعرف أن مواثي واموغو هو القوة الروحية في جبل الموروغ وسهلها، منظماً الحياة، بصورة خفية. هو الذي يعين يوم البذار، أو يوم حركة الرعاة. لم يره منيرا أبداً: لا أحد، دون سن معينة، يستطيع أن يراه: لكنهم أروه مكانه مسيجاً بالثاباي، فكان ممتناً لهم، فلسوف يتجنب منذ الآن المرور قريباً من هذا المكان. من ناحية أخرى أحس بالأمان: أن يكون محبوباً ومقدراً ومحترماً هكذا، دون أن يتورط بالتدخل المتعجل في حياة الناس الآخرين: واعتبر الأمر هبة أخيرة من الله. حاول أن ينسى مخاوفه، وذنبه، وسنواته المتجلدة: وكان يدفع ذكرياته السيئة عن أبيه وزوجته وأطفاله بجرعة شرب وما إليها. كان يحب الشرب خاصة حين يأتي الرعاة من السهل إلى دكان عبد الله. إنهم يغرزون رماحهم في الخارج، ويشربون، ويتحدثون عن الأبقار، ويطلقون النكات عن الذين يقضون حياتهم، كالخلد، ينقبون الأرض. أما فلاحو الموروغ، فكانوا، بالرغم من قلقهم لتأخر الأمطار، يدفعون عن أنفسهم، وعن مهنتهم. ثم يتصاعد نقاش ساخن بين الزراعيين والرعاة، حول المهم: الماشية أم الغلال؟ الماشية ثروة ـ إنها الثروة الوحيدة. ألم يكن مطمح كل رجل حقيقي، خاصة قبل مجيء الرجل الأبيض، أن يمتلك الأبقار والماعز؟ إنّ رجلاً بلا معزى يلجأ، في الغالب، إلى أن يزرع حقولاً، حقولاً من البطاطا الحلوة والعنب والدخن واليام وقصب السكر والموز. وفي الأخير يحاول أن

يبيعها من أجل معزى - حتى معزى صغيرة واحدة. أو لم يكن معروفاً أن الناس كانوا يؤجرون أنفسهم، رعاة موسميين، كي يحصلوا يوماً ما على معزى؟ باع الناس بناتهم من أجل الماعز، لا من أجل الغلال: الحدادون، وأهل الفخار وصانعو السلال والأساور الجميلة يريدون أكثر ما يريدون أن يبادلون بضاعتهم بما لهم لحم ودم. ولماذا تذهب الأمم إلى الحرب، إن لم تكن تريد أن تؤمن تلك الأشياء ذات اللحم والدم؟ لكن آخرين يقولون بأن الماعز ليس ثروة. فما دام التعبير عن الثروة بالأبقار والماعز، فإن الأبقار والماعز بحد ذاتها ليست الثروة.

الثروة كانت في الأرض، وفي الغلال التي تأتي بها بدا الإنسان. ألم يعرفوا الحكمة القائلة بأن الثروة هي يدا الإنسان؟ انظر إلى الرجال البيض: استولوا أولاً على أرضنا، ثم على شبابنا، ثم على أبقارنا وأغنامنا. آنذاك يرد الجانب الآخر: لا، لا... الرجل الأبيض استولى أولاً على الأرض، ثم على الماعز والأبقار، مدعياً بأن ما فعله ضرائب أكواخ، أو غرامات بعد كل صدام مسلح، ولم يقبض إلا أخيراً على الشباب كي يعملوا في أرضه.

لكن خط التقسيم ليس بهذا الوضوح دائماً، ما دام بعضهم يملك حقولاً وماشية في الوقت نفسه، هؤلاء يقولون إن الحقول والماشية مهمة على حد سواء: المرء يدفع ماعزاً من أجل فتاة، هذا حق، لكنه يبحث عن الفتاة التي لا تهاب العمل. ولم يحتفظ الأغنياء بمساعدين؟ ليس فقط لرعي الأبقار والماعز، ولكن لرعاية الغلال أيضاً. الأجنبي القادم من أوروبا كان خبيثاً: استولى على أرضهم، وعرقهم، وثروتهم، وقال لهم إن النقود التي جاء بها، والتي لا تؤكل، هي الثروة! وهكذا يمتد النقاش.

أما منيرا فلا يشارك في نقاش كهذا، إنه يشعر بأنه غريب على قضايا الأرض، وما يسمونه «أشياء الدم». كل حديث عن الكولونيالية يضايقه. كان يحس فجأة بأنه لم يفعل شيئاً، ولم يرد أن يفعل شيئاً، وبأن قدره أن يطوف هذا العالم وحيداً، غريباً. لكن لم هذا التقبل الفوري لعلاقة لا يستحقها، لم هذا السرور الخفي بأنه واحد منهم؟

يحاول أن يغير الموضوع. من هو نائبهم؟ ويستعر النقاش. بعضهم لا يتذكر اسمه. لقد سمعوا به أثناء الانتخابات الأخيرة. إذ زار المنطقة سعياً وراء الأصوات، ووعدهم كثيراً. بل لقد جمع شلنين من كل بيت في دائرته الانتخابية، من أجل مشروع إسالة ماء هارامبي، ومشروع تربية ماشية. لكنهم لم يكد يرونه مذّاك. وتذكر أحدهم اسمه: نديري واريرا. م، النائب؟ نموذج جديد من الوكيل الحكومي؟ لكن... لم يَحتَج إلى أصوات؟ حتى مثل هذا الحديث يجعل منيرا يتململ. حينها، يسأل أسئلة أخرى آملاً في حديث يجنبه اختيار هذا الجانب أو ذاك في السياسة. ألا يزورهم أحد من الخارج؟ بلى... كان يأتيهم معلمون. لكنهم هربوا (عائدين إلى المدن) قبيل الاستقلال. أما الآخرون الذين جاؤوا، فيما بعد، فلم يقيموا البتة. وفي أواخر كل موسم، يأتي التجار بشاحناتهم. يشترون قسماً من المنتوج. وأحياناً، في مطلع كل سنة، يأتي الرئيس، جامع الضرائب، مع شرطي، فيرعبان الناس، ويرهبانهم كي يدفعوا الضرائب، وهكذا تذهب النقود المأخوذة من التاجر الموسمي إلى يدي جامع الضرائب. لكن هذا ليس بالجديد. فقد كان الأمر هكذا دائماً، خلال هذه السنين الماضية. لكن الشيء الأكثر إيلاماً هو هجرة الشبان من أراضيهم. بدأت الهجرة بعد الحرب العظمى الثانية... لا... قبل ذلك... لا... كان الأمر أسوأ بعد حرب الماو ماو... لا... إنها السكة الحديد...

حسناً... حسناً... لقد حدث الأمر منذ جاء المستوطنون الأوروبيون في وسطهم، تلك الأشباح من العالم الآخر. لكن أهل المورزوغ... عليهم الآن أن يجدوا وسيلة للتملص من الضرائب تلك... سياسة! وفكر منيرا: ألا يستطيع المرء النجاة من هذه الأمور؟ كان منيرا نافد الصبر.

توصل إلى أسلوب عمل: تدريس طيلة النهار. مسير إلى الجبل، ثم التمشي إلى دكان عبد الله. ومع الزمن، صار حتى عبد الله يتقبله، ويلعن جوزيف كي يسرع في جلب كرسي للمعلم، بمجرد رؤيته منيرا مقبلاً من بعيد. لكن نبرته في الحديث ـ بين العداء الودي وقلة الاحترام العابثة ـ ظلت عصية على الهضم، بينما منيرا يحتسي البيرة في أرض الأحلام السهلة هذه. إلا أن عبد الله يقع بين حين وآخر، في نوباته المزاجية الشريرة، فيذكره باستقباله الأول في المورزوغ. آنذاك يميل عبد الله عليه، ويتخذ صوته النبرة الحميمة لتآمر مزيف:

«هؤلاء الناس ـ وأنت تدري ـ جد شكاكين. ألم تر إلى وجوههم القلقة مرفوعة نحو السماء؟ أراهن أن السماء لو حبست مطرها لألقوا اللوم على حماري. بل إنهم سوف يذهبون إلى موضع مواتي ليسألوه عن الحمار. ألم ترد قسيسهم؟ سرًّ... وحتى إلى نجوغو العجوز... إنهم لا يحبون حماري.

أتدري ما السبب؟ يقولون إنه يأكل من الحشيش بقدر بضع بقرات. والحمار لا يمكن ذبحه. لكني أعرف أنهم يحسدون حماري على شهيته. فهو يأكل حتى الجذور، ويستطيع أن يجد الماء حيث لا تستطيع بقرة أو معزى. لهذا ترى تلك النظرة في عيون هؤلاء الناس. أرأيت عيني المرأة العجوز؟

الوميض... الشر... ألا تعتقد هذا؟ يجب أن تعلم. لكن، أخبرني أيها المعلم... أحق أنها خرأت جبلاً في مدرستك؟ وظن الصغار أنك الفاعل؟ ها! ها! ها! جئت بكل ذلك الـ... من هناك؟ ها! ها! ها! ها! جوزيف ـ أيها الكسول ـ ألقيت يوماً، زنجياً صغيراً كسولاً كهذا؟ بيرة أخرى للمعلم ـ لكن قل لي أكان الأمر حقاً؟»، آنذاك يقول منيرا محاولاً إبعاد الحديث عن هذه المنطقة الحرجة: «ما دمت ذكرت مسألة التعليم، لماذا لا تدع جوزيف يسجل في المدرسة؟». «وآتي بحماري إلى هذا الدكان ليقوم داخله بما يقوم به في الخارج؟».

باستثناء إزعاجات صغيرة كهذه، أمسى منيرا يحب الموروغ، بل إنه يميل الآن حتى إلى ملاحظة العالم الآخر، عالم زوجته ومزيغو وأبيه، بالشك والعداء. لم يعد يستطيع البقاء في داره أكثر من ليلة واحدة، إذ طالما شعر فجأة بأنه «غير متورط» وبأن بقاءه هناك يهدد هذا الشعور. أما أسئلة مزيغو الروتينية فقد بدأت تثير ردود فعل جدية في ذهن منيرا: لم لا يفي بوعده فعلاً، فيزور الموروغ؟ وقد هيأ منيرا جواباً روتينياً:

«ليذهب ذلك المكان إلى الجحيم!»، وهو يأمل في أن يكون هذا الجواب رادعاً لمزيغو عن زيارته. ما كان يقبل أن يتدخل أحد في طبيعة تدريسه، وفي عالمه. فهو يطلب من تلاميذه أحياناً أن يغنوا أغاني سخيفة مثل: ميوري ني أندو، نغومبي ني أندو، مبيكاني أندو، نغاي موهياني. ويقدم لهم أحياناً أخرى مسائل في الجمع والطرح، ويتركهم ليتمشى في الشمس.

وأنه ليراقب الفلاحين في الحقول، يقومون بشارات عمل، لكنهم في الحق ينتظرون المطر، ولسوف يشعر، شعوراً غامضاً، بقلقهم. لكن الشمس كانت لطيفة دافئة على بشرته، وهو سيمتلئ، بغتة،

بسعة في القلب، تجعله يعانق الموروغ كلها، رجالاً ونساء وأطفالاً، وأرضاً... إن بيته بعيد، ومشكلاته بعيدة... جد بعيدة!

شرع المطر يهطل في مطلع نيسان. تألقت عيون الكبار بآمال حياة جديدة في الموروغ: لكأن وجوههم المغضنة تنبسط، وتقوى بدفق الطاقة. الكل مشغول بالحقول، موتوري، نجوغونا، رورو، نجوغو: حتى هؤلاء، لم يعودوا، لوقت ما، يزورون دكان عبد الله، إذ كانوا متعبين من مشاغلهم في الزرع، أو في دفع أبقارهم وماعزهم في الحقول الموحلة.

لقد مضى حينٌ من الدهر كان فيه الرجال لا يزرعون إلا اليام وقصب السكر والموز، لكن الزمن يتبدل، ولم يعد الكبار قادرين على منع الشباب من الذهاب بعيداً. هكذا ظل منيرا، في فترة الغرس، يشرب وحيداً، إلا من عبد الله وجوزيف، مفتقداً حديثهم وشائعاتهم وحكاياتهم، وحتى تعليقاتهم ومناقشاتهم حول قضايا معلقة.

كان يمضي إلى منزله، ماشياً، أو على دراجته، غريباً عن أنشطتهم الأرضية، حزيناً، مهجوراً إلى حد ما.

أما النساء فلا يحظى منهن إلا بتحايا متعجلة، وهن يندفعن إلى الحقول تحت زخات المطر الثقيلة.

لكنه حاول أن يفهم، بل لقد أعد درساً من هذا كله: إذ قال للتلاميذ: «ثمة كرامة في العمل»، وجعلهم يغنون:

الأبقار ثروة

العمل صحة

الغلال ثروة

العمل صحة

المال ثروة

العمل صحة

الله الوهاب

الله جالب المطر!

* * *

شعر، بعد ستة شهور، كما لو أن الموروغ هي ملكه الشخصي: كان شيخاً إقطاعياً لبيت كبير، أو سيداً من سادة المباري يفتش ضيعته، ولكن دون وجع الرأس الناتج عن حساب الأرباح والخسائر، والماعز المفقودة، والماعز المولودة. حين جاءت الأمطار، وتفتحت البذور، ثم حين انفتحت الزهور في حزيران، أحس بالموروغ تلبس رداء مفوف الزهور، لترحب بسيدها ومولاها خرج بالتلاميذ إلى الحقول كي يدرسوا الطبيعة، مثلما قال. قطف أزهاراً، وعلَّمهم أسماء الأجزاء المختلفة: الميسم، المدقة، اللقاح، التويجات. حدثهم قليلاً عن الإخصاب. صاح أحد الأطفال: «انظروا. زهرة بتويجات دم». كانت زهرة فاصولياء حمراء وحيدة، في حقل تملؤه الأزهار البيض والزرق والبنفسجية. كيفما نظرت إليها خيل إليك أنها تتدفق دماً. انحنى منيرا عليها، واقتطفها مرتعش اليد. ربما كان السبب لعبة انعكاس النور عليها، إذ هي الآن زهرة حمراء عادية.

«لا يوجد لون اسمه الدم. تريد أن تقول إنها حمراء. أترى؟ يجب أن تتعلم أسماء ألوان قوس قزح السبعة. الأزهار مختلفة الأنواع،

مختلفة الألوان. الآن أريد أن يقتطف كل واحد منكم زهرة... احسبوا عدد التويجات والمدقات وأروني اللقاح...».

وقف ينظر إلى الزهرة التي كان قد قطفها، ثم رمى التويجات الميتة. لكن ولداً آخر صاح:

«وجدت زهرة أخرى. تويجات الدم ـ أعني تويجات حمراء... ليس فيها ميسم ولا مدقات... لا شيء بداخلها». ذهب إليه، وأحاط به الآخرون، قال له وهو يتناول الزهرة: «أنت مخطئ، فهذا اللون ليس حتى أحمر... فهو يفتقد امتلاء اللون في الزهرة الأخرى. إنه أحمر مصفر. قلت الآن، لا شيء بداخلها. انظر إلى العنق. أترى شيئاً؟». صاح الأولاد: «نعم... الدودة، دودة خضراء ذات أذرع وأرجل عديدة». قال منيرا: «صحيح. زهرة أكلها الدود. زهرة لن تثمر. لهذا يجب علينا أن نقتل الديدان دائماً. يكون للزهرة مثل هذا اللون أيضاً، إذا حرمت من النور».

كان فرحاً بنفسه. لكن التلاميذ بدؤوا يسألونه أسئلة أخرى مزعجة: لماذا تأكل الأشياء بعضها البعض؟ لماذا لا يستطيع المأكول أن يأكل ثانية؟ لم سمح الله بأن يحدث كذا وكذا؟ لم تضايقه هذه الأسئلة، لكنه أسكتها جميعاً حين أخبرهم بأن هذه الأمور هي قانون الطبيعة. ما هو القانون؟ ما هي الطبيعة؟ ما هو الإنسان؟ ما الله؟ القانون ببساطة هو القانون، والطبيعة هي الطبيعة. وماذا عن الناس والله؟ أيها الأطفال... حل وقت الفرصة.

الإنسان... القانون... الله... الطبيعة: لم يفكر البتة، تفكيراً عميقاً بهذه الأمور، وأقسم أنه لن يأخذ التلاميذ ثانية إلى الحقول، فهو داخل الجدران الأربعة، سيد، سام، يقدم المعرفة إلى مجموعة

وجوه متطلعة إليه. هناك يستطيع أن يتجنب الانجرار... لكنه، في الحقول، خارج الجدران، لا يشعر بالأمان. مشى إلى شجيرة الأكاسيا وشرع يكسر أطرافها الشائكة. وتذكر أن متاعبه الأولى هنا بدأت حين أخذ الأولاد إلى الحقول. كم أفزعته نياكينيوا! وحين فكر بالأمر، التفت بصورة غريزية إلى الموضع الذي وقفت فيه يوماً تسأله عن المدينة والسيدات ذوات الكعوب العالية.

للحظات، توقف قلب منيرا عن الخفقان: لم يكد يصدق عينيه. حادت عن طريق القرية، وسارت نحوه. رداء زاهي اللون، معقود على رأسها يتهدل واسعاً على كتفيها بحيث يحجب وجهها نصف حجاب عن الشمس.

نادته بجسارة: «أأنت بخير يا معلم؟».

كان في صوتها نقاء حي مدروس. النبرة غنية ولذيذة الوقع في المسمع. كان في مشيتها ارتخاء محسوب، حين مدت إليه يداً صغيرة، ونظرت في وجهه محدقة، ثم غضت من بصرها، فجأة، في استحياء طفولي. ازدرد شيئاً قبل أن يجيب.

«أنا بخير. الجو ساخن قليلاً.. مع هذا».

«لهذا جئت هنا».

«إلى الموروغ؟».

«لا... إلى بيتك، ألديك شيء من الماء تستغني عنه؟ أنا أعرف أن الماء كالذهب في هذه الأماكن».

«السماء أمطرت مؤخراً، ونهر الموروغ ممتلئ».

قالت صادحة «... إذاً، جئت في المكان المناسب».

تمـوج صـوتها وكلماتهـا، تموجـاً مـتمهلاً في الهـواء، مدغـدغاً الصمت المفعم بينهما.

قال «ادخلي البيت».

كان الماء في قدر فخار، بزاوية غرفة الجلوس، تحت رف الكتب. شربت من كوب، وراقب الحركة الدقيقة لتفاحة آدمهـا... كـان عنقهـا طويلاً جميلاً: غزالة سهول المورّوغ.

قالت وهي تلهث قليلاً: «زدني...».

قا لها: «ربما أردت شيئاً من الشاي. يقولون إن الشاي يبرد الدم في الجو الساخن، ويسخنه في الجو البارد».

«الشاي والماء يذهب كل منهما وحده إلى مريء. أريـد الآن كـوب ماء آخر. أما الشاي فلا تتعب نفسك به».

قدم لها كوب ماء ثانياً. وأراها مكان عدة الشاي. أحـس بأنـه كـريم النفس، بل دافئ المزاج. لكنها أزاحت هذا المـزاج بـضحكة جـسور، نظر غريزياً إلى زمام سـرواله، فـرآه مغلقـاً. كانـت تقـول: «الرجـال، الرجال... إذاً: صحيح ما يقال عنـك في القريـة... أنـت فـتى أعـزب. مقـلاة واحـدة. صـحن واحـد. سـكين واحـدة. ملعقتـان. كوبـان: ألا يزورك أحد؟ أليست لديك فتاة للمعلم؟».

سألته هذا السؤال، بينما التمع بريق خبيث في عينيها.

«كم مضى عليك هنا؟».

«جئت مساء أمس».

أمس! وها هـي ذي تعـرف كـثيراً عنـه. كـان متـوتراً... رأى أمـان الشهور الستة مهدداً: ماذا يقولون عنه، حقاً، في التربة؟ ألا يمكـن أن

يغسله شيء من الشكوك... من الجهل؟ أعتذر منها. ومضى نحو الصف. دعها تتجسس عليه، على أفعاله، ومنحته الفكرة المتحدية راحة لحظة: ماذا يهم؟ فما هو سوى غريب، مقدر له أن يراقب، وهو ماش في سبيله... وليس الرجل الذي يجعل الأشياء تصير.

سمع خبط أقدام وخشخشة كتب. كان الصغار يتفردون على المشهد كله من النوافذ وشقوق الجدار. وقد أكد انكبابهم المبالغ على كتبهم، شكوكه. الآن وجه السؤال إلى نفسه: ما رأي الأولاد به حقاً؟ ثم استبدل به سؤالاً آخر: ماذا يهم الرأي، إن كان بهذه الصورة، أو تلك؟ لقد درس سنوات طويلة ـ ربما كان التدريس جاهزاً في دمه ـ والمرء مصيب ما دام يحذر الانجرار إلى... إلى... منطقة ظلام... أجل... ظلام مجهول... ظلام لا تمكن معرفته... مثل الأزهار ذات تويجات الدم، والأسئلة عن الله، والقانون. ليس باستطاعته أن يدرّس الآن. صرف التلاميذ قبل دقائق من الموعد، وعاد إلى البيت. أراد أن يسأل الفتاة الغريبة أسئلة أخرى: ما اسمها؟ من أين جاءت؟ وإلى غير ذلك من أسئلة موجهة بعناية، ولطف، حتى تبلغ ما لا بد من بلوغه: أترى أرسلها مزيغو كي تتجسس عليه؟ لكن لماذا يخاف من أن يراه أحد؟

وجد الأرضية قد كنست، والصحون نظيفة موضوعة على عصوين كي تنشف. أما هي فلم تكن هناك.

2* حياة منيرا في الموروغ، كانت حتى الآن غسقاً مستمراً. ليس فقط بسبب تقدير القرية العالي، وإنما أيضاً بسبب تقديره هو لمرأى النسوة وهن ينبشن الأرض حتى كأنهن متحدات والأرض الخضراء. ظل يتذكر فترة هطول الأمطار تلك، حين خرج الجميع إلى الحقول الموحلة، والأكياس على رؤوسهن، لا حماية من

المطر، بل احتضاناً لسقوطه على أجسادهن. كن جميعاً مشغولات بوضع البذور في التربة، وكان يراقبهن من مأمنه في الصف أو دكان عبد الله!

عليه الاعتراف بأن ثمة جانباً قاسياً في الأمر. قليل من الطرق المعبدة، وإسالة ماء معتمدة، سوف تحسن حياتهم. كما أن المستوصف سيكون إضافة نافعة.

الأطفال بخاصة، كانوا منظراً يبعث على الغثيان: الذباب مكدس على عيونهم المتورمة، وأنوفهم التي يملؤها المخاط. وأغلبهم ليس على جسمه سوى قطعة خام مهترئة.

لكنهن يعتنين ببعضهن. فكثيراً ما شاهدهن، في ثلاثي بديع: واحدة تهز الطفل الباكي المشدود إلى ظهرها، والثالثة تهدهده بيديها على إيقاع تنويمة:

لا تبك يا صغيرنا.

فمن تراه يضرب الصغير...

يكون ملعوناً، وفي جسده الأشواك.

فلو سكت يا صغير أمنا.

فسوف تأتي... تبلغ البيت، من الحقول.

وسوف تأتيك بقرعة الحليب.

إن إصواتهن المرتفعة في نغم واحد، تؤكد العزلة التي عرفها في بيته الريفية. وهي تذكره بأغاني تنويم الأطفال وهدهدتهم، في حقول أبيه، حيث زهرة حشيشة الحمى، قبل أن يأتي عنف الماو ماو.

القرية لم تتدخل في شؤونه: فلماذا يتدخل في شؤونها، وهو المراقب الغريب عند البوابة؟ اليوم، وهو يسير إلى دكان عبد الله، كان يحس بأنه غير مرتاح نوعاً ما، من ذلك الطفل المراوغ الذي عبر سبيله. إلا أن جبل المورروغ كان هادئاً، ساكناً: ليكن، ليكن، عالم بلا انتهاء. هكذا غمغم مع نفسه. حين كان يوشك على أن يطرق الباب الخلفي لدكان عبد الله، أحس بالدم يندفع إلى رأسه: أحس، للحظة، كان دماغه مخّدراً... ربما... إنه ليس بهذه الدرجة من الكبر... الجحيم... أجل... الجحيم امرأة... الجنة امرأة. صلب نفسه، ودخل: قالت له: «هذا هو مَخْبَؤُكَ الثاني يا معلم. ها أنت ذا ترى أنني أكتشف أسرارك».

قال وهو يجلس: «ليس هذا بالسر... آتي لأبل ريقي فقط».

«لقد طرد شايك ظمئي. كان جيداً حقاً ـ».

«لكن البيرة أفضل من الشاي. أسألي عبد الله يخبرك. ألا تريدين زجاجة ثانية؟».

قالت ضاحكة، ملقية رأسها إلى الخلف، ونهداها يندفعان في تحد مهلك: «لن أرفض هذا»، ثم استدارت إلى عبد الله: «يقولون إن لم تشرب نصيبك في الدنيا، كان لك الكثير في الآخرة».. صاح عبد الله بجوزيف ليجلب مزيداً من البيرة. ونط هو نفسه، وجاء بقنديل زيت، نظف الزجاجة، وأضاء القنديل، وجلس يشرب.

سأل منيرا المرأة: «ما اسمك؟».

«وانجا».

وتدخل عبد الله «وانجا كاهي».

«كيف عرفت هذا؟ هكذا كانوا يسمونني في المدرسة. كثيراً ما كنت أتصارع مع الأولاد. كما أقوم بتمارين لا يقوم بها إلا الأولاد. عربة الدفع. كنت أجمع ثوبي، وأمسكه بشدة بين ساقيّ. كما كنت أتسلق الأشجار».

وردد منيرا: «وانجا... وانجا... ولست بحاجة إلى آخر؟».

«لم أطلب، ربما كان عليّ أن أطلب. لم لا؟ جدتي تعرف».

سألها عبد الله: «من جدتك؟».

«نياكينيوا، ألا تعرفانها؟ هي التي حدثتني عنكما، أنتما الاثنين، وقالت إنكما غريبان في الموروغ».

قال منيرا غير متأكد: «إنها معروفة».

وأجاب عبد الله «نحن نعرفها».

أضاف منيرا: «أظنك جئت تزورينها؟».

قالت مسرعة، وبصوت لا يكاد يسمع: «نعم».

ثم ران صمت.

سعل عبد الله، وصفى حنجرته، واستدار ناحية منيرا... مائلاً عليه، متخذاً ذلك الجو المتآمر. تصلبت معدة منيرا وهو يرى ذلك البريق الماكر في عيني عبد الله. أيريد أن يحكي الحكاية؟ أيريد؟ وأحس، فجأة، بحقد قاتل في داخله: وفي الوقت نفسه، بحث مستميتاً عن كلمات مناسبة يتفادى بها الضربة القادمة. سأل عبد الله، بصورة غير متوقعة: «أتعتقد، يا معلم، إنني أكبر سناً من أن أدخل مدرستك؟».

وقد ارتاح منيرا للسؤال، بحيث أطلق آهة ارتياح.

وأضاف عبد الله: «سوف أقنع وانجا أيضاً بدخول المدرسة. ولا أبالي بأن أتصارع معها على الأرض، أو أن نلعب عربة الدفع سوية».

ضحكت وانجا، واستدارت بوجه متجهم إلى منيرا: «هذا الرجل؛ ذو الساق المقطوعة... شرير، لكنني قادرة على أن أطرحه أرضاً ألف مرة».

جاءهم جوزيف بمزيد من البيرة.

دهش منيرا للتبدلات الدقيقة السريعة التي تتوالى على وجهها: من ملمح ضحكة طليقة، إلى تجهم غير واع، وهكذا... لكن الوجه، يظل، بالرغم من هذا، لا يتبدل تبدلاً أساسياً.

«ماذا أستطيع أن أعلم رجلاً وامرأة كبيرين؟».

قال عبد الله: «القراءة... الكتابة... نطق اللغة الإنجليزية من الأنف».

ورن صوت وانجا: «والجغرافيا، وتاريخ البلاد البعيدة».

«ماذا ستفيدان المدرسة؟ إنكما ستجعلان التلاميذ متمردين. كان أحد أساتذتي يقول: الضبط يخلق مدرسة».

قال عبد الله: «اجعلنا تلاميذ مساعدين».

«مراقبي صفوف، يكتبون أسماء التلاميذ المشاغبين».

«أو أسماء أولئك الذين ينهشون ظهور معلميهم».

«أو الذين يدخنون».

«أو الذين يكتبون رسائل إلى الفتيات... لكني أعرف سبب خوف المعلم من تسجيلنا. فقد نقود إضراباً... سيكون ثمة شغب. يسقط المعلمون! وسوف تغلق المدرسة و...».

وظل عبد الله مأخوذاً بأضرابه المدرسي... فكرة بعد فكرة، وصورة إثر صورة.

وتابع: «أعرف مدرسة أضرب فيها التلاميذ، لأن أحد المعلمين صادر رسالة حب».

وفجأة، استحثته، بصورة لا تقاوم، فكرة أن يروي حكاية مدرسة كادت تغلق، بسبب الشك في أن مديرها خرأ خرأة كالجبل. وأوشك أن يبدأ الحكاية لولا تذكره أن نياكينيوا هي جدة وانجا. كما لاحظ أن وانجا ومنيرا كانا هادئين، جد هادئين. ويبدو أنهما قد انسحبا، دون سبب معروف، وقبل دقائق، من جو السكر. نظر من وجه إلى آخر: ما الخطأ؟ اضطرب نور القنديل. وعبرت أشباح على الجدران: عبرت أشباح على الوجوه. بل ربما... على حياتهم. وفكر عبد الله: مهما يكن الأمر فإن الاثنين غريبان عنه، المورورغ وحدها هي التي جمعتهم. كان صوت منيرا، حين انطلق خلل ظلال الصمت، متأملاً، صاحياً... لكن مريرا في الداخل.

3* بدأ منيرا يتحدث، بطيئاً، محدقاً في الأرض، منغمراً بأفكار لم يعرف أنها لديه، متكلماً عن ماض ينبغي أن يكون منسياً، عابراً وديانا وتلالاً وجبالاً وسهولاً تعود إلى بداية موته:

أن يجعلوا منك تلميذاً مساعداً، يعني أن تكون قادراً على لعق أحذية من هم فوقك، على غسل الصحن حتى يعود أكثر بريقاً من الأصل، أو، كما كنا نقول في سيريانا: عليك أن تبز المسيح في صلوات الإخلاص. سيريانا: كان عليكما أن تكونا هناك، في أيامنا، قبل وأثناء فترة رقصة الموت الأوروبية المكلفة، وحتى بعدها: قد تقولون أن حيواتنا الصغيرة بمخاوفها وأزمانها جرت على أرضية تغيرات واضطرابات هائلة، مثلما تمكن رؤية ذلك من الأسماء التي

أطلقت على الفترات بين نيابـاني وهيتريـا: موومبوكـو... كـارانجي، بوتي، نغونغـا، مؤثـو، نغـاراغو يامايانغـا، بـاميتي، غيـسينا بـانغي، كوغيني ـ مبوراكي.

لكنكما تفهمان بأننا كنا مصونين مـن هـذا كلـه في سـيريانا، الـتي كانت مدرسة ابتدائية وثانوية داخلية.

لكني أشرد. إذ لا أسـتطيع، البتـة، أن ألعـق حـذاء أحـد، ولا أن أغسل الصحون بحيث تلمـع أكثـر مـن اللمعـان، أو أن أبـز يـسوع... إيه... أيها السيد المسيح. أؤكد لكما أنني لم أكن متفوقاً في أي شـيء. في الصف أنا متوسط. في الرياضة أنا ضعيف ـ لم أكن أمتلك الإرادة. كان طموحي ورؤياي، خلاف جوي، لا يوصلاني إلى أبعد مما قـدره الرب لي. اعتاد جوي القول، متمثلاً بكاتب اسمه ولـيم شكـسبير، أن الطموح يخلق من مادة أكثر صلادة. جوي نفسه كان مخلوقاً مـن مـادة أكثر صلادة من معظمنا. كان شاباً فارعاً ذا خدين ناتئين، ووجه قـاس نوعاً ما، وشعر أسود كاب، لكنه مفروق الوسط جيداً. كان دقيقـاً في الأمور بأسلوبه الخاص، من التمثل بشكسبير حـتى ارتـداء الملابـس. حتى زي المدرسـة، المكـون مـن سـروال رمـادي، وقمـيص أبـيض منـشى، وسـترى زرقـاء، وربطـة عنـق تحمـل شـعار المدرسـة «الله والإمبراطورية»، حتى هذا الزي يبدو كأنه فصل خصيصاً له.

كان جوي هو الذي أدخل للمرة الأولى، دبوس ربطـة العنـق، إلى المدرسة: وغدا الدبوس موضة.

وكان أول من لبس سروال الرياضة القصير، والأزرار إلى الأعلـى. وصار الأمر موضة.

كان نجم الرياضة، في كل شيء: جوي هذا، جوي ذاك، جـوي،

جوي، في كل مكان. لقد شد عضلاته، نسيم الجبال، الذي وجد فيه المستوطنون الإنجليز مناخ بلادهم: كانت متعة حقيقية أن تشاهده يلعب كرة القدم، ويتلاعب بالكرة في تمريرات مفاجئة، يميناً وشمالاً، كي يغافل خصماً. وكان جمهور المشاهدين يصرخ حتى يبح الصوت.

وظل شكسبير معه، حتى سمعنا، عن طريقه، اسم جوليوس، ومآثره في الحلبة. آنذاك أصبح جو، خاصة حين يلعب فريقنا ضد فريق أوروبي. جو، جو هزّهم، هزهم: أن أخطأت الكرة فلا تخطئ الساق. كانت تلك لحظته المفضلة. حينها يكون لعبه كاملاً. أعتقد أنه كان نحن في تلك اللحظات، نلعب ضد المستوطنين البيض.

واليوم، حين أستعيد هذه الأمور، أستغرب من أننا، مع كرهنا الشديد للبيض، لم نفكر أبداً بالموقر هالوز ايرونمونغر، باعتباره رجلاً أبيض. كان، بالرغم من اسمه، رجلاً مسناً لطيفاً، يبدو مزارعاً، أكثر منه مديراً تبشيرياً. كان كثير النسيان، غالباً ما ينسى عباءته السوداء المذهبة في الصف أو المصلى. كان يتمشى في الممرات المعشبة، يداً بيد، مع زوجته المقوسة الساقين - واعتدنا القول أنَّ زوجته لو صارت حارسة مرمى، لمرقت الكرات كلها من بين ساقيها - كانا مثل حاجبين يستريحان على الأرض قليلاً، قبل أن يواصلا رحلتهما إلى الجنة، حيث سيظلان هناك، إلى الأبد، يحرثان حقول القطن الأبيض، ويشربان الشاي بالحليب، ويأكلان الشوكولاتا بالفانيلا. الموقر أيرونمونغر أحب جوي، واعتاد أن يسميه شكسبير (لا جوليوس) بحنان كان مثار استغرابنا جميعاً. كانا يصطحبانه في جولات ريفية طويلة، بسيارتهما البدفورد، الكثيرة الاختناق. كما يصطحبانه إلى الحفلات الموسيقية، وعروض الدمى في المدينة. ربما

كان الابن الذي افتقداه. لذا لم ندهش، حين غدا كابتن المدرسة، وهو في السنة الثالثة، بينما كان هذا المنصب وقفاً على الذين في السنة الرابعة. حدث هذا، بالضبط، قبل أن يتقاعد الزوجان ايرونمونغر، ويذهبا إلى بيتهما، في مكان ما بإنجلترا، ينتظران موتهما، كما علق بعض الطلبة دون لياقة، ويأتي إلى المكان كيمبردج فرودشام. وقبل أن نجد وقتاً للتعرف عليه، غيَّر حياتنا. فهو القادم لتوه. من الحرب، كانت لديه انطباعات حازمة عما ينبغي أن تكون عليه مدرسة أفريقية. الآن، يا أولادي، لا داعي للسراويل، في المنطقة الاستوائية. وخطط صورة لأفريقي غليظ الشفتين يرتدي بزة صوف رمادية، وخوذة لاتقاء الشمس، وياقة صلبة منشأة، وربطة عنق، ثم ضحك ضحكة ازدراء: لا تحاكوا هذا الرجل. لن نأكل الرز في وجباتنا: فالمدرسة لا تريد أن تخرج رجالاً يعيشون بأقل من وسائلهم. ولا أحذية، يا أولادي، إلا يوم العبادة: فالمدرسة لا تريد أن تخرج أوروبيين سوداً، بل أفارقة حقيقيين لا يستصغرون براءة أسلافهم، وطريقة حياتهم البسيطة. وفي الوقت نفسه علينا أن ننشأ أقوياء بالله والإمبراطورية، فهما اللذان خلصا العالم من خطر هتلر.

وهناك قوة الخدمة: الرياضة، سباق الجري عبر الريف، الحمام البارد في الخامسة صباحاً، هذه كلها غدت إجبارية. كنا نحيي العلم البريطاني كل صباح، وكل مساء، على الأنغام العسكرية للأبواق والطبول من فرقة المدرسة. ثم نسير في صفوف عسكرية إلى المصلى، لنرفع أصوات الكورال إلى الخالق. اغسلني أيها المخلص، لأكون أشد بياضاً من الثلج. حينذاك نصلي لاستمرار إمبراطورية قهرت الشر الذي اندلع في أوروبا، ليجرب أبناء الله.

جوي ـ ومن سواه؟ قادنا في إضراب. أردنا أن تعود لنا كل

حقوقنا. لم نقبل بسراويل الخاكي القصيرة، ولا بالمبوكا والبقول الأخرى، بغض النظر عن مقدار البروتين في الحشرات. ثم لماذا تحظى الفرق الأوروبية بالجلوكوز وعصير البرتقال، بعد الألعاب، بينما لا يقدم لفرقنا إلا الماء وحده؟ أعيدوا الموقر أيرونمونغر! هكذا هتفنا.

الآن، أدهش لما تولاني. ربما كان انفعال الساعة. لكنني، خلال تلك الأيام الثلاثة التي رفضنا فيها أن نحيي العلم البريطاني، شعرت بأنني فوق المستوى المتوسط، وبأن عليّ أن أتقدم الصفوف.

أنا وجوي وخمسة آخرون، طردنا من سيريانا. بينما عاد الآخرون إلى صفوفهم، بعد أن زحف على المدرسة شرطة مكافحة الشغب، مسلحين بالهراوات والغاز المسيِّل للدموع والدروع.

لقد تصرف فردوشام، بشدة... وانتصر. توقف منيرا. غدا صوته ضعيفاً شيئاً فشيئاً، مع استمرار السرد. لكنه اكتسب وزن التحديق الداخلي وقوته. لم يدرك تماماً، كيف أن حادثة مدرسية في أوائل الأربعينيات يمكن أن تكون بهذا القدر من الحياة، حاملة حتى الآن ألم جرح طري. ربما أثمله الشراب وحضور وانجا... وربما شيء آخر. رفع وجهه من ماضي أيامه المدرسية، ونظر إلى تهاويل الظلال على الحائط. تنحنحت وانجا كأنها تريد أن تقول شيئاً، لكنها لم تتكلم.

نادى عبد الله، جوزيف، كي يغلق النضد. استمر منيرا في حديثه: بعد زمن، سمعت أنباء عن وجود جوي في جنوب أفريقيا، ثم في أميركا. بالنسبة لي كانت الفترة كلها درساً. الطموح يجب أن يخلق من مادة أشد صلادة. الانسحاب داخل النفس... إلغاء شخصيتي أمام

جمع يطالب بالانحياز العاطفي لقضية ما، صار طريقتي في الحياة. دعني أبق مطموراً في التراب. لم يجب أن أكون شجاعاً؟

هكذا صرت أقول: أعطني صفاً، وبضعة تلاميذ منتبهين، واتركني وحدي!

بدأ عبد الله يشتم جوزيف، متسائلاً عن سبب تأخره في جلب مزيد من البيرة. جاء جوزيف بالبيرة مسرعاً. صاح به عبد الله، لينظف الطاولة، ويرفع ما عليها.

كان جوزيف في حوالي السابعة، عيناه واسعتان، لكن وجهه صلب، عديم التعبير. كان حضوره نوعاً من تحويل الاهتمام. نظروا إليه جميعاً. لاحظت وانجا قميصه المفتوق، كانت سريعة في ملاحظة ذلك، إذ بينما كان ينظف الطاولة ويرفع ما عليها، كان يتجنب إدارة ظهره ناحيتها. كانت الطاولة ضخمة، مشقوقة شقاً كبيراً في الوسط. حاول أن ينحني عبرها، لكنه لم يستطع بلوغ ناحيتها.

قالت: «هات قطعة القماش، سأساعدك».

«اتركيه يشتغل. إنه كتلة كسولة من الشحم والعظام العاطلة».

مع ذلك، تناولت قطعة القماش، ونظفت الطاولة كلها. وحين ترك الحجرة، شاهدت سرواله القصير ممزقاً عند المقعد... وفهمت. استدارت ناحية منيرا، وسألته: «أهو في مدرستك؟».

رد منيرا مسرعاً، وكأنه يريد التحلل من المسؤولية: «لا، لا». «لم لا؟». قال وهو يعب شرابه: «سلي عبد الله».

«انظري إلى ساقي: أنا لا أستطيع الجري حول الدكان على ساق واحدة. فلست ساحراً». بدا أن ذكريات مؤلمة أخذت تتسلل إلى أمسية بدأت بداية جيدة.

قالت وانجا بعد دقائق صمت: «اسمع يا عبد الله، سأكون هنا فترة من الزمن. دعه يذهب إلى المدرسة. سأساعدك في الدكان. لقد اشتغلت في عمل مماثل سابقاً. الآن عليَّ أن أنصرف. يا سيد منيرا، أخاف أن ألاقي ضبعاً في الظلام. رافقني إلى بيت جدتي».

ظل عبد الله عند الطاولة، ولم يرفع بصره، وهما يودعانه، وينصرفان. نادى جوزيف: «اذهب وأغلق الباب. هات بيرة أخرى، وانصرف». هذه المرة، لم يشتم عبد الله جوزيف، وكان في صوته نعومة.

4* خلال أسبوع، أضحت هي أيضاً واحدة منا، الموضوع الجديد لثرثرتنا. إنها حفيدة نياكينيوا، هذا أمر عرفناه ـ كانت غالباً ما تساعد المرأة العجوز في أعمال المنزل والحقل ـ لكنها ظلت سراً: كيف يمكن لامرأة من المدينة أن توسخ يديها؟ كيف تستطيع أن تحمل صفيحة ماء على رأسها الجميل، المتوج بكتلة من الشعر الأسود اللامع؟ وما الذي جاء بها، حقاً، إلى أبواب قرية المورروغ، بينما اعتاد الشباب أن يفروا بعيداً؟ أخذنا نراقب مجيئها وذهابها بفضول متعاظم: إذ ليس ثمة من عمل في الحقول غير تسوية كتل تراب قليلة... بينما نحن ننتظر الفاصولياء والذرة تنضجان، كي نبدأ الحصاد. كنا نقول إنها ستذهب.

اختفت في أحد الأيام. كنا واثقين من أنها لن تعود. كان هذا واضحاً في عيون الناس حين عادت بعد أسبوع، في سيارة بيجو بيضاء موسقة. أحطنا بالسيارة. كانت المرة الأولى التي نرى فيها سيارة حقيقية تقف عند أحد منازل المورروغ. وشعرنا بأن شيئاً ما يتحرك على جبلنا.

ساعدناها في إنزال الحمولة. كان السائق طيلة الوقت يلعن الطريق، قائلاً إنه لو عرف ما في الطريق، لما رضي بالإجرة التي اتفقا عليها. لم لا يستطيعون مد طريق صالح لعربات الماشية؟ تنحينا جانباً، لندع السيارة تمر. وظللنا نلوّح، ونلوح، حتى غيَّب الغبار السيارة في البعيد. تحوّل الآن انتباهنا إلى ما جلبته وانجا. كل قطعة صارت مدار حديثنا وتوقعنا: السرير ذو النوابض، ومطرح الاسفنج، أدوات الطبخ، طباخ الضغط الذي يسخن الماء بلا فحم حجري أو وقود خشب. لكن مصباح الضغط، في المساء، هو الذي استولى حقاً، على قلوبنا وتصوراتنا. سميناه نجمة الموروغ. وقال الذين سافروا وراء حدودنا إنه يشبه نجوم البلدة في روا ـ ايني، أو نجوم المدينة المدلاة من الأشجار اليابسة. سكنت في كوخ غير بعيد عن كوخ نياكينيوا، وحتى بعد أسبوع من سكناها، ظل الناس يتجمعون، مساء، قرب باحتها، ليشاهدوها توقد المصباح. لكن السؤال ما يزال قائماً:

لماذا الموروغ؟ أترى أبناءنا سيعودون إلينا جميعاً؟ وما قيمة القرية بدون شبابها؟

إلا أننا، في ليلة عودتها تلك، بقينا ساهرين خارج كوخها. اندفعت نياكينيوا في الجيتيرو، فيما شهرت به في الموروغ ووراءها: غنت بصوت خفيض مدائح لـ«نديمي» وزوجاته، الذين مرت عليهم دهور ودهور. النسوة الأخريات كن يزغردن في الفواصل. وسرعان ما أمسينا جميعاً نغني، ونرقص. الأطفال يطاردون بعضهم في الظلال، والشيوخ والعجائز يقدمون مشاهد إيمائية عن ماضي الموروغ السحيق. كان، في الحق، مهرجاناً قبل وقت الحصاد بأشهر قليلة، وقد أبدى المسنون فقط أسفهم لأنهم لم يهيئوا قليلاً من بيرة العسل

المباركة بريق مواثي واموغو، ليرحبوا بوعود البدايات الجديدة هذه. النساء الأخريات أومأن برؤوسهن موافقات. قالوا: «وجدت نياكينيوا من تعينها في اقتلاع الغلال، ومن بعد في الحصاد». «بل سوف نتبعها في الحق لنرى إن كانت تستطيع الفلاحة».

تبدل رداء الأزهار الذي يكسو ريف المورووغ، إلى قرنات فاصولياء خضراء وعرانيس ذرة.

فلاحو المورووغ يخرجون، هذه الأيام، إلى الحقول، ليتسلوا باقتلاع نبتات ضاقت بها الأرض، أو اقتلاع الأعشاب الضارة. وكانت الشوكيات والآذريون ونبت إذاً الفأر تتعلق بأثوابهم، بينما هم يتندرون ويروون الحكايات، وينتظرون نضج الغلال.

لكن ضحكهم كان يخفي قلقهم من تردي المحاصيل والموسم. حين تكون الغلة الوفيرة متوقعة، فالمعروف أنها تأتي بعد تواتر متوازن للمطر والشمس. أما الغلة الرديئة فتكون مسبوقة بأمطار متفرقة أو بأمطار ثقيلة مستمرة تنحسر فجأة أمام الشمس حتى بقية الموسم. وقد حدث الأمر الأخير هذه السنة. والواقع أنهم يشاهدون، الآن، قرنات الفاصولياء واللوبياء قصيرة: نبتات الذرة قصيرة، وعرانيسها متوقفة النمو قليلاً.

لكنهم ما يزالون ينتظرون النضج والحصاد، مؤمنين بأن الله هو الذي يعطي، وهو الذي يأخذ.

* * *

تنامي بين وانجا ومنيرا، بالتدريج، تفاهم بلا مطالب: لا شيء عميق، لا شيء يحطم القلب. وحدّث منيرا نفسه: أن وجودها معه يمنحه السرور. وشعر لفترة بأنه واثق، بل مصون. وبدا أنها تتقبل

اهتمامه المستمر بامتنان لعوب، كما لو أنها سوف تستغرب إن فعل شيئاً آخر. غالباً ما كانت تذكر الشاطئ، وملابس الرجال البيضاء، وبيرة المنازي الحليبية، وجوز الهند الأشعر الملقى على شواطئ الآحاد، والمنحدرات الخفيضة عند سيف البحر في ميناء كلنديني. تحدثت عن الأزقة العربية الضيقة في بلدة مومباسا القديمة، التي تنتصب فوقها «قلعة يسوع»... «إنه لأمر مضحك... تصور... إنهم يطلقون عليها اسم يسوع»... وحين سألها عبد الله إن كان صحيحاً أن بعض العرب يستطيعون أن يتحولوا إلى نساء أو قطط، ضحكت فقط، وسألته: «لكن... أي سواحلي أنت، حتى تؤمن بهذه الأمور؟ سواحلي مسلم... أيه؟». تحدثت، بتأثر، عن كل هذه الأشياء، كما لو أنها انغمرت في الحياة حيثما حلت: لكنها، من الناحية الأخرى، لم تعرض لحياتها الشخصية إلا نادراً، ولم تتكلم عن نفسها، وهو أمر لم يكترث له منيرا، فما هو بالرجل الذي يريد هتك الحجب عن ماضي الآخر. لكن منيرا ليس محصناً إزاء نظراتها القاتلة وجرأتها، التي تتناوب مع استحياء مدروس، والتي تمنحها له ولعبد الله. ومع أنه لم يعترف بالمسألة، إلا أنه كان مرتبكاً نوعاً ما، حيال ذلك الانتظار على وجهها، وذلك الفضول المتألم والمعرفة في عينيها. لم تكن مرتبطة به طبعاً، وهو يعرف ذلك، مما يتفق مع روحه: فهو يفزع من علاقة غير عابرة مع آخر.

ومع هذا، أحس بأنه حين روى حكايته بتلك الحرارة والطفولية، فقد أسلم بضعة من نفسه إلى آخرين، مما منحهم سلطة عليه. ذهب إلى دروسه، منتظراً نهاية النهار، كي يلقاها عند عبد الله. بيرة معاً... ضحكة معاً... وأثناء ثرثرة المساء، سوف يميل، بمهارة، ناحية تلك الليلة التي روى فيها حكاية سيريانا، دائراً حولها، دون الإشارة إليها:

لكن وجهيهما غير المستجيبين لم يخبراه بما رأياه، حقاً، في إخفاقه. كانت، على الدوام، قريبة وبعيدة في آن، ووجد نفسه يتألم أكثر فأكثر حين تتحدث إلى عبد الله بالحميمية ذاتها: أتراها وجدت كفته خاسرة حين وازنته مع عبد الله؟ وأخذ يفكر بعبد الله: كيف فقد ساقه؟ لماذا جاء إلى الموروغ؟ ودهش لقلة ما يعرفه عن عبد الله، عن أي أحد.

حلقت طائرة، منخفضة، فوق الموروغ. فاندفع التلاميذ خارجين من صفوفهم، مجهدين عيونهم، رافعين أصواتهم، نحو السماء، محاولين تتبع حركات الطائرة، وكذلك ظلها الذي يقطع، خاطفاً، حقولاً عديدة، عبر جبال الموروغ، وخلال السهول. نهق حمار عبد الله، خائفاً، وتعالى صوته إزاء هدير الطائرة الصغيرة. خرج الفلاحون من حقول الذرة، وتجمعوا مثنى، وثلاث، في المماشي المكشوفة، ليشاهدوا الطائرة، ويثرثروا عنها: ماذا تريد من الموروغ، وهي تكرر معاودتها؟ وسألت وانجا، وقد جاءت إلى المدرسة، منيرا، السؤال نفسه. ربما كانت الطائرة تراقب الموروغ... هكذا قال... بينما الطائرة تمرق، مستقيمة، وتختفي في المسافة البيضاء الزرقاء الغائمة. إنها المرة الأولى التي تزوره فيها، وهو في المدرسة، منذ مواجهتهما الأولى، وحين سارت، مغادرة، ظل يراقبها، مسحوراً بردفيها المتمايلين. وشعر بأنه منجذب إليها انجذاباً لا يقاوم.

ثم صارت تأتيه في الأحلام: نهداها لصق صدره، والجسد يلتهب رغبة، والعينان تحدقان في العينين، بينما هما واقفان سوية، على تل الموروغ. بعيداً عن المدرسة، بعيداً عن كيمبردج فرودشام الذي أرغى وأزبد، وكز على أسنانه غيظاً بسبب الجنة العطرة التي كانت جسدها. إنهما يتصارعان، لكنهما ـ بدل السقوط على الأرض ـ

يسقطان على مهاد من الغيوم، وها هما يرقصان، بطيئاً، فوق تلال الموروغ ووديانها، فخذاً لفخذ، ويندفع الدم قوياً يريد الانعتاق، فلا يستطيع له ضبطاً. في الصباح، رأى فوق الفراش بقعاً يابسة، وأحس بأسى لا حد له. إنه الآن في خطر. ما الذي يحدث لي؟ أمتفرج أنا؟ وها هو ذا يئن. وليوم أو يومين يبدو أمامها متماسكاً وقوراً. تمشى، فجراً، عند تل الموروغ، حائراً في معنى هذا الانفعال الجديد: أين شجاعته الرجولية؟ أيظل يمضي في الحياة مرتجفاً على الحافة لأنه خائف من تشوش الهاوية؟

بعد أيام قلائل من زيارة الطائرة، جاء رجال آخرون يرتدون الخاكي إلى الموروغ، في سيارة لاندروفر. ساروا، خلال الحقول، ساحبين وراءهم سلسلة على الأرض، وغارزين أوتاداً حمراء. تسورهم السكان جميعاً، محاولين أن يعرفوا من هم أولاً، الذين يقتحمون أراضي الآخرين. إلا أنهم كانوا مسحورين أيضاً بأدوات القوم من سلاسل ومزواة، وتلسكوبات مدلاة من أعناق الرجال.. ينظرون، عبرها، باستمرار. وتناقش أهل موروغ حول التلسكوب. قائلين إنه يبصر من هنا حتى نهاية العالم. وقف منيرا على مبعدة من الجمع. جاءت وانجا ووقفت إلى جانبه، لكن عينيها كانتا على ضابط الفريق. اقترب الضابط من منيرا، وسأله ماء. فأرسل منيرا أحد التلاميذ إلى المدرسة ليأتي بالماء والأقداح... سأل منيرا الضابط عن الأمر.

أجاب: «أنا مهندس، ونحن نقوم بمسح أولي لطريق عبر أفريقيا».

«إلى؟».

«زائير، نيجيريا، غانا، المغرب ـ عبر أفريقيا كلها». ثم عاد المهندس إلى زملائه في العمل. عندما استدار منيرا نحو وانجا، كانت

تسرع مبتعدة، تكاد تهرول، كما لو أن نحلة لسعتها. فيما بعد، وفي دكان عبد الله، جاء معظم السكان يسألون منيرا عما قاله الرجل، وفيما كان الأمر يتعلق بقناة الماء الموعودة. لكن وانجا لم تكن بينهم. غريب... فكر محاولاً التركيز على الشائعة والتخمين. قال نجوغونا مبدياً مخاوفهم بعد حديث منيرا عن الطريق: «آمل ألا يستولوا على أراضينا».

وأشار عبد الله: «لن يستولوا إلا على القليل، وسوف يدفعون تعويضاً».

وأضاف أحدهم: «مالاً كثيراً وأرضاً أخرى».

تحمس نجوغونا، الآن، للمشروع: «حسن أن يكون لنا طريق جيد. سوف يسهل سفرنا، ونستطيع إرسال محاصيلنا إلى الأسواق البعيدة، بدلاً من دفعها إلى هذه العقارب التي تزورنا قادمة من المدينة».

لكنهم، في أعماقهم، لم يصدقوا أن أموراً كهذه سوف تحدث. فلقد وعدهم نديري وأريرا بالماء، ولم يأت الماء أبداً.

احتار منيرا لغياب وانجا. أتراها تتجنبه؟

إنه يتحرق الآن شوقاً إليها، فقرر أن يمضي قدماً في الموضوع.

في الليلة التالية، وبعد رحيل فريق العمل، ذهب إلى كوخها، مصمماً هذه المرة على فعلته.

عيناه ضارعتان. أصابعه ساخنة بدموية شجاعة... آه... هذه الكأس سأتجرعها. نادى، ووقف عند الباب، مستنداً إلى هيكل الكوخ، وهو يدعك بطنه قليلاً. في الضوء الساطع، بأن وجه عبد الله، الجالس على كرسي بلا مسند، مرتاحاً، وجسمه مستند إلى إطار السرير.

قالت: «ادخل، يا معلم، إنني جد سعيدة».

غاص قلبه أعمق، وهو يجلس: بدا كما لو أن النور يجسد وجه عبد الله السعيد، الذي بادره بابتسامة مرحبة به، في هذا المخبأ المخفي بعناية.

قالت وهي تجلس إلى جانب عبد الله، مواجهة إياه:

«كان عليك أن تأتي ببيرة لنحتفل بهذا اليوم».

سأله عبد الله: «كيف أنت، يا معلم؟ وددت لو أني عرفت بمقدمك، إذاً لانتظرتك. أنت تعرف، والحالة هذه، إنه كان علي أن أقوم بكل مشقات عمل المساء... وها أنذا قادم للتو...

قال منيرا، وقد شعر بالتحسن لهذا النبأ: «أنا بخير... بم نحتفل؟».

«اليوم، عرض علي عبد الله عملاً؟ أتظن أنني يجب أن أقبله؟».

«أي عمل؟».

«احذر».

«لا أستطيع».

«فتاة مشرب. تصور. فتاة مشرب في المورورغ. أتظن أن علي أن أقبله؟».

«هذا يعتمد على الشغل. لكن الزبائن جد قليلين في المورورغ».

«آه... لكن هذا عمل فتاة المشرب، حقاً، يا معلم! ففتاة المشرب تستخدم لتجلب مزيداً من الزبائن، أو لتجنب القليل من المواظبين على الشرب الكثير».

«حسناً... إن أحببت العمل... لكن هل اشتغلت فتاة شرب قبلاً؟».

«وإلا فكيف تظنني مستطيعة أن أعرف كل الأماكن التي تحدثت عنها قبلا؟.. وقفزت، بغتة، من كرسيها. «أوه يجب أن أهيئ شاياً: لنحتفل بالشاي دون حليب...».

قامت خفيفة. بدأت تنظف صينية، وبدأت عينا منيرا تتحركان، موقعتين، على حركة جسمها الممتلئ ونهديها. إنه ما يزال حائراً: لم كل هذه السعادة بعمل مثل هذا في الموروغ، بينما تستطيع أن تشتغل، بيسر، في كل المدن التي تحدثت عنها؟ حتى روا ـ ايني، أكبر وأفضل لمثل هذا العمل. ولم تصرفت بتلك الغرابة، أمس؟ لكنه لم يستطع إلا التأثر بالجو الخفيف المرح الذي أضفته. وحين كانوا يشربون الشاي، تحولت، ثانية، من سعادة الطفولة، إلى شخصية متماسكة، رزينة، وأكثر هدوءاً. «لكأني أريد أن أبكي. إنني لأشعر، حقاً، بسعادة غامرة، لأن عبد الله قد اشترى لجوزيف ملابس، ولوحاً، وكتباً، وهو الآن يستطيع أن يبدأ المدرسة».

«حسن هذا، يا عبد الله. أخيراً. يبدو أن جوزيف ولد ذكي، وأنا متأكد أنه سيوفق».

«عليه أن يشكر وانجا، فهي التي جعلت الأمر ممكناً».

قالت: «السبب هو قصة منيرا. كانت مؤثرة... مؤثرة حقيقة».

لقد مست حادثة سيريانا وترا في ماضيها.

فجأة، أحس منيرا برضا النفس. استدار إليها:

«أنت نفسك... حين تضحكين... تبدين جد فتية، أنت يجب أن تكوني في المدرسة، بدل العمل عند عبد الله فتاة مشرب».

فكرت قليلاً. احتست شيئاً من الشاي. ولمست كوبها بالأصابع.

«عجيب... كيف تؤدي الأشياء إلى بعضها. أنت نفسك: ربما كنت هنا بسبب ذلك الإضراب في مدرستك. أما عن عبد الله ـ فأنا لا أعرف سبب كونك هنا في الموروغ. ربما كانت حادثة تلك التي جاءت بنا جميعاً هنا. أو أمراً من الله. لا أعرف... لا أعرف... أتتذكرون الرجال الذين جاؤوا يمسحون الطريق؟ أتتذكرون المهندس؟».

بدأت مترددة. لكنها الآن أحست، فجأة، بالحاجة إلى أن تتحدث عن هذه العقدة من حياتها. انتظرا هما أيضاً... متلمسين ذلك في الهواء. وقفت. وضغطت المصباح عدة ضغطات ليتألق نوره.

تمتم منيرا: «هل تعـ....ر... فـ.... يـ... نه؟».

«لا»... ثم أضافت ببطء: «لكنه يذكرني بماضي»...

توقفت ثانية، ثم جلست، راكلة الكوب الفارغ بقدمها. تناولته، ووضعته جانباً. استأنفت الحديث بنبرة مستبطنة آسرة: «نعم... خذوني مثلاً... أحياناً أسألُ نفسي... لم يؤثر حادث سخيف... زيارة ولد... قضية بنت وولد في المدرسة... هذا التأثير في حياة الإنسان؟ أنتما تعرفان مثل هذه الشؤون ـ هدية قلم، قطعة حلوى مسروقة، رسائل حب مستنسخة من الكتب... كلها تنتهي بالطريقة ذاتها... قطرات دمع على الورق محاطة بإشارات الضرب وقبلاً». رفعت رأسها، وضحكت: «قد يكونون محقين. الكلمات الكثيرة سم. الكلمات القليلة سكر. مؤخراً كان علي أن أرى صناديق من سكر الكلمات تتحول سما. والآن... هذا الولد اسمه ريثو. كنا معاً في صف واحد بمدرسة كينو الابتدائية. البنات يستطعن أن يكن قاسيات. اعتدت أن أقرأ رسائله مع البنات الأخريات. وكنا نتضاحك، ونسخر منه طوال الطريق من كينو إلى رونغيري. لكن هداياه من الأقلام والحلوى لم

أخبر بها أحداً. كانت اللعبة طفولية ومسلية لنا نحن الاثنين. ثم تأخرنا في المدرسة ذات جمعة. كنا نشاهد لعبة كرة قدم بين مدرستنا ومدرسة رونغيري. كنا نسميهم «كادو»، ونسمي أنفسنا «كانو»، وهم يستنكرون هذا. «كانو» خسرت. وربحت «كادو». اصطحبني ريثو إلى المنزل، ونحن نتحدث عن اللعب. ثم تحدث عن الحرية. قال ستكون فرص عمل متزايدة، خاصة للناس الفقراء. لهذا سوف يجتهد كثيراً: يذهب إلى الثانوية... الجامعة... الهندسة. أجل، كان سيصبح مهندساً... كان طموحه أن يصمم جسراً، ويشيده، على طريق، أو على نهر. أيمكنكما أن تتصورا هذا؟ في تلك السن؟ الأمر يبدأ جيداً. لكن الأولاد، دائماً، أكثر ثقة، من البنات. كأنهم يعرفون ما يريدون أن يبلغوه في الحياة: أما نحن البنات، فالمستقبل يبدو لنا غائماً، على الدوام. كما لو كنا نعرف، إننا مهما بذلنا من جهد في دراستنا، فإن طريقنا سيؤدي إلى المطبخ أو غرفة النوم. ذلك المساء أحسست أنه من الجيد أن أكون مع ولد واثق هذا الوثوق من رغبات قلبه، بحيث أخذت أشاركه مطامحه. فكرت أنني أستطيع أيضاً أن أجد نوراً، فأقسمت أن أجتهد كثيراً. ولم يعد هذا الولد مضحكاً أو أخرق، وتماسكت أيدينا في الظلام. سعل رجل وهو يمر: اعتقدت أنه في هيئة أبي ـ لكنني لم آبه. هرولت نحو البيت، وعلقت حقيبة جلد الغزال في مكانها من الجدار، وجلست: سألتني أمي: لِم لم تغيري ملابسك، وترتدي الثياب الاعتيادية؟ أجبتها بأن اليوم جمعة، وأني سوف أغسل ملابس المدرسة غداً، على أي حال. ألهذا السبب تأخرت إذاً؟ سكت. تذكرت رسائل ريثو... حبي لا يحاط به... كرمال البحر، كالأشجار في الغابة، أو النجوم في السماء، أو خلايا جسدي... وتذكرت مطامحه، وأردت الآن أن أضحك، وأخبر أمي عن ريثو وأحلامه في أن يكون مهندساً. قلت: تأخرت لأنني كنت أشاهد

مباراة في المدرسة. وكان المفترض أن نبقى لنشجع فريق مدرستنا. ومع من كنت الآن؟ قلت: مع صديقي، وضحكت: يا أمي، إنه ـ وبدأت. لكن نظرة عينيها قتلت كلماتي. قال أبي: هي الآن امرأة، تتكلم مع أمها كالند للند. أغلقوا علي باب حجرتي، وضرباني معاً، أبي بحزامه، وأمي بنطاق من جلد البقر كنا نستعمله لربط الأشياء وحملها. هكذا سوف تتعلمين كيف تعودين إلى البيت، ممسكة بأيدي الأولاد! هكذا تتعلمين كيف تتكلمين مع أمك كالند للند. كانت المعاملة في منتهى الظلم. وأقسمت ألا أبكي، مما زاد في غضبهما. إنهما الآن يضربانني كي أبكي. أخيراً صرخت مستغيثة. صحت بهما: أنتما من عباد الله... أليست لديكما رحمة؟ الآن توقفا... بقيت أبكي بكاء مريراً. ولعنت هذا العالم بصمت. لم أجد فيما فعلت خطأ. لم أشعر بالذنب. وحينما حذراني من أن يراني أحد من الأولاد الوثنيين ـ لا أعرف ـ أحسست بأنهم ضربوني ليس لأنني كنت فقط مع ولد، وإنما لأن هذا الولد من أسرة أشد منا فقراً. كنت أعلم أن أبي وأمي كانا يبتعدان عن بعضهما، لسبب آخر، لأمر حدث قبيل فترة «الطوارئ». كما كنت أعرف أن أبي يواجه أياماً صعبة. لكني استنكرت استخدامي طريقاً لتقاربهما. حينها، ظلا يتهامسان طويلاً في الليل.

ظللت أخطط للانتقام أياماً وأسابيع. كان والداي يضربانني كثيراً، لكنها المرة الأولى التي تتمرد فيها أفكاري. كيف أتحكم أنا بنفسي؟ أخطيئة أن يكون المرء فقيراً؟ نحن أنفسنا لسنا أغنياء: أنحن خاطئون؟ أخطيئة ألا يكون المرء مسيحياً؟ وفي الوقت نفسه كرهت الشاب الذي كان سبب عذابي. أخفيت الألم في روحي. إنني امرأة قاسية، وأعرف كيف أحمل الأمور في قلبي طويلاً. أردت أن أجد شيئاً يؤذيهما أذى بالغاً، ويذلهما حقاً، جزاء ما فعلاه بي. لكني كنت شابة. وسرعان ما تلاشى الألم، ودفنت أفكار الانتقام في نداء الحياة اليومية ومتطلباته.

لكني عرفت، منذ تلك الليلة، إنني، والبيت، والمدرسة، والعالم... لم نعد كما كنا. كنت أحس بنفاد صبر متعاظم إزاء المدرسة والدراسة. حتى لكأنهما يبعدانني عن عالم، عالم أكثر إثارة... وراء المدرسة والقرية. ثمت... الحياة. هذه السنوات كانت أيضاً السنوات التي سبقت الاستقلال، حين كان الحديث يدور طويلاً، عن الحياة، وكيف ستغدو مختلفة... آه... ترونني أتكلم كما لو أن هذا كله حدث قبل عصور خلت. لكنها سنوات قليلة فقط... أجل... سنوات قليلة. في هذه الأثناء، جاء رجل ما، واشترى قطعة أرض قريبة جداً من بيتنا، وشيد مبنى حجرياً يعلوه خزان حديد ضخم ليجمع مياه المطر. كان متزوجاً، وله ابنتان. وسرعان ما احتذاه الآخرون، لكنه ظل مشهوراً بخزانه. كما نظر إليه الناس باعتباره شارة للأشياء المقبلة. فربما جعل كل إنسان سقفه من الحديد، بعد الاستقلال، ونصب فوقه خزاناً لجمع مياه المطر. كان الرجل أيضاً يفخر بأنه يملك شاحنة صغيرة وحافلة. لم نعرف من أين جاء، لكنه قد يكون أول رجل من هذه الشاكلة يأتي إلى قريتنا، في السنوات الأخيرة من «الطوارئ»، حين بدأ الأفارقة، كما تعلم، يحصلون على أعمال. كان جد مختلف عن أبي: كان طويلاً، قوياً، غنياً، يحسده الآخرون، ويحترمونه. لقد انجذبت إليه منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها يسوق الحافلة. لم يأخذ مني أجرة الركوب في المرة الثانية، قائلاً بأنني ابنة فلان.. وقد فرحت طبعاً لأنه عرفني. كان يأتي إلى بيتنا مرتين أو ثلاثاً. أما أبي الذي تدهورت شؤونه في السنوات الأخيرة، فقد كان فخوراً به، بحيث خجلت من الأمر. أصبح هو وأبي صديقين، وسرعان ما غدا زائراً منتظماً لبيتنا. وفي عيد الميلاد كان يأتينا بأنواع الهدايا. أعطاني ثوباً ذا أزهار، ودعاني ابنته. بعد مدة، أخذني في شاحنته لمشاهدة فيلم في سينما رويال بالمدينة.

لم تعد المدرسة كعهدها. كلما جاء إلى زيارتنا، كانت أذهب إلى النوم، عامدة، كما لو أنني أستحيي من الصحبة. لكن زيارته كانت دائماً، علامة بيننا، كي ألقاه بعد ظهر الغد. آنذاك أضع الثوب ذا الأزهار في حقيبتي مغطى بالكتب. وفي المدينة أدخل إلى مرحاض لاستبدلَ بالثوب ذي الأزهار بدلتي المدرسية التي أخبئها في الحقيبة، وحوالي الرابعة أو الخامسة أعود إلى البيت، ببدلتي المدرسية طبعاً.

معلم الرياضيات هو الذي اكتشف أمري. كنت تلميذته المفضلة، وقد وضع عينيه علي. كان نهداي أكثر بروزا من الفتيات الأخريات، وكان جسمي مكتملاً. معلم الرياضيات استخدم كل المعاذير ليستبقيني وقتاً أطول في المدرسة: اذهبي وأوقدي ناراً في بيتي: خذي هذه الدفاتر إلى بيتي: لم لا تنظفين أظافرك... تعالي لرؤيتي في الساعة الرابعة... وما إلى ذلك. أخبرت أمي بالأمر، فغضبت غضباً شديداً، وهددت بأنها ستنتقل المسألة إلى السلطات العليا. لاحظ الآن تكرر غياباتي: أخذ يتجسس علي، واكتشف أمري. دعاني إلى بيته، وحدَّثني حديث الحب، وقال إنه يريدني، فهل أريده أنا؟ رفضت فواجهني بما يعرفه. فأما أن أدعه يفعل، أو أني سأواجه والدي الغاضبين. رفضت. فأخبر والدي. أما والدتي التي تكره هذا الرجل كرهاً شديداً، فقد صعقت للخبر إلى حد أنها لم تضربني.

أحسست أولاً أن المسألة آذتهم. لكنها بكت وضمتني إلى صدرها، وكأنها تحميني من عالم معاد، وقد شعرت بالذنب، وبكيت. حلت القطيعة لهذا السبب بين أبي وأمي. فقد قالت لأبي بنبرة تغور عميقاً: كان صديقك الغني، بعد هذا كله: وقد أهين أبي، وأذل حتى تصاغر، وحتى أسفت لما حل به. وأنذرت أمي، لئن

وضع ذلك الرجل قدمه القذرة ووجهه المنافق في البيت، لتسكبن الماء الحار عليه. من ناحية، لم يقولا لي كلمة واحدة، ولهذا السبب أقسمت أني لن أراه ثانية. غدوت أكثر اتزاناً، بل تحملت الضحكة الظافرة لمعلم الرياضيات وغمزاته.

دهشت، ودهش معلم الرياضيات، حين كنت الثانية في الامتحانات التحضيرية، على المنطقة كلها. أما صديقي الأخرق فكان ترتيبه الخامس.

اعتقد الجميع أن الامتحان الفعلي لن يكون إلا عبوراً بسيطاً، بالنسبة لي، وبدأ المعلمون يتحدثون عن المدارس العليا التي يريدون مني التقدم إليها... لكن عقابيل انتقامي كانت ورائي أيضاً. فقد أخذت أتقيأ، وأشعر بالتعب. أتراني حاملاً؟

هرولت عائدة إلى عشيقي. سأتزوجك، الآن، إن قبلت بأن تكون زوجة ثانية. إن زوجتي الأولى قاسية إلى حد أنها سوف تسترقّك. ظننته رقيق القلب في مسألة حياة أو موت. وعلمت أن أمي ستعرف سريعاً. لا. لن أتحمل. لن أكون هناك حين تكتشف الأمر. هكذا عزمت. ولسوف أمضي قدماً.

سأظل أتذكر ذلك اليوم بالعار والخزي. كانت أمي في فراشها، وبينما كنت ذاهبة إلى المدرسة، أخبرتني: أنت ترين.. لدينا عنزتان في حظيرة صغيرة واحدة ـ اذهبي وارمي الروث في الحقل. إنها فرصتي. وضعت ملابسي الجيدة كلها في سلة، وغطيت أعلاها بسماد الروث، وهربت من البيت... إليه. نظر إلي مرة، وفجأة بدأ يضحك. قال لي لا تكوني سخيفة. كان كبير السن، ظلت النغمة الحزينة المريرة مخيمة على الصمت بضع ثوان. وكان واضحاً أنها لم تنس الجرح الأول، بالرغم من

كفاحها القاسي كله. لقد جذبت عبد الله ومنيرا إلى داخل عالمها، وبدا أن الاثنين أيضاً يشاركانها معاناة الجرح، أو أن هذا الجرح ذكرهما بجراحهما الخاصة. وفجأة هبت بكل حيويتها:

«لهذا أتألم دائماً حين أرى أطفالاً لا يستطيعون دخول المدرسة... ولهذا السبب علينا أن نحتفل غداً في الدكان بعودة جوزيف إلى المدرسة. يا عبد الله... إنني سعيدة. تعال غداً يا منيرا... يجب أن تأتي. ستكون ليلتي الأولى كفتاة مشرب في المورروغ».

هكذا وضعتهما ثانية، في مندفع طاقتها وحماستها. إن لها طريقتها في جعل قلب المرء ينبض بمشاعر وتوقعات مختلفة في الوقت ذاته.

«أنا ذاهب غداً لرؤية مزيغو في روا ـ ايني».

قاطعته بلهجة آمرة: «لا... يجب أن تأتي، واجلب معك رطلاً من الرز طويل الحبة. عبد الله أوصلني إلى بيتي الليلة. وغداً دورك. أم تراك تخاف الظلام؟ انظر. سيطلع القمر غداً. إنه سيعلن أول يوم من أيام الحصاد. غداً... آمال عديدة نحتفل بها!».

خائف؟ لا ليلة غد، ولا أي ليلة، ما دمت معك، كان قلبه يغني جذلاً.

«شكراً، عبد الله... شكراً، منيرا»... قالت هذا بصوت موقع، وهي تنهض. وأحس كل واحد منهما، بأن ما قالته كان ذا معنى خاص به وحده.

قال منيرا لعبد الله «ابق على خير»، وتابع سبيله في الظلام. لكنه حدث نفسه بأنه سيكون هناك غداً، وسيصحبها إلى بيتها. إنه يبتسم لنفسه الآن. أيتها التويجات الجميلة: أيتها الأزهار الجميلة: غداً سيكون بداية الحصاد حقاً.

* * *

الفصل الثالث

1* بعد اثنتي عشرة سنة، وفي يوم واحد، حاول جودفري منيرا أن يعيد بناء المشهد في إفادة إلى الشرطة، إفادة يفترض أن يتحرى فيها الحق، كل الحق، ولا شيء سوى الحق. لكنه وجد أن تلك الليلة التي روت فيها وانجا قصتها، بالرغم من أنها ما تزال حية في الذاكرة، بكل ما تثيره من قدر وعنف... هي ليلة عصية على التشكل في صيغة مضبوطة من الكلمات. جلس على مصطبة جاسية، كوعاه مثبتان على الطاولة، وعيناه تتجهان بين حين وآخر، إلى «تقويم اسبرو»، الزينة الوحيدة على الجدران العارية. لكن عينيه في الغالب كانتا تستقران على وجه الضابط: وفكر منيرا أن هذا الضابط قد يكون جديداً على «القوة». ربما كانت المورروغ «مركز» 5 الأول الكبير، وربما كان عصبياً أو نافد الصبر، أو الاثنين معاً. كان يقرع الأرض بقدمه اليمين، ويدق قليلاً على الطاولة بأصابعه. كان صبره ينفد، وحاول منيرا أن يفهم: ما تراه لا يحس بالتيار الخفي لاضطراب البلد؟

الطلبة والطالبات مضربون، يحبسون مديريهم المستبدين ومديراتهن المستبدات في الخزانات: العمال يضعون آلاتهم، ويرفضون الحل المؤقت لاتفاقيات ذات ثلاثة أطراف، ربات البيوت ينظمن مواكب، ويطلقن هتافات شنيعة احتجاجاً على الأسعار العالية للمواد الغذائية، لصوص مسلحون يسطون على المصارف في وضح النهار والجمهور يهتف لهم، والنساء يرفضن أن يكُنَّ سجينات المطبخ أو غرفة النوم، ويطالبن بحقوق متساوية مع الرجال... القلعة القديمة للقوة والمهابة ـ كل هذه الأمور يكون لها وقعها الشديد على أعصاب

أولئك الذين أوكلت بهم الطبقات الحاكمة في العالم، مهمة الحفاظ على النظام والقانون. إنهم يؤمنون كثيراً بحكمة هذا العالم: ولا يفتحون كتاب الله ليعرفوا أن ما يجري الآن قد تم التنبؤ به منذ زمن طويل. أما كاريغا وأتباعه من عمال مصنع ثنغيتا فلا يختلفون كثيراً: حقاً، لقد رفضوا الأخوة المجردة للبشرة والمنطقة والأصول، وقالوا «لا» لمستخدمي العمال، سوداً وبيضاً وهنوداً. لكنهم هم أيضاً سيخفقون: لأنهم رفضوا كذلك الأخوة الأكثر أهمية ـ الأخوة الوحيدة ـ للدين، أخوة أنهم ولدوا ثانية في كون الرب ومملكته الأبدية. أي حقيقة أخرى أرادها الضابط؟أراد منيرا أن يقول للضابط أن وانجا، كانت «هي» التي ذكرها الأنبياء، يتبعها الرجال، فتضلهم عن الطريق المستقيم، بصوت فيه إيحاء المعاناة والاحتجاج، والأمل والرعب... وبعد هذا كله، فيه وعود الخلاص عبر قوة الجسد، لكن الضابط ـ حكيم هذا العالم ـ يقف، حسب، ويتمشى في الحجرة، وهو ينظر إلى منيرا بعينين باردتين. ما دخل صرخة فتاة مشرب سفيهة، قبل أحد عشر عاماً ـ قبل أن يشيد في المورووغ مبنى حجري واحد، دع عنك الطريق الدولية ـ بالحاضر؟ قد يفتح إن شاء، ذلك الكتاب، ويبدأ بقصة آدم وحواء. لكن أليس من الخير له ـ حفاظاً على وقته وطاقته ـ أن يطفر السنوات، ولا يورط ذاكرة بالغة الحيوية؟ هذه هي النقطة التي فكر بها منيرا، متسلياً بانفجار غضب الضابط. إن للصرخة ـ للمشهد ـ كل العلاقة بالمسألة: فلو لم يعصب الصوت عيني منيرا، لرأى العلامات، شبكة الشر وهي تنسج حوله، حول عبد الله، حول المورووغ. جرب سبيلاً آخر: توسل أن يعطى قلماً وورقة ووقتاً: سوف يكتب إفادة بخط يده، وبطريقته، وبإمكان الشرطي أن يوجه أسئلة فيما بعد ـ وبمعونة الله... هنا ضرب الضابط الطاولة، فجأة، وقد طار صبره كله: إنه يريد وقائع، لا قصة، وقائع لا مواعظ أو قصائد. القتل

ليس بالأمر الهيِّن. قال هذا، وأمر الحراس: أغلقوا عليه في الداخل.

وضعوه في زنزانة: سمع طقطقة قفل السلسلة، وأحس بنوع من الرضا الروحي ـ تذكر بطرس وبولص ـ بطرس الذي كان يسمع في السجن أصواتاً من الرب. القتل ليس بالأمر بالهين. الكلمات ذاتها استعملها الشرطيان اللذان جاءاه في المرة الأولى. وتثاءب منيرا. كان متعباً ـ متعباً فجأة من يقظته الليلية ـ وغاص في نوم عميق.

أيقظوه في اليوم التالي. كان صافي الذهن. أدخل إلى المكتب نفسه: لكن الضابط هذه المرة رجل مختلف كلية: متقدم في السن، وجه خال من التعبير حتى حين يبتسم، أو يضحك، أو يتندر، وكأن الوجه عاجز عن تسجيل أي انفعال. هذا الضابط جاء من نايروبي ليتولى التحقيق. كان قد خدم في وظائف متعددة، تحت إمرة رؤساء متعددين، من العهد الكولونيالي حتى اليوم. الجريمة بالنسبة له أحجية صور مقطوعة، وهو يؤمن بوجود قانون لها ـ قانون الجريمة ـ قانون السلوك الإجرامي ـ ويؤمن بأنك لو حدقت ملياً كان بإمكانك رؤية ذلك القانون يعمل حتى في أصغر الإيماءات. كان يهتم بالناس: بسلوكهم، بكلماتهم، بإيماءاتهم، بفنطازياتهم، بمشيتهم: فقط باعتبارها جزءاً من أحجية الصور المقطوعة هذه. لقد قرأ كثيراً، وهو ذو اهتمام باختصاصات عديدة: القانون، السياسة، الطب، التعليم... لكن فقط كجزء من اهتمامه الأعظم. إنه يبحث عن تلك الصورة المفردة التي تتضمن الدليل، قانون جريمة معينة. من هنا يستطيع أن يستنبط الظروف المضبوطة، حتى أدق التفاصيل... فلا يكاد يخفق.

ليست لديه أوهام عن عمله: لقد وضع معرفته في خدمة أي سلطة في البلد، ولم يتجه أي اتجاه البتة. وهكذا خدم النظام الكولونيالي بالتفاني نفسه الذي خدم به حكومة أفريقية مستقلة، ولسوف يخدم،

بكل إخلاص، من يأتي في المستقبل. كان محايداً، وقدجاءت سلطته على السياسيين، وذوي المهن، ورجال الأعمال، والمجرمين التافهين، من هذا الحياد في خدمة القانون. أما مطمحه السري، فهو أن يمارس، يوماً ما، عمله، في مكتب تحقيق خاص، حتى يتمكن، من أن يستأجره أي واحد، شأنه شأن المحامي أو القسيس.

هذه القضية غدت مثار اهتمامه فوراً - خاصة بسبب نماذج الشخصيات المجتمعة فيها. جوي - مرب ورجل أعمال، هوكنز كيميريا - أحد ملوك رجال الأعمال، عبدا لله - تاجر صغير، كاريغا - نقابي، مزيغو - مرب صار رجل أعمال، منيرا - معلم ومن رجال الله، وانجا - عاهرة. وهذا كله في مكان هو بالأساس «بلدة جديدة». وتساءل عن عدد الناس الآخرين الذين ستأتي بهم القضية. سوف ينكب على دراسة المكان والناس، ولن يبدأ بأي مسبقات. إنه مفتون بكل شيء، وبمنيرا أكثر من سواه:

«سيد منيرا، اجلس من فضلك. هل نمت جيداً؟».

«نعم».

«تريد سيجارة؟».

«لا، أنا لا أدخن».

«علي أن أقدم نفسي أولاً. اسمي - ستتعجب من المصادفة - المفتش جودفري. ويجب أن أعتذر عن البارحة. أنت تعرف. إنه شاب. وأنت تعرف شباب هذه الأيام».

«أفهم هذا. كان يقوم بعمله، حسب - خدمة قانون الإنسان».

«ذلك هو الروح، يا سيد منيرا. القانون. القانون يحكمنا جميعاً».

«قانون الله».

«أجل، يا سيد منيرا، لكن على الله أن يعمل من خلال الإنسان: أنت، أنا، شخص آخر. اسمع يا سيد منيرا، أنت رجل محترم جداً في المورروغ. وكنت فيها أكثر من أي شخص آخر. اثنتي عشرة سنة، كما أخبروني. وأنت تعرف طبيعة معظم الناس في هذه البلدة. أرجو أن تصدقني، نحن لا نريد أن نتعامل تعاملاً غير عادل مع أي كان. نحن نريد أن نخدم الحق والعدل، حسب. ربما لم يكن هذا إلا مفهوم الإنسان عن العدل، لكنه مفهومه الحاضر عن العدل. قد يتغير الأمر فيما بعد، حين تتكشف لنا الأشياء جلية، فلا نعود نرى الأشياء خلال مرآة معتمة... لكننا الآن، يا سيد منيرا، يجب أن نحاول جهدنا. أنت ترى أن الشرطي، تماماً، كالمعلم أو القسيس، ليس سوى رجل يقوم بخدمة عامة. خادم عام. بل أكاد أقول إنه ضحية عامة. فنحن لا نحظى بالشكر على حفظنا سلامة حياة الناس وممتلكاتهم. لكن هذا نصيبنا، عملنا... ونحن نأخذ أجراً عليه. غير أننا لا نستطيع التخلي عن هذه المسؤولية الهائلة ـ وهي أمانة مخيفة يا سيد منيرا ـ إلا بمساعدة سيدنا الحقيقي، الجمهور. والآن، يا سيد منيرا، سنزودك بقلم وورق وحتى بمكان نوم ـ فأنت تعلم، أننا غير قادرين على تركك تغادر حدود مركز الشرطة قبل أن تقدم إفادة كاملة ـ إنه إجراء فقط، لا يترتب عليه أي شيء ـ وبالطبع سنزودك بالطعام. بإمكانك تدوين إفادتك كما تشاء ـ أنا نفسي شديد الفضول لمعرفة تاريخ المورروغ، وحتى تاريخ مدرستك، هذا أن تخبرنا في إفادة واضحة بسيطة كل ما تعرفه عن السلوك، والحالة الذهنية العامة، والتحركات خاصة، لدى عبد الله، وانجا، وكاريغا، ليلة... أو حتى خلال أسبوع أو نحوه، قبل حادثة القتل الثلاثي ـ طبعاً، قد لا يكون الأمر قتل، كيميريا، وجوي، ومزيغو.

2* كيف يتحدث المرء عن قتل في «البلدة الجديدة»؟ أعن قتل الروح؟ من أين يبدأ؟ كيف يبعث الماضي بحيث يبين المرء عمل قانون الله؟ استنباط إرادة الله، كشف إرادته بحيث يرى الأعمى الآن، ما لا يراه الحكيم؟

ربما... ربما هذا أو ذاك... ماذا كنت فعلته، وماذا لم أكن لأفعله... هذه الأشياء نقلبها دوماً، في أذهاننا، بعد نهاية فعلة لا يمكن الآن ألا تفعل. السلام، يا روحي. لكن، كيف أستطيع أنا الفاني، أن أقوم ارتعاشات قلبي؟ أنا الذي كنت شاهداً ممتازاً على نماء المورووغ منذ بداياتها في المطر والجفاف... إلى تفتحها الحاضر في تويجات دم؟ أنا الذي عرفت عبد الله، ونياكينيوا، ووانجا، وكاريغا؟ ألم أتصفح قلب كل منهم؟ في كل أحاديثنا ومشاريعنا، وتذكراتنا للماضي، وحتى الليلة التي جعلتني فيها أعدها وعداً أكيداً بأن آتيها اليوم التالي لنحتفل، كنت أصدم بتوتر مثل حد الموسى في كلماتنا. عنف الفكرة، عنف النظر، عنف الذاكرة. أستطيع أن أرى ذلك الآن. في شفق السجن هذا تكون أشياء معينة، كالحقول والتلال والوديان، ذات معالم أكثر حدة، حتى لو كانت على سماء معتمة. كن ورائي أيها الشيطان. الثقة المتغطرسة للإدراك المتأخر. مر وقت كنت فيه أفكر بأنني سوف أنقذه، أنقذها، وأنقذ عبد الله أيضاً. وفجأة رأيت كاريغا على وشك السقوط على رأسه في الطريق الذي كنت سلكته نشطاً، وصدمت بعجزي عن رده، مع أني كنت أريد ذلك. لذلك الأسبوع الواحد، علي أن أصور وانجا ضاحكة من محاولاتنا الهزيلة استنقاذ أنفسنا من أحلامها الواسعة ورؤاها، فالآن أعلم، والله على ما أقول شهيد، أن كل ما أرادته كان القوة، القوة خاصة على نفوس الرجال، الفتية، العنيدة... كي تنتقم لنفسها من شر لحقها في الماضي.

أما كاريغا فكان ما يزال طفلاً حتى بعد أسفاره. وما قولي هذا تشويهاً لسمعته أو إنكاراً لقوة مشاعره: النار، المثالية، الإيمان المتقد بإمكانات البطولة والتفاني. لقد مد ذراعيه إلى ذلك الجمال المراوغ، من أجل تلك الحقيقة الخافية لعلاقة إنسانية باقية. كان كما لو أنه يبحث في كل شيء، حتى في مجيئه إلى المورووغ، عن براءة مفقودة، عن إيمان وأمل. أتذكر ما دونه مرة في أحد دفاتره، أيام كنا معاً:

ستضحك وتقول: أوه، ليست هذه إلا دموع طفل كبير. ستضحك وتقول: إنه رجل طفل جاء بالشؤم إلى أبواب بيت مطئن. اضحك وأهزأ. فأنا وحدي حملت هذا الخوف، وتصارعت مع هذه المعرفة في قلبي. إذ كيف أستطيع القول إنني لم أعرف، حتى حين كان قلبانا يخفقان معاً، بأنها سوف تخونني؟ كانت أكبر مني سناً، ورأت أكثر مني طيور الثابيري عائدة إلى أعشاشها مع الغروب. والحق أنها لم تكن وحدها. فوا أسفا... فالعالم الذي أملته أمس تساقط من يدي. والناس الذين عرفتهم، الناس الذين رأيتهم يخلقون عالماً جديداً، هم الآن خيالات غائمة في ذاكرتي: والبذرة التي بذرناها معاً بكل ذلك الإيمان والأمل والدم والدمع: أين هي الآن؟ أسأل نفسي: أين هي القوة الجديدة؟ ما هي القوة الجديدة التي ستجعل البذرة تتفتح وتزهر؟

ظننت الأمر يأساً، حينها، وكنت أسأل نفسي: أترى هذا اليأس المؤلم إلى هذا الحد، عند فتى، هو الذي جعله يلجأ إلي من أجل... من أجل ماذا؟ أم أنه الأمل الباحث وراء الكلمات نفسها، هو الذي جعله يطوف كينيا كلها، من مومباسا حتى كيسومو، ويعود ثانية إلى المورووغ، متتبعاً... ماذا؟ مهما يكن دافعه، فقد أوصله إلى المورووغ، إلي، إلى عبد الله ووانجا، إلى هذه الأحجية: الحق والجمال ـ أي أوهام!

نحن جميعاً باحثون عن مكان صغير في زاوية الله يحمينا لوقت ما، من الرياح الغرارة والأمطار والجفاف. كل ما أردته أن يراه هو: أن القوة التي يبحث عنها لن توجد إلا في دم الحمل.

3* قد تقول إن كاريغا اختار أن يبوح لي بأسراره، معتمداً علاقات مبهمة في ماضينا. أقول: مبهمة، لأنني، ولوقت طويل بعد لقائنا الأول في الموروغ، اعتقدت أن سبيلينا لم يتقاطعا إلا مؤخراً، مرة، في تلك الأرض المجردة... أرض المعلم والتلاميذ. لكنني نسيت حتى هذا، فقد جاء ذلك اليوم إلى مخبئي في الموروغ، الذي لم يكتشفه إلا مؤخراً، شخص غريب: وانجا. تساءلت مندهشاً: من هذا الواقف عند الباب؟

كنت عائداً من رحلة إلى المديرية العامة في روا ـ ايني. لم أتوقف البتة، إذ كنت أفكر بدعوة وانجا البارحة. وددت تماماً أن أصحبها إلى البيت ـ أمشي معها إلى كوخها ـ هي وأنا ـ وحدنا ـ في الظلام. في داخلي، كنت خائفاً من هذا الامتلاك، من الطريقة التي أسرت بها قلبي، بحيث تمكنت من أن تقول ببرود: «وسوف تأتيني برطل من الرز طويل الحبة»: كياني كله مستعد للطاعة. لقد ذهبت إلى كل دكان في روا ـ ايني. اشتريت الرز. كل شيء كان مهيأ تماماً لاحتفال الحصاد هذه الليلة. والآن... من يكون هذا الغريب؟

«مساء الخير»، قلتها بصوت محايد، مترجلاً عن دراجتي المتداعية، مسنداً إياها إلى الحائط الأبيض الأمغر.

قال بعد أن رد تحيتي: «قد لا تتذكرني».

أشرت له أن يسكت، بابتسامة غير ملتزمة: سنتحدث، سنتحدث. كان ثمة أمر ضايقني فيه، حتى في تلك المرحلة من علاقتنا: ثقته الظاهرة بالنفس، أم هو التفاني؟

ساعدني في نقل صندوقي الطباشير الأبيض، ورزمة الدفاتر. وأنا حملت كيس الرز طويل الحبة الذي اشتريته لوانجا. كانت غرفة الجلوس، شأنها شأن باقي البيت، خاوية تقريباً: مصطبة خشب، طاولة ذات شقوق كبيرة على امتداد المفاصل، كرسيان مطويان، ورف مثبت إلى الحائط، عليه نسخ قديمة من مجلات: فلامنكو، الطبل، الفيلم الأفريقي، ونسخ طبعة مدرسية ممزقة من «الأشياء تتداعى» و«أغنية لاوينو»: فكرت دوماً في تحسين مكتبتي، لكنني ـ شأني في الأمور الأخرى ـ ظللت في البرزخ، بين العمل واللاعمل. جلس على طرف من المصطبة، معتذراً عن دعوتي له إلى الجلوس في كرسي مطوي. كان دقيق البنية، ذا عينين حزينتين حادتين: كان رجلاً، لكنه كبر، فجأة، بصورة مؤلمة.

«شيئاً من الشاي؟» سألته آملاً في أن يقول له: أرخيت ساقي، وفكرت بوانجا وقصتها، واهتمامها بجوزيف، والسحر الذي أثارته في عبد الله وفي: فكرت في أن عليها المغادرة الآن، ووجدتني أسأل: لكن ماذا حدث للطفل؟

«كل شيء سائل ودافئ سيكون كافياً». هكذا وضعت في قدر مضيف متثاقل.

«شيء واحد نفتقده في هذا البيت: الحليب».

«لا بأس بالشاي بدون حليب. نحن لا نستطيع دائماً أن نشتري الحليب، مع أننا نسكن جنب سوق». حين كنت أضغط البريموس، ذكرتني كلماته فجاة، بمريم العجوز، كما اعتدنا أن نسميها. كانت تعمل أجيرة في أرض أبي، وكنا نراها دائماً غير ممكنة الانفصال عن الأرض. كانت بالغة التقوى، غير مدعية في تقواها: كان ورعها يكمن في تصرفها: في كلامها، في ارتجافها، في انغماسها في العمل.

اعتادت أن تهيئ شاياً بدون أوراق شاي: كانت، ببساطة، تضع السكر في ملعقة، وتسخنه على النار. وحين يستحيل السكر كتلة لزجة، تغمسه في الماء المغلي. كم أحببت شايها، كنت غالباً ما أختبئ من حراسة أمي المسيحية كي أحتسي من شاي مريم. أن فيه، على الأقل، سكراً كثيراً، وليس فيه ادعاء الحليب. فكرت أن أحدث زائري بهذا، لكني قلت فقط:

«علينا أن نكون ممتنين للأفضال الصغيرة: فبعض الناس يشرب الشاي بلا ورق شاي ولا حليب».

«أوه... غالباً ما كانت أمي تفعل ذلك حين لا تستطيع تأمين ورق الشاي. إنها تخبز السكر في ملعقة: ونحن نسميه دائماً السخام. كانت تقول ضاحكة: كاريغا، أتريد شيئاً من السخام بالسكر؟».

نظرت إليه بحدة، وقلت:

«من أين أتيت؟».

«من كاميريثو. أنت تعرف، كـ وا ـ مبيرا. ليمورو».

«تعني أنك أتيت عبر كل هذه المسافة، من ليمورو؟».

«نعم».

«ليس على قدميك، كما آمل».

«بعض الطريق. ركبت في سيارة أجرة. كانت غاصة بالناس. يبدو أن مالكها مقتنع بأن في السيارة الفورد ـ أنجيليا، ذات السعال، مساحة ليس لها حدود. كان يقول: «لنحب بعضنا، ونجلس جيداً، أنبئك أن هذه السيارة أكبر من شاحنة». ويصعد فيها مسافرين جدداً. كنا أكثر من عشرين فيها، وكان الطريق وعراً».

«كل الطرق إلى كل مكان في هذه المنطقة... وعرة».

«ربما عبدوها يوماً».

تذكرت الطائرة، واللاندروفر، وفريق المسح الذي غرز في المورورغ، أمس الأول فقط، أوتاداً حمراء. طريق دولية عبر المورورغ. فجأة أردت أن أضحك من الفكرة المنافية للعقل. سألت نفسي لماذا لم يمدوا طرقاً مفيدة أصغر، قبل تفكيرهم بالطرق الدولية؟ ففي الأقل ستكون رحلتي إلى روا ـ ايني، ومنها، أسرع بكثير، ولبلغت بيتي أقل تعباً، ولربما تجنبت هذا اللقاء بغريب. لكني شعرت بالمرارة، فجأة، والتزمت جانب فلاح المورورغ: هم لم يمدوا طريقاً، حتى يسيل المال كالنهر. وانفجرت: نعم. نعم. حتى تنبت للضباع قرون. دهشت لكلماتي. ففلاحو المورورغ ورعاتها، حاربوا الأرض والشمس، سنين وسنين. دون مساعدة من الطرق المعبدة والنقل المعتمد. والشبان والشابات، على أي حال، تسربوا إلى المدن، وخلفوا المسنين يحرثون الأرض، والمسنون أنفسهم ليست لديهم القدرة كي يزرعوا للأسواق الكبيرة. أما الرعاة، فالعادة إنهم يزيدون عدد ماشيتهم، لتنفق عطشاً أو وباء. ربما قالوا لعنة من الله، وهم يتوغلون أبعد في السهول. في ذهني، أقارن الآن بين هذه الزاوية البائسة ومدننا: ناطحات سحاب مقابل جدران طين وسقوف حشيش، طرق معبدة ومطارات دولية وكازينوات قمار مقابل دروب المواشي وأحاديث ما قبل الغروب. سادتنا السابقون خلفوا لنا أرضاً شديدة التفاوت في زراعتها: الوسط منتفخ بالفاكهة والماء الممتص من بقية الأرض، بينما الأقسام الخارجية تضعف تدريجياً، وباستمرار، مع ابتعاد المرء عن الوسط. ثمة حكاية عن قوم كالأقزام هم «الغومبا» عاشوا قبل جيل «المانجيري» بزمن طويل، قبل العصر

الحديدي في كينيا، وكانت رؤوسهم بالغة الضخامة تعتمد بصورة خطرة على بقية الجسم. وتقول الأسطورة أن الغومبي حين يسقط لا يستطيع إنهاض نفسه إلا بمساعدة من الخارج.

مثلما تسللت، فجأة، إلى وعيي، هذه الأفكار الغريبة على حياتي في الموروغ، أحسست بأن لحضور هذا الشاب عبئاً على روحي: ماذا يهمني إن افتقد الفلاحون هذا الماء النقي؟ ماذا يهمني إن كان الرعاة ذوي عيون منتفخة، وإن كانت مواشيهم تنفق في الجفاف؟ ماذا يهمني إن غادر القادرون على العمل الموروغ بحثاً عن الجزة الذهبية في مدن الوعود المعدنية... ولا أمل؟ ماذا يهمني هذا كله؟ لم أرد، ولن أريد أن أكون القيم على أخي.

لم أكن البتة، ذلك الذي تهمه الأضواء العامة، أو المهتم حقاً بشؤون الآخرين. كانت حياتي مسلسل أحداث غير مترابطة: كنت سعيداً في ملاذي بالموروغ، في الأقل قبل مجيء وانجا. وها هو وجهها أمامي ثانية، مرسوم جميلاً وحزيناً على أفق كينونتي. ماذا كانت تفعل بي؟ ماذا حل بطفلها؟

سألت الشاب بجفاف، ببرودة في الحقيقة:

«أي عمل تعمل؟».

«عمل؟ لا أعمل شيئاً... لا شغل حتى الآن... لقد طفت المدينة كلها... حسناً، لهذا جئت... حتى قبل عام أو نحوه كنت أذهب إلى المدرسة ـ».

«أي مدرسة؟».

«سيريانا!».

وسمعتني أقول، وأنا أنظر إليه باهتمام متجدد:

صب لنفسك، رجاء، شاياً آخر».

كان يقرع بأصابعه كوبه الفارغ، ناظراً إلى الأرض، كأنه يحاول الاستمرار في الحديث فلا يعرف كيف. ناولته الإبريق، فصب الشاي في كوبه. الوجه. الوجه. إنه يشكل الآن خيالاً ضئيلاً في الذاكرة.

«أخشى ألا أستطيع أن... إيه ـ؟».

«إنه لزمن طويل. اسمي كاريغا. لكني لا أتوقع أن تتذكرني فوراً. أعتقد أنني كبرت قليلاً. اعتدت أن أقطف أزهار حشيشة الحمى في حقول أبيك». توقف، لكنه أحس بأني ما زلت غير قادر على تعيينه. استمر:

«كانت مريم أمي. وقبل أن ننتقل إلى قرية «الطوارئ» الجديدة عام 1955، كنا نعيش في مزرعة أبيك».

قلت: «مريم... أأنت ابن مريم؟».

«نعم».

«لا أستطيع أن أتذكرك... لكني... أعرف أخاك ندنغوري. كان رفيق لعبي. بل كنا نمضي معاً لصيد الظباء راكضين في الدغل الشائك بمزرعة أبي. لم نصد ظبياً... لكن هذا كان قبل 1952 بكثير».

«أنا لم أعرفه... وليس لدي عنه سوى انطباع غامض ضبابي... لكني سمعت عنه مؤخراً، وكونت عنه تفاصيل قليلة أخرى... ولكن في الخيال فقط».

«أنا آسف لما حدث».

«تعني شنقه في غيتنغوري؟ كانت تضحية جمعية. كان على قلة أن يموتوا من أجل حريتنا... لكن الأمر غريب... أنت الآن تقول إنك تعرفه... وأنا لا أعرف حتى بأن لي أخاً... مات ـ حتى أخبرتني موكامي».

«موكامي!».

«نعم... تماماً قبل أنت موت».

«موكامي... أختي... أتراك... لكن كيف استطاعت هي...؟».

«أظن أباك هو الذي أخبرها».

حاولت أن أتمثل هذا كله: ما دخل هذا الغريب بأبي، وموكامي، وموت مونغوري قبل سنين؟

أردت أن أعرف أكثر ـ كيف، وأين توغل كاريغا في كل هذا... لكن كيف أستطيع أن أسأل ولداً غريباً عن سر يتعلق بعائلتي ذاتها؟

بدل هو الموضوع، وتحدث كما لو أن ما كشفه كان مصادفاً، ولا علاقة له بالزيارة.

«لكني لم آت لهذا السبب...».

«نعم».

«جئتك لأنك علمتني في مانوغو. ألا تتذكر؟».

تسلل إلى صوته إصرار ملح. لكن كيف لي أن أتذكر؟

أناس كثيرون اشتغلوا أجراء في مزرعة أبي، وسكنوا فيها. تلاميذ كثيرون مروا في مدارس علمت فيها. قد أتذكر القليل منهم. لكن هذا الفتى الماثل أمامي؟ آه... من أكون لأحتفظ بمخزن لكل العيون التي

علمتها؟ قلَّبت الخيال في ذهني، هذه الطريقة، وتلك. نظرت إلى كاريغا. كان وجهه متألماً، فتياً، متلهفاً... وفجأة... ارتفعت ملامحه من الضباب... سبع سنوات أو تسعاً من الماضي. كان تلميذي في مانوغو، وكان أحد الأوائل الذين نالوا مقاعد في «سيريانا». وقد عد هذا شرفاً عظيماً للمدرسة والمنطقة. ومع أنه يعرف أني لست المدير، فقد جاءني بأوراق تحتاج إلى توقيع مسؤول أقدم يشهد لشخصية المرشح... إلخ. من أكون أنا لأقيم أخلاقية الناس؟ لكن أظن أن المسألة بالنسبة له كانت طريقة لإبداء الرفقة: فأنا الذي سبقته بسنين هناك علي أن أكون شاهداً على ارتقائه إلى عوالم أعلى. وضعت اسمي على الوثائق مبعداً الفكرة الملحة عن أنهم لو دققوا السجلات فسيكون اسمي ضرراً له. واليوم، وبعد عدة سنوات... يعود، ربما ليخبرني عن ارتقائه إلى عوالم عليا جديدة. الحق أن هذا هو الثواب الحقيقي للتعليم: فبين وقت وآخر تلقى امرءاً بلغ أبعد من أبعد أحلامك، أبعد من أجمل آمالك، هذا المرء يعود شاكراً لك، فتفرح. فجأة أصبحت في حالة من الخفة والنشاط. نسيت تعبي مع وانجا. وأبعدت الأفكار المتعلقة بموكامي وأبي وكذلك كله. وبدا أني أحبه أكثر، والواقع أنني شعرت بالتشريف لزيارة من طالب جامعي.

«واقتحمت طريقك، بنجاح، في سيريانا؟ أذهبت إلى ماكيري أو نايروبي؟ كيف الحياة في الجامعة؟ أنت لا تدري كم أنت محظوظ: لقد زادت الحرية، حقاً، من فرصنا، نحن الأفارقة. كم عدد الجامعات الآن؟ ثلاث. في زماننا لم تكن لدينا إلاَّ تلك المدارس العليا. وهكذا، فأي جامعة؟ لو ذهبت إلى الجامعة لدرست أما الحقوق أو الطب. محام أو طبيب. فأنت تكسب مالاً كثيراً من هاتين المهنتين. لكن أن تكون معلماً؟ نحن نعمل فقط في سبيل الله. أظنك

طوفت المدينة الكبيرة باحثاً عن عمل أثناء العطلة؟ مصروف جيب... أعرف ما هي الأمور. في سيريانا اعتاد والدي أن يعطيني شلنين. ماذا تدرس؟ كنت متحمساً لنجاحه بحيث فسرت تململه باعتباره تواضعاً ـ قرع كوبه بأصابعه، ثم وضعه على المصطبة.

«هذه النقطة ـ حسناً... لم أكن في أي جامعة ـ اللهم إلا في جامعة الشوارع. فقد طردت من سيريانا.

«طردت؟».

«نعم».

«من المدرسة ـ سيريانا؟».

«نعم».

«لكن لماذا؟».

كان هادئاً، مستغرقاً مع نفسه، كأنه يبحث عن قوة عصبية ليقفز.

«قصة قديمة. أسمعت عن الإضراب؟».

«إضراب؟ أي إضراب ـ أعني متى كان؟».

«العام الماضي، في أواخره. لقد كتبت عنه افتتاحيات في الصحف ـ كل الصحف اليومية».

لم أكن، البتة، قارئ صحف، أو مستمع إذاعة. وإذا ما اشتريت صحيفة نظرت فقط إلى عنوانها الرئيسي: لم أقرأ، أبداً، المقالات الافتتاحية، أو المواد الأخرى، والأخبار، خاصة ذات الطبيعة السياسية، فقط الإعلانات وقصص المحاكم، خاصة المتعلقة بالقتل. هذه أقرؤها بتوق شديد، عدة مرات أحياناً. أما وقد قال هذا، فأظن

أنني سمعت شيئاً عن إضراب في سيريانا، لكنه اختلط في ذهني بالماضي الذي أكاد أنساه، لذا لم أتبع القضية. قلت له:

«لا أكاد أقرأ الصحف. لقد عشت في عالم ذاتي. سمعت عن إضراب حول الطعام أو شيء آخر».

قال بمرارة: «إنهم يحيلون، دوماً، مظالم كل الطلبة إلى الطعام. والصحف لم تكتب شيئاً عن قضيتنا: فقط افتتاحيات تلومنا ـ أنت تعرف: الأمور المألوفة: أموال كثيرة تنفق من دافعي الضرائب، وكل ما يهتمون به كروشهم! هذه الكتابة تريحهم في عماهم. لكن، لا شك أنك قرأت عن فرودشام؟».

«فرودشام، كيمبردج فرودشام؟».

«نعم... أعرف أنه ذهب؟».

ذهب؟ كيمبردج فرودشام ذهب؟ كيف؟ لا أكاد أصدق هذا: فرودشام كان سيريانا كانت فرودشام. لعنت انصرافي عن الصحف. لو أنه قتل أو حدث له شيء آخر ـ لكن فرودشام! كان لجهلي الواضح وقع على كاريغا كوقع الماء البارد حين يرمى على ضيف أثناء دخوله منزلاً. لقد انحسرت حماسته المنفعلة حتى حين استثير فضولي وحماستي. إضراب آخر... ينتهي بهزيمته فرودشام ورحيله النهائي!

منذ تلك الليلة قرأت رد الفعل الشاك لكاريغا على رحيل الرجل. إن في كلماته شعراً وجمالاً وحزناً وظفراً وا:

لا أصدق

لا أصدق أن قوتنا الموحدة

التي لم تجرب قبلاً

استطاعت أن تحرك الجبال

بينما أخفقت صلوات الأمس.

إنه ما يزال غائباً

لم يعد هناك حين ينفخ في البوق

ويرفع العلم ـ علمنا المثلث الألوان.

أغنية الشاعر حق:

خضراء هي أرضنا

أسود هو الشعب الأسود

أحمر هو دمنا.

لكني، في تلك اللحظة، وأنا جالس وسط عتمة بيتي المحايدة، أحسست إحساساً غريباً: ها أنذا، جمرات فضول اتقدت بما كشفه كاريغا، إلا أني لم أكن قادراً على أن أسال أسئلة. كاريغا، الآن، هو الذي يطلق السؤال إثر السؤال، دون أن يترك لي فرصة التقاط أنفاسي لأجيب أو أرد: أي سنين كنت في سيريانا؟ أخبرته. هل عرفت حقاً كيمبردج فرودشام؟ نعم، قليلاً. يجب أن أكون قد عرفت جوي ـ شكسبير أو جو لويس. نهضت رغماً عني. ماذا؟ جوي؟ وجاءني ذلك الإحساس المزعج بماضي ميت ينبعث فجأة أمام عيني... دون أن أكون متهيئاً له. وعرفت في الوقت نفسه أنني خيبت أمل كاريغا، أنا الذي كان يجب أن أكون مدعياً، خادعاً، أمام عينيه المتفحصتين. إنه الآن أيضاً على قدميه. حاولت، لكني لم أستطع أن أعيده إلى الجلوس. وهكذا وقفت عند الباب، وراقبته ينصرف. الشمس الغاربة

خلفت ظلالاً من العشب والدغل على امتداد الأرض. أي شيء آخر أراد أن يعرفه؟

استغربت، ثانية، من عمق قلقي. ألم أتخلص من كل فردوشام، وكل جوي، من السيريانات، والاضطرابات، والسياسة، ومن كل شيء، منذ سنين؟ بين وقت وآخر، قد يسمع المرء، مصادفةً، عن نجاح سيريانا الباهر في الامتحانات العامة، تحت مديرها الغريب الأطوار، لكني لا يمكن أن أتورط في أمجاد مدرسة رفضتني. لماذا تتبعني هي إلى الموروغ؟ أحسست بحنين مفاجئ إلى ذلك الزمن غير البعيد، حين كانت مدرستي ودكان عبد الله كل حياتي في الموروغ. فكرت في أن أعد لي كوب شاي آخر قبل الذهاب إلى عبد الله، كي نحتفل. كان الموقر هالوز ايرونمونغر يقول إن الشاي منشط جيد، وكان يرى الجنة مكاناً فيه كمية لا تحد من الشاي والمقانق. إذاً... أنا أنزلف إلى الماضي ذاته. لقد بدأ الأمر مع وانجا، وفي هذا الشهر الأخير، عشت حياتي في أكواب الذاكرة المكسورة، بين هذه المدرسة الشبح، والباحة الخلفية لدكان عبد الله، وبيت وانجا.

لا. يجب ألا أفقد قبضتي على الحاضر. رحلتي السابقة إلى روا - ايني مثلاً. أترى سيأتي مزيغو إلى الموروغ؟ لم أعد أعبأ الآن، إن جاء أو لم يجيء، وإن خفت فقط، مؤخراً، أن يأتي فجأة، فلا يرى تلاميذ، أو يرى التلاميذ قليلين بحيث يداوم كل صف نصف دوام... فربما نقلني إلى أماكن خلفتها، وأناس تركتهم، حارماً إياي من تحدي البناء الوطني في الموروغ البعيدة: مملكتي الجديدة.

حاولت جاهداً أن أبعد عن ذهني هذه الزيارة غير المتوقعة لتلميذ سابق. لقد خلفت هذه الزيارة أسئلة عديدة بلا جواب: ماذا وراء ذهاب فردوشام، ومجيء جوي المباغت؟ خوف بارد من زيارة

كاريغا استقر في معدتي بصورة غير مريحة. لكن ما الذي أخافني؟ أمواجهة أمر تركته إلى الأبد؟ أم أنني، ببساطة، خائف من الانجرار في حياة شخص آخر، وصراعاته الداخلية، شاهد مرغماً على صراع شخص آخر مع الله؟ ويترك يعقوب وحيداً، يتصارع شخص معه حتى انبثاق الصبح. وحين رأى الرجل أنه لم يتغلب على يعقوب، لمس تجويف فخذه، وخرج فخذ يعقوب عن مفصله وهو يتصارع معه، ثم قال لن أدعك تمضي حتى تباركني... دعني أذهب، دعني أذهب، صرخت لنفسي: لماذا توقظ أصوات الماضي.

أغلقت الباب، وخرجت. الآن أذهب إلى دكان عبد الله. نهق حمار عبد الله، وكأنه يقرأ أفكاري، مما أفزعني. توقفت. من أين يستطيع كاريغا أن يجد سيارة في هذه الساعة؟ هكذا عدت إلى البيت، وأخذت دراجتي المسندة إلى الحائط، وانطلقت وراءه. من الخير له أن يقضي الليل هنا. سأعرف عنه المزيد: سيريانا، موكامي، كل شيء. لكني أحسست ما أحسسته في لقائي الأول مع وانجا، إن هذا كان تهديداً آخر للطمأنينة التي فرضتها في هذه الأرض.

4* وانجا أيضاً، بعد اثنتي عشرة سنة، وهي تتماثل للشفاء في مستشفى الموروغ الجديدة، حاولت أن تستعيد تلك الفترة: الليلة التي سردت فيها حكايتها لأول مرة، وسهرها القلق في اليوم التالي، كانا يدوران طليقين في ذهنها المضطرب.

فكرة الاحتفال بعودة جوزيف إلى المدرسة، بداية الحصاد، أملها هي، هذه كلها كانت الدراما التي خلقتها بنفسها. وها هي الآن في المستشفى، تستعيد تفاصيل ذلك اليوم البعيد.

كانت قد استيقظت مبكرة، ورافقت جدتها إلى الحقل. جيد أن تقطف الفاصولياء في الصباح قبل أن تشتد حرارة الشمس. في هذه

المناسبة، كان لهما ظل إضافي من نبتات الذرة التي تبدو جد بطيئة في النضوج. كان ثمة الكثير من نبتات الفاصولياء التي ينبغي اقتلاعها، ودرسها، ومن ثم تذريتها في ذلك الصباح، وحين أتمتا كل شيء، لم تكد حبوب الفاصوياء تملأ كيساً. هتفت نياكينيوا: «أي حصاد هذا! كأن أرضنا منهكة. فهي لا تتلقى من الماء ما يطفئ غليلها. في الزمن البعيد كانت أرض مثل هذه تغل ثمانية أكياس أو عشرة كهذا الكيس.

غامرت وانجا بالقول: «قد تغل الذرة أكثر».

قالت نياكينيوا مستنكرة: «هذه الخيوط!» ثم لم تزد كلمة أخرى.

عادتا بحصادهما إلى البيت. وتمشت نياكينيوا عبر الحقول، لترى إن كان جيرانها ذوي غلة أوفر.

وانجا ذهبت إلى دكان عبد الله. كان الوقت بعد الظهر. وهي تعرف أن الزبائن لم يصلوا بعد. لكنها كانت تواقة إلى أن تبدأ عملها، فتاة مشرب في المورروغ، وإلى أن تقتل الوقت أيضاً. كانت شديدة التوق إلى الاحتفال، قبل بزوغ القمر في منتصف الليل.

خلال بعد الظهر، ظلت وانجا ترتب الأشياء والعلب، وتعيد ترتيبها على الرفوف. كان وقتاً مليئاً بالعمل، وقد وجد ثلاثتهم ـ عبد الله وجوزيف ووانجا ـ ما يشغلون به أنفسهم. جوزيف لم يبدأ المدرسة بعد: فهي مغلقة اليوم بسبب ذهاب منيرا إلى روا ـ ايني. كانت عملية تنظيف كبيرة. وطلبت وانجا من عبد الله أن يصلح رفوفاً قليلة، وكذلك الطاولة في إحدى غرف الدكان الخلفية التي كانت تستعمل مشرباً. قال عبد الله إنه سيقوم هو نفسه بالعمل يوماً ما. وكنست وانجا وجوزيف الأرض، ورشا الماء على التراب. وخارج المبنى علقت وانجا لوحة:

الدكان+ المشرب مغلقان بعد ظهر اليوم ـ جرد محتويات.

لكن المحتويات التي تجرد قليلة، كما أن الزبائن، خاصة بعد الظهر، قليلون. ومع هذا كان عبد الله مسروراً بتجديدات وانجا، وخاصة بجديتها في العمل. كانت مسيطرة على عملها، ومنهمكة في نفض التراب هنا وهناك، وتسجيل المحتويات في دفتر، بحيث نسيت تعب الحصاد الصباحي. وكان عبد الله متعجباً: هكذا سيكون دكانه ومشربه ذوي شأن، أخيراً.

حوالي الأصيل، رفعت وانجا لوحة الجرد، ووضعت أخرى: الدكان مفتوح الآن. جلسوا خلف النضد ينتظرون الزبائن. لكن لم يأت أحد. نهضت ثانية. وضعت لوحة أخرى: تنزيلات تصفية مستمرة. ورسمت تخطيطات لدكان وأناس يجرون نحوه مسرعين. بضعة أطفال جاؤوا يشترون الحلوى. ضحكوا وعلقوا على تخطيطات الناس الصغيرة. حاولوا أن يتهجُّوا الكلمات على لوحة الإعلانات، وحين تعرفوا على كلمتي: تصفية وتنزيلات، أسرعوا إلى آبائهم يخبرونهم بأن دكان عبد الله سوف يغلق، وأنه يلقي بكل شيء. خلال ساعات قليلة امتلأ الدكان بالزبائن الذين سرعان ما عرفوا غلط أبنائهم. لكنهم أعجبوا بحلة الدكان الجديدة، وبقي القليل منهم هناك، يتحدثون، ويحتسون البيرة. أخرجت وانجا كراسي لهم، وجلسوا على الشرفة، يشربون، ويتحدثون عن الحصاد طوال الوقت.

لكن حتى هؤلاء انصرفوا فيما بعد، وجلست وانجا بصبر، خلف النضد، تنتظر آخرين. وأخذ ذهنها يهيم. هذه الليلة يشرق البدر: الليلة كانت تنتظرها منذ جاءت إلى الموروغ، وهي تأمل في ألا يحدث ما يعكرها. إن الاحتفال بعودة جوزيف المتأخرة إلى المدرسة ليس سوى جزء مما خططت له ـ ليس سوى مصادفة. مع أنها مصادفة مفرحة

حقاً لنفرض أن منيرا لم يأت... لكنه سيأتي. يجب أن يأتي، كانت إلى حد ما واثقة من سلطتها على الرجال: كانت تعرف كم هم ضعاف أمام جسدها. أحياناً تخاف من هذه السلطة، وكثيراً ما أرادت الفرار من ممالك المشارب. لكنه لم تكن صالحة لعمل آخر، إلى جانب أنها جاءت لتتمتع بتيهها لبسمة، أو نظرة معينة، أو حتى غمزة حاجب - أو إشارة مثل الاحتكاك «غير المقصود» بزبون - جاءت لتتمتع بأن تجعل الرجل أسيراً، وأحمق يرهقه الأنين. هكذا فكرت بارتجافة متألمة لهذا الاعتراف. لكنها في لحظات التأمل الرصينة كانت تتوق إلى الطمأنينة وانسجام النفس: فغالباً ما تخلف لحظات النصر والمجد السريعين، فراغاً، وخواء، لا يمكن أن يمتلئا إلا بمزيد من الانتصارات السريعة.

ثم تدرك، وهي تصارع في أعماق هذا الخواء، تدرك فجأة، أن الرجال، في النهاية، هم الذين انتصروا، ومشوا على جسدها، مشترين الأمان إزاء التورط، بالمال، والبسمات الخبيثة، أو نوبات الغيرة الشديدة. غالباً ما كانت تبحث عن شخص تتورط معه، شخص تريد أن تعتني به، وتفخر بحمل طفله. لهذا السبب تجنبت الاتجار المباشر، ولهذا أيضاً هربت من بنت خالتها التي أرادت أن تزجها مباشرة في السوق. لا. إنها تفضل الصداقة، إن كانت مؤقتة، تحب أن يتودد إليها، ويظفر بها، وتتمتع بذلك، وتفرح حين يشتري لها ثوب أو شيء آخر دون أن تطلبهما في مساومة. كانت تحب أن تكون وراء النضد. ثمت، تجلس على الكرسي العالي، بعيدة عن الهرج والمرج، تدرس الناس لتحكم على وجوه الرجال جيداً. وتميز بين العاطفي، والحساس، والفظ، والقاسي، والذكي - أولئك الذين تمنحها أحاديثهم وكلماتهم سروراً خاصاً. وقد استنتجت أن خلف أغلب الوجوه، وحدة، وضياعاً، وقلقاً... مما كان يبعث في نفسها

الحزن حتى الرغبة في البكاء. ومن ناحية أخرى، كانت في الغالب، لا تطيل التفكير، فتتمتع بعملها، إلى حد يجعل أرباب العمل يتشبثون بها. إنها تحب الرقص، وسماع الأسطوانات، وتحفظ كلمات أحدث الأسطوانات: في مناسبة، أو اثنتين، حاولت التلحين، لكن اللحن لا يأتي. أرادت دائماً أن تحقق شيئاً، وهي تجهل ما هو، لكنها تشعر بأنها قادرة على تحقيقه. وحين تعزف موسيقا حية ـ قيثارة أو فلوت ـ تفكر بأنها تحس هذه القوة في داخلها، هذه القوة على تحقيق ـ ماذا؟ إنها لا تعرف. غالباً ما تتخذ الموسيقا هيئة الألوان ـ ألوان جريئة تتحرك ـ وهي تمزج هذه الألوان، في تشكيلات مختلفة، مع عيون الناس ووجوههم ـ لكن... أثناء استمرار الموسيقا، حسب.

إنها تطوف من مكان إلى مكان، بحثاً عنها، أو عن رجل يقول لها: ها هي ذي. ثم تظن أنها عرفت. طفل. أجل. طفل. هذا ما يصرخ جسدها طلباً له. تعلمت أن تحتاط بسبب تجربتها السابقة. لكنها الآن تركت كل الموانع وانتظرت. ولعام أو نحوه جربت. وكلما فشلت في رؤية العلامة ازدادت حاجتها، حتى لم تعد، في النهاية، تحتمل العذاب، فجاءت إلى جدتها طالبة منها النصيحة. أخذتها نياكينيوا إلى مواثي واموغو، وهو ـ والحق صوته ـ الذي اقترح عليها تلك الليلة، القمر الجديد. لكنها لم تقل شيئاً عن حبلها الأول.

لم يأت زبائن آخرون في المساء، بدأت تتململ. حتى منيرا رفض المجيء. رغم وعده. تألمت. ثمت خطأ هذا اليوم. ثمت خطأ. حتى القمر لا يبزغ. ربما ـ ومن يكون مواثي بعد ذلك؟ صوت؟ صوت فقط من وراء جدار. أي خرافة!

قالت لعبد الله، فجأة، وهي تشرب: «عبد الله، رجاء، أريد أن أذهب إلى البيت».

«لا أعرف لماذا تخلف منيرا. ربما تأخر في روا ـ ايني. لكن الوقت ما يزال مبكراً، وقد يجيء...».

قالت: «مع هذا يجب أن أذهب». واستغرب عبد الله من تبدلات مزاجها الكثيرة. لكنه كان مسروراً بعملها، وبمنظر الدكان.

«سأسير معك بعض الطريق».

قالت ضاحكة: «كل الطريق... أي احتفال! جوزيف لم يبدأ مدرسته اليوم، حصاد الفاصولياء لم يكن شيئاً، ومنيرا لم يأت، وأنا لم أبع بيرة كثيرة»، وأضافت مفكرة: «ترى هل سيطلع القمر في السماء؟».

* * *

غادر والد كاريغا وزوجته ليمورو، وانتقلوا إلى «وادي ريفت» في العشرينيات. عاشوا «تعَّابة» في عدة مزارع أوروبية، يعملون مجاناً، مقابل حقوق في الرعي والزراعة على أراضي المستوطنين.

كانوا يمنحون قطعة أرض في الغابة: يزبلون أشجارها، وينظفونها، وبعد سنة يطردون منها، ليمنحوا أرضاً بكراً أخرى ينظفونها للمالك الأوروبي. هكذا تنقلوا من مالك إلى آخر، حتى انتهوا إلى البورغون. في هذا الوقت كان ماعزهم قد فني، إما موتاً، أو غرامة، أو بيعاً إجبارياً «لمنع انتقال القراد والأمراض الأخرى»، فتحولوا فقط إلى العمل الكامل بأجور، في مزارع المستوطنين.

في البورغون اختصم أبو كاريغا وأمه. كانت تشكو واجباتها الثلاثة: طفلها ندنغوري، وزوجها، والمالك الأوروبي. كان المطلوب منها أن تعمل في المزارع الأوروبية، وفي قطعة أرضها الخاصة، وأن تحفظ شمل البيت وصحته وطمأنينته. في الوقت نفسه لم تكن لتحصل سنتاً

واحداً من منتوجها. كان زوجها هو الذي أخذ المنتوج، .ويبيعه للمزارع الأوروبي نفسه الذي يعين سعر الشراء، ولا يعطيها زوجها، بدوره، إلا ما يكفي لشراء الملح. تمردت: لن تعمل مجاناً في مزرعة المستوطنين، وطلبت أن يكون لها رأيها في بيع منتوجها. أشبعها ضرباً، فأخذت ندنغوري، وعادت إلى ليمورو، حيث توسلت للحصول على حق الزراعة من والد منيرا. في البداية رفض الأخ حزقيال. لكن حين نظر في عينيها، أحس بضعف في الجسد، فسمح لها ببناء كوخ، لكنه تأكد من أنها بنت الكوخ حيث يستطيع زيارتها دون أن يراه أحد. رفضته، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئاً، وهكذا أصبح ضعفه ورفضها يشكلان نوعاً من الرابطة بينهما، وسراً مشتركاً. كان يخاف أن تفضحه أمام الناس. لكنها لم تكن مهتمة بهذا. كان لديها ولدها ندنغيري لتعتني به. كان فتى طويلاً رائعاً في ثقته بنفسه. لم يكن ليقلقه أمر. وكان دائماً سندها، في مصاعب الحرب العالمية الثانية، وأثناء المجاعة، وغالباً ما كان يضحك من قلقها وخوفها عليه. وهو الذي اقترح المصالحة مع زوجها. خجلت حين عرض ابنها المسألة، وعادت لفترة قصيرة إلى زوجها في البورغون الذي أضاف الآن عروساً جديدة من «نانديِ» إلى زوجاته الأخريات. استمرت المصالحة شهراً فقط، وعاد العراك نفسه. فهربت ثانية، لكن كاريغا كان ثمرة ذلك الالتقاء القصير.

دخل منيرا وكاريغا الدكان، حال مغادرة وانجا وعبد الله تقريباً. كانا كلاهما مستغرقين في أفكار مختلفة عن ماض لا يستطيعان له فهماً. وقف جوزيف مستعداً.

قال منيرا «حسناً. هات يا جوزيف زجاجتي بيرة».

قال كاريغا: «لا أشرب. هات لي زجاجة «فانتا» رجاء».

«أتعرف ماذا تعني فانتا؟ Fanta...

Foolish Africans Never Take Alcohol

الأفارقة الحمقى لا يتناولون الكحول.

ترى أنني قارئ إعلانات نهم.أحياناً أفكر حتى بصياغة بعض العبارات».

«مشكلة بعض العبارات أو الأقوال التي ليس لها أساس حقيقي، إنها يمكن استعمالها لأي شيء. عبارة مثل الديمقراطية والعالم الحر مثلاً. تُسْتَعَمْل لتعني ضدها. طبعاً هذا يعتمد على من يقولها، وأين، ومتى، ولمن. خذ عبارتك هذه. فبالإمكان أن تعني أيضاً Fit Africans Never Take Alcohol.

الأفارقة الصالحون لا يتناولون الكحول.

نحن مصيبان كلانا. لكننا غالطان كلانا، لأن فانتا، بكل بساطة، مشروب أمريكي غير كحولي يباع في الموروغ».

ضحك منيرا، وفكر: إنه بالغ الجد، وقد بدأ فعلاً يلقي علي محاضرة... ربما من كتاب!

وهكذا شرب وحده، وانسحب من أفكاره الخاصة. لقد لحق بـ«كاريغا» واستطاع إقناعه بالمبيت الليلة. لكنه لم يعرف كيف يقدم موضوع حديثهما السابق. واضح أن كاريغا تجنب الإشارة إليه. رسم منيرا صوراً ذهنية لسيريانا، الزوجين ايرونمونغر، فردوشام، جوي، ندنغوري، موكامي: آه، موكامي ـ صورتها كانت الأكثر حياة في ذهنه: كانت هادئة الجمال ولكن ذات عينين جريئتين، خاصة حين

تضحك. إنها تحب النوادر العملية. مرة ثبتت دبوساً على كرسي، وجلس هو عليه، ليقفز وسط قهقهة الجميع، وقد غضب للأمر غضباً شديداً. لكنها أخبرته فيما بعد، أن أباه كان المقصود ـ كانت تريد أن ترى كيف يتصرف بوجهه الورع. ضحك منيرا. كيف يدخل كاريغا كاريغا في الصورة، وأين؟ هذه قضية تاريخ يعيد نفسه، وقد بدت له الكليشة في تلك اللحظة وهي مكتسبة، حقاً، أهمية جديدة. ترى، أيعيد أي شيء نفسه؟ فتح زجاجة البيرة الثانية، وملأ الكأس. راقب الزبد وهو يتضاءل إلى حلقة فقاقع بيضاء في الأعلى. وراقب فقاقع الهواء وهي تستبق صاعداً. قبل 1952 لم يكن مسموحاً للأفارقة أن يتناولوا مثل هذا الشراب، وكان منيرا، وهو صبي، يظن هذه الفقاقع في حلاوة السكر. لم يتم الزجاجة الثانية. ثمت كآبة. قطرة حامض. ففي معدة المرء لا يمكن لأي كمية من البيرة أن تغسلها. تحطمت ليلته مع وانجا، فهو لن يستطيع مرافقتها إلى بيتها، لأنها الآن هناك. لكنه ما يزال يحتاج إلى صوت بشري يزيل ما يساوره. اشترى ست زجاجات بيرة «توسكر».

قال لكاريغا: «لنذهب إلى بيت وانجا».

لم يكادا يتبادلان، طوال الطريق إلى كوخ وانجا، سوى كلمة أو كلمتين. طرق الباب، وكان ممتناً حين سمع مفاصلها تئن، إذ سيكون في البيت الآن أناس أكثر لاستيعاب صمت كاريغا النفور. نادت وانجا: «مرحباً، يا معلم، مرحباً... أوه... أتيت معك بضيف ثان. أنت تعرف حقاً كيف تأتي بالدفء إلى بيتي».

«اسمه كاريغا. وجدته ينتظرني قرب بيتي، وقد تحدثنا قليلاً».

«لكن... لا تتكلم وأنت واقف. اجلس».

قال عبد الله: «مرحباً يا معلم، كان بإمكانك أن تأتي بكاريغا إلى الدكان نحتفل. إنه دورك في مرافقة وانجا إلى بيتها اليوم». قالت وانجا متظاهرة بالغضب: «أنت تدهشني يا عبد الله. أتعني أنك لست سعيداً بمرافقة فتاة إلى بيتها؟».

أريد فقط أن أتأكد من بقاء دوري غداً على حاله»، قال هذا، وضحك.

كان الكوخ جيد الإضاءة بمصباح الضغط الموضوع على طاولة صغيرة قرب طرف الرأس من السرير. كان عبد الله مخفياً قليلاً بظل الستارة المطوية التي تستعملها وانجا عادة لفصل السرير عن مكان الجلوس. لكن وجهه متقد، وعينيه براقتان. ناول منيرا وانجا زجاجات التوسكر الست، وجلس على كرسي ذي حشية قرب الطاولة الصغيرة. كاريغا جلس إلى جانبه، مسقطاً ظله على وجه منيرا. أخذت وانجا تبحث عن فتاحة في درج صغير عند الحائط.

قال عبد الله: «انسي الأمر».

سألته: «أتراك ستفتحها بأسنانك؟».

«هاتي البيرة هنا، فقط».

أمسك بيده اليسرى زجاجة وضعها على ركبته: ثم أمسك أخرى بيده اليمنى، ووضع تسنينات الغطاءين إزاء بعضهما، وفتح الأولى بانفجار مفاجئ. كرر العملية مرتين، غير مبال، مثل ممثل أمام جمهور مأخوذ.

سألته وانجا: «كيف تفعل ذلك؟ لقد رأيتهم يفعلونها في المشارب، لكني لم أعرف كيف». ملأت كؤوسهم بينما حاول عبد الله أن يبين كيف تتم العملية.

«أنا لا أشرب».

«أتريد قدح حليب؟».

علق عبد الله: «غريب أن نرى هذه الأيام شاباً لا يشرب. تمسك بالأمر. لكني أخشى أن أراك بعد بضعة أسابيع غارقاً في الشراب... والنساء».

«آمل ألا أتخاذل».

وتابع عبد الله: «أمام ماذا... أمام النساء أو الخمر؟».

«عبد الله، كيف تأتي لك أن تضع النساء والخمر معاً؟ سوف يختار النساء، ويترك الخمر لكما... حليباً؟».

«لا... دعيني أشرب ماء. قدح ماء».

أتته بماء، وجلست على السرير، بين منيرا وعبد الله. قالت لعبد الله «عليك أن تشتغل فاتح زجاجات».

وقال منيرا «انشر إعلاناً. فاتح زجاجات ماهر يبحث عن عمل جيد الأجر».

«منيرا، هل أخبرت كاريغا بأننا نحتفل بإضافة عنصر جديد إلى مدرستك؟».

«لا. ولكنه التقى بجوزيف منذ قليل. جوزيف شقيق عبد الله الأصغر، سوف يبدأ دراسته يوم الاثنين».

بانت الحيرة على كاريغا.

قال عبد الله شارحاً الأمر: «لا شيء نحتفل به. حقيقة أنه يعود إلى المدرسة. لكن هذا ما ينبغي. نحن نحتفل بالحياة الجديدة إلى الموروغ، وبداية الحصاد الذي انتظرناه طويلاً...

استفسر منيرا: «كيف كان الحصاد؟ هل كانت غلته وفيرة؟».

قالت وانجا: «ليس كثيراً، وسوف يكون محظوظاً ذلك الفلاح الذي يملأ جونيتين من الفاصولياء... قال منيرا: «ربما الذرة».

أجاب عبد الله: «الذرة أيضاً لا تبدو مبشرة بخير . رغم أن حماري سيكون ممتناً لسيقان الذرة الجافة، وإلا فماذا ترين يا وانجا؟ أنت فتاة مشرب فلاحة» لكن وانجا لم تسمع الثناء. كانت تنظر إلى وجه كاريغا الذي ما يزال جاداً.

قالت بصوت عال: «كاريغا» أي اسم عجيب!» قال كاريغا متمثلاً: «قبل زمن بعيد سأل أحدهم هذا السؤال: ما هو الاسم؟ وأجاب أن الوردة تظل وردة حتى باسم آخر».

وفكر منيرا ثانية: «يتكلم كما في كتاب».

اعترضت وانجا: «آنذاك لن تكون وردة. ستكون ذلك الاسم الآخر... ألا تظن هذا؟ الوردة هي الوردة».

«الأسماء عجيبة فعلاً. فاسمي الحقيقي ليس عبد الله. إنه موريرا. لكني عمدت نفسي عبد الله. الآن يدعوني الجميع عبد الله».

سألت وانجا: «تعني أنك ظننت عبد الله اسماً مسيحياً؟».

«نعم، نعم».

ضحك الجميع. حتى كاريغا. تناول عبد الله زجاجة أخرى ليفتحها. قال منيرا: «دعني أجرب. فربما غدوت مساعد فاتح زجاجات...

قالت منتشية: «أوه... يا معلم... كانت مرحة حقاً، دون أي أثر للصوت والوجه المرتجفين، أمس، أو في الأصل المبكر اليوم، «كان

عبد الله يقص علي مثل هذه الحكايات العجيبة، أتعرف أنه قاتل فعلاً في الغابة؟ كان يظل أياماً وأياماً بلا طعام أو شراب: لقد دربوا أجسامهم على تناول القليل. وأنا متأكدة أنني سوف أموت لو فعلت فعلهم. هل ستحكي لنا، يا عبد الله، عن دوان ـ دوان كيمائي! لا».

انقبضت معدة منيرا قليلاً لهذا الكشف. كان قد أحس دائماً بهذا الخوف الشامل من تلك الفترة من الحرب: كما أحس بالذنب أيضاً، وكأنه لم يؤد عملاً كان عليه أداؤه. إنه ذنب الغياب! شباب زمنه الآخرون اشتركوا: التزموا جانباً: مما حددهم باعتبارهم شعباً مرَّ في التجربة، أما أن يفشل أو أن يعبر. لكنه لم يمر بالتجربة النهائية. كشأنه في سيريانا. نظر إلى كاريغا، الذي بعث، اليوم، ذلك الماضي الآخر. كان ما يزال ممسكاً بالزجاجتين. اعتدل كاريغا في جلسته: كان جسده متوتراً بالاندهاش. حدق في عبد الله: إنه مستعد ثانية، لالتهام الماضي، من رجل كان حاضراً آنذاك. نظر وانجا إلى عبد الله: اعتقدت أنه سيروي الآن قصة ساقه المقطوعة. تنحنح عبد الله. تبدل وجهه. بدا كما لو أنه غادرهم إلى أرض خافية عليهم، أرض تعود إلى ماض لا يستطيع سواه أن يفهمه. تنحنح نحنحة بطيئة مطولة. فجأة طار غطاء زجاجة من يد منيرا. لف وانجا وكاريغا أذرعهم على وجوههم، وفي هذه الأثناء... يبدو أن أحدهم ضرب الطاولة التي تحمل المصباح.

سقط المصباح، ومعه صوت زجاج متكسر. انطفأ النور. وغاصوا في الظلام. كان عبد الله أول من رأى الضوء الآخر، لهباً صغيراً في الستارة المطوية. صرخت وانجا بصوت فزع «النار!»، لكن عبد الله كان قد وثب، وأطفأ اللهب. حدث هذا كله بسرعة بالغة. أشعل منيرا عود ثقاب. قالت وانجا: «وراءك يا كاريغا قنديل»، ناول كاريغا،

منيرا، القنديل. أشعل منيرا القنديل. لكنه كان بديلاً بائساً من مصباح الضغط. كان النور شاحباً، وكانت وجوههم وظلالها واسعة رهيبة على الجدران. لملمت وانجا الزجاج ومصباح الضغط، ووضعتها جانباً، ثم عادت إلى منيرا.

«لم يحدث شيء. يجب أن تأتيني بآخر، وبعلبة فتائل أيضاً. عبد الله... يجب أن تفعل شيئاً بصدد خزين دكانك».

كان صوتها مرتجفاً. وتوقفت. صمت بارد في الكوخ. وظلت الظلال تتحرك هائلة على الجدران، في حركة متساوقة مع التمايل المؤدي للهب القنديل الضئيل ذي الدخان. ملأت وانجا الكؤوس. أراد منيرا أن يتحدث عن تعبير إعلاني بصدد البيرة، كي يعودوا إلى شربهم ونوادرهم. لكنه بدل رأيه. وظل الشراب بلا تناول. انتظر كاريغا، متلهفاً، أن يبدأ عبد الله قصته عن دوان كيمائي. لكن عبد الله نهض، فجأة، واعتذر، قائلاً إن وقت انصرافه قد حان. فربما وجد ساق جوزيف قد اقتطعها ضبع. خاب أمل كاريغا، وحدق في الأرض، كأنما فقد بانصراف عبد الله، اهتمامه بالجماعة. نظرت وانجا إليه، واعترت وجهها تقطيبة صغيرة حائرة، انحسرت فيما بعد. وقفت، ونظرت إلى شالها المرخي على رأسها، الآن، وتركته يسقط على كتفيها. استدارت، ثانية، ناحية كاريغا، وضحكت عيناها للحظة هفهافة. وشعر كاريغا بدمه يندفع في عروقه. لكن صوتها كان جاداً، أصيل اللطف. «أرجوك، يا سيد كاريغا، أن تترك لي البيت، دقائق»، ثم خاطبت منيرا، في نبرة خفيفة من نفاد الصبر «تعال، يا معلم، رافقني في جولة، جولة قصيرة فقط. إن لدي عقدة... وأنت الوحيد القادر على حلها!».

سارا صامتين، عبر ساحات القرية، عبر المماشي بين الحقول.

والتقطا صوتاً أو صوتين لأمهات ينادين أطفالهن «أسرع... وانته. لماذا حشوت نفسك هكذا؟. وإلا أكلتك الضباع».

وفيما عدا ذلك، كان المرتفع ساكناً إلا من أصوات كلاب القرية التي ظلت نابحة. أفكار عديدة كانت تطن في ذهن منيرا: من هو عبد الله؟ من هو كاريغا؟ من هي وانجا؟ ماذا أرادت الآن؟ شعر بالذنب، بسبب سوء تدبيره الذي اخمد جذوة الجميع. لكنهما حين اقتعدا العشب على تل الموروغ، أبعدت خفقات قلبه كل الأفكار المزعجة، وأخذ الدفء يعمر جسده، حينما أحس بأنفاسها الحارة، قريبة، في الظلام. من كل أفكاره، لم يستطع أن ينطق إلا بواحدة جاءت عادية مضحكة في العتمة.

«اشتريت لك كيلوين من الرز طويل الحبة، لكني نسيت أن آتي بهما».

قالت في صوت هادئ بعيد: «لا بأس، تستطيع دائماً أن تأتي بالرز غداً. وعلى أي حال، لديك زائر. من هو؟».

«إن الأمر لغريب. فقبل أسابيع حدثتك عن سيريانا، وجوي ـ عن كل ذلك. واليوم يأتي هذا الشاب، الذي درسته يوماً في مدرسة بليمورو، ويخبرني عن سيريانا، وعن إضراب، ويذكر جوي. وتكاد الحكاية تكون إعادة لماضيّ. لكنه لم يتمها لسوء الحظ».

وحدثها قليلاً عن لقائه السابق كاريغا. لكنه أهمل أي إشارة إلى ندنغوري وموكامي. كاريغا يعرف عن ماضي منيرا ـ فكيف يستطيع منيرا أن يحدث وانجا عن المخاوف التي أثارتها زيارة كاريغا؟ «غريب أنه كان في المدرسة نفسها التي درست فيها، وأنه انتهى إلى مصير مماثل». صمت منيرا، وانتظر إجابة وانجا. لكنها كانت نصف مصغية

فحسب. كانت تجلس جامعة ركبتيها بين يديها الاثنين، بحيث استقر حنكها عليهما، بينما هي تنظر إلى سهول الموروغ، في الأسفل. كانت تستعرض صور الأماكن والمشاهد التي مرت عليها. كانت تعلم أن تلك المشاهد غائرة عميقاً في ذكريات ألمها وضياعها، وانتصاراتها الماضية وخساراتها، وفتوحاتها الوقتية ومذلاتها، واعتزاماتها بدايات جديدة لم تكن سوى انطلاقات زائغة إلى لا مكان. تحدثت الآن هادئة، إلى نفسها، كما يبدو، متحاورة مع نفس هي واحدة فقط من بين عدة آلاف.

«أنت تتحدث عن الماضي آتياً يزورك... ثمت صورة واحدة ترد إلى الذهن دوماً. أينما ذهبت، ومهما فعلت... حسناً... إنها تتبعني. كان هذا منذ وقت بعيد. عام 1954 أو 1955، على أي حال، في العام الذي نقل فيه بعضنا إلى القرى، والآخرون إلى «الخطوط». أنت تعرف أن بعض الناس من جهة كابيت لم يذهبوا، بالضبط، إلى قرى، لكنهم بنوا أكواخهم على جانبي الطرق متلاصقين ببعضهم، غير أننا ما نزال نسميها قرى. خالتي ـ لكن دعني أحدثك أولاً عنها. كانت متزوجة من رجل يضربها دوماً. اتهمها بمعاشرة الرجال. إن كسبت مالاً من عملها في الأرض أخذه، وشرب به، وعاد إلى بيته يضربها. وفي أحد الأيام، أخذت ملابسها فقط، وهربت إلى المدينة. فيما بعد، صار زوجها من حملة رماح البيض ـ أنت تعرف ـ الحرس المحلي ـ وكان شنيعاً في قسوته، وأكله دجاج الآخرين، وخير ماعزهم أو خرافهم، بعد أن يتهمهم بأنهم من الماو ماو. على أي حال، عادت خالتي من المدينة، متألقة في ملابس جديدة وأقراط. ونظر إليها كل الرجال، الرجال الذين بقوا، نظرات اشتهاء. يقال إن زوجها ارتجف وانتحب أمامها طالباً الغفران. لكنها رفضت كل

محاولاته بامتعاض. نحن الأطفال، أحببناها، لأنها كانت تأتينا بأشياء... رز... سكر... حلويات... وكانت أعوامنا تلك عجفاء. في أحد أيام السبت عادت مع هداياها المألوفة. خالتي ـ شقيقة أمي ـ كانت تتجر في السوق. ويبدو أنها تأخرت هناك ذلك اليوم. لهذا جاءت خالتي إلى بيتنا. أعجبنا كلنا بفستانها، بكعبيها العاليين الأبيضين ـ غالباً ما كنا نتبعها في الشوارع ـ بكل شيء فيها. كانت تشبه كثيراً صور النساء الأوروبيات اللواتي نراهن في الكتب. حتى هيئتها، والطريقة التي ترفع بها حنكها كانت «على الموضة». حل الظلام الآن. وقفت خالتي، وقالت إنها ذاهبة إلى المرحاض، كذلك لكي ترى إن كانت أمها قد عادت من السوق. أما أمي التي كانت غريبة الهدوء، فقد نظرت إلى هيئتها، واستطعت أن ألاحظ الاستياء في عينيها. وفجأة، سمعنا صرخة. كانت ـ تقفقف الكلمات ـ الدم ـ صعب أن توصف، لأنها لا تشبه صرخة بشرية إطلاقاً. أسرع أبي وأمي ونحن الأطفال مندفعين خارجاً. على مبعدة ياردات قليلة من المشهد صرخت أمي، لكني لم أستطع أن أصرخ أو أبكي، فقد تحدر البول بين ساقي. «شقيقتي، شقيقتي الوحيدة»... صرخت أمي مندفعة إلى الأمام، نحو شكل خالتي المحترق. إنها تقف هناك، خارج كوخها المشتعل، وهي تشعل دون أن تصدر صوتاً أبداً... فقط الصمت.. صمت الحيوان. صرخات أخرى، وأقدام مسرعة.. وضجيج... «أطفئوا النور... أطفئوا النور»... كانت هذه آخر كلماتها».

تلفت منيرا حوله، متضايقاً قليلاً. لكأن الأمر يحدث الآن في المورروغ. أحس بالرعب في وجه وانجا، واليأس الخبيء في كل نبرة ناتئة اتخذتها وهي تتكلم.

«قيل، فيما بعد، إنها قد تكون احترقت أثناء إيقادها القنديل،

فربما انسكب بعض الزيت واللهب على ثيابها. لكن كان واضحاً أن زوجِ خالتي هوَ الذي فعلها. ربما ظن أن زوجة المدينة التي هجرته قد تكون داخل الكوخ».

«لكنه موت مرعب... الألم... الرعب العاجز».

«لا موت بدون ألم، إلا في الشيخوخة. لسبب ما، لم أرد تصديق أن زوج خالتي هو الفاعل. لم أرد تصديق أن أي رجل قادر على أن يكون بهذه القسوة. لقد أردت ـ في منتهى الطفولية ـ أن أعتقد بأنها هي التي أحرقت نفسها كما يفعل البوذيون، مما جعلني أفكر آنذاك بأن الماء والنار هما البداية، وأن الماء والنار في القيامة الثانية سيطهران الأرض من قسوة الإنسان ووحدته. أريد أن أخبرك، أيها المعلم، ثمت أوقات ـ ليست كثيرة ـ بل قليلة ـ أتذكر فيها بضعة أشياء ـ أنني أحسست كما لو أني أرض صاعدة إلى قمة الجبل، كي يرى الجميع أنني أطهر نفسي حتى العظام».

«وانجا. اسكتي. عمَّ تتكلمين؟»

استمرت في حديثها: «كانت عمتي نظيفة رغم ذلك، كانت تعتني بنا نحن الأطفال. زوجها كان من أشداء الماو ماو. وقد ازددت افتخاراً بها حين علمت، فيما بعد، أنها اعتادت نقل البنادق والطلقات إلى الغابة، مخبأة في سلة مليئة بالخضر. لم تكن مسيحية، وكانت تسخر من عادات أمي المسيحية. لكنهما كانتا متحابتين. كانت أمي تحترمها بطريقة خاصة ـ أما موتها فقد تأثرت له حقاً. قال أبي مرة «ربما كان من إرادة الله، بسبب مساعدتها الإرهابيين». كانت هذه العبارة بداية تداعي علاقتهما... هذا التداعي الذي غدوت، فيما بعد، ضحيته»...

توقفت. وللحظات ظلت منغمرة، وحدها، في تأملها، ثم قالت، وكأنها تستأنف حواراً مع واحدة من أنفسها المتعددة: «لا أظنني قادرة، أبداً، على حرق نفسي. هل أخفتك؟ إنها طريقة في الكلام. أنا مرعوبة من النيران. لهذا تبدلت حالتي في الكوخ حين رأيت النار. أريد أن أحصل على عمل...

«وانجا... أخبريني: ماذا حل بطفلك؟».

أحس كان جسدها يرتعد. ود لو لم يوجه السؤال. لم يعرف كيف يتصرف إزاء تشيجها الصامت.

سألها بقلق: «وانجا... ما الأمر؟».

«لا أعرف. أشعر فقط بالحمى. ظننت القمر طالعاً الليلة. أي خلوة على الجبل لأثمر فيها! أرجو أن توصلني إلى البيت».

عادا كما جاءا ـ صامتين. وجدا النور مطفأ. وكاريغا قد غادر. استعمل عود ثقاب، وأضاء القنديل. قالت وانجا: «أطفئه رجاء».

وقف كلاهما عند الباب... كان يعرف أن كاريغا لم يذهب إلى البيت لأن المفتاح ليس عنده. شعر منيرا بعرق بارد على جبهته. عاوده الخوف الذي عرفه قبلاً. لقد غادر كاريغا، مثلما جاء، غامضاً. ثبت عينيه في الظلام، خارج الكوخ، آملاً في اختراق السر، تخلصا من رعبه الداخلي.

بعد اثنتي عشرة سنة، سوف يأخذ منيرا هذه الليلة، باعتبارها مثلاً آخر على خبث وانجا وشيطانيتها.

كتب في إفادته: «حين أستعيد تلك الليلة على تل المورو،

أستطيع أن أرى عمل الشيطان فالسحر، والدهشة، والحيرة التي أحسست بها في ذلك اللقاء المهلك بين كاريغا ووانجا وعبد الله وأنا، لقاء يتحكم به أناس لم يكونوا ثمت بيننا، وليسوا، الآن، سوى أصوات من الماضي. لكن ذلك الليل، كان يتغير، عندي، تغير ألوان قوس قزح. فحتى قبل أن أودعها، وأنصرف إلى بيتي، رأيت في الأفق البعيد، قمراً برتقالياً يبزغ، تكاد تحجبه العتمة والسحب الرمادية. راقبناه يطلع، وحجمه يكبر شيئاً فشيئاً، حتى يسد الأفق. امتلأ قلبي، وبحثت عن العبارة التي تستوعب التجربة ـ قمر في قطرة مطر رمادية، أو عبارة أخرى مماثلة. أما وانجا، التي كانت تبكي قبل بضع دقائق فقط، فهي الآن مهتاجة مثل طفل صغير إزاء قطرات المطر الأولى. وصرخت منتشية: «القمر... القمر البرتقالي... أرجوك، يا معلم، ابق الليلة هنا... اكسر علي القمر». صوتها المتوسل جعل منيرا يفز من أفكاره. هو أيضاً أراد أن يقضي الليلة هناك. وخض جسده ارتعاش فرح. آه... يا حصادي. إلى الجحيم كاريغا وكل ذكريات الأمس المزعجة... هكذا فكر وهو يتبع وانجا داخل الكوخ.

* * *

الفصل الرابع

1* لو صبرت وانجا، وانتظرت بزوغ القمر الجديد على مرتفع الموروغ ـ كما نصحها مواثي واموغو ـ لشاهدت هي ومنيرا منظراً من أروع مناظر الدنيا وأسماها، حيث المرتفعات والسهول مغمورة بضباب من ضوء القمر، في انسجام من السلام والسكينة: أي روح بشرية، مهما كانت قلقة محتدمة، سيفعمها الاطمئنان والهدوء أمام المشهد. إن تلعة الموروغ، حتى بدون قمر، تشكل منظراً من أجمل مناظر العالم... هذه التلعة وهي تنحدر إلى السهول التي يجري على امتدادها نهر الموروغ. هذا النهر ليس الآن سوى جدول. لكن مر حين من الدهر كان فيه أعظم بكثير. ويرى الجيولوجيون أم مساربه الجوفية، التي دفنت منذ زمن بعيد، كانت تغزو مستنقعات أونديري في كيكيو ومانغو في ليمورو. وربما أضافت أبحاث الآثاريات في الموروغ عناصر جديدة إلى نظريات أوغوث وموريكوكي وفير وأوشينغ، حول أصول شعوب كينيا وحركتها: وقد تخبرنا هذه الأبحاث عما إذا كان نهر الموروغ واحداً من تلك الأنهار التي أشارت إليها الكتب المقدسة القديمة في الهند ومصر، أو عما إذا كانت الجدران التي تكون السلاسل جزءاً من جبال القمر التي ذكرها بطليموس، أو الجاندرافاتا التي أشارت إليها الفيدا.

ثمت أسئلة كثيرة عن تاريخنا ظلت بلا أجوبة. إن مؤرخينا المعاصرين السائرين وراء نظريات المدافعين عن الاستعمار، يصرون على أننا لم نأت هنا إلا يوم أمس. ترى أين ذهب كل الشعب الكيني الذي اعتاد الاتجار مع الصين والهند والجزيرة العربية، قبل أزمان

طويلة طويلة من مجيء فاسكو دي جاما مع بارود المدافع... وعصر الدم والإرهاب والاضطراب ـ العصر الذي توجته مرحلة استعمار كينيا؟ لكن المركانتيلية البرتغالية أرغمت، حتى في ذلك الحين، على تشييد قلعة يسوع، دليلاً على أن الشعب الكيني كان مستعداً، دوماً، لمقاومة السيطرة الأجنبية والاستغلال. قصة هذه المقاومة البطولية: من سيغني لها؟ ونضال الشعب دفاعاً عن أرضه وثروته وحياته: من سيرويه؟ ماذا عن مآثره الأولى في الإنتاج التي كانت تجتذب سنوياً، زواراً من الصين القديمة والهند؟ حتى الآن، لا نستطيع الاعتماد إلا على الأساطير التي ينقلها، عبر الأجيال، الشعراء، وعازفو الغيشاندي والليتونغو والنياتيتي... مضافاً إليها الأبحاث الآثارية واللغوية الأخيرة، وما نستطيع نحن أن نستله من سجلات المغامرين الكولونياليين في القرون الأخيرة، والقرن التاسع عشر بخاصة. سهول الموروغ ذاتها، هي جزء من ذلك الأخدود الأعظم الذي شكل طريقاً طبيعياً يربط بين كينيا وبلاد أبي الهول، ومياه نهر الأردن الأسطورية في فلسطين. منذ قرون عديدة، وحتى اليوم، تصارع إله أفريقيا، وآلهة الأراضي الأخرى، من أجل التحكم بروح الإنسان، والسيطرة على نتائج العرق المقدس للإنسان. يقال إن هزيم الرعد وائتلاف البرق... يمثلان قعقعة سيوفهم المشتبكة ولمعانها... وأن الأخدود الأعظم ليس إلا أثراً من قدمي إله أفريقيا.

قبل زمن طويل من جبل مانجيري، شهد الطريق مغامرين من الشمال، والشمال الغربي، أكثر مما يتحمل: أتباع سليمان يبحثون عن المر واللبان، أبناء زو في صيد ملكي بحثاً عن عرش إله شمس النيل، كشافون ومبعوثون من جنكيز خان، جغرافيون عرب وصيادون رقيق وعاج، تجار أرواح وذهب من بلاد الغال، ومن ألمانيا

بسمارك، قراصنة بر وصيادو طرائد بشرية من إنجلترا الفيكتورية والإدواردية: هؤلاء جميعاً مروا من هنا، مندفعين إلى مملكة الوفرة، مدفوعين أحياناً بحماسة مقدسة، وأحياناً بظمأ أصيل إلى المعرفة، والكشف عن البقعة التي دفن فيها الحبل السري للإنسان الأول، لكنهم، في الغالب، كانوا مدفوعين بجشع الارتزاق التجاري، وحب التدمير المتعمد لكل من يختلف عنهم في اللون قليلاً. جاءوا، وكل واحد منهم يرتدي قناعاً مختلفاً، ويلبس لبوساً مختلفاً... أما أبناء الله، فقد ثبتوا، عبر النضال، أمام كل هجوم، أمام كل إمبراطورية نهاية للروح والأرض، واستمروا في صراعهم الأبدي مع الطبيعة وآلهتهم المتعددة، وأنفسهم المتقابلة.

الذكريات ظلت ذكريات قلة من الأفراد الذين تركوا علاماتهم على السهول، وعلى المورروغ، قبل أن يشقوا منفذاً دراميا إلى ساحات أخرى. في البدء، مستوطن أبيض، اللورد فريز ـ كلبي، وزوجته الطيبة، وهي سيدة. ربما كان واحداً من الأرستقراطيين الرحالة، لكنه كان شخصاً فاسداً، أراد أن يكون له شأن فيما رآه «حدوداً جديدة». كان يرى يد الله في أن يغير غابات المورروغ إلى أشكال متمدنة تغل مليون نبتة وألف باون، حيث لم يزرع المرء إلا نبتات قليلة، ولم يستثمر إلا باوناً واحداً. لهذا احتاج عرق الآخرين، فاستخدم سحر الحكومة، وقوة بندقيته، ليجند عمالاً. جرب زراعة الحنطة، غير عابئ بوجود الرعاة المقطبة، وبوجود الناجين من المذابح السابقة باسم التهدئة المسيحية، على أيدي جنود الملك، ولجأ، ثانية، إلى بندقيته، المعلقة دوماً من كتفه. وتحول بعض الرعاة والفلاحين إلى حمالين يعملون في أراض كانت لهم. راقبوا جميعاً رقصة الحنطة في الريح، وانتظروا الوقت. ألم يسمعوا ما حل بشعب الماساي في سهول

لايكيبيا؟ في الليل، وعلى تلعة الموروغ، اجتمع قادتهم، واتخذوا قراراً. أشعلوا النار في كامل الحقل، وهربوا هم إلى حدود السهول القصوى، ينتظرون النتائج المميتة. رفض السيد الانتقال. لكن سيدته هجرته. عاد المحاربون، وأخذوا يطلقون أصواتاً غريبة، حول منزله، في أواخر الليل. ربما رأى المغامر الوحيد، الشبح المولول للمستوطن السابق، وهو من رجال الله أيضاً... لهذا انسحب، مسرعاً، إلى الوديان الأكثر سعادة وصحة في أولكالو. هناك وجد زوجته الطيبة بين ذراعي سيد آخر، فقتل الاثنين، رمياً برصاص بندقيته. الأهالي في الموروغ، أحرقوا بيته الخشبي، ورقصوا حوله وغنوا. جاءت العمليات الانتقامية. كانت معركة الموروغ، في أوائل هذا القرن، من أعنف المعارك في حروب الاستيلاء والمقاومة التي جرت في كينيا.

فيما بعد، وبين الحربين الأوروبيتين، جاء من يدعى رامجيه راملاغون دارامشاه، ومن لا مكان كما بدا، وطلب الموافقة على تشييد مبنى يصلح مسكناً ودكاناً. أقام سقف حديد، وجدران حديد، وبدأ الشغل. كان يبيع الملح والسكر والبهار والقماش، وكذلك الفاصولياء والبطاطا والذرة التي اشتراها من الفلاحين أنفسهم، وقت الحصاد، بثمن بخس. كان يجلس وراء النضد دائماً، في الزاوية نفسها، وهو يعلك أوراقاً خضراء. بين حين وآخر، يغلق الدكان، وينطلق في السهول نفسها، ليعود بتجهيزات جديدة مكدسة على ظهور الحمالين الأفارقة، ومحمولة على عربات تجرها الثيران. ومرة أغلق الدكان، وغاب شهراً. وحين عاد، كانت معه فتاة خجول ضاحكة ظنناها ابنته، حتى أخذت تلد له أطفالاً. كما دبر ابنة نجوغو من الموروغ، تساعده في الدكان والبيت. كانت ذات فائدة له، خاصة حين تكون زوجة داراماشاه بعيدة في الهند، أو في مكان آخر.

ابنة نجوغو أيضاً صارت حبلى. ويقال إن داراماشاه دفع لها مبلغاً من المال، وأرسلها إلى المدينة حيث كان يزورها غالباً، سراً، نصف معترف بولده الوحيد من امرأة سوداء. لكن هذا الولد، عاد إلى الموروغ، بعد الحرب العالمية الثانية ـ فتى طويلاً بلون القهوة ـ وظل مع جده وجدته، دون أن يزور أباه إلا مرة، وقد اختصم الأب، فيما بعد، مع زوجته الضاحكة، بشأن الولد. في هذا الوقت، صار أهالي الموروغ، معتمدين على دكان داراماشاه، في كل شيء.

صار اقتصادهم وحاجاتهم اليومية، مرتبطة ارتباطاً لا فكاك منه، بالدكان وثرواته الصاعدة. رهنوا غلالهم، وحليبهم، وحاجاتهم عند الدكان، حتى بدأوا يتذمرون من السلاسل الخفية التي تشد إليه، رقابهم، وحياتهم، وكل شيء. عام 1953، عادت المرأة السوداء، جميلة الثياب لكن هزيلة الجسم، فجأة إلى الموروغ، وذهبت لرؤية داراماشاه، وسرعان ما ذهبت، باكية، إلى أبويها العجوزين.

عام 1956، تسلم داراماشاه، رسالة من «الي ماساي» مع عنوان غريب للمرسل: «مكان ما في غابة نياندارورا». قرأ الرسالة، مرتعد اليدين، جامد الفم الممتلئ بالأوراق الخضراء، وأغلق الدكان سريعاً. وهرب هو زوجته التي ولدت له أكثر من عشرة أرسلهم للدراسة في الهند، مغادرين الموروغ بلا رجعة. كسر القرويون الدكان، واستولوا على كل ما في المخزن من طعام وقماش... وكل ما في الرفوف، وباركوا أولئك المقاتلين في الغابة.

ليبارك الله الي ماساي وعصبته من المحاربين الشجعان. أخذوا يعانون، فالآن عليهم أن يقطعوا الطريق كاملاً، إلى روا ـ ايني، كي يحصلوا على أقل حاجاتهم، حتى الملح، إلى أن استفاد بعضهم من رامجيه راملاغون داراماشاه، فصاروا يشترون أكثر من حاجتهم،

ويبيعون للآخرين، بالربح. لكن المتاجرات ظلت، طارئة، وصراعهم اليوم مع الأرض والطقس. فلا أحد، حتى نجوغونا، كان من الجنون بحيث يعتقد أن المرء يمكن أن يكبر ليكون محض وسيط. لقد ترك الأمر لشخص غريب آخر، عبد الله، بعد الاستقلال بقليل، لينقذ المبنى من العث والعناكب والجرذان. كان عبد الله، إلى هذا الحد أو ذاك، يبيع الأشياء نفسها: يجلس في ذات الزاوية من النضد، لكنه يستخدم حماراً لجر العربة، ويلعن جوزيف، بينما كان داراماشاه يستخدم الثيران لجر العربة، ويعلك أوراقاً، ويصيح بزوجته وأطفاله.

فجأة لاحظوا اختفاء شتائم عبد الله وتقطيبة وجهه: وبدلاً من إرهابه جوزيف بالشتائم، أرسله إلى المدرسة، بل إنه ليضحك من أعماق بطنه. المخزن ذو منظر أجمل، وعلب الشاي مرتبة على رفوف. لقد أصلح الطاولة الكسيرة في المشرب، وأضاف كراسي أخرى يمكن أن تخرج في الشمس. وازداد بالتدريج، عدد الناس الذين يقضون بضع ساعات من مسائهم في دكان عبد الله.

همس نجوغونا لموتوري ونجوغو وورورو: «إنه عمل وانجا، عمل تلك الفتاة، وما هذا الذي سمعته عن ذهابها إلى مكان مواثي؟».

قال نجوغو: «الطريقة التي تساعد بها نياكينيوا هزتني، وهي امرأة المدينة». ظل موتوري صامتاً، مثلما يفعل دائماً، حين يذكر مكان مواثي.

2* ليس ضياء القمر، وحده، هو الذي يجعل الموروغ مدهشة! ثمت أيضاً شيء ناعم خافت جميل في تلعة الموروغ. بين المغيب والعتمة. فلسبب غير معروف تبدو تلال دونيو الخفيضة المنتفخة، كأنها تصعد وتلمس السماء. وحيثما وقفت من التلعة استطعت أن تبصر الشمس ترتاح، رقيقة، على التلال البعيدة التي تشكل الطرف

القصي لسهول المراعي. وفجأةً تنزلق الشمس وراء التلال، مشتعلة نحاساً ذا أسهم نارية تنطلق في كل اتجاه. وبعد قليل، يهبط الظلام والسر على السهول والتلال. آنذاك تمسي التلعة، فجأة، إن لم يكن ثمت قمر، بعضاً من هذا الظل الرهيب. منيرا كان يتمتع بالغسق، باعتباره تمهيداً لذلك الظل الرهيب. كان يتطلع إلى ذلك الانغماس غير المرغوب في الظلام. آنذاك سيكون بعضاً من كل شيء: النبات والحيوان والناس والأكواخ، بدون أن يختار، عن وعي، صلاته.

الاختيار يستدعي جهداً، قراراً، تفضيل إمكانية، وهذا أمر مؤلم. لقد اختار ألا يختار. حرية يحتفل بها، يومياً، بين بيته ودكان عبد الله، وكوخ وانجا طبعاً. لكنه يشعر بالذنب، لأن زوبعة لم يردها، ولا يستطيع الآن التحكم بها، قد جعلته يدور. هذا الوعي بالذنب، وبأنه قد ارتكب خطأ، ظل يتبعه دوماً في الحياة. منيرا كان لاجئاً من منزل لا تذكر فيه أمور معينة. إن حياته العائلية ذاتها بنيت، ويفترض أنها الآن تهدم، على مذبح نقاء الكنيسة المشيخانية وأخلاقها الحميدة. كانت له شؤونه. وهو لا يستطيع إنكار هذا. فابن الإنسان يجب أن يحيا. لكنه ظل يتذكر فعلته الأولى في بيت بكاميريثو القديمة، قبل قرية الطوارئ الحاضرة بزمن... ظل يتذكر فعلته بالخزي. كان البيت واحداً من عدة بيوت مبنية على طراز الماجنو السواحلي: بيت مزوي، ذو سقف ضخم منبسط من الصفيح المهترئ. هذه البيوت اشتهرت، خاصة، بسبب أن أسرى الحرب الإيطاليين ـ البونوس كما كانوا يسمونهم ـ اعتادوا أن يجلبوا بعض المواد من هنا، لشق طريق ناكورو، فكانوا يغشون هذه البيوت. كان اسمها أمينة: أعطاها شلنين، هما كل ما ادخره. حقاً لقد أذلته. «ليس سوى ولد» قالت، وهي واقفة في المجاز، تنظر إليه من الأعلى إلى الأسفل بعينين متعجبتين، كأنها تعلن اكتشافها المدهش لأخرى داخل البيت، أما هو فقد امتلأ

رعباً، للحظة، من احتمال أنها متزوجة، وأن زوجها سيأتيه بعشرة مخالب مسنونة. «تعرف أنني لا أنام مع رجال غير مختونين. هذه قاعدة عندي. لكن تعال هنا». قادته داخل البيت، وأجلسته على الفراش. كان منيرا يرتجف خوفاً وخجلاً، وأراد أن يبكي. عضوه ذوى على أي حال. «دعنا نرى الآن... لا تخف... أنت رجل... أراهن أنك أحبلت واحدة أو اثنتين». لكنها كانت لطيفة. هدأته بلطف أم، فاستجاب عضوه فجأة، منتصباً قوياً، وشعر الآن أنه سيموت لو ـ إلا أنها وضعته بين فخذيها المكتنزتين، وأخذت تتكلم متغنجة، وطوت ساقيها قليلاً على بعضهما.. ويا إلهي... انتهى كل شيء... ولم يدر إن كان عضوه في الداخل أو الخارج. كان هذا ما حاول إفناءه، بالنار، عبثاً. وكان يستعيد هذا المشهد، دائماً، بمشاعر سيئة، خاصة في السنوات الأخيرة، بعد طرده من سيريانا. إذ كان يمر بالبيت وهو في طريقه إلى كاماندورا، معلماً شاباً. لكنه أقسم أنه لم يصدم بأي حديث مكشوف من الجسد يسمعه.

إلا أنه ما يزال، حتى مع وانجا، سجين تنشئته الخاصة، وتربية سيريانا التبشرية. لا يعني هذا أنه لم يتمتع بالتجربة. بل على الضد من هذا، فقد كان يعرف، رغم كل تربيته، أنه لا شيء أعظم، وأكثر بهجة من لحظات التوقع القليلة تلك، قبل الدخول في مجهول المرأة. ووجه وانجا المتألم تحت العوارض التي يضيئها القمر، والخارجة من النافذة، أو غمغمات ألمها كأنها قد أوذيت فعلاً، والسرور كأنها تأكل العسل وقصب السكر، وأمواج حركاتها اللطيفة تملأ حية الفردوس بالتوقع الحار كالدم قبل الخلاص النهائي من هذه المعرفة. صرختها المستغيثة بأمها وخالاتها، تهبه إحساساً أعظم بالسلطة والقوة، حتى يغوص في خواء، عتمة، ظل رهيب، حيث لا يعود الاختيار واللا اختيار مسألة. لكنه يستيقظ

على وعي فزع بأنه مسبوق، فلا يحس بأي انتصار. هو لم ينلها، وهذا الأمر جعله يجوع جوعاً ممضاً إليها، إلى ألف خطيئة معها، وأكثر. مد يده إليها، فأحس بها تنكش، وترتد.

انسحب خائباً. ولسوف تعود، وتحمله فجأة معها، مسافراً راغباً، في قطار ليلي، نحو مملكة الخطيئة السعيدة، وتتركه هناك، لاهثاً، ظامئاً، جائعاً... يريد المزيد.

كان من الصعب عليه مجاراة أمزجتها المتبدلة التي تخلفه منقطع الأنفاس. أحياناً يتعبه اهتمامها بالناس. آنذاك تكون حزينة، مستبطنة، تسأل أسئلة تبدو قاسية في براءتها. عبد الله، بخاصة، كان في ذهنها دائماً.

«معلم: أتعرف لماذا جاء يختفي في هذا المكان؟».

«من؟».

«عبد الله... من سواه؟».

لا أدري. وجدته هنا. أنا وهو، لم نتحدث كثيراً قبل مجيئك. أنت التي أطلقت فمه أكثر من أي شخص أعرفه».

«انظر إليه أحياناً. وجهه مفعم بالألم، لكنه يحاول إخفاءه. لكأنه يتعذب كثيراً، لا من ساقه المعطوبة، وإنما من قلبه. أظننا متشابهين جميعاً».

«لست أفهم».

تصر، رافعة صوتها قليلاً: «لكنك تفهم. أقصد... أننا قد نحمل، كلنا، نفوساً معطوبة، وأننا نبحث جميعاً عن شفاء. ربما كان ثمت شفاء واحد!».

نبرة صوتها، أكثر من صوتها، زحفت خفيفة في جسده. قال متردداً، خائفاً: «لست ـ أفهم».

«تقول دائماً إنك لا تفهم. إذاً... أهناك شيء لتفهمه؟ أنت أيضاً في هروب. ما الذي جعلك تهرب إلى بقعة كهذه؟ أخبرني صدقاً. مم تهرب؟».

أجفل: أحس بعرق يلذع جلده. فزع لكنه سيطر على صوته.

«ما هو إلا انتقال عادي... تغيير جو... تبديل أماكن. يقولون إن البقاء الطويل في مكان يجلب القمل... أشيء كهذه... لكني بعد الاستقلال تماسكت. إنه الوقت الذي نؤدي فيه، جميعنا، شيئاً... هارامبي... مساعدة النفس... بناء الأمة... العودة إلى الأرض... كنت أستجيب للدعوة العامة بطريقتي. وكثيراً ما فكرت بشعار وطني: مساعدة النفس هي ساعد نفسك!».

فجأة، قالت منتصرة: «أترى؟ أنا لم أصدق حكايتك حين جئت هنا قبل ثلاثة أشهر...».

وكان وهو يشاهد استغراقها في حياة القرية، يشعر بالكذب خلف كلماته، ويحس بالذنب إزاء إعلانها المفاجئ لما تعتقده.

خلال أسبوعين من حصاد الذرة غمرت نفسها بالعمل، تساعد نياكينيوا وحتى النسوة الأخرى. كان الحصاد فقيراً، والفلاحون ينظرون في وجوه بعضهم، ويهزون رؤوسهم.

وفي الوقت نفسه واظبت على عملها في المخزن، ترتب الأمور: بل لقد رافقت جوزيف، مرة، على عربة الحمار، إلى روا ـ ايني، لشراء تجهزيات جديدة، بدلاً من أن يذهب عبد الله. راقب منيرا انغمارها التام في العمل، وقلق للأمر، كان العمل

خصم بشري. إنها تنظف المكان صباح، وتتسلم البضاعة. أما بعد الظهر، فتنضم إلى فريق النسوة الذاهبات إلى الحقول يستقين الماء. كانت وانجا تستمتع بأحاديثهن عن كل شيء: من ملابس الرجال القذرة التي عليهن غسلها، إلى عادات رجالهن في ممارسة الحب. قالت وامبوي: «جاء زوجي مرة من روا ـ ايني، حيث يعمل، ورآني في الحقل... وتصورن... أراد أن يضاجعني هناك، على سيقان الذرة الجافة تحت ظل شجيرة المواريكي، ولم يتحمل الانتظار إلى المساء في الكوخ... وها هو ذا يتفصد قوة، قلت له إنني سأصرخ «العار!»، لكنه لم يأبه باحتجاجي... وهل تصدقن أن ولدي موريوكي قد حبلت به هنا... على سيقان الذرة، تحت الشمس!». وعلقت أخرى: «أراهن أنك لن تهتمي كثيراً... وأنت ترين ذلك الـ... عطشان تحت الشمس».. وضحكن جميعاً. كن كثير ما يستدرن إلى وانجا: «أخبرينا عن رجال المدينة ـ يقال إنهم يلبسنه سروالاً مطاطياً؟». وانجا تضحك فقط. إلا أنهن كن يمتدحنها كثيراً، لأنها جاءت تساعد جدتها. أقيمي هنا، كي نرى صاحبك حين يأتي من المدينة يزورك.

بعد ذلك، كانت تعود إلى مخزن عبد الله، لتدير المشرب، ولتحتسي بيرتها أيضاً، وتصغي إلى أحاديث الرجال الآن. كانوا يتحدثون، بل يغنون عن طوال القرون ذات السنام التي تجوب، وحشية، سهول الموروغ الفسيحة، وكيف أنها قدمت إلى الله قرونها وأسنمتها قرباناً في سبيل المطر، حين اشتد الجفاف، منذ عهد بعيد، قبل أن تولد حتى أجيال نغوسي ومبورو ونغيغي. كانت وانجا هي الحياة، وهي الجاذب الأعظم في المكان: إنهم يتحدثون، وكأنهم يريدون أن يبلغ حديثهم أذنيها، وأن يثيروا ضحكتها، أو يستثيروا منها إيماءة استحسان.

نظر منيرا إلى وجهها المفعم بالحركة، وإلى عنقها المائل ناحية أحد المتكلمين، إلى يديها الباحثتين عن لمسة إنسانية ودفء... وأحس بذلك المغص الداخلي الذي لا يمكن تفسيره بألم جسماني. كانت مستغرقة في الشخص الآخر، كان منيرا غير موجود.

أعقبت شهور من انحباس المطر، موسم الذرة الفقير. لم يعد لديهم ما يعملونه في الحقول، وتأثرت أعصاب الجميع من الغبار والشمس المحرقة، وصاروا يختصمون على لا شيء. كلهم يعرفون، لكنهم لا يريدون أن يتقبلوا أنهم لن يلقوا، في تلك السنة، إلا موسماً واحداً. أما التجار الذين اعتادوا المجيء إلى الموروغ ليشتروا المحصول، ويبيعوه في المدن، فلم يظهروا هذه المرة... وكأنهم أخطروا بفقر الحصاد. عينا وانجا أخذتا تتحولان، أكثر فأكثر، عن الموروغ. أحياناً كانت توجه قلقها إلى القرية، فتمطرها، وتمطر ظروفها، سخرية لاذعة، واستهزاء لا يرحم.

«لِمَ ينتهي المرء في جحر كهذا؟ انظر إلى النسوة ينبشن الأرض. انظر إليهن. ماذا يجنين مقابل جهدهن؟ ما ندعوه غلة؟ بضع حبات من الذرة؟».

«كان موسماً فقيراً. نجوغونا وموتوري... كلهم يقول إن الموسم كان فقيراً بسبب تأخر الأمطار».

«الموسم فقير. يقولونها كل عام. ويأملون حين يقولون هذا، في أن يكون الموسم القادم أفضل. لكنهم لن يجنوا إلا هذا الغبار المزوبع، وهذه الأرض الهزيلة التي تنتظر أن ينقذها من الشمس الظالمة مطر لن يأتي».

خلال شهر كانون الأول، أخذ قلقها يزداد: كان شيئاً يتأكلها.

غدت شكاواها من الموروغ أكثر حدة ومرارة. وفي أحد الأيـام، بعـد شلال من الشكاوى المريـرة، قفـزت مـن النـضد، وتناولـت دفتـراً، ورسمت، بسرعة، تخطيطات عن مجموعة عجـائز يشـرن الغبـار أثنـاء هربهن من مطاردة شمس في هيئة فـتى، إلى مطـر في هيئـة شـيخ ذي رأس صغير وساقين هزيلتين.

مـنيرا كـان يقـول عـن الفلاحـات: «هـن والأرض شـيء واحـد.. السلام... ثمت كرامة في العمل، ألا تظنين هذا؟».

قالت وهي تنظر إلى تخطيطها: «أتعني النسوة المغبرات؟» ثم رمـت التخطيط إلى عبد الله: «ألم تر الذباب على الأنوف المليئـة بالمخـاط؟ ألم تر الزريبة والحشيش فراشـاً؟ والأكـواخ المتداعيـة الـسقوف؟». ثم ضحكت. لا صحة من أعماقها، وإنما مـن حنجرتهـا: ضـحكة مريـرة ساخرة.

غضب منيرا لسبب ما: لقد تقبل الظـروف بـالرغم مـن كـل شـيء. هذه الظروف هي حمايته ذاتها، والآن تسخر وانجا منها.

«لِمَ تركت تلك الأماكن التي تتحـدثين عنـها، الـشاطئ، المـدن، نــايروبي، نــاكورو، الــدوريت، كيــسومو... وأتيــت هنــا؟ لم لا تعودين؟».

«حقاً... لِمَ لا أعود؟» فجأة، قالـت هـذا، غاضـبة، لكـن مـنيرا، أحس، مع هذا، بأنهـا قلقـة، تختـصم حـول أمـر آخـر. «إنـني أكـره الموروغ، أكره الريف ـ ممل جداً! يمكنني العـيش مـع المـاء النقـي، وضوء الكهرباء، وقليل من المال».

تكلمت، بسرعة، كأن ذهنها هناك وليس هنـاك: كأنهـا هنـاك وفي مكان آخر في الوقت نفسه.

لم تتكلم أبداً بخشونة مع عبد الله. لكنها الآن استدارت نحوه، وتناولت ورقة، ومزقتها قطعاً صغيرة.

«ماذا يقول لي عبد الله هنا؟ سأدفع لك جيداً. متى؟ أتعرف يا عبد الله أن أرباب العمل سواء؟ اشتغلت في بارات عديدة. هناك أغنية تغنيها كل فتيات المشارب. واويلتاه! هم يدفعون لك خمسة وسبعين شلناً في الشهر. ويريدون منك أن تعمل أربعاً وعشرين ساعة.

في النهار تقدم البيرة والبسمات إلى الزبائن. وفي المساء يفترض أن تقدم نفسك، وتئن في الفراش. مشرب ومسكن. صاحب المحل يستلب عشرين شلناً كي يسمح لاثنين باستعمال سرير حديدي وشراشف ممزقة لمدة عشرة دقائق. عبد الله... أتدري أن باستطاعتك جمع مال كثير بمجرد شرائك سريراً ذا نوابض، وبطانية، وشرشفين، وإطلاق اسم على هذا المكان:

الموروغ، بار ومطعم؟ هذا إذا استخدمت طبعاً فتاة مشرب أخرى لتغسل الشراشف!».

نظرا إليها، متوقعين أن تبكي أن تفعل شيئاً آخر، لكنها كانت قد تبدلت. احتست بيرتها متأملة، ومضت تحلم.

«انتظر دقيقة. يجب أن نجعل من هذا المكان كنيسة. أولئك المتعبون من المدينة يستطيعون المجيء هنا. يغسلون ألم نفوسهم بالبيرة والرقص. أو نجعل منه مصحاً. مصحاً كبيراً. يهربون من زوجاتهم وأطفالهم لمدة أسبوع. اشووا لحم ماعز. اشربوا بيرة. ارقصوا. نالوا الشفاء. عودوا إلى زوجاتكم المنتظرات. وإلا... يا معلم... ماذا علينا أن نفعله لهذا المكان؟ لا لموروغ؟ أليس المعلم هو نور القرية الحقيقي؟ أتوقد ناراً، وتخفيها تحت علبة صفيح؟ أقول

الجد يا عبد الله... ابدأ بتقطير الشانغا، أو الموراتينا، أي واحدة من هذه. اقتلني سريعاً. الحق إن هذه المشروبات تقتل الناس، لكنهم ما زالوا يدفعون آخر سنت من كسبهم ليموتوا سريعاً. يشترون الحق في الموت السريع. في هذه القرية سيموت الناس تحت هذه الشمس، ولن يدفعوا لك. هكذا، يا عبد الله، قطر الشانغا، وكن ثرياً على حساب بؤس الفقراء».

بدت ابتسامتها، وهي تقول هذا، ماكرة شريرة، تحمل في أطرافها الاستهزاء والسخرية. فطن إلى أنها كانت تتحدث عنه، وعن هروبه من بيته إلى هذا المكان. بل لقد رآها منيرا جد بعيدة: إن لسخريتها المهينة نفس قوة الجذب التي يمتلكها دلال العذراء: إنه لا يستطيع أن يلمسها إلا حين يفتحها بالقوة، وهكذا يفتتح هو نفسه بالدم. عذراء وعاهرة. لم لا تعلق إعلاناً على ظهرها: سق فولكس فاكن Drive a v.w. اركب عذراء عاهرة Ride a Virgin Whore أو Very interesting Prostitute: VIP عاهرة ممتعة جداً. فكر بهذه الإهانات يقذفها في وجهها، لكن المجرى الخبيث الحاد لأفكاره قاطعته وانجا بتهريجتها الثانية. نهضت، وسارت نحو الباب، وتثاءبت: لم نحن جميعاً في هذا الجحر؟ ثم استدارت فجأة، وقفزت عبر النضد إلى الأرضية، وواجهت الرجلين بملامح قاسية صارمة. وقالت في صوت كالصراخ:

«موسيقا، يا سيد عبد الله، موسيقا: هذا الجسد لا يصلح إلا للرقص. لماذا! هذا المكان ليس فيه حتى مذياع! غنـ نـ نـ وا! يا معلم، اعزف على قيثار، اعزف على فلوت، أريد أن أرقص».

ودون أن تنتظر جوابهما، بدأت ترقص، وهي تهز ردفيها. حركة بطيئة أولاً... لكن على إيقاع موسيقا في رأسها. صار الإيقاع يزداد سرعة، ووجهها تتناوبه النشوة والألم. كانت تهز ردفيها، ونهديها،

وبطنها، حتى صار جسدها كله حركة موجبة من الشهوة والقوة. سرعان ما انتهت الموسيقا. جلست منهكة. وتحدثت الآن، هادئة، كأنها استنفدت شيئاً فيها. هي الآن أكثر انبساطاً، كأنها وانجا التي عرفاها.

«حسناً؛ هكذا نغري الرجال. إنها دقيقة مجدنا الوحيدة. يحدث أن فتاتين ترقصان معاً. سوف يتوسل الرجال بعيونهم، ويتوسلون بأيديهم، وفي النهاية يتوسلون بالشرب والمال. إنني شريرة حقاً. أكره الرجل الذي يظن أن باستطاعته شرائي بالمال. مرة، جعلت رجلاً ينفق أكثر من مائتي شلن على شراب السيدر لي. السيدر لن يسكر أحداً. شعرت أني بخير. في الصباح التالي كان ينتظرني مع سكين. ردي نقودي! سألته: أي نقود؟ صاح: السيدر، السيدر. استعنت بأكثر وجوهي براءة، واصطنعت لصوتي السكر والعسل. تعني أنك اشتهيتني البارحة؟ لم لم تقل ذلك؟ ليس للسيدر فم ينطق. لكني انزعجت: كنت أفكر طيلة الوقت، وأقول: ها هوذا صديق حقيقي أخيراً... أأنت، إذاً، مثل كل الرجال؟ نظرت إليه بعينين غاضبتين. خجل خجلاً شديداً. اشتري لي مزيداً من السيدر، ولم يضايقني ثانية. عبد الله... تعبت حقاً من هذا الجحر البائس!».

منيرا الآن، هائم إعجاباً بغنجها. إنها جالسة هناك... مشتهاة: أراد أن يركب .V.W إلى مملكة الخطيئة السعيدة. الآن... الآن... يبلغها، ويشدها إليه. لكن عبد الله نظر عبرها، عبر الباب، إلى الأطراف القصية للأرض المتربة الآن، بعد الحراثة التي أعقبت الحصاد. كأنه في تناول مع الذكرى والمسافة. غمغم مع نفسه: أي وحشة هنا. استدار نحو وانجا: كانت عيناه عطوفتين مبتلتين بشفقة متوترة.

«وانجا، أنت أيضاً اصغي إلي. سأقول هذا، والمعلم شاهد. أعرف ما يعني أن يحمل الإنسان جرح حياة. وليست أتحدث عن هذه الساق. أبقي في الموروغ. دعينا نواجه هذا الذي تسمينه الجحر معاً. الأجور التي سأقدمها لك، سوف تكون حصصاً. سنكون أنا وأنت مالكين مشتركين للشغل. لم أقدم الكثير، إلا أني قدمته مخلصاً. فقط.... لا تذهبي».

سيطرت وانجا بصعوبة على دموعها. فهمت ما قاله، وفهمت أكثر، الإخلاص وراء العرض. لكنها لا تستطيع القبول: إن في داخلها ما يستحثها على الذهاب بعيداً... وهي تعرف أن ختام زيارتها قد حل. لكن حتى لو ـ فكيف تستطيع البقاء في الموروغ؟

«قلبك كبير يا عبد الله. كدت تبكيني. أنا امرأة شريرة. أتدري لم جئت إلى الموروغ؟ لم جئت أنت؟ لم جاء منيرا قصتي يا عبد الله قصيرة طويلة. فقد أعود. لكني أشعر كما لو أن لدي ديناً أسدده مع العالم... هناك... فجأة نهضت، بدون كلمة أخرى، وسارت بطيئة، عبر الحقول اليابسة، إلى كوخها.

في الصباح التالي جاءت نياكينيوا، مبكرة، إلى مخزن عبد الله. رفضت الجلوس، لكنها أرسلت جوزيف كي يستدعي منيرا. توترت معدة عبد الله خوفاً. قالت بعد أن جاء منيرا: «وانجا غادرت، لكنها قد تعود، إذ لم تأخذ كل أشيائها».

لم يقل منيرا وعبد الله شيئاً.

«آه... هذه الشمس».

قالت هذا، وكأنها تريد أن تنصرف، دون أن تنصرف. وكررت نياكينيوا «هذه الشمس!» منيرا وعبد الله، لم يقولا شيئاً.

* * *

الفصل الخامس

1* كان عاماً مشهوداً في البلاد بأسرها، ذلك العام الذي أعقب رحيل وانجا من الموروغ. كان العام الذي بدأ باغتيال سياسي غامض، في وضح النهار، دون أن يلقى القبض على القتلة. كان القتيل وطنياً، من أصل آسيوي... هذا حق، لكنه شهير في كل البلاد بانغماسه المبكر في النضال من أجل الاستقلال، ومشهور فيما بعد، بمعارضته الثابتة، بعد الاستقلال، لأي شكل من أشكال الانحياز إلى الاستعمار.

كان خصماً عنيداً للإثراء على حساب الفقراء. وسواء داخل البرلمان، أو خارجه، كان يدعو إلى الثورة الزراعية. وانتشرت الشائعات طيلة العام، في البلاد: والناس يتجمعون ثلاثة ثلاثة، أو اثنين اثنين، يناقشون الشائعة الأخيرة أو الرأي الأخير. أحق ما يقال عن ارتباطه بهذا السياسي أو ذاك؟ ربما كان يدبر أمراً ما: انقلاب؟ ولكن كيف ـ؟ الشيوعية: ما هي؟ معارضة التحكم الأجنبي بالاقتصاد؟ الدعوة إلى الثورة الزراعية؟ الدعوة إلى إنهاء البؤس؟ آسيوي: يمكن. لكن البريطانيين سجنوه، واعتقلوه في سنوات النضال؟ أسئلة عديدة بلا أجوبة، وتيار خوف، هو الأول مما سيأتي، يسري في أوردة الأمة الجديدة.

أما الموروغ، فقد شهدت عاماً آخر من ضآلة المطر. إنه العام الثاني الذي تجنى فيه غلة أشد بؤساً مما سبقها.

لهذا، عندما أتمت سنةِ الاغتيال دورتها، دون أن يسقط المطر، علا وجوه الناس في الموروغ التجهم، وهم ينظرون، قلقين، إلى السماء. لكن الشمس، كما يبدو، كانت تهزأ من وجوههم المتسائلة.

الشمس تبعث أمواجاً من الحرارة في توهج شديد يكاد يعمي عيون الناظرين. والريح تزوبع، فجأة، الغبار والقمامة في الجو، كأنها تقدم نذوراً لإله الشمس. لكن سرعان ما تخمد الريح، وتهبط القمامة على الأرض، كأن النذور قد رفضت. فلاحو الموروغ عانوا هذا الصداع ذا الأشعة الحرارية التي تلهب جلودهم الجافة، وشاهدوا الدوامة الصغيرة الغاضبة ذات الغبار والقمامة، وانسحبوا إلى شرفات أكواخهم، لم تعد في الحقول مظلة من أوراق المورايكي تمنح الفيء والمأوى. ما زالوا يخرجون إلى الحقول، لا ليقتلعوا الأعشاب الضارة، أو ليحرثوا الأرض، وإنما لأنهم متعلقون بحقولهم، تعلق الفراشة بالنور. وهم لا يستطيعون من الأمر فكاكاً.

ها هم أولاء، تحت أفاريز أكواخهم، يسمرون، ويروون الذكريات، والمسرات الخبيثة، لكن تحت هذا كله، يكمن قلقهم من أن هذا العام سيكون موسم جفاف. كان نجوغو وموتوري ورورو ونجوغونا جالسين خارج مخزن عبد الله. في العادة كانوا سيأخذون أبقارهم وماعزهم إلى السهول. لكنها نهاية العام، وبداية عام جديد، والمدرسة مغلقة بسبب العطلة، والدور الآن للأولاد. إن ما يقلقهم هو أن السنتين الماضيتين لم تغلا إلا موسماً واحداً في كانون الأول. وبعدها لم يهطل المطر إلا في زخات متقطعة ـ ذلك النوع من المطر الذي يتقيه الكسالى فقط. ولهذا، سوف تحل المجاعة هذا العام، إن تأخرت أمطار الناجاهي في السنة الجديدة، كما حدث في العامين الماضيين. لكنهم، وهم جالسون خارج مخزن عبد الله، حاولوا إثارة مواضيع عديدة، ليعودوا دائماً إلى الأمطار. قال نجوغو: «ما يزال المطر ممكناً... أحياناً كان المطر يسقط في بداية العام، أو بعدها بقليل».

فقال نجوغونا: «لا أعرف السبب، لكن التنبؤ بالطقس صار أكثر صعوبة. كأن عقله أصيب. يبدو أن مواثي واموغو قد فقد سيطرته على الأمطار». ثم ابتسم ابتسامة ساخرة دون أن ينظر إلى موتوري.

«ربما كانت تلك الأشياء التي يقذفها الأمريكيون والروس إلى السماء».

«هذا جائز. سمعت أنهم قد يرسلون مسافرين إلى القمر. أممكن هذا؟».

«مر علينا زمن لم نكن لنصدق فيه أن بإمكان المرء أن يسير على حصان معدني ذي عجلتين، حتى امتطى مونورو واحداً».

هكذا تحدث نجوغو حينما رأى منيرا قادماً إليهم، على حصانه المعدني، واستمر قائلاً: «حين جاء الرجل الأبيض لأول مرة، خلع حذاءه فظننا أنه نزع رجليه، وهرب الناس قائلين: ما هذا السحر الجديد؟».

ضحكوا، وطلبوا مزيداً من البيرة. منيرا أسند دراجته إلى الجدار، ثم جلس، وطلب بيرة في الوقت نفسه.

قال: «البيرة ستكون ماءنا الوحيد...».

سأله نجوغونا: «معلم... متى تفتح المدرسة؟ أنت معنا منذ سنتين. وهذا خير لأطفالنا».

قال منيرا: «لا أدري. نحن الآن في منتصف كانون الثاني. إذا لم أحصل معلمين كان الاستمرار عسيراً. في السنة الأولى كان عندي صفان. في السنة الثانية ثلاثة. والآن ستكون الصفوف أربعة».

«من أين تحصل على المعلمين؟ أي أناس مهمين يريدون أن يأتوا هنا، لتشويهم الشمس؟».

«سوف أذهب إلى روا ـ ايني. سأخبر مزيغو الآتي: إن لم تعطني معلماً واحداً في الأقل، فالخير أن تغلق المدرسة».

صمتوا حين سمعوا كلماته. وانسحبوا، لحظات، إلى تفكراتهم الخاصة. إذاً... المعلم يتهيأ لمغادرتهم؟ ربما كانت السنتان جد طويلتين بالنسبة له.

تمنى منيرا أن تكون مغادرة وانجا سبيلاً إلى عودة وتيرة حياته السابقة. لكن هذه الأمنية كانت حلماً مراوغاً أدركه بسرعة. فبعد شهر من رحيلها، ظل أهل الموروغ يشاهدون منيرا يخب على دراجته، مطوفاً أرجاء الموروغ، في سحابة غبار. قال بعض الناس «إنها الشمس». بعد أربعة أشهر أو خمسة، من الأمل الخائب بعودتها، ذهب إلى روا ـ ايني، في أحد أيام السوق، متظاهراً بأنه يبحث فقط عن شيء يشتريه ولم يجده. ووجد، ثانية، عذراً للمبيت في روا ـ ايني، وشرب في كل البارات تقريباً. وانتهى إلى «بار فراها». ثمت رأى فتاة عند صندوق الأغاني. كان يرى ظهرها. خفق قلبه خفقاناً شديداً، ولم يستطع الحفاظ على مظهره: كان يبحث عن وانجا. جلس على كرسي عال عند النضد، وانتظر تعرفها عليها. بدأ القيثار أولاً: ثم أصوات كورالية ملأت الجو: ترنيمة دينية. استدارت الفتاة الآن... أوه! لم تكن وانجا ـ وشرعت تغني مع الأصوات الكورالية المنبعثة من صندوق الأغاني. وحينما انتهت الأغنية جاءت إلى النضد، وطلبت شراباً. تعجب منيرا من معرفتها كل لغات كينيا تقريباً. حين تحدثت بالكيكيو ظنها من موغيكويو: وإذ تحدثت بلغة اللو ظنها من هناك. والأمر نفسه بالنسبة للسواحلية والكامبا واللوهيا. وسرعان ما فقد اهتمامه بها. إلا أنه أحب الترنيمة، واتجه نحو الصندوق، وألقى فيه شلناً، وضغط الزر. جوقة جرش أوفافا هي التي تغني

الترنيمة المؤثرة. هرعت الفتاة ثانية إلى صندوق الأغاني، وقد دهش منيرا باستغراقها المغري في الترنيمة، بحيث نسي خيبته في لقاء وانجا. بل لقد فكر في أن يطلب لها مشروباً، ويدعوها إلى الفراش الليلة. لكن الترنيمة الدينية أعادته إلى ذكرى فعلته في صباه، ومحاولته التطهر بالنار فيما بعد، وفقد كل اهتمام بجسد الفتاة. عاد إلى المورووغ بعد بحثه الخائب عن حلم. وانهمك بقية العام كله في التدريس، محاولاً أن يقمع ذكريات وانجا وممارستها الحب في الكوخ. لكن الأمور لم تعد كما كانت. فدكان عبد الله مختلف في الأقل: إذ لا يكاد عبد الله يتحدث إليه بأكثر من كلمة أو اثنتين. وكان يشعر بالسعادة حين يجد المسنين في دكان عبد الله.

«هل صحيح أن هؤلاء الناس يحاولون السير إلى القمر؟».

سأل موتوري هذا السؤال، محاولاً صرف انتباههم عن رحيل منيرا الممكن.

«نعم».

«هؤلاء الناس غريبون. فهم لا يخافون الله. لا يحترمون القداسة. هم يدمرون الأشياء على الأرض. والآن يذهبون ليزعجوا الله في ملكوته. لا عجب إذاً أن يغضب ويمنع المطر».

«هذا حق. انظر إلينا. نحن كنا دائماً نخشى الله، ولا نتدخل في أموره. ولهذا السبب نجانا من الدمار التام. وحول عيون المستعمرين بعد معركة المورووغ إلى ناحية أخرى. وأنت توافقني على أننا ـ أهل المورووغ ـ لم نفقد الكثير من أبنائنا في حرب الحرية بالرغم من العمل المجنون الذي ارتكبه زوج نياكينيوا».

وعلق نجوغونا: «زوج نياكينيوا، نجامبانين، كان رجلاً شجاعاً».

«شيخ طاعن ويسدد بندقية إلى رجل أبيض!».

قال نجوغو: «افتدى الموروغ بدمه».

«وهكذا فعل حفيدك (أول ماساي) ـ لا تنس أن دم الموروغ في عروق أول ماساي».

وفجأة، ارتفعت شتائم عبد الله على جوزيف. وكان الأمر غريباً، فبعد عام كامل من رحيل وانجا لم يسمعوا عبد الله شاتماً. صمتوا، ثانية، كأنهم يعلنون الصمت حداداً على زوج نياكينيوا وأول ماساي الذي لا يعرفونه إلا بالاسم. قال موتوري محاولاً تغيير الموضوع أيضاً: «لا أتفق معك هنا. لقد فقدنا أبناءنا في المدن».

وافقه رورو، وسعل: «نعم. أنا لا أفهم شباب هذه الأيام. في زماننا كنا مضطرين لخدمة الأجانب المضطهدين. لكننا حتى في ذلك الوقت، كنا نسرع عائدين إلى حقولنا، بمجرد كسبنا ما ندفع به الضرائب أو الغرامات. أما اليوم، فهاك أولادي... أنا لا أعرف حتى مكانهم. واحد ذهب يشتغل في نايروبي، آخر في كيسومو، ثالث في مومباسا... ولا يكادون يعودون. واحد منهم فقط يعود بين الحين والآخر ليرى زوجته وامبوي، وحتى هو... لا يكاد يقيم إلا يوماً واحداً».

وقال نجوغونا: «أولادي أيضاً. أحدهم ذهب ليعمل طباخاً في المستوطنات. اعتقلوه. لكنه حتى بعد اعتقاله عاد ليعمل طباخاً لدى المستوطنين الأفارقة الجدد. تصور: رجلاً قادراً على استخدام يده يطبخ للآخرين. الثلاثة الآخرون في نايروبي. عاد موتوري إلى الكلام: «في الواقع، علينا ألا نلومهم. فبعد الحرب الكبيرة الأولى لم تعد ثمت أرض نتحرك عليها. كما يوجد دائماً أولئك الذين لا يقاومون

نداء الأماكن الغريبة. كان والدي يخبرني، بأن بعض الناس، حتى قبل مجيء الرجل الأبيض، كانوا يسافرون عبر البحار، حاملين العاج... ومنهم من لا يعود أبداً».

وقال رورو: «مثل مونورو الذي يتنهد للأشياء الجديدة».

صمتوا ثانية، بضع ثوان، كأن أذهانهم تتبع حركة أبنائهم هذه، والكارثة التي حلت بالأرض. ثم سعل نجوغونا، وحدق في الفضاء:

«أنت محق في ندرة الأرض. أذكر كلمات ابني الأصغر قبل أن يغادرنا إلى المدينة. كانت مغادرته بعد وقت قليل من حصاد كالذي شهدناه في العامين الأخيرين. قال: «اشتغلت على هذه الأرض عاماً. تكسرت أظافري. لكن انظر إلى الغلة. إنها تسخر بقوة ذراعي هاتين. قل لي يا أبي، حين يأتي جامعو الضرائب... ماذا سأدفع لهم؟ وعندما أذهب إلى روا ـ ايني، وأشاهد ملابس جميلة، فمن أين لي النقود التي أدفعها إلى صاحب المخزن؟ يجب أن أمضي إلى المدينة الكبيرة، وأجرب حظي هناك: مثل أخوتي الآخرين». ترى... ماذا أقول له؟».

تساءل رورو: «هذه الأرض كانت تغل. والأمطار تهطل. ماذا حدث؟».

موتوري أجاب: «نسيت أن الأرض، آنذاك، لم تكن للبيع. كانت للاستعمال. كما كانت وفيرة. ولا يحتاج المرء إلى إنهاك ياردة واحدة منها مراراً. الغابات كانت تغطي الأرض. والأشجار تجلب المطر. وتظلل الأرض. لكن السكة الحديدية أكلت الغابة. تتذكر أنهم كانوا يأتون حتى هنا من أجل الخشب، كي يطعموا الشيء الحديدي. آه... هم يعرفون فقط أن يأكلوا، ويأخذوا كل شيء. لكنهم كانوا أجانب ـ

قوماً من البيض. أما الآن، وعندما حاكم أفريقي، وزعماء أفارقة كبار، فعليهم أن يعيدوا بعض ذلك الشحم إلى هذه البقاع...».

تساءل نجوغونا: «تعني أن يعيدوا أبناءنا؟».

ثم سعل سعلة ذات معنى، واستدار نحو عبد الله:

«والآن... حول حمارك... ألا تظن أنه يأكل كثيراً من العشب في موسم جفاف؟».

نهض منيرا. تركهم يتناقشون حول الحمار. كانت الموروغ بالنسبة له أرض جفاف بدون وانجا. لكن كلماتهم أثرت فيه تأثيراً غريباً. تذكر حديثه الغريب مع كاريغا قبل عامين تقريباً، وأفكاره المفاجئة عن بستان متفاوت الزراعة.

***

كل يوم ظلوا ينتظرون المطر، أو تبدلاً في الشمس. انتظروا جميعاً أن يحدث شيء. إلا أنهم كل يوم، يسيرون في الريح والغبار والشمس الباهرة.

ومع الأيام التي تمر بطيئة، بقيت الدنيا على حالها. وغدا حمار عبد الله، شيئاً فشيئاً، عقدة الحديث. واجتمع المسنون يتداولون أمره، وما يفعلون بشأنه. في باكر أحد الأيام جاء نجوغونا وورورو ونجوغو وموتوري، يزورون عبد الله. وقد رفضوا أن يجلسوا، أو يشربوا شيئاً. بل لم ينظروا في عيني عبد الله. وشاهد عبد الله العيون المتفادية في الوجوه الجامدة.

قال عبد الله: «كأن قلوبكم مثقلة. أأستطيع مساعدتكم في شيء؟». علق نجوغونا مشيراً بغموض إلى الشمس: «ألست ترى كيف تتوهج الشمس؟ لتكاد العين تعمى».

قال عبد الله غير مقتنع: «سيهطل المطر».

قال رورو: «نحن لا نقول بأن المطر لن يهطل. من المبكر الحديث عن تقلبات الطقس»... وأضاف: «ألست ترى الغبار والريح؟».

«ماذا تريدون؟».

قال نجوغونا: «نحن مبعوثون، فقط، من القرية».

«جئنا بسلام وقلب طيب».

«لكن ماذا تريدون مني؟»، وفي هذه اللحظة بالذات نهق حماره عبر الموروغ. نظر الكبار إلى بعضهم. وأبلغ نجوغونا عبد الله ما سماه رسالة ودية ورجاء. راقبهم عبد الله يبتعدون. الشمس تسطع على رؤوسهم العارية. وهمس لنفسه: مبعوثو الشيطان. ثم دفن رأسه بين يديه على الطاولة: ماذا عساه يصنع بدون ساقه الثانية؟

«إذاً هي مسألة حماري الوحيد، أو أبقارهم وماعزهم؟ لا.. لن أذبحه أو أرسله بعيداً. بل ربما غادرت القرية. أجل: يريدون إخراجي من الموروغ». نظر جوزيف إليه. وخاف أن يعني هذا غيابه عن المدرسة سنة ثانية. أراد أن يبكي. آه لو لم ترحل وانجا! هكذا فكر، ولداً حزيناً ممتناً، وهو يتذكر فضلها.

2* حين فتحت المدرسة أخيراً، وجد منيرا أنه لا يستطيع تدبير أربعة صفوف بنفسه. وبدت له السنتان الماضيتان، وهو يستعيدهما، معجزة حققها. بإمكان الصف الأول والثالث أن يدرسا صباحاً، أما الثاني والرابع فيدرسان بعد الظهر. اعتزم أن يذهب على دراجته إلى روا ـ ايني، ليقابل مزيغو حول مشكلات المدرسة. كما أنه من الحسن أيضاً أن يبتعد المرء عن حديث الغبار والشمس المستمر. فإن لم يعطه مزيغو معلماً، تعين على منيرا أن يترك المدرسة. لكنه قبل أن يغادر

إلى روا ـ ايني، لمقابلة مزيغو حول مشكلات المدرسة، حدث في الموروغ حادثان سوف يتذكرهما. وبدت له الحادثتان غريبتين عن النعاس المشمس في الموروغ القديمة. أولاً، جاء جامع الضرائب في لاندروفر حكومية يرافقه عسكريان مسلحان. قبل أن ينزل الضابط من سيارته، انتشر نبأ وصوله: واستطاع الرجال جميعاً أن يختفوا في السهول. طرق الضابط باب كل منزل: وفي كل منزل لم يجد إلا النساء والأطفال. النسوة اشتكين: «كل رجالنا ذهبوا إلى مدنكم. انظر إلى الشمس والغبار، وأخبرنا إن كنت ستبقى هنا». ففي النهاية ذهب الضابط إلى مخزن عبد الله، وتحدث، وهو يحتسي البيرة، عن ريف الموروغ «في كل سنة آتي فيها إلى الموروغ، أرى رجالاً أقل فأقل. لكن هذه السفرة ضربت رقماً قياسياً». وافق عبد الله الضابط دون إضافة أي تفاصيل. علق الضابط وهو يكتب إيصالاً بالضريبة إلى عبد الله: «على أي حال، بقيت النساء لك وحدك». وغادر الضابط في سيارته. مساء، وفي مثل المعجزة، ظهر الرجال، وتحدثوا وكأن شيئاً لم يكن.

بعد هذه الفترة بقليل، جاء رجلان من «هناك»، وادعيا بأنهما مرسلان من لدن «نديري واريرا». تجمع أهالي الموروغ حولهما في ساحة المدرسة، وانتظروا بكل صبر، سماع الأنباء: ربما تذكر نديري وا ريرا وعده القديم بمد مياه الأنابيب إلى المنطقة. كان أحدهما قصيراً سميناً ذا صلعة لامعة يلمسها دائماً، فأطلقوا عليه اسم «الكرش السمين»، أما الآخر فكان طويلاً نحيفاً يضع يديه دوماً في جيوبه ولا يقول كلمة البتة، فأطلقوا عليه اسم «الحشرة».

أخبرهم الحشرة عن تأسيس منظمة جديدة هي «المنظمة الثقافية كياما ـ كاميوني» م.ث.ك، وأنها ستوحد الغني والفقير، وتحقق

الانسجام الثقافي بين كل المناطق. وأعلن الكرش السمين أن على أهالي الموروغ الاستعداد للذهاب إلى غاتوندا ليغنوا، ويشربوا الشاي. وقال إن كل أهالي المنطقة الوسطى سوف يذهبون ليغنوا، ويشربوا الشاي. تماماً مثل 1952، وتحدث بغموض وتنغيمات صوتية عن حركة ثقافية جديدة: ليسمع السامع. وشرح كيف أن ملكيتهم التي اكتسبوها بصعوبة وكدح، تهددها قبيلة أخرى.

نهض رورو ليجيب بدوره: أين تقع غاتوندو؟

لماذا يراد من أهالي الموروغ أن يذهبوا، ويشربوا الشاي؟ كيف حدث لهؤلاء الذين جاؤوا إلى هناك أن قبائل أخرى تهددهم؟ هل كدسوا من الثروة ما يثير حسد القبائل الأخرى؟ الناس هنا مهددون بفقدان الماء، بفقدان الطرق، بفقدان المستشفيات. ما الذي يراد منهم حقيقة؟ ضحك الكرش السمين متضايقاً، لكنه حين تحدث أبدى صبراً لا حد له. سوف ينقلون مجاناً: لكن على كل رجل أو امرأة أن يأخذ معه اثني عشر شلناً وخمسين سنتاً.

حين سمعت النسوة هذا، بدأن، بقيادة نياكينيوا، يثرن الضجيج: هل يعني أن عليهم دفع هذا المبلغ كله من أجل أن يغنوا ويشربوا الشاي؟

«ليسمع السامع»...، رددَّ الكرش السمين، في مزيج من التحذير والتهديد. أصاب المس نياكينيوا:

«اسمع أنت أيضاً إن كنت تسمع: أنت أسوأ من جامع ضرائب. اثنا عشر شلناً وخمسون سنتاً؟ من أي حفرة سنقتلع هذا المال؟ لماذا ندفع للغناء؟ عد، وأخبرهم: نحن هنا نحتاج الماء لا الأغاني. نحتاج الطعام. نحتاج أن يعود أبناؤنا لنزرع هذه الأرض».

العرق يتصبب من الكرش السمين. القلق يتسرب إلى صوته. وفي الوقت ذاته لم يكن ليريد إظهار الخوف أمام هؤلاء الناس. حاول أن يقول إن ثروة القبيلة يهددها أهلِ البحيرات والآخرون الذين خدعهم الشيوعي الهندي المطرود مؤخراً من هذه البلاد.

«تعني أن بعضكم قد جمع فعلاً ثروة كبيرة بينما نحن ننبش الأرض؟».

«أهذه هي الثروة التي يريدون سرقتها منكم؟».

«خير لهم إن كانوا فقراء مثلنا».

«نعم، نعم، ماذا يستطيعون أن يسرقوا منا؟».

«حصاد عام واحد».

«جفافنا وترابنا».

«لو استطاع أن يسرق منا التراب والجفاف ـ فسيكون الأمر بركة...».

«نحن نعيش هنا مع جيراننا الرعاة. أي خصومات بينكم أنتم هناك؟».

النسوة سيطرن على المشهد، وبدا أنهن يتمتعن به. بعضهن بدأن يطلقن صرخات تهديد. وحدث اضطراب يسير. صاحت إحدى النساء: «دعنا نجذب ذكورهم لنعرف إن كانوا رجالاً.

تراجع الكرش السمين وصاحبه الحشرة قليلاً، محاولين الحفاظ على هيبتهما، لكنهما، بعد أن سمعا هذه الكلمات أطلقا سيقانهما للريح عبر ساحة المدرسة نحو سيارة اللاندروفر، وأصوات النسوة المتوعدة تلاحقهما.

فكر منيرا قليلاً، بهاتين الحادثتين، وهو في طريقه، بعد شهر، إلى روا ـ ايني، ليطلب معلمين آخرين. أي جنون أصاب النساء؟ ما هذا العنف المفاجئ وراء السلبية الريفية المشمسة؟ ربما كان الغبار والشمس سبباً، مستبعداً القضية كلها من ذهنه. الكرش السمين والحشرة كانا محتالين، بل لصين أرادا جمع المال.

بدأ يستعرض، مقدماً، مواجهته القادمة مع مزيغو. كان متعباً من رحلته الشهرية على الدراجة إلى روا ـ ايني. متعباً من بلدة روا ـ ايني ذات البيوت الكولونيالية من القرميد الأحمر، متعباً من ملعب الجولف فيها، ومن تلك الأشجار التي تمتد مع الأرصفة.

روا ـ ايني، عاصمة مقاطعة جيري، كانت شهيرة، فقط بسبب كونها في الأصل مركز تجارة المصران والجلود، وتجارة الدباغة.

أسس بومان وفُورستال، وكذلك بريمشاند وريشلاند وكوي، مكاتب متخاصمة ومعامل هنا، في عدائهم المخيف للسيطرة على تجارة لحاء السنط ومستخلصات الدباغة، في القرن التاسع عشر. هؤلاء الرأسماليون الأجانب والمحليون مع شركة مومباسا ـ كيسومو ـ كمبالا للسكة الحديد آكلة الفحم والخشب، هم الذين عروا الغابات القريبة والبعيدة. كانت روا ـ ايني تتمتع بالرفاه والنمو قبل أن تحل مواد الدباغة الصناعية محل مستخلصات اللحاء، وتأتي مكائن الديزل مكان المكائن آكلة الفحم النباتي.

كان مستخلص الدباغة ينقل بالسكة الحديد إلى ليمورو، في مقاطعة كيامبو، حيث معمل الأحذية التشيكي ـ الكندي العالمي، الذي أقيم قبل الحرب العالمية الثانية تماماً. أما روا ـ ايني، اليوم، فليست إلا مركزاً إدارياً، بالرغم من شهرة سوقها اليومي وملعب الجولف.

ما يزال مكتب مزيغو في نفس نظافته وترتيبه. جلس في المكان نفسه، في الوضعية ذاتها، شأنه دائماً. «آه... سيد منيرا، أمر حسن أن أراك مراراً. كيف حال المدرسة؟ لكن اجلس. آسف لأنني لم أزر مدرستك حتى الآن: لكني سآتي قريباً. أثمت طرق جيدة؟ لا أريد أن أحدثك عن هذه السيارات اللعينة. أأستطيع أن أبل ريقي هناك؟ بالمناسبة، تهانينا. كنت في السابق مدير مدرسة بالوكالة. الآن تم تثبيتك. أنت الآن «مدير مدرسة الموروغ الابتدائية الكاملة» الجديد، تهانينا ثانية.

قال منيرا وقد بوغت فعلاً: «إنني متأثر بهذا التشريف».

فقال مزيغو: «لا شيء... إخلاصك فقط!».

«لكني أستطيع تدبير الأمر مع بضعة معلمين، واحد في الأقل...».

«معلمون؟ سبق أن أخبرتك يا سيد منيرا، أن باستطاعتك تعيين من تحتاجهم».

«المسألة صعبة نوعاً ما... ذلك المكان... بعيد... جاف قليلاً. قلة من الناس يأتون إلى هناك».

«سمعت أن رجاله هجروه: أهذا صحيح يا سيد منيرا؟ أصحيح أن النساء وحدهن بقين؟ أنت محظوظ يا سيد منيرا. سآتي لأساعدك... شغل ليس بالرديء؟ اجتذب في هذه الأثناء معلماً أو اثنين. حدثهم عن النساء المباحات. حاول يا سيد منيرا، حاول. حين كنت في المدرسة، كان مديري يقول لنا دائماً: حاول وحاول ثانية. كان اسكتلندياً سميناً مسؤولاً عن الدين، وكان يحدثنا عن ملك اسكتلندي طرد من مملكته، وشاهد عنكبوتاً يحاول، ويحاول أن يتسلق جداراً حتى أفلح. الملك أيضاً عاد، واستعاد مملكته هذه

المـرة. إذاً... حـاول يـا سـيد مـنيرا، وامـلأ مملكتـك في المـوروغ بالمعلمين».

أوشك منيرا أن يغادر، فناداه مزيغو.

«بالمناسبة، هذه رسالة إلى مدير مدرسة الموروغ».

تناول منيرا المظروف، وفتحه. لم يـستطع تـصديقه. قـرأه، وأعـاد قراءته. المنظمة الثقافية الكاموينية (فرع الموروغ) تدعو مـدير مدرسـة الموروغ، وكل ملاك المدرسة، للانضمام إلى نديري وا ريرا في وفـد يذهب إلى الشاي بغاتوندو... كان يرتجف... قال: «أشكرك...».

«لست أنا...».

كان قلب منيرا يتقد زهواً. إذاً، ها هو يغدو ذا شأن، أخيراً. مـديراً. والآن دعوة إلى الشاي. الشاي في غاتوندو! ينبغي الاعتراف بأن الدعوة كانت بخط اليد، ومرسلة من مكتب المنطقة، وهي تطلب منـه تنظـيم كل معلميه وزوجاتهم. إنه لم يسمع البتة بـ: م.ث.ك (فـرع المـوروغ). لكن عليه أن يتذكرها. مدير. دعوة إلى الشاي. شاي في غاتوندو. فكـر بأن يعود ليخبر مزيغو بقصة السيد ايرونمونغر الذي اعتاد الحديث عن الجنة بتعابير الشاي، والمقانق، وآيس كريم الفانيلا. لكن عليه الآن أن يسرع إلى منزله ليخبر زوجته الخبر. مدير! دعوة إلى الشاي! لقد منحته الموروغ العظمة! هو... يـ... يـ... يـ... ي!

قبل الغروب أخذ يخترق ليمورو. حتى لو لم يعرف ملامـح الأرض وتضاريسها ـ الجروف التي تنفتح عن وديان عميقة ترتفـع بـدورها إلى جروف ووديان أخرى ـ فإنه سوف يعرفها مـن الهـواء المـنعش البـارد الذي سعفه فجأة، ونبه جسده وذهنه. هـذه الأرض، هـذه الجـروف، هذه الوديان التي تكاد تدوم خضرتها طوال العام، جعلت من ليمـورو

بلاداً من بلدان الله المختارة: أمطار مستمرة في آذار ونيسان وأيار، وزخات باردة كالثلج في حزيران الضباب وتموز، وإشراقة شمس ذات ريح على البقول والفاصولياء في آب وأيلول، وشمس باهرة على موسم الحصاد في تشرين الأول وتشرين الثاني، وخوخ أحمر وكمثرى لذيذة تنضج في كانون الأول وكانون الثاني وشباط تحت سماء زرقاء متألقة الصفاء. فكر... كم هي مختلفة عن المورو‍غ اليابسة. لكنه حين يحل فيها، يشعر دائماً بتوتر شديد بين هذه الطاقة التي كانت ليمورو، وذلك الليل الطويل من اللاواقع الذي كان ماضيه: بين نداء الحياة والاستغراق في أن يحيا التاريخ، وبين ملتجأ العزلة العائلية ذات الأخلاقية المتجذرة في الملكية والكنيسة المشيخانية، بين خوف من الناس ليس له تفسير، وخوف من أبيه لا يفسر. بين رغبة في الإبداع وتقبل سلبي للقدر المحتوم.

لاح وجه أبيه الآن، واسعاً... عريضاً.. في ذهنه.

* * *

كان أبوه من أوائل المنتصرين. باستطاعتنا أن نتخيل اللقاء المهلك بين ابن البلد والغريب. لقد قطع المبشر البحار والغابات، مسلحاً بشهوة الربح التي هي إيمانه ونوره، وبالبندقية التي هي حمايته. هو يحمل الكتاب المقدس، والجندي يحمل البندقية، والإداري والمستوطن يحملان النقود. المسيحية، التجارة، التمدن: الكتاب، النقد، البندقية: ثالوث مقدس. كان ابن البلد يرعى الماشية، يحلم بالبطولة، بأن يجعل الأرض تستسلم لقوة يديه، ببطء... وعبر مزيج من السحر والعمل، كان يطوع قوانين الطبيعة لإرادته الجمعية ومقاصده. وفي المساء، سوف يرقص رقصات الموثونغوسي والندومو والمومبورو محتفلاً، أو يصلي ويضحي من أجل أن تخصب

الطبيعة. أجل: لم يزل ابن البلد يخاف الطبيعة. لكنه يجل حياة الإنسان كما يجل الطبيعة. حياة الإنسان هي نار الله المقدسة التي يجب أن تظل موقدة من الأسلاف إلى الأحفاد، إلى الأجيال التي لم تولد بعد.

لكن واويرو وأباه، طردهما من أرض العائلة، سيد قوي من سادات المباري وبيوتاتها الموسرة ممن يستطيعون ابتياع سحر أقوى، وقوى حامية أخرى. وكان عليهما، هنا، في كيامبو، أن يبدأا من جديد. أما الجد فعليه أن يشق طريقه ثانية، من عميد أسرة قوية ذات أرض، إلى صاحب بضع معزات. شاهد واويرو ذلك كله، وتمنى أنه حين يكبر، فسوف يستحوذ أيضاً على سحر أقوى، وينشئ بيتاً أوطد أركاناً من السابق. ابن البلد. المبشر. دفعتهما قوى لا يستطيعان دائماً فهمها. لقد هيئ المسرح.

استيقظ والد واويرو، كما يقال في الساعة التي رمى فيها، مارا، أمه المحتضرة، في الغابة.

وقال لواويرو: يا ولدي، خذ هذه العنزات والبقرات إلى المرعى القريب من غابة ايكنيا. فلدي اجتماع مع الكبار لنتحدث في ذلك الشيء الذي تنبأ به منذ زمن طويل، العراف الجوالة.

موغو واكيبيرو. لم نكن نحن وآباؤنا لنصدقه حين أخبرنا عن غرباء حمر. واليوم تحقق ما قال. أما الآن فإن الأجنبي الأحمر يستولي على أراضينا في تيغوني وأماكن أخرى. وأنتم تعرفون كم عانينا لنكسب هذه الأرض، ثم هذه الثروة. فإذا استولى على أرضنا... كيف نزرع، وأين ترعى ماشيتنا؟ لذا يجب على كل القبائل والبطون والبيوتات أن ترص صفوفها، وتحارب الأجنبي الذي جاء إلى وسطنا. لا تنسوا قربة لبنكم الحامض. وكذلك رمحكم ودرعكم. فلسوف نحتاجها إلى الصراع المقبل، شدوا أحقاءكم، وتذكروا دائماً أن الخير والجميل

يأتي من الأرض. بعض رؤساء القبائل، والبيوتات، يخونون الشعب، ويتحالفون مع هؤلاء الأجانب. لكن تذكروا أولئك الذين خانوا الأمة لصالح التاجر العربي، جومبي؟ لقد طاردهم صوت الشعب حتى الممات.

وأويرو يأخذ البقرات والعنزات ويتوقف، يراقب شبح أبيه المبتعد، ويبصق على الأرض: بيوتات كبيرة، أسر كبيرة. قوة السحر أقوى من عمل يدي: ألم تطردنا البيوتات الكبيرة من أرضنا في مورانغا، لنبدأ من البداية؟ سأشيد بيتي الكبير لأقهر كل البيوتات الكبيرة...

كان واويرو يمر دائماً بهذا المبنى الجديد حيث يبعث قرع النواقيس اليومي، الرهبة والفضول في قلبه. هذا السحر وذلك الآتي من عصي الخيزران يخيفان البيوتات الكبيرة والقبائل وسادات المباري، إنهم يكافحون ضدهما، أو يطلبون صداقتهما. حتى سحر كاميري لم يجد شيئاً أمام هذا السحر. أن واويرو يعرف شاباً أو شابين لاذا بهذا المبنى. لقد قدموا لهما قطع سكر، وخامة بيضاء. الوقت صباح. وهو يحس بالبرد. إنهم يرونه ويدعونه للدخول. اتخذ قراره. ليقاوم أبوه وحيداً. أما هو، وأويرو، فسوف ينضم إلى كاميني وكاهاني. خير من دفء الروث والبول والندى البارد، رائحة الرجل الأبيض المحلاة بالسكر، وأجراس الكنيسة ذات موسيقا أعجب من موسيقا الوانديدي ذات الوتر الواحد، وفلوت المواريكي ـ وهي محمية بالبارود والنقود، وحياتها أطول وأقوى من حياة الأبقار والماعز والخراف.هذا عالم جديد، ذو سحر جديد. جاء أبوه يرتجف غضباً، ليستعيد ابنه الضال: لم يكن ليستطيع الكلام، فقد كان يهز، عاجزاً، العصا، في وجه ولده.

أحس واويرو بالذنب قليلاً، فهو على أي حال، من صلب هذا الرجل الشيخ. لكنه يسمع أعلى من هذا الصوت، صوتاً آخر يدعوه إلى المجد الأسمى: فهو الذي يضحي بأمه وأبيه من أجل الإله، ويرى في نفسه تحقيقاً للنبوءة ودليلاً على صحتها.

واستجابة لوالديه الجديدين، خلع واويرو ـ الذي صار اسمه الآن حزقيال ـ كل ما له علاقة بماضيه. اغسلني أيها المخلص لأكون أنصع بياضاً من الثلج: هكذا غنوا آنذاك، مثلما كان على منيرا أن يغني في سيريانا، فيما بعد.

وكانت ثمت مكافآت: برهان استجابة الله. فبمزيج من النقد الرنان والقلم الغشاش والقانون، استطاع أن يشتري أراضي كاملة من سادات المباري المتدهورين ومن الأفراد أيضاً، أولئك الذين يحتاجون المال ليدفعوا الضرائب إلى قيصر الجديد. هكذا كان أولئك الذين يرفضون أن يتحولوا عمالاً في أراضي المستوطنين الأوروبيين، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة للحصول على النقد الذي يحتاجه قيصر. وأخيراً يضطرون إلى الالتحاق بنفس القبيلة العاملة التي كانوا يحاولون تجنبها ببيع أراضيهم وممتلكاتهم. ذلك لان قيصر يظل يقدم مطالب تتزايد باستمرار.

بعض سادات البارىء، الكاغوندا مثلاً، كان أبناؤهم منصرفين إلى الشراب فقط، مهملين ثروتهم الموروثة. هكذا باع كانجوهي، الابن الأكبر كاغوندا، كل أراضي عائلته لواويرو، وذهب هو نفسه إلى وادي ريفت. والأكثر من هذا أن واويرو استولى على كل الأراضي الخالية حتى أمسى في ظل النظام الكولونيالي، مالك أرض ورجل كنيسة، قوياً جداً. كان واويرو بين الأفارقة الأوائل الذين سمح لهم بزارعة حشيشة الحمى لغرض تجاري، وبيعها إلى المزارعين البيض.

هكذا غدا متفوقاً على جيرانه الوثنيين، الذين تمت تهدئة بعضهم حتى الرقاد الأبدي، أو وضعوا في معسكرات عمل الأرقاء في المدن والمزارع، على أيدي فردريك لوغارد، مينرتزاغن، جروجان، فرنسيس هال، وغيرهم من مأجوري صاحبة الجلالة الإمبراطورية، حامية الدين، التي اصطفاها الله. كانوا ينشدون: حفظ الله الملكة، بعد كل مذبحة، ثم يدخلون الكنيسة للبركة والطهارة: كان على القسيس أن يقدم قرابين بشرية لكل إله متسلط، على امتداد التاريخ.

ثمت صورة فوتوغرافية لوالد منيرا التقطت بين الحربين، صورة ظلت تستثير منيرا. وأويرا واقف إلى جانب غراموفون عليه صورة كلب يقعي على قائمتيه الخلفيتين، نابحاً: صوت سيده. الأب يرتدي سترة وسراويل ركوب وجزمة، وهناك سلسلة عبر صدرته. وهو يعتمر خوذة شمس، وبيديه الكتاب المقدس.

هذه الصورة تضايق منيرا بعض الضيق، لكنه لا يعلم موطن اعتراضه. وبالطريقة ذاتها تزوج فتاة من بيت وثني، ربما اعتراضاً من أعماقه على موقف أبيه. لكن الفتاة غدت نسخة من أشد شقيقاته طاعة. إذ لم تستطع أن تبعد من ذهنها أنها تزوجت في بيت مسيحي معروف، وحاولت أن تكون الكنة المثالية. واستطاعت أن تلين مقاومة الأبوين الأولية باستعدادها لأن تخلق من جديد. وسرعان ما غدت جوليا مخلوقة أمه الخاصة كما شاءت الأم أن تكون. إن منيرا ليغفر لها كل شيء إلا تلك الصلوات الصامتة قبل عملية الحب وبعدها. لكنه لم يرفع حتى إصبعاً يقاوم هذا المسار.

الحياة، بالنسبة له، رهق دائم. الأب يظنه خائباً. أما هو، منيرا، فيحس، على الدوام، بالحاجة إلى الانعتاق. إلا أنه متردد. حتى كأنه لا يعرف ممّ يهرب وإلى أين.

* * *

لكن منيرا، وهو يقترب من منزله، كان سعيداً، إذ غدا مديراً، وثمت دعوة للشاي في أحد جيوبه. ها هي ذي مبادرته الكبيرة الأولى، التي أتت في جو المثالية العامة، قبيل الاستقلال، وبعده بقليل، قد آتت أكلها، ثمرة، وإن كانت صغيرة. دعوة وترقية. إنه الآن يستطيع أن يطاول حتى صورة أبيه الدائرة في مخيلته... بينما هو يسرع خلال الهواء المنعش نحو منزله.

ظهر أن معظم المعلمين وزوجاتهم قد وجهت إليهم الدعوة لشاي غاتوندو. وقد طلب منهم أيضاً دفع اثني عشر شلناً وخمسين سنتاً لمشروع من مشاريع العون الذاتي.

أما زوجة منيرا، فبالرغم من محاولتها الحفاظ على الوقار المسيحي فقد استثارها النبأ استثارة واضحة. يوم السبت هذا سيظل وشماً في ذاكرة منيرا ينقله إلى أبنائه: منيرا، سيذهب ليشرب الشاي مع أسطورة حية ظلت مسيطرة على وعي البلاد زمناً يقرب من القرن. أي شيء لا يقدمه المرء من أجل هذا الشرف! وشعر منيرا، ثانية، بأنه فوق المستوى العادي. الحافلة التي تنقلهم، سوف تصل إلى مركز بريد روا ـ ايني في حوالي الساعة السادسة. الجميع كانوا قلقين: بعضهم أراد إلغاء الرحلة، لكن آخرين أسكتوهم. التأخر أفضل من التغيب: شرب الشاي في مكان كهذا يعني احتفالاً ليلياً. أكد الموظف الحكومي الوقور أن كل شيء حسن. سوء الحظ المفاجئ آذى منيرا، وعانى منه أكثر مما عاناه منذ تجربته في حادث سيريانا. أخذوهم، عبر غانوندو، خلال مزارع موز، حيث وجدوا حشداً آخر من الناس صامتاً، ينتظر شيئاً ما. أشاي جنائزي؟ استغرب منيرا اللائذ بالصمت، بسبب صمت كل شيء. نظر حوله: اختفى الموظف الحكومي. الآن قسموهم صفين منتظمين ـ صفاً للرجال، وآخر للنساء. تساءل معلم

بصوت عال: أهذا هو الشاي الذي جئناه؟ لكنى تلقى ضربة مذبَّة من رجل ظهر، بغتة، من لا مكان، واختفى، بغتة، في لا مكان. ترى ما خل مزيغو والموظف الحكومي في هذا كله؟ الظلام مخيم: ضوء ضئيل يلوح من كوخ يختفي فيه الناس جماعات من عشرة أو نحو ذلك.

لم هذا كله؟ خفق قلب منيرا بعنف. والآن جاء دوره! في طريق العودة، حوالي منتصف الليل، انتبه منيرا إلى بكاء جوليا الصامت. أحس بابتعادها، وبتهمة الخديعة: ترى كيف يجيب عن أسئلتها الآن، كيف يقول لها إنه لم يكن يعرف عن الأمر شيئاً؟ كان جائعاً ظامئاً، وكان الناس في الحافلة صامتين، مدركين أنهم خدعوا: فلقد اشتركوا في طقوس منافية للزمان والمكان والأشخاص وآمال الشعب بعد الحرية! كيف يستطيعون، وهم المعلمون، أن يواجهوا تلاميذهم، ويخبروهم بأن كينيا واحدة موحدة؟

عرف منيرا، فيما بعد، أن شخصية في السلطة مهمة جداً، مع التفاهم المسبق مع شخصيات أخرى في السلطة مهمة جداً، مثل نديري، وموافقتها، كانت الرأس المدبر لهذه القضية. لكن معرفة منيرا لم تؤد به إلى تقبل الأمر. في المنزل، نظرت إليه جوليا وقالت: «إذن، لم تكن من الرجولة بحيث تخبر زوجتك!».

لأول مرة في حياته، أحس منيرا بوجوب أن يتحدث مع أبيه حديث رجل لرجل. إنه الآن يرى أباه في ضوء جديد أكثر إيجابية. في التسعينات وقف ضد جده والتحق بالبعثة التبشيرية. في عام 1952 تحدى الحركة والتصق بالكنيسة. بل جرؤ حتى على إلقاء المواعظ ضد الحركة. لهذا كسرت زريبة ماشيته ونهبت أبقاره. وقطعت أذنه اليسرى تحذيراً. صحيح أنه انقطع عن الوعظ ضد الحركة، لكنه، في

الأقل، لم يتنكر لمعتقده وللجهة التي اختارها. أجل، سوف يحدثه حديث رجل لرجل، ووجهاً لوجه، ويتعلم سر نجاح أبيه. ذهب إلى بيت والديه مبكراً في اليوم التالي. وجد أباه يصلي. شعر منيرا بوهن في ركبتيه. ركع على الأرض، مرتجفاً ارتجافاً صادقاً أمام الله. إن كان الخلاص سيساعده، فليكن الخلاص. إن كان اللطم والتمزيق وتعرية الصدر أمام الله ستساعده، حقاً، في اختيار السبيل القويم، مرة وإلى النهاية، فلسوف يفعل ذلك، بغية التطهر من الرعب والشك والتردد، إلى الأبد. كم هو فخور الآن بأب وقور هكذا، واثق هكذا، ومطمئن الدنيا والدين!

ما يزال حزقيال واويرو من أقوى ملاك الأرض الأغنياء في المنطقة، مضيفاً إلى مزارع حشيشة الحمى، مزارع شاي اشتراها من المستوطنين الراحلين. وكان من سخرية التاريخ، أو من آيات الله بالنسبة له، أن مزرعة الشاي الجديدة تقع في تبغوني، في المنطقة نفسها التي عينها والد «واويرو» باعتبار أنها شهدت عملاً من أعمال النهب الاستعماري، سبب انتفاضة مسلحة قام بها الأغنياء والفقراء معاً.

أما أبناؤه، باستثناء موكامي ومنيرا، فقد حالفهم التوفيق. لو أنه دهش لزيارة منيرا المبكرة في يوم الأحد، أو احتار لوجهه الورع واستغراقه في الصلاة، فما كان لهذه الدهشة والحيرة أن تبينا في وجهه.

وفكر... ربما هداه الله أخيراً. كان يقمع ما يحس به إزاء منيرا، من ازدراء.

كان خوف منيرا، وغضبه المحتار، لما جرى أمس، يتزايدان مع ازدياد التأمل، ومر الزمن. لكنه فكر ألا يصدم أباه، وأن ينزل إلى

قرارة رأي والده فيه. كان حديثه خفيفاً، ناعماً، وإن دفعته مرارة الخديعة التي تعرض لها، وهو المعلم، إلى أن يقول كل شيء. أصغى أبوه إليه، مستغرقاً في التفكير، مما شجع منيرا. «ما لم أستطع فهمه... ولن أنساه... هذا الرجل... كان ذا ملابس رثة... أسمال... وبلا حذاء... ووقف هناك، بينما كنا نرتعد جميعاً، وقال: إنني تعاب، شغيل في مزرعة شاي تملكها «مزارع شاي ملك ستريم» كنت أشتغل هناك قبل 1952. وأثناء الحركة كنت مسؤولاً عن جمع المعلومات وتسلم البنادق ونقلها إلى مقاتلينا. اعتقلت فيما بعد. وأنا الآن أشتغل في المزرعة نفسها، التي تملكها الشركة ذاتها. فقط انضم بعض مواطنين إلى الشركة. حسن أن يأكل بعض مواطنينا. لكنني لن أؤدي قسماً ثانياً حتى تتحقق وعود القسم الأول». ضربوه أمامنا. مشوا على رقبته، وضغطوها بجزماتهم على الأرض، ولم يتوقفوا عن ذلك حتى بدا يطلق صرخات حيوانية. المهم أنه أدى القسم، وإن لم يكن من أعماق قلبه. لن أنسى صراخه».

لم يحس منيرا يوماً بأنه قريب إلى أبيه هذا القرب. وحتى حين أخذ واويرو يلومه على إخفاقاته، اعتبر الأمر عقاباً مبرراً: ومن تراه حتى يناقض أباه الذي تمسك، في الأقل، بمبادئه؟

«لا أكتمك أنك كنت خيبة أمل بالنسبة لي. أنت ولدي الأكبر وأنت تعرف معنى ذلك. أرسلتك إلى سيريانا: فصحبت رفاق السوء، وطردت من البيت. لو نظرت إلى بعض الناس الذين كانوا معك في المدرسة لرأيت أماكنهم: اذهب إلى أي وزارة، إلى أي شركة كبيرة، تجدهم هناك. فعلك الرجولي الأول هو حبل امرأة. الحمد لله، في أن جوليا امرأة طيبة. لكنك بدل البقاء معها، هربت إلى مكان لا أستطيع حتى أن أنطق باسمه. عندي هذه الأملاك كلها...

وأنا أتقدم في السن... تستطيع في الأقل أن تشرف عليها. انظر إلى أخوتك... كانوا ما يزالون أطفالاً حتى أمس. تعلم منهم درساً. المصرفي اشترى بيوتاً في كل نايروبي. وله عدد من المحالات التجارية في نايروبي. وأخوك في شركة النفط... اذهب إلى أي محطة بنزين من هنا إلى أي مكان... تجد شيئاً صغيراً له. أخواتك أيضاً... والآن بلغني أنك تشرب أيضاً. سوف تنتهي نهاية سيئة: مثل أختك...».

سأل منيرا أوتوماتيكياً: «موكامي؟». لقد استحق هذا كله، وأكثر، وسوف يصلح من أمره بعد اليوم. «قل لي يا أبي... ماذا حدث لموكامي حقاً؟ ماذا الذي دفعها إلى»؟.

«رفقة السوء... رفقة السوء... مريم... المرأة السيئة... أبناؤها سبب خرابي».

تهدج صوت أبيه. ومرت دقيقة صمت وهو يحاول استعادة توازنه. وأسف منيرا لسؤاله الذي أثار ذكريات مؤلمة. فجأة، نهض والده، وتناول سترته، وطلب من منيرا أن يتبعه.

سارا إلى قمة التلعة المطلة على المزرعة الواسعة. كان واويرو يفخر بهذه المزرعة، دائماً، لأنه حصل عليها، في بداية ثروته، قبل الحرب العالمية الثانية.

«أترى هذا كله؟».

«نعم».

«أزهار. أشجار فاكهة. شاي. أبقار... كل شيء».

«نعم».

«لم تكن هذه بسبب قوة أعضائي فقط. إنها إرادة الله. صحيح أن أرض الآغيكيو هذه قد باركها الله. الرفاه تضاعف مراراً بعد الاستقلال. يا ولدي، ثق بالله، ولن تضل قدمك. الله يختار وقت الزرع والحصاد. الآن، اصغ يا ولدي. الشيخ هو إناء الله حقاً. لقد عانى. لكنه حين نجا لم يتناول العصا ليضرب أعداءه. قال فقط: «اغفر لهم يا إلهي، فهم لا يعرفون ما يفعلون». اليوم كل هذه الرفاه، كل تلك الحرية التي حصلنا عليها بمشقة، مهددة بعمل الشيطان من خلال قبائل أخرى تصاعد عندها الحسد والغيرة. لذا صار هذا القسم ضرورياً. إنه من أجل السلام والوحدة، وهو متفق مع ما يريده الله. الآن، أصغ إليَّ. كنت أنا هناك. استعملت الكتاب. أريد أن تذهب أمك. وهي ترفض. لكن المسيح سوف يريها النور سريعاً. حتى الناس ذوو الثقافة العالية يذهبون إلى هناك، بإرادتهم. إن هذه الـ م.ث.ك ليست شيئاً رديئاً... بل سيكون فرع كنيسة. إنها منظمة ثقافية لإحلال الوحدة والانسجام بيننا جميعاً، أغنياء وفقراء، ولإنهاء الحسد والجشع. الله يساعد من يساعدون أنفسهم. وهو قال إنه لن ينزل، مرة أخرى، المنَّ، من السماء». لم يكن منيرا متأكداً من سماعه أباه بصورة صحيحة. نظر إلى أبيه، إلى أذنه المقطوعة: تذكر استنكار أبيه للقسم في الأيام الماضية: كيف حدث هذا التبدل إلى الشيء نفسه؟ ما هو الشيء نفسه؟ تشوَّش ثانية:

«تعني أنك...».

قال بسرعة، ونفاد صبر، «نعم، نعم».

ولأول مرة، حاول منيرا، أن يجادل أباه.

«لكن... لا قبائل أمام الله. نحن متساوون أمامه». قال وهو يزن كلمته بضع دقائق: «يا بني، عد لتدرّس. وانقطع عن الشرب. فإن كنت متعباً من التدريس عد إلى هنا. فثمت عمل لك عندي. مزارعي كثيرة. وأنا أتقدم في السن. أو انضمّ إلى الـ م. ث. ك. خذ قرضاً مصرفياً، وباشر عملاً».

«هنا، على مزرعتنا، منذ أن كنت طفلاً، رأيت عمالاً كثيرين: لوو، غوسي، امبو، كامبا، صومال، كيكيو ـ وكانوا يشتغلون معاً. رأيتهم يشكرون الله دون أي سوء بينهم».

«لا أعرف سبب مجيئك. لم أعلم أنك جئت تعظ أباك. لكني أكرر هذا. عد، ودرّس. هذه الأمور أعمق مما تظن».

ومضى.

راقبه منيرا، وهو يهبط نحو المزرعة الشاسعة. لا... لم يعرف أباه قط، ولن يفهمه: ما الأمر؟ ما هذا التحالف الجديد بين الكنيسة والـ م. ث. ك؟ لا... عليه ألا يغوص بعيداً في شؤون لا تخصه.

وأحس بنوع من الارتياح. كأن أحداً جذبه من حافة الهاوية. لقد أجّل قراراً. لكنه يشعر كأن أحداً اتخذ له القرار، لأنه حين أخذ دراجته من جدار بيت أبيه، لم يتجه نحو منزله، بل اتجه إلى بلدة كاميريثو ـ ليشرب. لكنه يعلم أنه عائد إلى الموروغ، يوماً ما، أو ليلة ما، عائد إلى ديره القاحل، الذي لا تسقيه قطرة مطر... بل معلمين أراد توظيفهم.

* * *

كاميريثو التي جاءها الآن، تغيرت كثيراً. فبالأمس، كما يقال، لم تكن إلا قرية كبيرة. أما الآن فقد انفجرت في مركز تجاري سريع النمو، ذي مشارب وقاعات شاي أكثر من اللازم. وخارج البلدة، يعمل الحرفيون، لحسابهم، أو لحساب غيرهم، يعالجون صفائح الحديد، ويصنعون خزانات ماء بالفحم النباتي، وأحواض لعلف الدواجن. وترتفع أعلى فأعلى، كرمتان ضخمتان من أنقاض المعادن، وخردة الحديد المختلفة من الشاحنات والحافلات المهجورة. ويتمدد ميكانيكيو المحركات العاطلون على العشب، وهم يتابعون السيارات تمر بهم، متمنين أن يحدث عطل ميكانيكي لأحدها.

وقف خارج محطة البنزين، ونظر عبر المخازن إلى حيث اعتادت الشاحنات أن تمضي إلى مورام، حيث أقامت أمينة والأخريات بيوتاً على طراز الماجنغو السواحلية، وتذكر تلك المهانة الماضية منذ زمن بعيد.

ثم استدار، ورأى عدة شاحنات تمر. على اللوحات كتب «كانو. خاص». إنه يعرف من أين تأتي. وتملّكه رعب ليلته السابقة. انطلق بدراجته إلى «سافاري»، أقرب بار... واختبأ في داخله. الوقت مبكر، ولكنه طلب شراباً. أنهى الزجاجة الأولى بسرعة، وطلب ثانية. وأخذ يتطلع إلى صور الجدران، محاولاً صرف ذهنه عن الخارج، وسرعان ما استغرق استغراقاً كاملاً في عالم الفنان القنطاري: رجل من الماساي، يشد سيفاً إلى حقويه شبه العاريين، ويطعن، دون وجل، برمحه، أسداً مزمجراً، في فمه. رجل يعتمر قبعات يرخي قدميه، متمدداً على الأرض، قرب شجرة أكاسيا في مجاهل ويرو بأستراليا، ويطعم موزة أنثى كنغر تحمل صغيرها في جيبها عند البطن. سادة

وسيدات من المدينة، على كراسٍ، في صحراء، يحتسون بيرة «تسكر» و«بلسنر». قردة تتقافز من غصن إلى غصن، ذات عيون إنسانية ـ أي عناصر متباعدة، تجانست رغم كل شيء. على جدار آخر كانت الحافلة رقم 555 تسرع على طريق يؤدي إلى بحر أزرق تبرز منه عرائس بحر ناهدات يحملن أطفالاً، وينهضن من البحر. أومضت الصور السريالية في ذهنه، وهو يطلب عبد الله، «تسكر» أخرى، ويتذكر في الوقت نفسه دكان عبدا لله، ومخاوف عبد الله على حماره... عالم سريالي... يكون فيه مديرا، ساعة، في مكتب حديث نظيف، ويشرب شاي الوحدة ليحمي ملكية نفر من الناس في غابة موز معتمة في اليوم نفسه... نسوة جميلات يبرزن فجأة، ويجعلنك سعيداً شهراً أو شهرين ثم يختفين كما برزن فجأة. أخذ يقرأ أسماء المشروبات على الرفوف خلف النضد:

تسكر، بلسنر، موراتينا، فات 69، جونيووكر، ولد عام 1820 وما يزال يمشي في كاميريثو صباح الأحد... بعضهم كان يدير أسطوانة في صندوق الأغاني... التفت... رأى المرأة ذات الثوب الأزرق تهز ردفيها في حركة بطيئة، ولم يكد يصدق عينيه... هتف:

«وانجا! وانجا! ماذا تفعلين هنا؟».

3* شكراً لهذه البيرة... غريب أنك وجدتني هنا اليوم، هذا الصباح، أو أني وجدتك هنا، كنت سأعود إلى المورورغ. قد لا تصدقني. لكنها الحقيقة. فقد قررت هذا الصباح. أم أقول إن الأمر قرر لي. دعني أبدأ... من أين أبدأ؟ قبل هذا... كنت أشتغل... تبدو المسألة موغلة في الماضي. أليس كذلك؟ إنني أتحدث عن الليلة الماضية، كما لو أني أتحدث عن سنوات مضت... على أية حال... قبل هذا الصباح كنت أشتغل في «المشرب السماوي» قرب نادي

بوليبو للجولف. إنه مكان مثير جداً. كل الشخصيات المهمة في نادي بوليبو للجولف تزور المكان لتأكل لحم الماعز المشوي، وتشتري خمس دقائق حب. كانوا يجيئون في سيارات مرسيدس بنز، دملر، جاغوار، ألفا، تويوتا، بيجو، فولفو، فورد، فولكس واجن، رينج روفر، مزادا، داتسن، بنتلي. كأنها ساحة عرض لكل سيارات العالم. شخصيات مهمة من كل الجماعات الكينية. إنهم يتحدثون عن مشاريعهم. عن مدارسهم. أشياء كثيرة. المهم أنه كان محلاً جيداً. لكنه هكذا كان قبل أن أرحل إلى الموروغ في المرة الأولى! وددت لو أني بقيت في الموروغ ـ عدت إلى المحل نفسه. لاحظت تبدلاً هناك. شخصيات مهمة من مختلف الجماعات يجلسون معاً، ويتكلمون فقط بلغاتهم الأم. أحياناً يتحدثون بالإنجليزية أو السواحلية. الجماعات المختلفة لا تأبه بنا نحن فتيات المشرب. لذا أستطيع أن أسمع طرفا من هنا وطرفا من هنا. كل جماعة تتحدث عن خطر الجماعات الأخرى. كانوا نهمين في الأكل، يلتهمون كل شيء أو أنهم كسالى... يشربون فقط بيرة منازي... أو يرتدون بدلات أو يأكلون طيوراً... أو أنهم استولوا على كل أراضي البيض المرتفعة. وقبل حوالي شهر، لم يعد أصحاب الجماعات المختلفة يجيئون إلى المحل. هكذا قل عدد السيارات. الحديث تغير الآن قليلاً. سوف نقاتل: لقد قاتلنا قبلاً... الجماعات المختلفة يجيئون إلى المحل. هكذا قل عدد السيارات. مقابل في كينيا. هكذا عرفنا أن أمراً ما يحدث. بدأنا نرى شاحنات كانو الخاصة هذه. وضعت اليد أولاً على فتيات المشارب. لكني نجوت من الشبكة. كنت معتلة ليلة أخذت الفتيات إلى الشاي. حين عدن كن غاضبات. بعضهم كن يضحكن ساخرات. بالنسبة لنا... أيهمنا من يسوق المرسيدس بنز؟ كانوا جميعاً من قبيلة واحدة: عائلة المرسيدس: سواء جاؤوا من الشاطئ أو من كيسومو. عائلة واحدة.

أما نحن فقبيلة أخرى: عائلة أخرى. خذ صاحبي مثلاً. هو صومالي طويل. سائق مسافات طويلة. عمل في شركة كنتاكو، وعرف بلداناً عديدة: زامبيا، السودان، أثيوبيا، مالاوي. ويعرف حكايات كل تلك البلدان التي كان يستطيع أن يريني إياها. كان طريفاً حقاً ـ لم يرتد ملابس داخلية قط ـ يقول إنها ثقيلة جداً بالنسبة لمن يعمل يومياً، لكنه كان كريماً. حسناً، جاء أمس، وأوقف شاحنته عند المحل، كما هي عادته. شربنا شرباً حقيقياً. جربت كل مزيج... وسكي، سيدر، تسكر، بيبي جام، فودكا... لكني لم أسكر. كان الأمر على غير العادة. لقد أثرت فيّ إقامتي بالموروغ، والليلة الماضية فكرت في المسألة كثيراً. ربما كان السبب شعور الكآبة الذي ينتابني أحياناً. غير أن المسألة كانت أمراً آخر. على أي حال... لم أكن سعيدة. أراد أن يستأجر غرفة في موكاثا. لكني رفضت. وأخبرته بضرورة العودة إلى مسكني. دهش لأنني لم أصطحبه مرة إلى غرفتي. كانت القاعدة لدي ألا اصطحب رجلاً إلى غرفتي. هكذا لن يزعجك بزيارته شخص انتهت صداقتك معه. ولهذا استأجر سيارة أخرى ـ أقول لك أن سائقي المسافات البعيدة يكسبون مالاً كثيراً ـ وعدنا، صامتين. لست أدري ما السبب: الشراب، الانتقال من مكان إلى مكان، أو كامل الجو... لكننا كنا صامتين طوال الطريق إلى غرفتي.

إن كان سيحدث لك شيء، أتراك تحس شيئاً في معدتك، أو في شعرك، أو في أي جزء منك؟ كانت نافذة غرفتي يتصاعد منها الدخان. اندفعت نحو الباب. ثمت نار صغيرة بدأت تتقد لكنها لم تبلغ الباب بعد. أردت أن أصرخ، أن أنادي، لكن لم يطاوعني صوت أو دمع. أخذت أضرب الباب كأني أوقظ شخصاً في الداخل. ثم تذكرت المفتاح في حقيبتي اليدوية. فتحت الباب، وحاولت

الدخول، لكن رائحة دخان الخشب ردتني. ربما استعملوا البارافين أو البترول... وكان الفاعل يريد أن نقع نحن الاثنين، في الفخ، معاً. جريت عائدة إلى صديقي الذي كان مسمراً في موضعه. خذني إلى مركز شرطة. قال: انتظري، دعيني أستعمل الماء... عدت إلى غرفتي كان المبنى حجرياً، ذا غرفة واحدة خلفية. الغرف الأخرى لم تكتمل بعد. لهذا لم تحترق إلا الباب والنافذة. كنت ما أزال أرتعد. بعد بضع دقائق، سمعت الشاحنة الضخمة تبتعد، شديدة الوطأة على الحجر والقار... لقد هرب صديقي: لكن هل أستطيع أن ألومه؟ ذهبت إلى غرفة فتاة أخرى، في بناية أخرى. أخبرتني أنهم يقولون عني أني متكبرة، أتعلق بسائق شاحنة، وأرفض الذهاب إلى الشاي. لكنها لم تأخذ الأمر جدياً. ومع هذا فمن الصعب أن تحدد الفاعل، أو الأمر بالفعل.. كما أنني، في الحق، لا أريد أن أعرف، فالأفضل ألا أعرف... هذا الصباح، عرفت أن فراشي وملابسي قد أحرقا: ألقي بترول إلى الغرفة. فكرت. هذه ثاني حادثة منذ غادرت المورروغ. الآن أريد أن أذهب... يجب أن أعود إلى المورروغ. هكذا استقللت حافلة إلى هذا المكان. كنت فقط أدير بعض الموسيقا كي أنسى قليلاً، قبل أن أستمر في رحلة العودة إلى المورروغ.

4* واضح أن هذه المصادفة أثرت في منيرا تأثيراً عميقاً، ودهمته كقدر من لدن الله، ذلك لأنه سوف يتحدث طويلاً، في إفادته بعد سنين، عن لقاء الأحد الغريب هذا، أثر ليلة من التعميد المتبادل بالنار والرعب.

لم تحضرني الكلمات التي تستجيب لقصتها (هكذا كتب). من الغرف الخلفية جاء مدمن شانغا، مترنحاً، إلى حيث كنا نجلس، وطلب مني بيرة. أعطيته ورقة بخمسة شلنات. انحنى لي مراراً، وبلل

راحته بريقه، داعياً السماء كي تباركني، وتخلصني من الشر. كنت أريد أن ينصرف. نظرت إلى رجل الماساي يطعن برمحه الأسد الواثب المزمجر: إلى الكنغر في الجدار المقابل، إلى عرائس البحر نهودهن فوق الماء وأذنابهن السمكية تحت الماء... كل هذه بدت فجأة أكثر واقعية، وغوراً في الأرض، وعلاقة بالحياة اليومية.. من وانجا الجالسة هناك، وهي تتحدث بصوت خفيض، فاقد الحياة، مستوي النبرة خفق قلبي، وانكمشت معدتي، في تواتر من الاشمئزاز والانجذاب. ثم تذكرت محنتي في كوخ مخبأ داخل حرج الموز الكثيف، واستعدت الشاحنات التي شاهدتها للتو والمكتوب على لوحاتها «كانو ـ خاص»، هدأت قليلاً، وأحسست أننا قد نكون جميعاً متورطين في شبكة عالم سيالي. أردت أن أغرق في بحيرة من البيرة كل الذكريات، والأفكار، ومحاولات الفهم، وكل شيء...

قلت لها لنذهب إلى مشرب آخر. لنشرب. لنشرب. سنذهب غداً إلى الموروغ. تركت دراجتي عند محطة البنزين قرب مشرب «سافاري». شربنا النهار كله. ولم أعد أعبأ بأبي أو زوجتي إن وجداني.

ذهبنا إلى مشرب ماري، مشرب المزارعين الشباب، جبل كينيا، مجوري، المرتفعات، ماثاري، نحتسي بيرة واحدة في كل محل، ولا نكاد نتحدث. كانت وانجا تراقب كل شيء، وتتفحص كل زاوية وتفصيل، كأنها تبحث عن شيء ضاع، أو سر تذكرته. لقد انسحبت داخل نفسها، كأنها تقيم، كل وجه، وكل ما يحدث، في ضوء مواجهتها الأخيرة. كان معظم المشارب مليئاً: فاليوم هو مرتب نصف الشهر لعمال المعمل القريب. المركب المدخن الضخم من الآلات والأحشاء والجلود والهواء الملوث جاء يسيطر على حياتنا، جاذباً

حتى القرى النائية إلى مداره النقدي. هنا، وهناك، وخاصة في مشرب كامبي، عرفني الناس، وربما دهشوا لأن معلماً معروفاً برزانته ورصانته، وابناً لرجل دين مرموق، يمكن أن يشرب هكذا، برفقة امرأة كهذه. في المساء اقترحت عليها أن نذهب إلى بلدة ليمورو ذاتها. استقللنا سيارة أجرة، من خارج «مشرب المزارعين الشباب»، واستدرنا عند منعطف كيمونيا، نحو ليمورو. تجولنا، ثانية، في معظم المشارب، متمهلين في مشرب الأسكا الجديدة، وبارادايس، ومودرن، ومشارب الزاوية. وحين دخلنا مشرب الصداقة (ناد ليلي، ومطعم)، كنت متعتعاً، مفعماً بالحكايات. أخذت أحدث وانجا عن ليمورو، أخلط الحقيقة بالخيال، واستغربت لأني أعرف الكثير عن المكان، قافزاً من أراضي تيغوني التي سرقها الأوروبيون من أهالي ليمورو والتي غدت، فيما بعد، المركز العاصف في تاريخ كينيا، إلى ما سمي، مؤخراً، بمذبحة لاري. تضخمت، ثانية، صورة المصنع في ذاكرتي. مرة حدث فيها إضراب، مباشرة بعد الحرب الكبيرة، وظللت أتذكر، دائماً، صرخات العمال، وهم يضربون حتى تدفق الدم... يضربهم رجال شرطة سود ذوو خوذ معدنية، بقيادة ضابطين من البيض يرتديان الخاكي، ويلوكان العلك. وفكرت الآن، السود ضد السود، مستعيداً محنتها الأخيرة ومحنتي. قلت لنفسي، أنا سكران، وطلبت مزيداً من البيرة. كنت مرتاحاً، مندهشاً قليلاً من نفسي وحكاياتي ونتف تأملاتي الفلسفية. لكن وانجا لم تكن مهتمة حقيقة: الناس هم الذين يثيرون اهتمامها: شبان يتمايلون أمام صندوق الأغاني، شبان يرتدون سراويل جينز أمريكية ضيقة وأحزمة عريضة ذات نجوم معدنية لامعة، مستندون إلى الجدران قرب صندوق الأغاني، أو عند النضد، يلوكون العلك، ويكسرون عيدان الثقاب بين أسنانهم، مثلما يفعل رعاة البقر في أفلام الغرب الأمريكي

المتوحش، الذين رأيتهم مرة في فيلم. شبان وفتيات مشارب يحاولون الخطوة الأخيرة. ليذهب إلى الجحيم المغنون والراقصون. لتذهب وانجا وحكاياتها إلى الجحيم. إلى الجحيم عبد الله، نياكينيوا، أسرتي الجميع. كنا غرباء جميعنا... في أرض ميلادنا. لا صلاة بعد اليوم. لا صلاة عليَّ بعد اليوم. موسيقا صندوق الأغاني تختلط بأصوات أرغن آتية من أيام سيريانا. وما يزال رأسي يحتج... لا غناء عليَّ... ي ي ي ي... وقبل أن أغدو عبداً... إلى الجحيم ما يدور في رأسي - سيريانا - المدرسة - الوجوه - الإضراب - الطرد - وجه أبي الجامد - لقد جلبت العار إلى عائلتك: فضحت أباك نفسه أمام الناس: أتظنك أذكى من الرجل الأبيض؟ أتريد الانضمام إلى ذلك الرجل الذي ظل يغني كا - 40! كا - أربعين! متحدياً الرجل الأبيض للمبارزة؟ دموع الأم - عاري - التعليم - مانغو - الموروغ - وانجا! الحرارة التي أحس بها نحوها استحالت ناراً، ألسنة نار من الشهوة. أردت مضاجعتها هناك: على أرضية مشرب الصداقة: أردت أن أسمع صرخاتها الصغيرة واستغاثاتها. القوة. لا أهتم بشيء في العالم لا أهتم بـ بـ بـ بـ -

فجأة، وفي منطقة معتمة بذهني، رأيتها، وعيناها مثبتتان على شكل أعرفه بصورة غامضة. حدقت. رأيته. كان يلوح بزجاجة بيرة فارغة. صوته الثمل يعلو على أصوات الآخرين. كانوا يتجادلون حول مواهب ومعايب المغنيين كامارو و د.ك. كان يصيح: كامارو يغني عن ماضينا: ينظر في ماضينا، يريد أن ينبهنا إلى حكمة أسلافنا. ما نفع تشويش اليوم؟ آخر كان يقول: إنه رنين صنج مكسور. لكن د. ك. يغني حقاً، عنا، نحن الشباب، هذا الجيل الضائع في اضطراب المدن. وقاطعه آخر: نحن لسنا جيلاً ضائعاً. أتفهم؟ لا تزعج الناس في البار. سوف أرقص على أنغام جيم ريفز وجيم براون، واكسر خزانة أو اثنتين على طريقة بعض رعاة البقر الذين رأيتهم في فيلم

«العصابة المتوحشة». تدخل آخر في الجدال، وصوته مليء بالسم والازدراء: انظروا إلى طالبنا، لم يستطع اجتياز امتحاناته، طرد بالركلات، والآن يأتي هنا ليلقي علينا محاضرة عن ماض ميت.

العنف يمرضني: أشعر بهذا الآن، كما شعرت به آنذاك. لكن وانجا التي ظلت حتى الآن صامتة، مستغرقة، لم تستطع البقاء، ساكنة في كرسيها. أحسست بهياجها أكثر مما رأيته. لكن الأمر الذي لم أستطع تصديقه هو شهادة عيني.

نادت هاتفة: «كاريغا! كاريغا!». توقفت زجاجته المرفوعة، في الهواء. حوّل رأسه عن صندوق الأغاني وعن خصمه. نظر نحونا: ثم جاء إلى طاولتنا، محاولاً بصعوبة، أن يسير مستقيماً. تهاوى في كرسي قبالة وانجا. قال دون أن يوجه كلامه لأحد: «أشكرك، كان باستطاعتي أن أهشم رأسه، أترى؟ هكذا، وما الفائدة؟». وضع كوعيه على الطاولة، ودفن رأسه بين يديه. وحين رفع رأسه سال جدول من اللعاب على أرضية الإسمنت. ثم عاد إلى وضعه الغارق.

وضع أحدهم شلناً في فتحة صندوق الأغاني، فصدحت الموسيقا ثانية. انطلق صوت المغنية، مالئاً الحجرة بالأسى والأسف. أصغيت محاولاً تبين الكلمات:

تلقيت رسالة. أمك مريضة.

قلت: لن أعود إلى البيت،

أقول لك: الخطر لا يعرف الشجاع.

أقول لك ثانية: الحادثة لا تعرف اليد السريعة.

أتألم حين تزعجين والديك

عندما أتذكر كيف ربياك

وهما يحملانك على ظهريهما

ويتوسلان بك، لا تبكي يا صغيرتنا!

صادف أن نظرت، في هذه اللحظة، إلى وانجا. كان وجهها متألماً. وحين رأت عينيّ في عينيها، حاولت، عبثاً، أن تبتسم، لتبعد التعبير المفضوح عن وجهها. قالت:

«أتتذكر الليلة التي أخبرتك عنها، ليلة هربي من البيت؟».

«نعم».

«حسناً. ثمة شيء لم أخبرك به. كان سبب طلبها مني المساعدة، أنها مريضة في الفراش. في الواقع أنها أخذت فيما بعد إلى المستشفى واستؤصلت زائدتها الدودية. كادت تموت. عرفت بهذا بينما كنت أرقص في مشرب، أتعرف أنني ضحكت؟ ضحكت!».

عاود الآخرون هز مؤخراتهم، وهم يواجهون جميعاً صندوق الأغاني، كأنهم يضاجعون امرأة داخل الصندوق. ما السر في هذه الكلمات التي تحرك الشباب إلى هذا الحد؟ ليس لي ذكريات رقيقة عن أبي وأمي. الخوف فقط. خوف غامض لم أعرف قط كيف أتغلب عليه. شخر كاريغا أثناء الأغنية. رمقته وانجا، متفحصة، بتلك النظرة التي رأيتها تلقيها، يوماً، على عبد الله، كأنهما يجتمعان في ألم مشترك، وخديعة مشتركة في الآمال. انقبضت معدتي قليلاً. وتولد لدي ذلك الإحساس بأنني متطفل على فعل خاص. قلت لوانجا في لهجة أقرب إلى القسوة: لا نستطيع تركه هنا. وتحاملت إلى الخارج واستأجرت سيارة. سحبناه إلى داخلها سحباً، ونام مباشرة. كانت

وانجا هادئة. التوتر ظل في معدتي. تبعد كاميريثو التي حجزت فيها، مقدماً، غرفة لاثنين، مسافة ميل ونصف فقط، من بلدة ليمورو. لكني شعرت بأننا في السيارة ليلاً كاملاً. دفعت للسائق ثلاثة شلنات. حاولت الحصول على غرفة إضافية لكاريغا. لكن الغرف كلها استؤجرت الآن. فلم يبق من بد إلا أن أقتسم معه الغرفة حتى يستيقظ من سبات السكر. أسندناه، أنا ووانجا، وارتقينا به السلم إلى غرفتنا، ووضعناه في أحد السريرين. ومن جديد نام على الفور. جلست على حافة السرير، أفكر بمهمتي، وبأحداث الأيام الثلاثة الأخيرة، منذ أن غادرت الموروغ. كيف حدث أني تورطت في هذا كله؟ كنت سعيداً في حالة نعاسي السابقة. جلست وانجا على السرير الثاني ولم تحاول الاندساس فيه. فكرت متقد الرغبة بأن أذهب إليها وأكون معها. سحبت بطانية وغطيت كاريغا، رأساً وقدماً... وكنت أوشك أن أتجه إلى وانجا، حين استيقظ فجأة، وأخذ ينظر حوله بقلق دون أن يفقه شيئاً. جلست على الكرسي الوحيد في الغرفة. صحوت الآن، أو أن المشكلة جعلتني أصحو. كنت حزيناً قليلاً واشعر بالذنب أيضاً. فكيف أستطيع نسيان أن هذا الحطام السكران كان قبل ثمانية عشر شهراً أو نحوها ـ ولو أنها تبدو الآن أزمنة غابرة ـ في ملجأي بالموروغ، وأنني تركته يذهب؟ كيف يتدهور، الآن، الشباب، الذكي الطموح، هذا التدهور؟ أليس من سبيل يستخدمون فيه طاقاتهم وأحلامهم، في هدف أسمى من الزجاجة، وصندوق الأغاني، والمرض على أرضية إسمنت؟

كان يسأل: «أين أنا؟ أين أنا».

«لا بأس. أنا فقط ـ أم تراك لا تعرفني؟».

«آه... أنت المعلم إذن؟ إنني في حالة سيئة ـ هذا خزي حقيقي؟».

سألته: «ماذا حدث يا كاريغا؟».

نظر حوله، مرتبكاً. ثم طأطأ رأسه، وتحدث، محدقاً في الأرض، أكثر الوقت:

«لا أفهم. لا أفهم الأمر كله. البداية واضحة جداً... أم أنه وهم؟ والنهاية غائمة جداً بحيث أن البداية، والفكرة وراء البداية، دفنتا في ضباب المرارة، والانتقام القاسي الأعمى. مذابح آمال وأحلام وجمال. البداية الرائعة... النهاية المرة. كنت مصمماً أول الأمر على شق طريقي. فلدي شهادة مدرسية جيدة. قلت: جوي والمدرسة يستطيعان طردي... لكن البلاد: ثمة مكان لنا جميعاً في نقطة الملتقى لنضال ظافر. ثمار الحرية. أنت تؤدي نصيبك... أنا أودي نصيب... نحن نحرك الجبال... لم لا؟ هناك المدينة الكبيرة. سرت من مكتب إلى مكتب... وفي كل مكان الأمر هو هو:

لا شواغر. أحياناً يسألونك: من أرسلك؟ صار وجهي مألوفاً عند البوابين الذين تعاطفوا معي، وسألوني:

ألا تعرف شخصية كبيرة؟ أخاً كبيراً... أحد الـ...؟ إيه؟ لا شواغر. وفي إحدى الدوائر: لوظيفة شاغرة تعال غداً.. أي كذب! فكرت أحياناً بالعودة إلى سيريانا، معتزماً إحراق مكتب جوي أو شيئاً آخر، إذ كنت أتساءل: لم ينام مرتاحاً، وهو الذي كان المخطئ؟ لم أتعذب لأخطاء الآخر؟ أتعرف ماذا فعلت في النهاية؟ أخذت أبيع جلود الخراف، والفاكهة، والفطر، إلى جانب الطريق. لو رأيتنا نحن أولاد الطرق كما يسموننا... نحن نندفع إلى أي سيارة تتوقف. اشتر مني. بضاعتي أفضل. تلمع أكثر. مني. مني. مني. أحياناً كانوا يقذفون قطعاً

نقدية في الهواء، ليتفرجوا علينا، ونحن نندفع، ونتدافع، ونتخامش، من أجلها. إنهم يضحكون. وعليك أن تكون فطناً، وسريعاً، وتتظاهر بأنك لا ترى الإهانات ولا تسمعها.

السواح... نحبهم. نتوسل إليهم أن يجيئوا، بنقودهم الفضية، وأوراق عملتهم، ثم نشتمهم فيمابعد.

أرجوك خذ هذا... جيد... أنا جائع... مستر... أجور الدراسة، مستر... وهم يضحكون لرؤيتنا نتوسل بتعاستنا طالبين الإحسان».

واستمر في حديثه، وهو يحدّق في الأرض: «كانت حياة صعبة، قاسية، يا معلم. تنكرت لأمي. أتستطيع أن ترى أمي؟ يسمونها مريم العجوز. قد تتذكرها. كانت تعمل في أرض أبيك، وهي أقدم من يعمل فيها.

امرأة مخلصة. لقد ظلت تنبش الأرض وتنبش، حتى يتعلم ابنها، قائلة لنفسها، أو مرددة في صلواتها، كل هذا حسن، فلسوف يرعاني في شيخوختي: فهل هناك بيت فيه طفل ذكر، لا يؤكل فيه تيس ذكر؟ كانت دائماً الذاهبة الأولى إلى مزارع الشاي والقهوة، لتقتلع عشب الثنغاري. وكانت تقول: في شيخوختي فرحي. قالت لي مرة «حسن إنك تريد الذهاب إلى المدرسة، يا كاريغا، انظر إلى أبناء كوينانجي، انظر إلى أبناء الكبير حزقيال وأويرو، كلهم تعلموا». وهكذا ذهبت إلى المدرسة، وفي داخلي صوتها وصوت آخر. مانغو، كاماندورا، سيريانا ـ المجد؟ وانظر الآن إلى ابنها... يناضل... مستخلصاً كل قطرة عصير من صندوق الأغاني. أصارحك بأنني كنت عاجزاً عن مواجهتها. لم تخاطبني بكلمات خشنة أبداً. قالت لي ببساطة: «لم تعصني يوماً، فكيف

وقفت ضد معلميك؟». كنت أتخيلها حتى حين أبيع جلود الخراف، طالباً الإحسان... الإحسان... نحن أمة تؤمن بالإحسان... وقد سئمت الإحسان. لماذا أصبح امرءاً يستحق الإحسان من الأجانب في بلدي؟ ثم تذكرتك. أنت مررت بتجربة مماثلة. لهذا جئت المورزغ طالباً نصيحتك. فكرت... فكرت بأنني ذو تصرفات صبيانية، وأنك سوف تسخر مني... عذراً، لكن هذا ما ظننتك تفعله. أن تسخر مني في أمر هو مسألة حياة أو موت. تساءلت: لماذا يعاملني كطفل؟ ثم جاء ذلك الضوء الشاحب في حجرة المرأة. كنت وحيداً. خطوت فقط في الظلام. ثم بزغ القمر. قمر بارد... لكنه أضاء طريقي. عدت إلى جلود خرافي وفاكهتي وسواحي. قلت في أحد الأيام: سأشرب كالآخرين. أتحتقرني يا معلم؟ أتحتقرني؟ ها، ها، ها. ألا تشتري جلداً مني؟ إنه براق، جيد الجزة؟ أم برتقالاً وكمثرى؟ أنت تدفع مقدماً، وأنا رجل ذو كلمة. أمانة الله. لربما اشتريت لك شراباً... لـ... لـ... لأشكرك. ها أنتذا ترى أنني أحاول بيع جلود الخراف والفواكه حيثما حللت. بارك الله في السواح. إنهم يساعدوننا في إبقاء جلدنا على عظمنا!».

أي يوم هذا؟ أية ليلة؟ ابن واويرو: ابن مريم: حفيدة نياكينيوا، جميعهم في الجحر نفسه! إنها الآن ساعة الفجر! كان قد بدأ حديثه هادئاً، رزيناً، مطأطأ الرأس، لكنه في نهاية الحديث كان يصيح بحضور غير مرئي. رفع رأسه ونظر إليّ بابتسامة مريرة على أطراف شفتيه الجافتين. ربما رأى عينيها الواسعتين مستقرتين عليه، إذ حوّل وجهه وقد تجمدت الابتسامة فجأة على شفتيه نصف المفتوحتين. حتى كأنه يحس بوجودها للمرة الأولى:... أنت... أنت.. همس،

كمن ينظر إلى شبح وجه أليف من الماضي. نظـر أحـدهما إلى الآخـر صامتين. اشتد المغـص في معـدتي. إذ عرفـت في تلـك اللحظـة، في تلك الدقيقة... عرفت ـ ماذا؟ شيء غريب. شيء يحتـرق في معـدتي. السنة نارية من الأشواك الواخزة. الماء. كنت وحيداً. متفرجاً.

قالت بتسلط لين: «تعال إلى المورروغ».

وأجاب كاريغا مأخوذاً: «نعم».

* * *

الفصل السادس

1* هذه المرة عادوا إلى الموروغ، لا مثالية لا تدفعهم، ولا بحث عن شفاء النفس يحدوهم، إنها هي ضرورة النجاة الغالبة. استخدموا دراجة منيرا. أحياناً كان الثلاثة يمشون جميعاً واحدهم يدفع الدراجة. وأحياناً كان الثلاثة يمتطون السيارة جميعاً: منيرا على السرج. كاريغا على الهيكل. وانجا على السلة الخلفية.

لكنهم في الغالب كانوا يستعملون الدراجة بالتناوب. كاريغا يمشي. منيرا يأخذ وانجا ميلاً أو نحوه وينزلها لتمشي. ثم يعود إلى كاريغا ليحمله ميلاً أبعد من وانجا. ثم يمشي منيرا ليأخذ كاريغا الدراجة ويعود إلى وانجا. وسرعان ما غدوا بلون التراب الذي يطؤونه، مغلفين بسماء هائلة من الأبيض والأزرق.

غرابة الوضعية الحاضرة صدمت منيرا، عدة مرات، بينما كان يمشي. أحس أنه كان بعيداً ثلاث سنوات، لا ثلاثة أيام. إذاً، تمت أمور كثيرة لم يفهمها: تصرف أبيه ومواقفه... سر موت موكامي... إشارات والده الرهيبة إلى مريم... ما العلاقة؟ وها هو ذا الآن، مع ابن مريم ـ المعلم الذي اختاره من المشرب ـ ووانجا، ذاهبون بحثاً عن موطن في الموروغ. هكذا الدنيا... وتطلع إلى بلوغه الموروغ من جديد. كان مقتنعاً بأنهم سيستقبلونه كاستقبال الأبطال، أسئلة متلهفة، ووجوه ممتنة... في الأقل عبد الله ونياكينيوا. لكنه تذكر الرجلين في سيارة اللاندروفر، وتلميحاتهما، ووجهيهما المتوعدين، وحديثهما عن 50/12 وم.ث.ك. وكل ذلك. وبغتة وجد العلاقة بين هذين

الرجلين، والمحنة التي أصابته، والتضليل الهائل الذي يتعرض له شعب كامل، من قلة تدبر هذا، بالتعاون مع الأجانب غالباً. ومرة أخرى طعنة خزي أنه شارك هو نفسه مشاركة نشطة في قسم للخيانة الوطنية. فهو لم يبد شجاعة كشجاعة نساء الموروغ، أو ذلك العامل الذي احتجّ، أو كل أولئك الرجال والنساء في الوطن، الذين ينتقدون، صراحة، هذا الأمر، مخاطرين بحياتهم. ثم فكر: لكن... ماذا كان باستطاعته أن يفعل؟ هكذا هدأ شكه النغّار الذي قد يؤرقه طيلة حياته. التفت إلى وانجا. وأراد أن يخبرها عن تجربته الشخصية، لكنه توقف.

وانجا عقدت ميثاقاً مع نفسها. ستكون لها بداية جديدة تماماً في الموروغ. منذ أن غادرت الموروغ، مرت بمهانتين، وتجربتين مخزيتين. سوف تقطع الآن علاقتها بذلك الماضي، وتفعل شيئاً لنفسها في الموروغ. وقررت، دليلاً على نقاء روحها، ألا تلبي ثانية، تسلط جسدها على الرجال، أي أن عليها استبعاد أي تورط حتى تكون قد قهرت الماضي، من خلال تفتح جديد للنفس.

كاريغا ليس متأكداً مما يأمله من المكان والناس. لقد استجاب إلى دعوة وانجا كمن يتقبل قدره. أجل... مؤمن بالقدر، هكذا فكر... فالمستقبل يبدو بياضاً مضجراً لا منفذ فيه، ولا مخرج، مثل هذه السماء التي تظلهم. لكن ما هذا الذي يحرّك بركة الدم النائمة عندما يشاهد وانجا؟ ما هذا الألم المباغت لحضور لم يكن في الواقع غير ذكرى؟ وقرر ثانية... القدر... متذكراً موكامي، وقد أرهقه حزن، ومرارة غامضة. لكنه كان ممتناً لمنيرا الذي أخبره بأنه سيعينه معلماً. من بائع جلود خراف في ليمورو، إلى معلم أطفال في الموروغ: بداية في الأقل.

منيرا شرح له أيضاً سبب خلو مدرسة الموروغ من المعلمين. أثناء أيام الاستعمار، كان المعلمون الأفارقة لا يستطيعون التدريس إلا في المدارس الإفريقية. وكانت المدارس الإفريقية في مستوى واحد: سيئة التجهيز، سيئة البيوت وسائل إيضاح قليلة. لكن هذه المدارس كانت تحظى، في الأقل، بأفضل المعلمين الأفارقة.

لكن بعد الحكم الذاتي الداخلي، أزيل حاجز اللون، في القبول وتوزيع المعلمين. فأغري هؤلاء بالتدريس في المدارس الآسيوية والأوروبية السابقة، التي ظلت مدارس ذات تكلفة عالية، ومساكن أفضل، وتجهيز أحسن، ووسائل إيضاح أجود. وقد هجرت بعض المدارس البعيدة. مثل مدرسة الموروغ، وتركت لمصيرها الريفي.

انتعش كاريغا: فمهنته التعليمية ستزيده أهمية. اعتاد كيمبردج فرودشام أن يقول لهم بأن التعليم دعوة، رسالة، ومن هنا فهو يطمئن النفس. أقسم كاريغا أن يهب الأطفال كل ما يملكه.

لكن الموروغ التي جاؤوها، الآن، كانت الموروغ شمساً وغباراً ورملاً. وقد صدمت وانجا وكاريغا خاصة بالتبدل الذي طرأ على ريف الموروغ. قالت: «شديدة الخضرة، ومبعث أمل... والآن... هذه».

وردد كاريغا الصدى: «موسم جفاف... جد قريب... جد قريب!» متذكراً أزهار الوعود الماضية.

«هكذا العالم»... قال منيرا، بينما هم واقفون إلى جانب الدراجة، متيبسي البشرة، يسعلون، ويعطسون غباراً من حلوقهم وأنوفهم المتخشبة، ويراقبون هشيم سيقان الذرة اليابسة، دائراً في الهواء.

وجدوا نياكينيوا وعبد الله وجوزيف واقفين خارج المخزن. لم يبدوا أي علامة دهشة أو استغراب لرؤيتهم، وشعر منيرا بهبوط خفيف في معنوياته. حتى ولا سؤال!

قالت نياكينيوا على سبيل الترحيب: «كنا نتحدث عن حمار عبد الله».

«ماذا حلّ به؟» سألت وانجا مسرعة، وهي تلاحظ وجه عبد الله المثقل. أهذا هو المكان الذي أرادت أن تجعل منه علامة جديدة؟

قالت نياكينيوا: «الكبار يريدون ذبحه. والبعض يقول بأن يضرب، ثم يطلق في السهول، ليحمل وباءه معه».

قال كاريغا: «حمار! كنت أظن العنزة وحدها تستعمل في النذور؟».

سألت نياكينوا: «من هذا؟».

شرحت وانجا الأمر: «إنه كاريغا، جاء من موطن عبد الله، ليمورو، وسوف يساعد في المدرسة».

قالت: «في هذا الجفاف؟ ليباركك الله».

جلسوا جميعاً خارج مخزن عبد الله، وطلب منيرا بيرة ليغسل غبار حلقه.

واشتكى عبد الله: «الحمار ساقي الثانية. يريدون مني أن أقطعها، وأرميها بعيداً. قرباناً ثانياً».

علق كاريغا، وطلب بيرة أيضاً: «لكن ليس للحمار علاقة بالطقس».

قال عبد الله: «جوزيف، هات بيرة لمعلمك الجديد، ظننت أنك لا تشرب».

«الأمور تبدلت». قال كاريغا، مفكراً، متذكراً لقاءهما الأخير في كوخ وانجا، قبل ستة أشهر. وأضاف:

«ينبغي أن أقول... الأوقات تبدلت...

واسترسلت نياكينيوا: «إنه الجفاف. العشب نادر. ولن تبقى سوى عيدان قليلة. المسألة هي: لمن سنقدم هذا العشب، للحمير أم للماعز؟».

عارضها عبد الله: «الطفل المحمول على بطن أمه، والآخر المحمول على ظهر أمه: كيف نختار بينهما؟ أليسوا جميعاً أطفالنا؟» أي عودة إلى الموطن! أي عودة ثانية إلى هذا النقاش حول الجفاف... كان منيرا يفكر... ولا أسئلة عن الدراما التي خلفوها وراءهم.

قال منيرا: «سيمر الجفاف. هذا آذار... ربما طردنا الأمطار بهذا الكلام».

«نعم... سيسقط المطر في آذار، وسينمو العشب»... رددت وانجا صدى منيرا، بأمل، وتلهف: يجب أن يهطل المطر، وإلا حلّ بهم الخراب، الجماعة كلها سيحل بها الخراب. ونادت: «عبد الله، ألست فرحاً بعودة فتاة مشربك؟». ضحكوا. انبسطوا قليلاً.

«اذهبي واغسلي الغبار أولاً. وإلا طردت زبائني. سيحسبونك ابنة للجفاف».

2* اشتغل كاريغا «معلماً غير متدرب» في مدرسة المورروغ الابتدائية، تحت إمرة مديرها الجديد، جودفري منيرا. اصطحب منيرا كاريغا إلى المديرية. ومزيغو، بعد أسئلته المألوفة، ووعوده بزيارة المنطقة، وافق على تعيينه «بناء على قوة توصية السيد منيرا، وتأكيده على شخصيتك وسلوكك الحسن. لقد وضع السيد منيرا مقاييس عالية، وأنا أود أن تحتذي حذوه في نكران الذات من أجل مهنة نبيلة».

الآن، قسمت المدرسة أقساماً أربعة، الأول والرابع: صفان يدرسان في الصباح. أما الآخران فيدرسان بعد الظهر. بالنسبة للصف

الرابع الذي يضم عدداً أكبر وأذكى، ممن درسهم معلمون لم يمكثوا طويلاً، فقد رتب لهم كاريغا دروساً إضافية لتدارك الوقت الضائع.

لقد أطلق الوقوف في الصف، أمام هؤلاء الأطفال، شيئاً في كاريغا. لكأنه مستمر في الحوار الذي بدأه مع نفسه في سيريانا، والذي انقطع بطرده، وتشرده عاماً. كان يقلقه أن التلاميذ لا يعرفون شيئاً خارج الموروغ: فهم يظنون كينيا مدينة، أو قرية كبيرة، في مكان ما، خارج الموروغ. كيف يستيطع أن يوسع مداركهم، بحيث يرون أنفسهم، والموروغ، وكينيا، جزءاً من كل كامل، من أرض كبرى تضم تاريخ الشعوب الأفريقية ونضالها؟ واستعرض في ذهنه المشهد الكامل، حيث سار الشعب الأفريقي، وخلف علامات ونصباً كانت مفخرة العصور، بحيث لم تستطع المواجهة بين العرق الأسود والاستعمار الأبيض أن تمحوها من الذاكرة ومن سجل منجزات البشر. مصر. أثيوبيا. مونوموتاباتا. زمبابوي. تمبكتو. هاييتي. مالبندي. غانا. مالي. سونغاي: الأسماء عذبة في المسمع، والتلاميذ يصغون بانتباه متحمس وعجب... كان مقياس عدم تصديقهم الراسخ. جعلهم يغنون: أعيش في مقاطعة الموروغ، التي هي في إقليم جيري، جيري الذي هو في جمهورية كينيا، كينيا التي هي جزء من شرق أفريقيا، شرق أفريقيا الذي هو جزء من أفريقيا، أفريقيا التي هي أرض الشعوب الأفريقية، أفريقيا توزع منها الشعب الأفريقي في أرجاء العالم الأخرى. غنوا... لكن الأغنية بدت مجردة. ثم كان هذا النضال من أجل أن يصدقوه. وكان النضال صعباً، مما جعله يدرك أن ثمة أسئلة يوجهونها بسبب صراعهم وحماستهم، أسئلة لها علاقة بالشك في داخله أيضاً، هذا الشك الذي أرّقه منذ أيام سيريانا. لم تكن التجربة الأفريقية واضحة دائماً لديه، وقد رأى قصور التعليم في

سيريانا، وهو الآن وجهاً لوجه أمام تلاميذ صغار يريدون أن يعرفوا. كان العام الواحد الذي قضاه بائعاً لجلود الخراف والفاكهة للسواح، بالمقابل، أهون من محنته الحاضرة. إن مواجهة المووروغ، هذه الأرض الخراب المنكوبة بالبؤس والجفاف وتناقص السكان، مواجهة العيون المتطلعة لهؤلاء الذين سوف يهربون إلى المدن التي خبر قسوتها حيث يواجهون مستقبلاً فيه أمل ألف سراب، إن هذه المواجهة هي في الوقت نفسه مواجهة لنفسه بطريقة أكثر عمقاً وأشد ألماً، لأن المشكلات والأسئلة المطروحة تمضي أبعد من السلامة الشخصية والخلاص الفردي. وبدا له، وهو ينظر إلى الجفاف، والوجوه الصغيرة، وفقدان أي تنمية في المنطقة ـ ترى أين منافع العلم الحديث؟ ـ إن ثمت قدراً مشتركاً يدهمهم جميعاً.

ليس من أمل: تضليل هائل. إنه ومنيرا نعامتان تدفنان رأسيهما في رمل الحجرة الدراسية، ناسيين الرياح العاوية والشمس في الخارج. أليست هذه هي ذات الجريمة التي اتهما بها جودي في سيريانا؟ كيف يستطيعان، كمعلمين في مدرسة ابتدائية، أن يتناسيا واقع الجفاف، والوجوه الفاترة أمامهما؟ ماذا يمكن للتربية والتاريخ والجغرافيا ودراسة الطبيعة والرياضيات أن تقول لهذا الجفاف؟ خرج من صفه، يوماً؛ في أواخر آذار، فوجد جماعة عند مخزن عبد الله.

قالت نياكينيوا: «نفقت معزى رورو البارحة. وقد بكى. نظرنا إلى بعضنا، ذلك لأن دموع الكبير نذير. لكننا نعلم أنه لا يستطيع لها دفعاً، فجلسنا معه كأننا حول جنازة».

3* انتهى شهر نيسان، والمطر لم يهطل بعد. غدت الأغنام والماعز والأبقار هياكل عظمية: ومضى أغلب الرعاة عبر السهول بحثاً عن جو أكثر عدلاً ورفقاً. إنهم يأملون في أن يجلب شهر أيار المطر.

لكن في أواسط أيار، حين آخر أمل بالمطر، ماتت بقرتان، وأخذت الجوارح والصقور تحوّم في السماء ثم تنقض أسراباً، فلا تخلف وراءها إلا عظاماً بيضاء متناثرة على عشب الفيل المتضائل اليابس.

وانجا انتظرت كاريغا ومنيرا خارج المدرسة.

«اتخذ القرار. ذهب الكبار لرؤية مواثي واموغو: قال يجب أن يؤخذ الحمار إلى السهول، مع أن التضحية ببقرة ما تزال ضرورية. علينا أن نساعد عبد الله. إذ سيكون موت الحمار موته أيضاً».

استفسر منيرا: «هل عينوا الوقت؟».

«سيجتمعون حالاً ليقرروا اليوم».

«هل أخبرهم بكيفية أخذه إلى السهول؟».

«لا... لكنهم يتحدثون أن القرية كلها، رجالاً ونساء وأطفالاً، سوف تقوم بالمهمة».

«إذاً، ماذا نستطيع أن نعمل؟».

تساءل منيرا، فلم يجبه أحد.

4* ذكريات من الماضي تسكن الأعماق. عام الجراد. عام الديدان. عام المجاعة. إن مجموعات الختان، نغيغي، ونغونغا، ونغاراغوا يا موانغا ما تزال تحمل أسماء البلاء هذه، شاهداً على أن الطبيعة السادرة ما تزال تهدد المسعى البشري. هناك بالطبع درس آخر. في سنة 1900، بعد ست سنين فقط من عام الجراد، كانت المجاعة من الشدة بحيث تعين التوقف عن طقوس الختان كلها، مدة سنة كاملة. الآن لا تحمل أي جماعة اسماً شاهداً على مجاعة إنكلترا، هكذا سموها، لأنها أنهكت مقاومة الشعب للأوروبيين سارقي أرض

الشعب وعرقه. لقد كانت مجاعة الكاسافا ذاتها ترنيمة جنائزية مريرة لأبنائهم الذين قتلوا في شمال أفريقيا، والشرق الأوسط، وبورما، والهند، محاربين الألمان واليابانيين.

هكذا يبين التاريخ والأسطورة أن الموروغ كانت مهددة، على الدوام، بخطرين توأمين: كوارث الطبيعة التي لم يتم التهيؤ لها، وأعمال البشر التي لم يسيطر عليها.

هذه التأملات كانت تسخر من كاريغا المتباهي بأمجاد الشعب السالفة، والحضارات العظمى التي امتدت من ماليندي حتى طرابلس. وأسر لتلاميذه: الإنسان الأول، أبو الناس جميعاً على الأرض، يظن أنه ولد في كينيا... بحيرة توركانا...

ثم انتصب متوقعاً شهقة استغراب، أو بضعة أسئلة.

«نعم، يا موريكي». وأشار إلى طفل كأنه يرفع يديه.

ضجة كتب، وضجيج من المصاطب... أطفال يقفزون من رحلاتهم. لقد سقط موريوكي.

«ابتعدوا، ابتعدوا» دفع كاريغا التلاميذ جانباً، ونظر إلى موريوكي المتمدد: «إنه جائع فقط».

قال أحد الأولاد: «أعرف، فقد أخبرني أنه جائع». أخذ كاريغا الولد إلى بيته، حيث دبر له شيئاً، مزيجاً من بيضة وحليب علبة.

فكر كاريغا... في هذا الوقت بالضبط، يشرب الناس في المدن الكبرى والأماكن الأخرى، ويضحكون، ويأكلون، ويضاجعون بعد التخمة، بينما يغمى على الناس هنا جوعاً وسوء تغذية.

تحدث إلى منيرا، فسأل منيرا السؤال ذاته.

«ماذا أستطيع أن أفعل؟ الغلطة ليست غلطتي. ليست غلطة أي أحد. نستطيع فقط أن نغلق المدرسة حتى تتحسن الأحوال».

«متقبلين، حتى الهزيمة؟».

«لا بد. أنها إرادة الله».

«إرادة الله؟ لماذا يجب على الناس أن يتقبلوا أي إرادة من أي إله... بلا مقاومة؟ يقال إن الله يساعد من يساعدون أنفسهم».

«كيف؟».

«يمكننا الذهاب إلى المدينة!». قال هذا كمن فكر طويلاً في الأمر. لكن الحقيقة أنه قال هذا من طرف لسانه.

«المدينة؟».

«نعم، ونطلب المساعدة».

قال منايرا، فجأة، متذكراً الرعب: «لا، يا كاريغا، لقد تركت تلك الأماكن... لا أريد العودة إلى هناك».

استفسر كاريغا، مندهشاً من رفض منيرا القاطع: «لماذا؟».

«أنت تتحدث كأنك لم تذهب إلى الشاي».

سأله كاريغا: «هل ذهبت؟».

«نعم. شعرت بالخزي. خدعوني، وأنا خدعت زوجتي. وهي الآن لا تصدق أنني كنت أجهل الأمر». أجاب بهدوء... «لكن حتى لو لم يقودني، أفتراني أمتلك جسارة الرفض؟ إن هذا ليخيفني أكثر».

فكر كاريغا برهة. كان صوته قاسياً نوعاً ما:

«أنا لم أذهب. لكن المسألة ليست الشعور بالخزي. حين كنت أبيع السواح جلود الخراف كنت أسأل نفسي، كيف يمكن أن يخضع مجتمع بأسره إلى قلة من الكروش النهمة - نهمة لأنها تأكل أكثر من نصيبها العادل الذي اشتراه الشعب بدمه. لقد حولوا هدفه الأصيل الجميل إلى رمز يريدون استعماله لأغراضهم الضيقة! ليتصافح البؤس والثراء المسروق في سلام أبدي وصداقة! وما الذي نفعله نحن مع شعب جائع عاطل، لا يستطيع دفع الأجور الدراسية، أنجعلهم يشربون علبة قسم، ويصرخون بالوحدة؟ كم سهلة هي المسألة... هكذا لن تكون مشكلات في الموروغ، وفي كل المناطق والأماكن الأخرى المنسية، في كينيا». قال منيرا: «أفهم وجهة نظرك. الأفضل أن تناقشها مع وانجا وعبد الله». ثم أضاف متحمساً، فجأة: «نستطيع أن نذهب ونخبر نديري واريرا بأننا جميعاً أعضاء في الـ م.ث.ك».

الواقع أن تصعيد كاريغا الساخن للمسألة، أشعر منيرا بالراحة والهدوء، ومنح شكلاً تعبيرياً لأفكار منيرا. كلما قلب كاريغا الفكرة التي أخذت شكلها أثناء حديثه مع منيرا، ازداد إيماناً بصحتها. إنه الآن قلق، متلهف لتنفيذ الخطة. هذا القلب نفسه هو الذي ظل يستحثه إلى الأمام، جالباً له المتاعب في الغالب، لكنه لا يستطيع مغالبة الأصوات الداخلية للتذمر. عليه أن يواجه الجفاف، باعتباره تحدياً، واختباراً أيضاً، ومهما كان القرار، فهو لن يستطيع التدريس في هذه الظروف، حيث النظرية سخرية أمام الواقع.

«يبدو أن لنا جميعاً أسبابنا في المجيء إلى الموروغ. لكننا الآن هنا. وثمت أزمة تواجه المجتمع. ماذا ترانا فاعلين بصددها؟ الكبار يعملون في ضوء معرفتهم. يؤمنون بأنك تستطيع التأثير في الطبيعة بالقرابين، وبتحميل حمار عبد الله كل خطايانا. بل سمعت نجوغونا

يقول إن القرابين سوف ترشو الله نفسه كي يغمض عينيه عن محاولات الأمريكيين السير في أماكن الله السرية. أعتقد أن باستطاعتنا إنقاذ الحمار وإنقاذ المجتمع».

إن عبد الله ليرحب بكل ما يمكنه إنقاذ حماره، لهذا سأل متلهفاً: «كيف؟».

«هذا المكان له نائب برلمان. نحن، وبالأحرى، هم الذين انتخبوه إلى البرلمان ليمثل كل زوايا دائرته الانتخابية، مهما كانت نائية. فلنرسل وفداً قوياً من الرجال والنساء والأطفال إلى المدينة الكبيرة. إلى العاصمة. سوف نقابل نائب هذه المنطقة. الحكومة ملزمة بإرسال المعونة إلينا. أو أننا نستطيع أن نأتي بالمعونة إلى الآخرين. وإلا التهمنا الجفاف جميعاً».

سأل عبد الله: «والحمار؟».

«نأخذه معنا. نصلح العربة. ونعود بالطعام والأشياء فيها». أوجعت الطعنة وانجا. العودة إلى المدينة؟ مشهد إذلالها الآخر؟ ناضلت تقاوم ذكرى رعبها المزدوج. اقترحت بلهجة متوحشة: «ألا نستطيع إرسال شخص واحد؟ أنت، مثلاً؟ بإمكانك الذهاب على دراجة منيرا».

«أنا؟ هو لن يستمع إلى شخص واحد. سيظنها حيلة أو شيئاً آخر. لكني متأكد من أنه يستطيع إهمال وفد شعبي».

وافق عبد الله على الفكرة رأساً. وانجا تفكر: ذلك الوقت من السنة الفائتة ذهبت إلى المدينة باحثة عن الثروة السريعة لنفسي. والآن أذهب من أجل الناس. عسى أن تستقبلنا المدينة استقبالاً أكثر رفقاً.

ما كان منيرا ليستطيع أن يرى ما يمكن أن يفعله نائب برلمان لهـم. إنـه يفكر: يبدو أنني غير قادر على الاستقرار: أظـل أسـير، تـدفعني دعـاوى الآخرين: ألا أستطيع، أبداً، أن أفرض أفعالي وقراراتي؟ لكنه وافق، بعد أن وافق عبد الله ووانجا. وفي الوقت نفسه، رأى في الأمر، فرصة لإخماد أصوات الذنب التي تنتابه بين حين وآخر، بعـد شـاي منتـصف الليـل في غاتوندو. وسـيكون مـن الجيـد اختبـار هـذه الـ م.ث.ك، ودعوتهـا إلى الوحدة، وانسجام المصالح.

المشكلة الثانية كانت: الكبار. فلقد دعوا إلى اجتماع في اليـوم التـالي، لإصدار الحكم على حمار عبد الله، وتعيين يوم التضحية بمعـزى. وكـان على وانجا أن تحدث نيـاكينيوا، الليلـة، ثم تحـدث نيـاكينيوا، بـدورها، بعض الكبار، قبل الاجتماع الحاسم.

كان الاجتماع كثيف الحضور: أخبر نجوغونا النـاس بمـا قالـه مـواتي واموغو:

«نطرد هذا الحمار بعيداً. نضحي معزى. ليس لأحـد فـم يـرد كلمـات مواتي إليه. تعرفون أنه العـصا والظـل اللـذان يـستخدمهما الله دفاعـاً عـن أرضنا. وتعلمون أنه منذ تلـك المعركـة القديمـة عـن المـوروغ لم نـشهد طواعين كثيرة بيننا. لا أحد يستطيع أن يرد كلماته. لهذا لم نـسأله: كيـف؟ هو لم يخبرنا... كيف. هو يعرف أننـا لـسنا أطفـالاً. لـو كـان هـذا معـزى لضربناها، وطردناها بعيداً حاملة وباءها إلى الآخرين. هذا الحيـوان لـيس معزى. لكننا نستعمله للعلة نفسها: أقول... نضربه، وحـين يوشـك علـى الموت نطرده بعيداً في السهول ليحمل وباءه بعيـداً». تكلـم كبـار قليلـون بعده، ووافقوا على الفكرة: الحمار، في الحق، هو الغريب بيننا!

اقترح آخر: «ربما كان لمعلمي أولادنا دواء جديد لعلة قديمة».

ارتجف كاريغا قليلاً. في المناقشات المدرسية كان يتحدث، ويـنـاقش.

لكنه لم يتحدث، قبلاً، في اجتماع للكبار. لم يستطع الآن أن يستعيد مثلاً مناسباً، أو أحجية، أو حكاية، يدير بها وجهة نظره. لهذا لجأ إلى الخطاب البسيط:

«ليس للحمار تأثير في الطقس. لا حيوان ولا إنسان قادر على تغيير قوانين الطبيعة. لكن الناس يستطيعون استخدام قوانين الطبيعة. والسحر الذي يجب أن نتعلمه هو: السحر الذي يجعل هذه الأرض تغلّ في أوقات المطر غلة نحتفظ ببعضها حين تسطع الشمس. نريد السحر الذي يجعل أبقارنا تدر من الحليب ما يكفي لشربنا ولمبادلة الباقي بأشياء لا نستطيع أن نزرعها هنا. السحر في أيدينا. وغداً حين يهطل المطر: يجب أن نسأل الأرض: أي طعام تريد، وأي نذر تحتاج، كي تغلّ أكثر؟ إن قتلنا حمار عبد الله قتلنا ساقنا الأخرى في موسم جاف. أنا من ليمورو، حيث أثبتت الحمير أنها سيارات لا تشرب البترول. حين تنتهي آخر حبة في خزيتنكم، فهل يستطيع أي واحد منا أن يسير بعيداً ليجلب الطعام والماء على ظهره؟ الخير أن ننظر إلى أنفسنا، لنرى ما نستطيع أن نفعله إنقاذاً لأنفسنا من الجفاف. إن عمل أيدينا، هو السحر والغنى القادران على تغيير عالمنا، وإنهاء كل جفافات الأرض».

حدّثهم عن فكرة الوفد، مبالغاً قليلاً في التغني بفضائل نائب البرلمان وواجباته: «نحن نعطيه أصواتنا حتى يستطيع تبني متاعبنا. لكننا إن لم نقل له أن لدينا متاعب، فكيف يستطيع أن ينقل خبرها إلى الحكومة؟... وهل باستطاعتنا أن نلومه حينئذ؟».

شرعوا يتكلمون، ويتهامسون... نعم... هذا حق... يجب أن نخبر الذين في السلطة. عساهم إذا عرفوا... نعم، نعم... لو عرفوا... فربما أرسلوا إلينا آخرين غير أولئك الذين يجمعون الضرائب، أو الذين يطلبون المال للمنظمات التي لا تعرف عنها القرى شيئاً... معلمكم هذا... لم يكد يقيم بيننا شهرين... فمن أين عرف هذه الكلمات؟ نهض نجوغونا، وعارض فكرة الذهاب إلى المدينة.

«أذناي سمعتا كلمات غريبة. سمعتا أن علينا إرسال جماعة كاملة كي تتسول. أسمعتم يوماً بشعب كامل يهجر أرضه وممتلكاته ويذهب متسولاً في الطرقات الغريبة؟ هذا الشاب، دمه فتيّ: سوف نرسله إلى المدينة، وسوف يسأل نائب البرلمان أن يأتي إلينا. نعم... على نائب البرلمان، هو، أن يأتي إلينا، لا أن يرسل، إلينا، مبعوثين وأطفالاً، ينطقون باسمه»... قال هذا محدقاً في كاريغا.

بدت فكرة نجوغونا بسيطة ومباشرة وحافظة لكرامة الموروغ. تجدد النقاش. وقفت نياكينيوا:

«أظن أن علينا الذهاب. إنه دورنا في تدبير الأمور. مضى زمن كانت فيه الأمور تدبر بالطريقة التي أردنا نحن في الموروغ أن تدبر. كنا نقوى على تحريك أطرافنا. نضع كلماتنا ونغنيها ونرقص عليها. لكن جاء زمن سلبنا هذه القوة. رقصنا فعلاً، لكن على كلمات وأغان وضعها شخص آخر. جاء الوازنغو أولاً. كانوا يسيّرون قطارات من هناك إلى هنا. أكلوا غاباتنا. وماذا أعطونا بالمقابل؟ ثم استدعوا شبابنا. وظلوا يلتهمون شبابنا. كنا نحملهم لتأخذهم المدينة. وفي الحرب ضد الوازنغو قدمنا نصيبنا من الدم. قرباناً. لماذا؟ لأننا أردنا أن نغني كلماتنا، ونرقص عليها، مملوئي الرأس والمعدة. لكن ماذا حدث؟ استمروا في سلب شبابنا. وماذا بعثوا إلينا بالمقابل؟ باستثناء هذين المعلمين كان الآخرون يأتون ليمضوا. ثم بعثوا إلينا مبعوثين يطلبون اثني عشر شلناً وخمسين سنتاً... لماذا؟ أرسلوا آخرين ذوي أشياء غريبة وقالوا لنا إنهم يقيسون طريقاً. أين هو الطريق؟ أرسلوا آخرين يأتوننا، بين الحين والآخر، ليجمعوا الضرائب: آخرين يشترون محصولنا إلا في الجفاف والقحط. نائب البرلمان جاءنا أيضاً، وجمع من كل واحد، شلنين، لأنابيب المياه. وهل رأيناه مذّاك؟ أجل... لهذا يجب أن تذهب الموروغ، وتقابل ذلك الرجل الذي يأخذ فقط، ولا يعطي أبداً. يجب أن نطوق المدين ، ونسترد حصتنا. يجب أن نغني أغنيتنا

ونرقص عليها. والذين هناك، يستطيعون، من أجل التغيير، أن يرقصوا لأفعالنا وأغانينا، لذلك العرق الذي يعلن ألمنا... لكن على الموروغ أن تذهب صوتاً واحداً».

جلست وسط صمت مكتنز بالتفكير. كلماتها أثرت فيهم جميعاً. لقد لمست شيئاً كانوا يحسون به كلهم: نعم... «هم»، خارج «هناك»، الذين يجب أن يرقصوا على أنغام حاجات الناس. أما الآن، فيبدو أن السلطة، والقوة، وكل شيء... تقع خارج الموروغ... هناك... في المدينة الكبيرة. يجب أن يذهبوا ويواجهوا ما كان السبب في خواء أهرائهم، ونضوب طاقاتهم، ووهنهم.

بعد نياكينيوا، لم يمتد النقاش. تحدثوا كلهم عن الذهاب إلى المدينة. في الأزمنة الماضية، حين يسرق ماشيتهم وماعزهم قبائل أخرى، كان المحاربون يذهبون، متتبعين السارقين، ولا يعودون حتى يستردوا الماشية المستلبة. أما الآن فقد سرق قلب الموروغ ذاته. هكذا سينطلقون لاسترداده. حرب من نوع جديد... لكنها حرب.

نهض موتوري، ولخص الأمر كله. قال إن هذا ما كان مواتي يعنيه: فلقد قال بأن علينا أن نبعد الحمار: لكن لم يقل إلى أين، أو كيف: ولم يقل يجب ألا يعود الحمار...

اتفق فيما بعد، على بقاء عدد قليل من الكبار، لتقديم معزى قرباناً. الآخرون يكوّنون الوفد. عبد الله كان أول المتطوعين. ثم تلته نياكينيوا، فمنيرا، موريوكي، جوزيف، نجوغونا، رورو، نجوغو، وآخرون. موتوري والآخرون يبقون ليؤدوا الطقوس.

منذ تلك اللحظة، بدأت بينهم روح الجماعة، هشة أولاً، متزايدة في قوتها، وهم يناضلون، ويستعدون للرحلة. النسوة يطبخن طعاماً للرحلة، مستنفدات حباتهن الأخيرة. آخرون يتبرعون بما وفروه من نقود. منيرا

وكاريغا ورورو عملوا في تصليح العربة كي تكون قادرة على قطع الطريق الطويل من القرية إلى المدينة.

أما عبد الله، فكان كمن اكتسب قوة جديدة، وحياة جديدة. لقد اكتمل الآن مساره الذي ابتدأ بتحوله من عاجز مرير الوجه ذي شتائم لا تنتهي نحو جوزيف، إلى شخص يضحك، ويروي الحكايات... هذا المسار الذي انطلق من لقائه الأول بوانجا. صار قريباً من قلوب الناس. ويبدو هذا واضحاً من الأطفال الذين يحيطون به ليحكي لهم الحكايات: «كان يا ما كان، في قديم الزمان، نملة وقملة تتباهيان. كل واحدة تقول إنها تغلب الأخرى في رقصة الكيياتا. وأخذت إحداهما تتحدى الأخرى. قررتا أن تعينا يوماً. صارت مسابقة الرقص القادمة حديث جماعة الحيوان كلها، واعتزم كل واحد أن يحضرها. جاء اليوم. في الصباح ذهبت النملة والقملة إلى النهر. استحمتا وادّهنتا. وشرعتا تتزينان بالمغرة الحمراء والبيضاء. السيد نملة كان أول من لبس، وأراد أن يقتل قلوب كل السيدات. وكان لديه سيف تزنر به حول خصره. أخذ يشد، ويشد، ويشد، حتى انقصم خصره إلى اثنين. وحين رأت القملة ما حل بالنملة ضحكت وضحكت حتى انشطر أنفها شطرين. لهذا السبب... ليس للنملة خصر، وليس للقملة أنف. ولم يذهبا إلى الساحة. أما رقصة الكيياتا فقد تمتع بها الآخرون».

حكى لهم كيف غلب الجمل الحمل في سباق، ولماذا يعرج الضبع. وكيف جاء الموت إلى العالم. وكيف تزوجت امرأة غولاً. وكان الأطفال يصيحون مطالبين بالمزيد.

كذلك كان يصنع لهم أشياء صغيرة، مغازل ومراوح ورق... لكنهم يحبون أكثر، المقاليع التي كان يصنعها لهم من الأغصان وأشرطة المطاط. وكانوا يحاولون دون نجاح كبير أن يسقطوا الطيور من السماء.

قال لهم: «يجب أن تأخذوها معكم في الرحلة، وتجربوها هناك».

بدأوا يتطلعون إلى مغامرات في الرحلة، لكن تطلعهم كان أشد لزيارة المدينة التي هي أكبر من روا ـ ايني بمائة مرة ـ المدينة التي تناطح أبنيتها السماء، وحيث الناس لا يأكلون إلا الحلوى والفطائر.

طوال استعداداتهم للرحلة، لم يكن يدور حديث الناس، وبخاصة الكبار، إلا عن الرحلة، والشاب الذي اقترحها. إن الله يضع الحكمة أحياناً في أفواه الأطفال...

ويقولون إن الحق والحكمة لا يمكن شراؤهما.

فجأة، حل يوم الرحيل: إنها المرة الأولى التي يجرؤون فيها على عمل كهذا، وقد صعقوا جميعاً لفداحة ما أرادوه!

* * *

كتب منيرا، فيما بعد، إنها الرحلة، إنها الهجرة عبر السهول نحول المدينة الكبيرة... هي التي وضعتني على طريق تلك الرحلة الداخلية، البطيئة، التي استمرت عشر سنين... والتي أوصلتني إلى وضع أستطيع فيه القول إن مملكة الإنسان، فاسدة القلب.

وكتب يقول: حتى الآن، وبعد سنوات عديدة، أستطيع أن أشعر، ثانية، بجفاف الجلد، واتقاد الشمس، والحيوانات المحتضرة التي سنأكل لحمها، وفوقنا، تحوّم في السماء، الجوارح والصقور، التي اجتذبها لحم غزلان الأنتيلوب الميتة، والظباء، والخنازير، والتي تنتظر أن يهيئ لها الزمن والشمس جلوداً بشرية ودماً. الرحلة. الهجرة نحو مملكة العرفان....

* * *

القسم الثاني

نحو بيت لحم

الرحلة

1* الموروغ، المسرح الذي رفعت فيه الستارة عن هـذه الـدراما، لم تكن على الدوام قبضة صغيرة من أكواخ طينية يسكنها فقط الـشيوخ والعجائز والأطفال، ويزورها بين حين وآخر، رعـاة حوّابـون. كانـت لهـا أيـام مجـدها: قـرى عـامرة، كثيفـة الـسكان، أهلـها فلاحـون مكافحون، روّضوا غابات الطبيعة، وكـسروا الأرض بـين أصـابعهم، مستنبتين كل ما يغذو أبناءهم وبناتهم، شاقين الغابة، حارثين زارعين. كم صلّوا، بحرارة، مستمطرين ضارعين، حين ينحبس المطر، ويفـد الوباء! وفي موسم الحصاد كانوا يلتمـون جماعـات، حـسب العمـر، يرقصون من قرية إلى قرية، مالئين سهول الموروغ، متـرنمين بمـدائح الأسلاف. في تلك الأيام، كانت السماء خالية من الجوارح التي تنتظر أحشاء العمال الموتى، ومن الحشرات التي تغتـذي شـحم الكـادحين البسطاء ودمهم. وكما تقول أغانيهم ورقـصاتهم، كـانوا يـستثنون مـن العمـل المـشترك، المـسنين والـصغار فقـط: هـؤلاء الـذين يحملـون الحكمة والبراءة. يجلسون حـول شـجرة العائلـة في الجهـة الأماميـة، المسنون يحتسون بيرة العسل، ويحدثون الأطفـال، بأصـوات مفعمـة بالقوة والحنين، عن الجد المؤسس. كان راعيـاً، متعبـاً مـن التطـواف والتجوال عبر السهول، ومراعاة الطبيعـة وتقلباتهـا، متعبـاً أيـضاً مـن أغاني المـديح للبقـرة ذات القـرنين الطـويلين، ولتلـك ذات الحليـب الغزير.

هكذا ترك جماعته. حاولوا استبقاءه: مـن سمـع بحيـاة بعيـدة عـن ضرع البقرة وروثها وبولها، على امتداد السهول والجبال، حياة بعيـدة

عن الثور ذي الأجراس وهو يقود القطعان إلى حيث «الملحة» والماء؟ ثم حاولوا استبقاءه ثانية: ألم يكن ساحرهم الأفضل في الكلمات، يحدو الماشية وخطا الرجال بصوته؟ لقد أخفقوا. إلا أنهم تحولوا إلى الضحك، ساخرين من حديثه عن ترويض المرتفعات والغابات التي كانت موطن الجني الشرير.... كيف يستطيع ابن الإنسان مصارعة الآلهة؟ نديمي: صنع أداة قطع بها بعض الأشجار ولحائها. ذاع صيت تجاربه في أصناف النباتات، بحيث كان أي راع يمر بالموروغ يزوره لا محالة، ليرى أولاً نتيجة صراع الرجل مع الله، ثم طلباً للنصيحة حول هذا العشب أو ذاك، أو ليذوق، ببساطة، العسل البيتي وقصب السكر. كانوا يهبونه معزى أو اثنتين، شاكرين، وينطلقون في سبيلهم، ناشرين اسم نديمي مع الرياح الأربع. لقد جعل الأرض تغل، تحت ملمس أصابعه وحكمة رأسه، ويملك الآن ثروة طائلة من البقر والماعز، زيادة على محاصيله العديدة!

وسرعان ما اجتذبت شجاعته الفريدة نيانغندو ذات الشق الشهير في أسنانها العليا، ونياغوثي ذات اللثة السوداء والثديين اللذين كانا حديث الرعاة كلما اجتمعوا. آلهة غابتك سيكونون الآن آلهتنا، وسنكون أمهات أبنائك. النسوة الأخريات المتعبات من الحياة غير المستقرة نصبن مآويهن من الأعمدة والأغصان والطين والعشب كي يرضعن صغارهن بسلام، وينتظرن رجالهن وماشيتهم الذين يتبعون الشمس. صارت غابة الموروغ سلسلة حقول مزروعة، وملعباً للبقر المدجن والماعز. وغنوا لـ«نديمي»:

هو الذي روّض الغابة.

هو الذي طوّع الجني الشرير.

هو الذي صارع الإله.

ظلت الموروغ تزدهر

ظلت الموروغ تزدهر حتى بعد نديمي الذي ارتحل إلى الأرض السرية للأرواح الرحيمة، بعد أن خلَّف الكثير من الأبناء والبنات والأحفاد. وغدت مركزاً تجارياً عظيماً، واشتهرت أيام سوقها من جولو إلى أوكامباني، إلى أرض شعب كالنجين، وحتى فيما وراء ذلك. وجاء الناس من كل مكان يحملون بضاعتهم ويستبدلونها بأخرى. وسرعان ما أقيمت مستوطنة لصنّاع المعدن والفخار والحجر، إلى جانب الجماعة الزراعية. وقد بلغت معرفتهم المعادن مسامع المغيرين العرب والبرتغاليين في الساحل.

في هذه الأثناء، نصب أول أجنبي أوروبي خيمته، وطلب مؤناً لرحلته عبر السهول. قالوا: أي مخاليق عارية جاءت بها أيام أسواقنا من بلاد البحر... وأعطوه ذرة وفاصولياء، وبطاطا حلوة وياما، وبالمقابل أعطاهم خاما وخرزاً لامعاً. ثم جاء آخر ذو ياقة حول العنق وكتاب، وطلب أيضاً مؤناً ودليلاً، إذ إنه يريد أن يبلغ بلاد ملك أوغندا العظيم. أروه الطريق. لكنهم عقدوا مجلس حرب: هل نترك الشر يخترق أرضنا ولا نفعل شيئاً؟ ألا يمكن أن يكون كشافاً من بلاط موتيسا متنكراً في هيئة مزونغو... روحاً؟ فمن تراه سمع عن بشر بلا بشرة؟ نصحهم الكبار بالتروي. لكن طائفة من المحاربين الشبان لم ترض، وتهامسوا فيما بينهم، مطلقين في النهاية صيحة حرب. لم يشاهد أحد، الأجانب، فيما بعد... إطلاقاً، إلا في أخريات الليل، حين يتراءى شبح أبيض يولول، ويعول، ويدعو بني جلدته إلى الدم والانتقام. أجانب أوروبيون آخرون جاؤوا، ونصبوا خيامهم، ليقيموا أطول هذه المرة، وليبادلوا ملابس أكثر بالذرة والفاصولياء ومعدن

لموروغ، بينما هم يتسقطون، بإلحاح، أخبار الذهب، وأنياب الفيلة، ويتساءلون همساً عن رجل أبيض ذي ياقة.

حل أخيراً، اليوم الذي كانوا يخافونه. فالتجار المسالمون طوّقوا السوق فجأة. وكانوا جميعاً يحملون عصي قصب تنفث النار والسم. وطلبوا أن يسلّم المسؤولون عن موت المزونغو الوحيد أنفسهم. لم يتقدم أحد. لجأ المحاربون إلى رماحهم ودروعهم. لكن الوقت كان متأخراً. فقد أطلقوا النار على النساء والرجال والأطفال، ثم أنشدوا: حفظ الله الملك. استمات المحاربون على طريقتهم، أقسم المحاربون وهم يسنون رماحهم: غداً... غداً... أخيراً جاء الأجنبي بنوع غريب من المعدن مسكون بقوة شريرة: فهو يسير فعلاً على الأرض.

ويقال إن أول رجل أسود من إقليم جيري ركب حصاناً معدنياً، كان من الموروغ.

كان مونورو مزارعاً موسراً آنذاك. لكن المعدن المشّاء سحره. كان يريد فقط أن يمشي على المعدن الجديد بين هتاف الناس. وظل مدة يعيش من التفاخر بموهبته على الآلة. النسوة، بخاصة، كن ينظرن إليه هائبات، ويغنينه باعتباره بطلاً، ويتبعن حركاته منتشيات. فيما بعد، وصلت القرى معدنيات أخرى، وتزايد عدد الشبان القادرين على ركوبها والتحكم فيها، ومل الناس الدفع للعطالة وعبادة الصنم. لكن مونرو لم يعد قادراً على أي عمل قد يوسخ يديه: وظل يتطلع فقط، إلى أشياء الأجنبي الأبيض التي قد تمكنه من استعادة مجده الآفل.

وثانية، كان بين المتطوعين الأوائل الذين قدموا خدماتهم يحملون البنادق والطعام إلى الأوروبيين المقاتلين. كانت الموروغ مركز تجنيد، وسيق أغلب الشبان إلى الحرب بأعقاب البنادق. مضوا عبر

سـهول المـوروغ، يـشقون الطـرق نحـو حـدود تنجانيقـا، ليخرجـوا الألمان.

هـذا أعجـب العجـب: الوازنغـو يقتـل بعـضهم بعـضاً، لـسبب لا يستطيع السكان المحليون فهمه: كيف يـستطيعون أن يقولـوا إن سـبب الحرب... هم، واقتسام أرضهم وجهـدهم؟ عـاد مونـورو، حطامـاً، وتحدث عن فوي، دار السلاما، موزامبيكـا، موروغـورو، واروشـا، موشي، وأسماء أماكن أخرى بعيدة، عذبة الوقع في الأذن. لكنه كـان جثة، يعيش على ذكريات غائمة. حتى بعض الذين عادوا، لم يكونـوا مهتمين بالأرض تغل بين أصابعهم، مثلمـا فعـل أسـلافهم. إن معـدناً أشد تهلكة من ذلـك الـذي يمـشي علـى الأقـدام، قـد عـضهم. وفي بحثهم عنه، ليدفعوا ضرائبهم، ويبتاعوا مـن الأجانـب أشـياء تافهـة، كان عليهم أن يشتغلوا في المزارع التي سـرقت مـن الـشعب الكـيني، وفي شبكات الطرق التي تصل المزارع بالعاصمة والبحر.

الموروغ، التي كانت يوماً تعج بالناس الذين لا يهابون العـيش مـن عرق جباههم وجهد أيـديهم، بـدأت تتـدهور، وأخـذ عـدد سـكانها يتـضاءل. أمـا خـط الـسكة الحديـد إلى بـلاط موتيـسا، فقـد تجـاوز الموروغ. وشهدت الحرب الأوروبية الثانية مزيـداً مـن الـشبان الـذين يفرون من الموروغ إلى مدن الآمال المعدنية. لقد أمسى ما كان مركـزاً للتجارة والزراعة، قرية فحسب، ظلاً شاحباً لما كان بـالأمس.. هكـذا حدثتهم نياكينيوا، وهي تقوي معنوياتهم بحكايات الماضي. كـانوا قـد أوقدوا ناراً كبيرة، وتحلقوا حولها جماعات.

لقد اجتذبت الرحلة إلى المدينة أناساً كثيرين محمولين على أمـواج الأمـل والوعود، وأيقظت فيهم الإحـساس بـأن هـذه الأزمـة، هـي أزمـة جماعـة،

تحتاج إلى استجابة جماعية. وكانت نياكينيوا الروح التي تقودهم، وتلمّهم. إنها تتحدث كما لو كانت في كل مكان، كأنها شاركت، فعلاً، في الحرب ضد الألمان، وكأن النهضة والسقطة التاريخيتين لألموروغ تسريان في عروقها. إنها ترتدي السواد. على وجهها غضون عميقة. لكنها جميلة حتى وهي في تلك السن. توقفت، بغتة، وحدقت في النار. الرحلة قد تستغرق أياماً عديدة، وهي تخشى على الأطفال، أطفالهم.

سألها كاريغا متلهفاً لمعرفة المزيد: «حدثينا، حدثينا عما رأوا!»

«لا شيء أقوله... لا شيء،»... قالت نياكينيوا، وهي ما تزال تحدق في النار. عيناها متألقتان، حادتان، كثافة نور أكثر حدة من ضوء القمر فوقهم. نياكينيوا، أم الرجال: ثمة رنة حزينة في صوتها، كانت تحتفل بذكريات قوس قزح من الربح والخسارة، والظفر والإخفاق... لكنها فوق ذلك كله... ذكريات العذاب والمعرفة في الصراع.

«لا شيء آخر أقوله»... رددت في صوت بعيد عنهم، ربما كان سارحاً إلى تلك الأراضي الأخرى.

أما كاريغا، المرتبك، المتحرق إلى لمحة وإضاءة للماضي، إلى ما يحرك التاريخ حقاً، فقد أراد أن يعرف الأمر الذي كتمته، أي أمر هذا الذي جعلها ترتد إلى الصمت والعتمة، وسط ضجيج الأطفال؟ وانجا وعبد الله وكاريغا نظروا إلى المرأة العجوز، وعاودوا النظر، وانتظروا. قال نجوغونا موجهاً كلامه إلى الجماعة كلها: «كان يوماً قاسياً. يجب أن ننام جميعاً استعداداً للغد. علينا الانطلاق مبكرين. فما يزال بيننا وبين المدينة طريق طويل».

* * *

لم يستطع كاريغا النوم، تمشى في السهول، مفكراً بحكاية المرأة.

لقد عاشها: فللحظة، كان نديمي، يقطع أشجار الغابة، ويؤسس صناعة جنينية.... لكن ذهنه، كأن المدى الشاسع يتحداه، مضى أبعد من نديمي، أبعد من المورروغ. مضى إلى ماض لا يستطيع له معرفة، لكنه يحس أنه يعرفه: أهو قبل مائة عام؟ ثلاثمائة عام؟ أو أكثر؟

ما حاول أن يقول للأطفال، ما حاول أن يفعله في سيريانا لم يكن سوى سلسلة من التأكيدات المنطقية والردود، طاقم من المعتقدات الذهنية. أما الآن، فيبدو الماضي الذي حاول تأكيده، ذا حياة، وعنفوان متقد، على شفتي المرأة، في هذا الرحيل نحو إنقاذ قرية، إنقاذ جماعة.

راجع ذلك الماضي، صوراً بعد صور... وصار به مأخوذاً وقتاً ما: معرفة المعدن والحجر... الجمع الفائق بين الأشياء... والحكايات... الأغاني وخلافات المساء... ووراء المكان الذي حاول فيه الإمساك بقوة المعدن والحجر، مساكن أولئك الذين حاولوا الأمر نفسه مع الأرض. ثم جاءت السفينة، والدخان من فوهة قصبة، وتغير تعادل القوة: الآن وجب على الأفريقي أن يهجر زراعته المستقرة، وصراعه مع آلة المعدن والحجر، طالباً الأمان في أعماق الغابة. شاهد كاريغا، الهائم الآن، مرارة الناس الذي فروا وخوفهم، غائصين أعمق فأعمق في الغابة، ليقيموا بيوتاً جديدة في أجواء جديدة... ويا إله... النار أحرقت القرى، نار الطمع بالتراب الأحمر والعاج الأسود أحرقت الحكمة التي جمعتها مواسم عديدة... هكذا قبض على الذين لم يستطيعوا الفرار، وأوثقوا بالسلاسل معاً، وأرغموا على المسير إلى البحر، وإلى ما وراء البحر، كي يكدحوا في عوالم جديدة. أجل، يستطيع أن يرى ذلك، الآن، وقد واجه شكوكه السابقة بما اعتبره رداً لا سبيل إلى دحضه. قال الصوت: لو كان كذا وكذا صحيحاً فكيف

تفسر، إذاً، سيطرة الطبيعة الفعلية على الإنسان؟ ألم تسمع حكاية نياكينيوا وتنصت إليها؟ إن كان باستطاعة ستين عاماً أن تدمر عمل «نديمي» بحيث لم يبق أثر لمهارته ومعرفته، فكيف بأربعمائة عام من العبودية والذبح والحية مصاصة الدم التي لا تغير إلا ألوان سمها؟ فجأة أوقف، عامداً، تدفق أفكاره الحاد المتصل.

في البعيد، في قلب السهول، تل مخروطي الشكل، راسخ، لكنه يبدو ضعيفاً في عزلته. التفت إلى الوراء، مجفلاً، من تنفس شخص ما، خلفه.

«أنا. هل أخفتك؟». إنها وانجا.

«لا. لكني أخف من الحيات خوفاً عميقاً، وأربط بينها وبين السهول الجافة».

«شـ شـ ش! لا تسمها بأسمائها ليلاً. سمها نيامو سياثي. أنا أخافها أيضاً».

«أوه... لا أصدق هذه الخرافة. الفهد يدعى الأرقط، أو الخجول. لماذا؟ إن كان باستطاعة أرواحها أن تسمع، فسوف تظل تسمع حتى لو سميتها حيوانات الأرض أو الحياة أو أي اسم آخر...».

«أتذكر أنك أعلن في كوخي عدم إيمانك بالأسماء. وقلت شيئاً عن الوردة هي الوردة». ضحكت ضحكة قصيرة، فانزعج قليلاً، وحاول أن يفسر ما قال. «لا أعني أنني لا أؤمن بالأسماء. فهل هناك كاريكاتير مضحك أكثر من أسماء أخوتنا الأفارقة وأخواتنا الأفريقيات، الذين يسمون أنفسهم متباهين: جيمس فلبسن. رسما. هوتنسيا. رون روجرسن. رتشارد جلوكوز. تشارتي. هوني مون سنو. حزقيال. شبرا. ونتر بوتمس ـ كل هذه المجموعة من الأسماء وغير الأسماء، من

العالم الأوروبي. وأي دليل أسطع على كره الذات من إقامتهم حفلة شاي للأسرة والأصدقاء بغية رشوتهم، حتى لا يسموهم بأسمائهم الأفريقية؟ في الحق أنني أؤمن بواقع المسمى أكثر من الاسم نفسه..».

«أبهذا كنت تفكر حتى لحظة جئتك؟ لقد تتبعتك مسافة، ولم تكن لتحس بالأمر... أم تراك قلقاً من الرحلة إلى المدينة؟».

«لا... كنت أفكر بحكاية نياكينيوا».

«عن نديمي؟».

«نعم».

«لماذا؟ أتصدقها؟».

«يجب أن تكون حقيقية. لم لا؟ إن لم تكن في التفاصيل، ففي الفكرة، على الأقل».

«أي فكرة؟».

«فكرة عن ماض. ماض عظيم. ماض كانت فيه الموروغ، أو أفريقيا بأسرها تتحكم في ثروتها».

«أنت شاب بديع». ثم ضحكت قليلاً، ضحكة تشي بالذنب، وهي تتذكر ليلة هرب كاريغا من الكوخ.

«لماذا؟».

«لماذا تفعل وتقول. تقول يوماً إنك لا تمس الشراب. وتشرب حليباً أو ماء. ومع هذا فأنت في المرة التالية سكران تتشاجر في شرب».

أحس قليلاً بالضيق. تململ على قدميه. ونظر إلى التل البعيد.

«لست أدري كيف استسلمت له. أظنني أردت أن أضيع نفسي فقط. لقد تكاثرت على السهام من كل جانب. وأردت أن أنسى».

«تنسى؟ إذاً، انظر إلى هذه الرحلة. قلت إنك عانيت في المدينة. أظنني أعرف ما تعني. أشعر شعورك. يمكن للمدينة أن تكون مكاناً قاسياً. لكن ما الذي حملك على الاعتقاد بأنها ستكون الآن مختلفة؟ إنني أخشى عليك. في الأيام القليلة الماضية كان قلبي ينزف دماً لأن هذا العدد من الرجال والنساء والأطفال سيلتحق بنا. وقد تألمت أكثر لأغاني الأمل التي غنيناها. ألا تظنهم سيغنونك أغاني المرارة حين تصفعهم المدينة على وجوههم، مثلما فعلت بك؟».

«علي الاعتراف بأنني لم أفكر بهذا. لا بد لنا من أن نحاول. ولماذا يجب أن نفشل؟ نحن ذاهبون جماعة. صوت الشعب هو صوت الله حقاً.ثم من يكون نائب البرلمان؟ أليس هو صوت الشعب في بيت الحكم؟ لا يستطيع إهمالنا. لا يستطيع رفض مقابلتنا».

«إيمانك بالشعب مؤثر. ربما كان أمراً حسناً. لكني أتساءل... أتساءل».

توقفا عن الكلام، وانسحبا إلى أفكارهما المنفصلة الخاصة. القمر يغمرها بالنور. القمر يغمر السهول. وانجا كانت تقلب في ذهنها كلمات سمعتها مرة من محام في نايروبي. نظر كاريغا إلى التل المتوحد، لكنه كان يفكر بالرحلة والشكوك التي أثارتها وانجا.

اقترح، وقد شعر فجأة بالتعب: «لنجلس. أليس غريباً أن يظل هذا التل منتصباً، بينما انهار كل ما عداه؟» «ذاك يسمونه تل الأولاد غير المختونين. يقال إن الولد لو دار راكضاً حوله تحوّل بنتاً. والبنت تتحول ولداً. أتصدق ذلك أيضاً».

«لا أصدق. يجب أن نسمع حالات بعض الذين حاولوا فتحولوا».

قالت بمرارة: «أتمنى لو كان الأمر حقاً!».

أقسمت وانجا، لتحققن لنفسها شأناً في المورِوغ. وكمقياس لتصميمها، لن تضاجع رجلاً، حتى تحقق ما أرادت. آنذاك تكون المضاجعة احتفالاً فقط بظفرها ونجاحها. لكن ماذا تريد أن تحقق؟ ما يزال الأمر غامضاً. مجرد منظر المورِوغ المهددة بالعطش والجوع والجفاف كان كافياً لبث اليأس في النفس. من أين تبدأ في المورِوغ تلك؟ في مشرب عبد الله القروي ومخزنه؟ الخير لها أن تركض حول التل، وتتحول رجلاً، مثل كاريغا..

وتساءلت عن قسمها.

كاريغا كان يفكر في تل آخر، بسهل آخر. التمعت مناقع مانوغو أمام بصره، وأحس بدفق بهجة ومرارة ذاكرته. النصر والهزيمة، النجاح والإخفاق البائس... حاول ألا يفكر بموكامي التي سيطرت هذه السيطرة على حياته، لكنه في محاولته هذه سمح لها فقط بأن تحكم قبضتها عليه، على وجوده كله، حتى بعد موتها. لقد أنهمك في الكتب، في الأدب، في التاريخ، في الفلسفة، باحثاً، باستماتة، عن معنى الأحجية في نقطة التقاء مهازل التاريخ، المظهر والمخبر، الأمل والواقع. وألقى بثقله في قضية بعد أخرى، ونشاط بعد آخر، باحثاً، في العملية، عن ميلاد شيء لا يستطيع تعيينه تحديداً ـ البراءة؟ الأمل؟ كان يفتقدها أحياناً: فيعبد ذكراها، محتفلاً بفجر البراءة والأمل قبل أن يستسلم للعتمة... إنه واقف على قمة تل، يواجه مناقع مانوغو، وهو ينظر بإحساس غائر مريضي، إلى إخفاق الطهر والنقاء. كتب مرة في سيريانا، وهو في نوبة كهذه: لكنه لم يلمس المرارة التي أحسها، وإنما العصبية الغريبة غير المستقرة، والتشاؤم في القرار، في تذكره انتحار موكامي.

قلبي مثقل، ألم قرحة في معدتي. كيف يحدث أن تلك الأشياء الصغيرة، صرير جندب، لمسة فرس النبي، تجعلني أتنبه، بغتة، وأنظر حولي؟ لماذا أنظر إليها، صورة ذاتي عن الحق، وأغدوخائفاً من الغد؟ لماذا، لماذا؟ لماذا لا أطمئن إلى معرفة أن قلبين على الحدبة في مناقع مانوغو، رفضا، مرة، أن يكره أحدهما الآخر، وخفقا معاً؟

كان هذا قبل تركه سيريانا بالضبط. تحقق مرير. هكذا فكر فيما بعد، كما يفكر الآن... وهو ما يزال ينظر إلى التل الوحيد تحت القمر الواسع. جاء جوي إلى المدرسة. الباقي تاريخ.

سألته وانجا: «قل لي يا كاريغا، أتفكر دائماً في الماضي»؟

جفل من السؤال، ونظر إليها: أتراها تقرأ أفكاره؟ أحياناً تذكره وانجا بموكامي: حرك نفسه ليجيب:

«كي تفهم الحاضر، عليك أن تفهم الماضي. كي تعرف أين أنت، عليك أن تعرف من أين أتيت، ألا تظنين؟».

«كيف؟ إنني أرى المسألة بهذه الطريقة. الجفاف والعطش والجوع تهدد المروع! ما فائدة حكاية نديمي؟

إنني أغرق: ما نفع التفاتي إلى الشاطئ الذي سقطت منه؟».

«الحق أنهم فعلوا أشياء، أي أنهم رفضوا الغرق: ألا يمنحنا هذا الأمل والفخر؟».

«لا. سأكون أفضل لو رمي إلي حبل. شيء أستطيع الإمساك به...» سكتت لحظات، ثم قالت بنبرة متبدلة:

«في بعض الأحيان، ليس من عظمة في الماضي. أحياناً يريد المرء أن يخفي الماضي حتى عن نفسه».

أدرك كاريغا، فجأة، أنها لا تتحدث عن ماضي مجرد.

«ماذا تقصدين»؟

لم تجبه فوراً. بل اقتربت منه، وأحس بدفئها القريب في رئتيه، ساخناً عند أضلاعه. تسارعت الحياة في أمل مفاجئ. نشجت مرة، فعرف أنها كانت تبكي. سألها محتاراً: «لم تبكين؟».

«لا أدري... لا أدري... أرجوك... لا تهتم بي...».

كانت تحاول، فاشلة، أن تبتسم من خلل دموعها:

«ماضي مليء بالشر. واليوم حين التفت إلى الوراء، لا أرى سوى سنين ضائعة...».

«أكان، إذاً، قاسياً؟».

وأحس بوهن سؤاله. ماذا تراه يعرف عنها؟ ماذا يعرف عن امرأة ظلت تتحول في هيئات مختلفة وشخوص متنوعة أمام عيني المرء؟ حين لقيها، المرة الأولى، في الكوخ، كانت سيدة على الرجال حولها. كانت واثقة من حركاتها ونظراتها. مرة أو مرتين، بحثت عن عينيه، فوق رأسي عبد الله ومنيرا، لكنه ارتد غريزياً من نور عينيها. وحين التقيا، ثانية، في ليمورو، كان هو الذي غرق في أعماق الزيف السفلي، محاولاً الهرب من نفسه، وهي التي رمت له حبل النجاة. وكان يبدو صوتها، وهي تناديه من الأعماق، حقيقياً، مهتماً، ناعماً بالعطف والحنان والاعتراف. في الأسابيع القليلة الماضية، شهد الذبول التدريجي لنعومتها المحسوبة، وبريق العينين المدرب... وميلاد جمال نحيل مهشم الأظافر. وها هي ذي الآن، تبكي! لكنه لاحظ حتى بين هذه الأفكار، ترددها الخفيف إزاء سؤاله، كأنها لم تعرف كيف تجيب، أو تتناول الجواب.

ما الصحيح؟

لكنها لم تستطع أن تجيب، أدركت فجأة، وهي توشك أن تقول شيئاً، إنها يجب أن تحدثه عن تورطها مع كيميريا، الرجل الذي حطم حياتها.

لكنها حدثته، حديثاً مختصراً، عملها في البارات الكثيرة التي نبتت كالفطر، بعد الاستقلال، في كل مكان.

«نحن فتيات المشارب لا نستقر، أبداً، في محل واحد. أحياناً تطرد الواحدة منا، لأنها رفضت أن تنام مع رب العمل. وربما لأن الوجه صار جد معروف في محل. فأنت تبحث عن أرض جديدة. أتدري... أمر مسل أن الواحدة منا حين تذهب إلى محل جديد يعاملها الرجال باعتبارها عذراء. ويتدافعون مع بعضهم ليشتروا لها البيرة. كل منهم يريد أن يكون الأول. هكذا تجدنا نحن، فتيات المشارب، حيثما كان هناك مشرب في كينيا، حتى في الموروغ».

ضحكت. سعل شخص وراءهما. وقد ارتاحا كلاهما حين رأياه «منيرا».

«جئتما تختبئان هنا. ونحن جميعاً ظننا الوحوش أكلتكما».

صاح بصوت جهوري فيه مبالغة.

فقال كاريغا: «من الصعب أن ينام المرء مبكراً في هذه البرية الشاسعة».

قال منيرا وهو يجلس بحيث صارت وانجا بينهما: «هل كانت وانجا تحدثك عن حياتها في برية المشارب؟».

قال كاريغا: «بدأت فقط».

عرف كاريغا لمحات خاطفة عن هذا العالم، أيام كان بائع جلود خراف وفرو على جانب الطريق. وعرف شباناً عديدين، يفرغون كل ما كسبوه، بعد يوم عمل شاق، في الأحضان المنتظرة لفتاة مشرب ربما كانت تعيل طفلين أو ثلاثة.

قالت وانجا: «إنها ليست برية رائعة الجمال، لكنها ليست رديئة جداً. إحساس لطيف بالنسبة للمرأة أن ترمقها ألف عين، وأن تشعر أن جسدها يصدر الأوامر لكل تلك القلوب. أحياناً ترى الجانب الغلط. تريد أن تخرج: تريد أيضاً أن تبقى. وتظل تردد لنفسك: غداً... غداً. أعرف من حاولن. واحدة أصبحت مدبرة منزل. تقوم بكل أعماله. تستيقظ في الخامسة... تساعد في حلب الأبقار. تهيئ فطور الصباح. تنظف البيت. تذهب إلى الدكان أو إلى الحقل لتجلب ما تطبخه غداء. ترعى أيضاً الأطفال. تهيئ شاي بعد الظهر. تعد العشاء. تغسل الأطفال... وحين تغيب الزوجة يريد الرجل أن يقاسمها الفراش. هذا كله مقابل ماذا؟ سبعين شلناً في الشهر! هربت الفتاة، أخرى حاولت أن تعمل في قطاف أوراق الشاي وحب القهوة في مزارع الأفارقة من أسياد الأرض الجدد. لكن بأي أجور؟ هكذا، يعدن أخيراً، كلهن، إلى العالم الذي لهن فيه أصدقاء، والذي يعرفن قواعده: حيث يعرفن ما هو شريف وما هو غير شريف، ما هو حق وما هو غير حق، ما هو صالح وما هو طالح، مثلاً: ليس صالحاً وليس شريفاً أن لا تجعل الرجل يصرف نقوده عليك. وقد ضربت إحدى الفتيات مرة، لأنها أهملت هذه القاعدة: لماذا تفسد سوق الأخريات؟ أنا؟ حاولت أيضاً الخروج. مرة عدت إلى البيت. قال أبي:

«لا أريد عاهرة في البيت!» آذاني أن أسمع العبارة من أب. فتاة المشرب لا تعتبر نفسها عاهرة. نحن فتيات نبحث عن العمل

والرجال. عدت إلى حياة المشارب. كنت محظوظة. كانت لي صداقات جيدة. أنا أحب وجوه الناس: أحب الأماكن الجديدة: حتى وجدت في عد الأشياء وترتيبها في أوضاع معينة أمراً ممتعاً. كنت أقول لنفسي وأنا جالسة وراء النضد: لو وضع هذا الرأس على تلكما الكتفين... لو كان هذا الأنف على ذلك الرأس... لو... لو... وفجأة يبدو الناس والأشياء ممتعين مسلين. الفتيات الأخريات كن يقلن لي: «وانجا... بم تفكرين دائماً؟» صعب أن أشرح لهن. لكني في الوقت نفسه كنت وحيدة. صحيح أني أحب الناس. أحب الضجيج والموسيقا والمشاجرات ـ أي... نعم، حتى المشاجرات ـ والحوادث غير المتوقعة، لكني كنت وحيدة. سافرت من مكان إلى مكان. باحثة عن شيء. عدت إلى الموروغ. لم أجد ما أبحث عنه. بعد بضعة أشهر أحسست بالرغبة في المغادرة. فالمرء يتعب من أن يظل فتاة مشرب للجميع. قلت: لن أعود ثانية إلى العمل نفسه. قلت لنفسي: الموروغ مكان جيد. لم لا أجمع بعض المال سريعاً وأعود إلى هناك، أبني بيتاً وأعيش ثمت طيلة الوقت!

أردت العودة إلى القرية ـ لكن امرأة غنية. لا أدري كيف راودتني هذه الفكرة. لقد اعتمدت، كما قلت، على الصداقات، ولم أعبأ بالغد. أن أعيش... أن أعيش... أشتري الملابس... الألوان تثيرني... أحاول أن أجد معنى لكل فستان أشتريه. لكني قلت الآن لنفسي: لا صداقات بعد اليوم. لن أتزوج أبداً على أي حال. إذاً، لم لا أكون غنية؟ كيف؟ وجاء الجواب. نايروبي. الأوروبيون. أدهشتني الفكرة... لأني لم أكن لأستطيع إقناع نفسي بالذهاب مع رجل أبيض.

مرة ذهبت مع رجل أبيض. كان مفتش شرطة. قبض علينا لأننا كنا نبيع البيرة في وقت متأخر بمشرب في بلدة كيكيو، وحين فتش الشبان

وجد لديهم ممنوعات. خفت. وضع الشبان في السجن. وأخذني إلى بيته. هكذا أنقذت نفسي. سجن الشبان خمس سنوات. كانت هي المرة الأولى والوحيدة. ثم كانت هذه المرأة. كانت ثرية جداً. إلا أنها وحيدة تطلب صداقة. كانت تتردد على محل عملي في كابيت السفلى، وتقول لي:

«وانجا، أستطيع أن أجد لك صديقاً أوروبياً. هي نفسها كانت معلمة ثم سكرتيرة. لكنها كانت تكسب المال بعد ساعات عملها في الدائرة. لقد تزوجت عجوزاً أوروبياً. تجاوز السبعين... يقول الناس إنها رمته من أعلى السلم بعد أن كتب وصية. ورثت كل ثروته. كنت أضحك وهي تحدثني. لم أقل لها إنني أعتبر الأوروبيين أجساداً عارية كجلود الخنازير... أو الضفادع المدفونة في الأرض وقتاً طويلاً. لكني قلت الآن: سيكون هذا شغلاً. في الشغل لا تسأل عمن يكون زبائنك. ولن يستغرق الأمر إلا شهراً أو شهرين. للأوروبيين فقط. لهذا، سكنت أبواب الفنادق الكبرى بعد مغادرتي الموروغ. هلتون. أمباسادحور. ستانلي. سيرينا. نورفولك. انتركونتيننتال. فيرفيو. ستة وثمانون. ماي فير. غروزفنر. بأن أفريكا. لم أكن أظن أن مثل هذا العدد من الفنادق الكبرى موجود في مكان واحد. لكني كنت أرتجف وبدون معرفة. ولم تكن لدي الملابس المناسبة التي ترتديها الفتيات الأخريات. ولم أكن أستطيع صبغ شفتي بالأحمر، وأهدابي بالأخضر الزئبقي، أو أن أعتمر الشعر المستعار. ولم أكن أعرف كيف أستعمل عيني مع الأوروبيين. في المشرب، خاصة حين أكون وراء النضد، كان باستطاعتي التحدث مع كل الرجال في المشرب، دون أن أحرك شفتي. لكن نايروبي... لليلتين متتاليتين انتهيت مع أفارقة. في الكولج أن، التقيت مع فتاة

كانت تعمل في مشرب بالدوريت. وهي التي أخبرتني عن النـاديين الليليين، ستار لايت، وهاليان. ثمت تستطيع أن تحصل حتى على ألف شلن في أسبوعك. ذهبت إلى ستارلايت: كانت الألوان تتبـدل زرقاء حمراء خضراء بحيث لا أكاد أرى شيئاً. هبط قلبي. لم أستطع أن أقفز للموسيقا. قد تتعجبان لهذا. لكـن حيـاة المـشرب مختلفـة نوعاً مـا. إلا أني أقـول شـيئاً عـن سـتارلايت هـو أنـه كـان ممتلئـاً بالأوروبيين. جلـست في زاويـة. وأحسـست الآن أني أوشـك علـى القفز عبر سياج القصب، وأهرب مهرولة طوال الطريق إلى بوليبـو. لكني رأيت هـذا الرجـل يـرمقني بنظراتـه. بادلتـه الابتـسامة. كـان طويلاً، والغليون في فمه، ولا يبدو كبير السن مثـل الآخـرين ذوي الوجوه المغضنة. كان يتكلم السواحلية جيداً، لكن بطريقة طريفة، ويضيف كلمة أو كلمتين بالإنجليزيـة. كـان ألمانيـاً جـاء إلى الـبلاد لمهمة معينة، وهو يبحث عن فتاة ما من كابيت. كان ألماني آخر قد اصحبها إلى ألمانيا بعد أن وعدها بالزواج. لكنها وجـدت أنهـا قـد خدعت، وأنـه أراد أن يبـدأ معهـا تجـارة بغـاء، فقـد حـسب هـو وآخرون أن الألماني يستطيع أن يصرف هذه الأمور على الطـائرات والفنادق في بلادنا، بعد مشاهدته إعلاناً عن رجل أبيض عجوز مع شابة أفريقية، يحمـل هـذه الكلمـات: بهـذا المبلـغ فقـط تـستطيع الحصول على هذه... إذاً سيدفع الألماني بطواعية أكثر، حين ترسل بلادنا إلى ألمانيا.

هل أعرفها؟ أنى لي ذلك؟ لماذا يريدها؟ أليست في ألمانيا؟ لأن الرجل الذي جاء بها إلى ألمانيا ـ هكـذا أخـبرني ـ عاملـها معاملـة سيئة، وضربها، وفعل أمـوراً قـد تـسيء إلى المـشاعر بـين ألمانيـا وأفريقيا.

الفتاة استطاعت أن تهرب، وتعود إلى كينيا، بعد أن خلفت طفلاً هناك. كان الرجل يرفض أن يرعى الطفل، وقد جمعت العصبة التي تهتم بالسود والمشاعر بين ألمانيا وأفريقيا، أموالاً، لترسله إلى أفريقيا، بغية البحث عن الفتاة، والتوصل إلى إثباتات يمكن استخدامها ضد الرجل في المحاكم. هل أعرفها؟

على أي حال، قلت ثانية: كيف أستطيع معرفتها، وفي البلد فتيات كثيرات جداً؟ قال: لهذا بالضبط، أتجول في المشارب والنوادي الليلية لأرى إن كان باستطاعتي التوصل إليها. أيعجبني أن أكون رفيقته في اقتفاء الأثر؟ سوف يدفع لي جيداً، وإذا نجحنا في العثور عليها، فسوف أذهب بالطائرة إلى ألمانيا، لأكون شاهدة في المحاكمة. إنها لقصة غريبة، وللوهلة الأولى ظننته مختل العقل، لكنه يبدو سليماً، ويتكلم بمعقولية، وقد سمعت أن بعض الأوروبيين كانوا يسرقون الفتيات ليتاجروا بهن في إيطاليا وألمانيا. حسناً، يمكنكما معرفة انشغال تفكيري، فقلت لنفسي: كنت بالأمس فتاة مشرب عند عبد الله بلا أجر. والآن؟ عند انتهاء البحث، سأكون امرأة ثرية، وسأشتري قيثاراً وفلوتا. قد تكذبانني، لكني أحب الموسيقا، وأستطيع أن أرى أمواج البحر الزرقاء حين تبدأ الموسيقا، وأحياناً أكون فوق غيوم برتقالية زرقاء وحمراء: مساحات من الحقول الخضراء حين تعزف الفلوت. أصوات الكورال المفردة يمكنها إنقاذي من الكآبة، وأحياناً أسمع في رأسي نغماً برتقالياً منفرداً تنضم إليه أنغام عديدة مثل جداول لون من لا مكان... ربما كانت طفولية مني، أخجل بسببها... لكني أحيد عن الحكاية. كنت فقط أخبركما عما يدور في رأسي، وهو يصحبني معه في سيارة إلى بيته، كي أقضي الليلة معه. الحق أنني لم أعد أبالي بالأوروبيين. لم أشاهد بيتاً مثل هذا، من قبل. درب

واسع ذو أشجار عالية يؤدي إلى ساحة ذات أزهار مفوفة. تجول معي في البيت... كان شخصاً مؤدباً، وأراني مختلف الغرف... حقاً. الأوروبيون ليسوا سيئين، ليسوا سيئين على الإطلاق. كان يتوقف عند صورة ويشرح لي شيئاً عن الأعناب والدوالي عند النافذة ـ كل ذلك. أدخلني غرفة أخرى. أووه... صرخت في خوف مباغت. كان ثمت شخصان يرتديان دروعاً غريبة وسيوفاً كأنهما مستعدان للحرب... وعلى الجدران، سيوف ذات أحجام وأشكال مختلفة... لمس حد بعضها، وشرح شيئاً عن هوايته. لم أفهم هذا كله، وكنت على أي حال خائفة من السيوف والشخصين المسلحين، وكنت أتساءل: كيف تأتى له أن يمتلك هذا البيت وهذه المجموعة، وهو القادم الآن من ألمانيا؟ لكني قبل أن أسأله، قادني إلى غرفة النوم.

ثمت مرايا على الجدار، مرايا كثيرة مرتبة بحيث تصبح أنت أشخاصاً كثيرين متناثرين في صفوف لا حصر لها. عاد قلبي يخفق خوفاً. يجب أن يكون بالغ الثراء بحيث يستأجر بيتاً كهذا، وهو لم يجيء هنا إلا بحثاً عن فتاة، أو أنه سيظل هنا وقتاً ما... ظل رأسي يعمل حساباته، وضعت في أحلام المال... لكني أحسست بجانبي، فجأة، كلباً يحدق بي، بعينين خضراوين واسعتين. شهقت خوفاً وارتددت إلى الخلف. كنت خائفة، واهنة الركبتين. نظرت حولي، فرأيت أننا كثيرون كثيرون، مع كلاب كثيرة كثيرة. جلست على الفراش، أو عدد مني جلسن فرش عديدة في حلم. جاءني الرجل، أو جاءني عدة رجال، وجلسوا بجانبنا على فرش كثيرة، كأنه، أو كأنهم يتمتعون بخوفنا. قال لي ألا أقلق... وجاءت الحيوانات نحونا، مزمجرة قليلاً، وعيونها الخضر مثبتة علينا. حاولت السيطرة على ارتعادي بصعوبة. كان يقف هناك كأنه ينتظر أوامر جديدة من سيده.

السيد يلهث الآن بجانبي، مطلقاً رائحة عفنة. واستطعت أن أعرف من حركة أصابعه وبريق عينيه وارتجاف شفته السفلى أنه كان متهيجاً. الرعب يتأكلني. والقوة تغادرني، وكأن عيني الكلب الخضراوين المتقدتين تمتصان قدرتي على المقاومة. كنت معلقة في الفضاء. لا شيء. لكن خلف الرعب، خلف الشيء الذي لا أجد له تفسيراً. والذي يضغط على أعصابي حد الوخز والفناء البطيء... كان إحساس آخر بالمراقبة. الرجل يعبث الآن بثيابي، والحيوان يزمجر ويهز ذيله، والرجل يرتجف. تقوى الإحساس بالمراقبة شيئاً فشيئاً، وهو يصارع الموت. الحيوان يوشك أن يلعق أصابعي... حينما سمعت صوتاً يصرخ من مكان ما في داخلي: «أوه... أنت تعرف أني تركت حقيبتي اليدوية في سيارتي». ما إن سمعت صوتي حتى عرفت أني قد قهرت الفناء، وأني أعود إلى الحياة. قال: «لا تقلقي، سآتي بها». قلت: «لا... حقيبة المرأة تضم أسراراً، فهل يستطيع أخذي إلى السيارة؟». إنه صوتي بالذات، لكنه طوع شخص ما في داخلي... نهضت. سبقني نحو الباب. الكلب يتبعنا. الآن أصلي صامتة: أعطني المزيد من القوة. أعطني المزيد من القوة. خرج هو أولاً، فأغلقت أنا الباب سريعاً، حتى يظل الحيوان في الداخل.

لا أعرف حتى اليوم من أين جاءتني أجنحة. هربت عبر الأشجار والعشب، ولم ألتفت إلا مرة، حين بلغت الطريق المعبد...

صرير عجلات سيارة. السيارة تتوقف إلى جانبي. قفزت إلى ناحية خوفاً من أن تكون سيارته. يا صديقي... ما كنت يوماً ممتنة لرؤية رجل أسود، امتناني تلك الليلة. أنا الآن أنتحب، وربما أخبرته بين نشيجي طرفاً من رعبي. أخذني إلى منزل في نايروبي الغربية. أعد لي قهوة، وقدم لي بعض الأقراص، وأراني مكاناً للنوم. يبدو أنني نمت

الليل كله، وسائر النهار التالي. سمح لي بالبقاء ليلة أخرى، فحكيت له حكايتي، وسألني بضعة أسئلة: أتراني أعرف البيت؟ هل أعرف الرجل؟ ثم نظر إلى مكان، وقال: لا فائدة. هذا ما يحدث حين تحولون السياحة إلى ديانة قومية وتبنون هياكل لعبادتنا في جميع أرجاء البلاد. لم أسأله عمَّا قصده، لكني عرفت أنه كان غاضبا. في اليوم التالي اصطحبني إلى موقف حافلة ماجاكوس، وأحسست برغبة في البكاء، امتناناً، إذ لم يحاول أي أمر معي، وعاملني معاملة جيدة. أعطاني شيئاً من المال، وقال ببساطة: «لم لا تعودين إلى والديك؟ هذه المدينة ليست مكانك... حسناً... ليست مكان أي واحد منا... حتى الآن».

أخبرني عن محل عمله، وأعطاني بطاقة، وأوصاني بمراجعته حين تحدث لي مصاعب ـ لكن... غير مصاعب تلك الليلة، فهو يأمل في أن أعود إلى والدي. ثم ابتعد بسيارته، دون أن ينتظر إتمامي كلمات الشكر التي بدأتها.

سأذهب إلى البيت. قلت لنفسي. يجب أن اذهب إلى البيت. لكن حين توقفت الحافلة التي استقللتها عند مكاني، لم أنزل. سألت نفسي: كيف يمكن أن أعود إلى البيت هكذا، كأني لم أشتغل كل هذه السنوات؟ عدت إلى باليبو وحياة فتاة المشرب.

2* عبد الله صار بطل الرحلة. يكشف، باستمرار، عن جوانب جديدة، غنية، في شخصيته. منذ البداية كان الناس شاكرين لحماره. وظلوا يقارنون بين العربة التي يجرها الحمار وتلك التي يجرها الثور ويستعملها المستوطنون. إنهم أيضاً في مهمة غزو ـ للمدينة.

ثم إن عبد الله ـ بالرغم من ساقه المقطوعة ـ لا يقبل بركوب

العربة. وكل ما كان يقوله هو: ليتناوب الأطفال الركوب. لقد أثار جلده في المشروع قوة، ووهبه غاية. كانت الشمس ترهقه وحشيش الفيل يخز أقدامهم العارية. كان عبد الله لطيفاً جداً مع الصغار، يحكي لهم الحكايات، خاصة في المساء، حين يطلع القمر: «القمر والشمس عدوان. ولهذا يبرز أحدهما في النهار، والآخر في الليل. لكنهما لم يكونا دائماً عدوين. يقال إن سبب عداوتهما أنهما ذهبا، سوية، يستحمان في النهر. اغسل ظهري، ثم أغسل أنا ظهرك. هكذا قالت الشمس للقمر. غسل القمر ظهر الشمس حتى صار يلمع. قال القمر: الآن دورك. خلطت الشمس البصاق بالتراب ومسحت به وجه القمر».

في النهار يعلمهم أسماء النباتات والحشائش المختلفة: ولو لم تكن النباتات جافة، لعلمهم استعمال أجزائها المختلفة. أراهم حيلاً بالسكين. رمى مرة سكيناً فشطرت عصا رقيقة شطرين. ونصب نفسه حكماً في مسابقاتهم ليرى أيهم أدق في استعمال المقاليع التي صنعها لهم. كان الصغار سعداء، ومضوا يتناقشون فيمن يستطيع أن يسقط طيراً من السماء. يبدو أنهم كانوا يغرفون من احتياطي القوة عند عبد الله، وفي اليومين الأولين رفضوا ركوب العربة، ومشوا إلى جانب عبد الله. أحد السائرين في الموكب شرع يغني ترنيمة. اضطربت الكلمات، وبعد بضع محاولات أخذوا يغنونها معاً.

قالوا هناك مجاعة

لكنهم لم يقولوا إن هناك مجاعة

فقط لمن لم يأكلوا

خبز يسوع.

بيوت عديدة، أراضٍ كثيرة

المال في المصارف، مدارس

هذه لن تشبع جوع القلوب

حتى يأكل الناس

خبز يسوع.

انظر إلى الأغنياء، إلى الفقراء والأطفال:

أليسوا يترنحون في الطريق؟

هذا لأن قلوبهم جائعة

لأنهم لا يأكلون

خبز يسوع.

هذه الكلمات وما تحمله من رسالة مسيحية شاحبة، بدت مسخرة في الحالة الحاضرة. لكن الأصوات الموحدة هزت عبد الله: فقد أيقظت تلك الروح وراء الأغنية، ذكريات أصوات أخرى من الماضي.

ها هو ذا عبد الله، يقطع ثانية، السهول التي طالما قطعها... أولي مأساي، نصف الهندي، كان يقودهم. أيامها، أيضاً، ألغوا الغناء الذي يذكرهم بالوعود التي قطعوها وهم يؤدون قسم الباتوني في الأيام المبكرة:

حين ألقي القبض ليلا، على جومو الشعب الأسود

ترك لنا رسالة ومهمة

قال لنا: سأمسك برأس الحمار

فهل تتحملون، يا صغار، ركلاته؟

قلت: نعم، نعم. وتناولت سيفي

وشددت يدي إلى كل صغار البلد.

وأقسمت، لساناً على رمح ملتهب

لن أدير ظهري لصرخات الشعب الأسود

لن أدع هذا التراب يذهب إلى الغريب الأحمر.

لن أخون قطعة الأرض هذه... للأجنبي.

كان عبد الله قد تحمل، حقاً، العطش والجوع، والخليج البري والأشواك الواخزة، من أجل تلك الرؤيا التي فتحت أمامه، يوم أقسم قسم الوحدة، ثم قسم الباتوني، كليهما.

كانت، آنذاك، عاملة في معمل أحذية قرب بيته، حيث كانت الإضرابات من أجل أجور أعلى وإسكان أفضل، يكسرها، إضراباً بعد إضراب، رجال شرطة ذوو خوذ. سأل نفسه مراراً: كيف حدث أن رب عمل، لم يرفع مرة حملاً، ولم يوسخ يديه في ماء المدبغة العفن وهوائها الفاسد، أو في أي قسم آخر من المشروع... كيف حدث أنه ما يزال يسكن في بيت كبير، ويمتلك سيارة، ويستخدم سائقاً، وأكثر من أربعة أشخاص ليقطعوا أعشاب ساحته فقط؟ أي ارتجافة ارتجف حين تفتحت أمامه الرؤيا، معانقة أفكاراً جديدة، رغبات جديدة، إمكانات جديدة! لتفتدي الأرض، تناضل، من أجل أن تعود الصناعات ـ مثل معمل الأحذية الذي التهم عرقه ـ إلى الشعب: كي يستطيع أبناؤه أن يأكلوا ويلبسوا ويجدوا مأمناً من المطر:

ليقولوا، فخورين، إن أبانا مات لنحيا: لقد حوله هذا من عبد أمام رب عمل إلى رجل. كان ذلك يوم ختانه الحقيقي كرجل.

عبد الله يمشي، بل ينط، على ساقه الواحدة: لكنهم رأوا هذه الالتماعة في عينيه، وحنكه المرتفع، ووجهه المثبت على الجبال البعيدة، فدهشوا. إذ كان هو قائدهم في هذه الأرض المعادية... ودليلهم في هذه البرية. لكن ذهنه يزدحم بصور وصور. فمع أنه يضبط الخطا، ويحفظ موقعه على رأس الموكب، إلا أنه لم يكن معهم. أولي ماساي... غريب أن يحدث الأمر، ثانية، في الموروغ... يحدث ثانية... أهو وهم؟ حبة سقطت على الأرض، واقتسمناها بيننا... كم حسن أن يأتي كاريغا إلى الموروغ... مرسلاً متأخراً من الله... قالها موتوري العجوز... الله يضع الحكمة في أفواه الأطفال... صحيح... صحيح... تبدل الحديث في المخزن منذ مجيء كاريغا... ففي الأشهر الخمسة الأخيرة كانوا يذكرون، مراراً، أسماء يلذ سمعها... تشاكا. توسان. ساموي. نات ترز. آراب ماينى. ليبون توروغات. ديسالين. موندلين. أوالو. سيوتون. كيامبا. نكروما. كابرال.... ورغم الشمس والجفاف وقلقه على مصير حماره، كان يحس أن الماو ماو ليست سوى حلقة في سلسلة النضال المديد للشعب الأفريقي عبر مختلف العصور في الغابة... مع أولي ماساي. إنهم يسمونه الهندي، لكنه لم يعد يأبه بالأمر الآن. كان يحدثهم كثيراً: كيف كره نفسه، وأمه، وأباه، وروحه المنقسمة، وكيف أراد يوماً أن ينتحر، هو الذي لا ينتسب إلى أحد. ما كانت المسألة مسألة فقر... فقد كان أهله يعيشون في أفضل أحياء ايستلي... وكان أبوه الهندي يتردد عليهم، ويترك لهم مالا، ويدفع أجور ابنه المدرسية، كما وعده بنصيب من ثروته... وقد فتح بالفعل حساباً مصرفياً

باسمه... لكنه ظل يكره نفسه. هرب من المدرسة والبيت إلى الشوارع... كاريوكو... بوموانى... شوري مويو، يلعب النرد، ويسرق قليلاً، ويتشاجر قليلاً... ويلتقط أيضاً أشياء من الكلام... كما قرأ قليلاً... صحف لال فدياردي، خاصة. «أخبار الدنيا» و«كولونيال تايمس». وقد انجاب الضباب عن عينيه، حين ألقي القبض على مارخان سنغ بسبب مناصرته العمال الأفارقة. إنه يبحث الآن عن سبل للانغمار في العمل السري بالمدينة.

عرضوه إلى مزحة قاسية... فقد أخبروه أن يأخذ رزمة إلى شخص معين يقف في ركن مسجد الخوجة... أخبرهم كيف سار في ريفر رود، وكيف سقطت منه الرزمة، واكتشف أنه يحمل مسدساً... ارتجف، منفعلاً، خائفاً في الوقت نفسه... حافظ على المسدس حتى جاء إلى الرجل، وبينما كان يوشك على تسليمه الرزمة الرديئة الربط، أطبق شرطيان سريان أوروبيان على الرجل... أولي ماساي أخرج المسدس وصوبه إلى الشرطيين... كان شديد الهياج، بحيث صاح بالناس جميعاً ليأتوا، ويشاهدوه يقتل الشرطيين، اللذين كانت أيديهما مرفوعة.. لكن الرجل جذبه من كتفه، واختفيا كلاهما بين جماهير نايروبي... لن ينسى تلك اللحظة، لحظة ولادته كرجل كامل، حين أذل مضطهدين أوربيين، وانحاز كلياً ونهائياً إلى الشعب.

لقد رفض ما يريد أبوه، رفض وعود الغنى، وولد ثانية مقاتلاً في الغابة، مقاتلاً كينياً، وهدأت شكوكه مع النداءات الجديدة والحاجات الجديدة. أخبرهم كيف أرسل، فيما بعد، رسالة إلى أبيه، يطرده فيها من أملاك الشعب الأفريقي. وتنهد عبد الله... كان أولي ماساي رجلاً مرموقاً. عبد الله قرأ شيئاً ما، ذلك لأنهم كانوا يتحدثون عن بلدان أخرى، شعوب أخرى... الصين... كوريا... روسيا...

وكيف ثار العمال والفلاحون ضد السادة الأجانب والمحليين... ثم قتل أولي ماساي فجأة... وأطلقت النار على عبد الله في ساقه... سيظل يتذكر ذلك اليوم... كانوا قد وضعوا خطة دقيقة للاستيلاء على حامية في قلب بلدة ناكورو، وتحرير السجناء الموجودين في بناية السجن الملاصقة، مثلما فعل كيهيكا، أيام النضال الأولى، في ما هي، ومثلما فعل ثوار كيماثي في نيغاشا. حرروا السجناء. وأوشكت الحامية على الاستسلام، حين صرع أولي ماساي وحده... كيف يخدع القدر مصائر الناس؟... كل هذا بسبب عطل بندقيته... وحدث اضطراب في كل مكان... وارتفعت صيحات «أمسك به، أمسك به»... وتوهم عبد الله، للحظة، أنه يرى رؤية مزدوجة.

وفعلاً، كان الصغار يصيحون حوله: أمسك، أمسك. لحم. لحم... ثم رأى هو كذلك ما رأوه. فقد فاجأ الموكب قطيعاً من غزال الأنتيلوب يتقافز الآن عبر السهول. توقد ذهن عبد الله سريعاً. صاح بالصغار «انتظروا!» فأطاعوا السيطرة المباغتة لصوته: «هاتوا لي مقلاعاً، وبعض الحصى».

جاؤوه بالمقلاع الذي عاونهم في صنعه صباحاً، وكذلك ببعض الحصى. وقفوا جانباً، ساكتين، مستثاري الفضول، متشككين أيضاً قوته. وضع حجارة حادة النهايات في المقلاع، والأحجار الأخرى في جيوبه. وأخذ حفنة من التراب، ونثرها عالياً في الهواء، ليرى قوة الريح واتجاهها. أحكم استناده إلى عكازه، ووضع مستندها بصورة أكثر ثباتاً تحت إبطه اليمين. وطيلة هذا الوقت لم تفارق عيناه قطيع الغزلان الذي توقف على مبعدة منهم. أخرج من جيوبه الأحجار، وطلب من موريوكي الاحتفاظ بها في راحتيه المبسوطتين. أمسك بشفته السفلى وأطلق أصواتاً جعلت الحيوانات تستدير فجأة وتتجه

إليها. لكن القطيع، ما أن رأى الموكب القريب، حتى استدار ثانية، كأنه لم يقرر الخطوة التالية، بحيث واجهت جوانب الأجساد والرقاب، الناس. أغمض عبد الله عيناً، وشد وتر المطاط إلى الوراء، ثم أطلقه. كل شيء كان يحدث سريعاً، سحراً في حلم. إنهم لم يشاهدوا حتى الأحجار، وكيف انطلقت واحدة، فأخرى، فثالثة، وهي تصفر في الهواء. ثم رأسوا غزالين يثبان عالياً في الهواء، الواحد بعد الآخر، ثم يحطان ساكنين، قبل السقوط على الأرض. لم يستطيعوا للأمر تصديقاً. جرى منيرا وكاريغا ونجوغونا إلى المشهد. غزالتان مصابتان في سيقانهما. والباقي هيِّن.

وقف عبد الله في الوضعية نفسها، وقد تحول الآن في أعينهم إلى كائن خارق تماماً، لم يعرفوه من قبل، البتة. كان وهو ثابت كإله السهول، ما تزال عيناه محدقتين في التلال البعيدة التي كانت مأواه لسنين. إنه ما يزال مع أولي ماساي ومحاولة عصبتهم المستميتة والمميتة للسيطرة على الحامية العسكرية في ناكورو، لأخذ زمام المبادرة الذي فقد بعد القبض على كيماثي. حتى صحافة العدو اعترفت بأنها كانت محاولة طموحة جيدة التخطيط. ازداد بريق عينيه حدة. مسحهما بظاهر يده، ورمى المقلاع على الأرض.

أقاموا تلك الليلة احتفالاً ظلوا يتذكرونه طويلاً، ويتحدثون عنه باعتباره الحدث الأعظم في الطريق إلى المدينة. الصغار يلعبون حول النار، والكبار يجلسون جماعات يتحدثون، ويستعيدون الأيام والأماكن. نجوغونا نياكو نياكينيوا عن الغزلان، باعتبار أن الغزلان كانت عنزات جنت متوحشة بسبب أن النساء لا يعتنين بهن. منيرا متمدد على ظهره يعد النجوم، متحرراً من ذلك الشعور بكونه خارج الأشياء دائماً. لكن ما تزال في رأسه أسئلة كثيرة: عن كاريغا مثلاً. فهو

لا يرتاح معه، وإن لم يحدد بعد موقفاً منه. قد يتحدثان أثناء الرحلة. كما أنه يتمنى أن يتحدث مع وانجا حديث القلب للقلب.

كان يظن أنه ووانجا سوف يلتقطان الخيط من حيث تركاه، خاصة بعد أن عرفا معاً التعميد بالنار والرعب. أليس ثمة قدر في تماثل معاناتهما؟ لكنه، وعلى العكس، لاحظ أنها تنزلق منه... إلى أين؟ راقب تحركاتها، واضح أنها لا تنشئ علاقة مع أحد. إنها تفاجئه دوماً بأمزجتها، وجوانب شخصيتها المتغيرة. لكن ما أدهشه أكثر، وهو ينصت إليها البارحة، الطريقة التي تتخذ فيها تجاربها شكل القصص... في صوت يطلب الإصغاء ويستحقه، وينتهي ليكون المستمع أكثر انشداداً إلى حياتها وقدرها. إنه ينصت الآن إلى عبد الله؟ لقد شهد منيرا، مثل الآخرين، مأثرة خارقة للمهارة البشرية، وحددتهم جميعاً، حتى كأن أي واحد منهم يرى بضعة من نفسه في عبد الله. وانجا، الجالسة تماماً خلف نياكينيوا وعبد الله، كانت في غاية السعادة: لقد شعرت على الدوام بأن ثمت قصة في ساق عبد الله المقطوعة. الآن لم تعد قطعة خشب، بل وسام شجاعة موشوم على الجسد، فلا يمحى. أصغت إلى عبد الله يروي قصة أولي ماساي، ومحاولتهما المميتة للسيطرة على حامية ناكورو. اتقد قلب نجوغو فخراً. إذ كان يخجل دائماً من حقيقة أن ابنته قد أنجبت أطفالاً من هندي. لقد سمعوا عن رجل اسمه أولي ماساي، ولكن ليس على لسان من ناضل معه. شعر نجوغو أن دم الجانب الأسود هو الذي فرض أمره ليلة كشف حقيقية... حتى بالنسبة لعبد الله، الذي لم يعرف أن القدر سيجعل منه صاحب مخزن على أرض كان يسكنها والد أولي ماساي. لقد فهم الآن تعليق نجوغو الرهيب حين سأل، لأول مرة، عن الدكان. حاولت وانجا أن تتصور هذا الهندي، الذي

اعترف ولو نصف اعتراف، بامرأته الأفريقية، وبولده منها. وفكرت أنه لا يهم، في أوقات وظروف مختلفة، من يتزوج من، أو من ينام مع من.... لكنها تذكرت، فجأة، محنتها في المدينة. ظلت تتساءل.

استثار تحول الحديث انتباهها. ليس وحدها، حتى الأطفال توقفوا عن اللعب، وجلسوا يستمعون إلى بطلهم الجديد وهو يجيب عن سؤال كاريغا بصدد كيماثي. إنه سيروي أخيراً القصة التي رفض مرة أن يرويها. خيم الصمت على الجماعة كلها، وتعلق بشفتي عبد الله. لم يتردد طويلاً. كان صوته خفيضاً، والنبرة اعتيادية، تكاد تخلو من العاطفة.

«الواقع، أن بعضنا لم يرَ داون رغم علمنا باسمه. كان مسرح عمليات عصبتنا، كل الطريق، من ليمورو، عبر كيجابي، لونغونوت، ناري نغاري، حتى الموروغ، هذه السهول نفسها. لأربع سنين، كانت عصبتنا التي أتحدث مع عصبة أولي ماساي، بالرغم من تناقص عددها، بسبب الجوع، وإنهاك الغابة، وبنادق العدو ـ تقاتل بكل مهارات البقاء التي نستطيعها. انقطع تجهيزنا من الطعام حين حفرت خنادق ذات مسامير قاتلة حول قرى كثيرة. لقد سمعتم عن كاميريثو وغيثيما وأماكن أخرى. بين الفينة والفينة كان رجل عجوز، أو امرأة، أو حتى ولد، يغافلون العيون الشريرة لأشقائنا الذين باعوا أنفسهم للحرس المحلي ـ حملة رماح الأجانب ـ بسبب الجهل والرشوة والتعذيب أو إغراءات الغنى والسلامة الفردية، ويأتوننا بالطعام وأنباء ما يقوله الناس، ويفعلونه. لكن هذه الاتصالات أصبحت نادرة. واعترف أن هناك لحظات شجار وشك وتزعزع إيمان، لكن مآثر تلك الشجاعة أو تذكرها كانت تعلمنا بأن شعبنا لم ينسنا: وكيف ينسوننا؟ كنا سواعدهم ذاتها... مسلحة. هذه المعرفة بأننا نحن شعبنا وهبتنا قدرة الاستمرار. كنا نمطر بيوت المستوطنين ناراً، ونحرقها،

ونمزق ماشيتهم أوصالاً، ونكاد نبكي صدقاً، لأن هذه الممتلكات هي ممتلكات شعبنا. ومع هذا، كان عدد المتطوعين اللازمين لملء صفوفنا يتضاءل تماماً، إذ نقل معظم شبابنا إلى معسكرات الاعتقال، وفي فترة ما تناقص عدد مجموعتنا إلى عشرين. في هذا الوقت بلغتنا أنباء عن اجتماع كبير لبرلمان عموم كينيا، في غابة جبل كينيا، وكان من المفروض أن تحضر كل المجموعات، أو ممثلوها. إذ كانت لدى ددان خطط جديدة للمرحلة المقبلة من الحرب. كان يريدنا أن نعيد تنظيم أنفسنا في مناطق مختلفة، وننتخب قيادة عسكرية عليا، وقيادة سياسية وتربوية منفصلة استعداداً لتولي السلطة الإدارية. كما أراد أن نبذل جهوداً أعظم من أجل الارتباط بالقوى الأخرى المناهضة للاحتلال البريطاني، في أوكامباني، كالنجين، لو، لوهيا، وجيرياما، وكل أجزاء كينيا. كما أردنا أن نوصل قضيتنا إلى بلاط هيلاسيلاسي، وإلى القاهرة حيث استولى جمال عبد الناصر على قناة السويس، ثم حارب الإنجليز والفرنسيين. أخبرتكم بأننا كنا من غير طعام. لكننا صممنا على القيام بالمسيرة الكبرى عبر أولكالو، وسلسلة جبال نيانداروا، مخترقين سهول نييري، إلى جبل كينيا. أردت أن أشاهد هذا الرجل الذي لم يكن إلا صوتاً، وقوة سوداء، والذي اعترف بعبقريته العسكرية حتى العدو. انظروا هكذا إلى الأمر. لقد حارب، وهزم جنرالات مثل الجنرال سيرارسكين، الجنرال هيند، الجنرال لادبري، وجيوشهم القادمة من إنجلترا: البغز، واللانكشير، والديفونز، والقوة الجوية الملكية، والقوة الكينية، والجيوش الأخرى التي حاربت في قناة السويس وفلسطين وهونغ كونغ والملايو، وحيثما حكم البريطانيون. كنا نتحدث عنه بهيبة، وصارت أماكنه المفضلة معابد مهمة في حياتنا. كنا نعرفه «الفارس القائد للإمبراطورية الأفريقية»، و«رئيس وزرائنا»، والرجل القادر على السير أربعة عشر

يوماً دون طعام أو شراب، وعلى الزحف على بطنه مسافة سبعة أميال، وقد حاولنا جميعاً الاقتداء به. وكان هناك أيضاً ماتنغي، كراري وانجاما، كيمبو، كاغو، وارونجي، كيميميا، والآخرون الذين قرأنا رسائلهم كثيراً دون أن نراهم. قضيتنا هي التي كان توحدنا. وأي مسيرة أيها الأصدقاء! كانت ذخيرتنا نادرة، وكنا نحاول أن نزيد عدد الطلقات، بفتح الطلقة، وتقسيم البارود، لكن لم تنفع المحاولة. للحصول على اللحم كنا نعتمد على نصب الفخاخ، لكن ما فائدة الفخاخ في مسيرة؟ أحياناً نأكل الذرة الخضراء، والقصب الطري، أي شيء: مرة وجدنا دخناً برياً، ففركناه بأيدينا، وحملنا الفريك في حقائبنا المصنوعة من جلد الغزال. وكان أولي ماساي يبهجنا بحكاياته عن نايروبي القديمة. كان يحاول أن يقص علينا ثانية تلك القصة التي رواها ألف مرة لنا. كيف صوَّب مسدساً إلى الشرطة الأوروبيين، وكيف كانوا يرتجفون على دران مسجد الخوجا، بينما كان المسلمون يصلون في الداخل، ولم تثرنا القصة كما كان عهدها في الأيام الأكثر سعادة. الآن تهرأت ملابسنا المصنوعة من جلود الحيوان، لكننا مضينا، نشق طريقنا خلال الدغل، والأشواك تمزق جلودنا، متحاشين في أغلب الوقت الأفاعي السامة. أحياناً كانت الهيجانات تنفجر بيننا، ونحن ما نزال نمضي نحو الجبل، لنسمع كلمات من شفتيه هو. وسرعان ما بلغنا الجبل الجبار ومكان الاجتماع. أيها الأصدقاء! ماذا يقولون في الكتاب الطيب؟ إن لكل شيء موسماً، وإن لكل غاية وقتاً في السماء... وقت للحب... وقت للبغض. أما نحن، فالوقت لكليهما: البغض والحب. وجدت ثمت اجتماعاً كبيراً، فلا شجرة، ولا شجيرة، على امتداد ميل، إلا وهناك رجل أو امرأة يستندان إليها. كانوا يغنون بتحد، وكان صوتهم الواحد كهزيم الرعد:

وأنتم يا خونة شعبكم

إلى أين تهربون

حين يجتمع شجعان الوطن؟

إن كينيا أرض الشعب الأسود.

انفطر قلبي، لكن عيني ظلتا بلا دمع، مع أني أحسست حرقة الدموع. ذهبت إلى أقرب شجيرة، فاندفق مني الإسهال والبول. الأصوات ما تزال تتعالى حولي:

إلى أين يفر الخونة

حين تنجاب الغيوم؟

ويعود الشجعان؟

إن كينيا أرض الشعب الأسود.

«ألقي القبض على ددان، سلمه إلى أعدائنا، أشقاؤنا أنفسهم، عشاق كروشهم، واكاماتيمو. لتلعن أسماؤهم إلى الأبد، مثل اسم يهوذا... مثلاً لما يجب أن لا يكونه أطفالنا. نحن الآن بانتظار نتيجة المهزلة التي سموها محاكمة. كل محاولات وخطط إنقاذه فشلت. كانت الحراسة مشددة على المستشفى الذي يرقد فيه، بالسيارات المصفحة، والفرسان، والمشاة، والدراجات النارية التي تجوب الشوارع، والطائرات النفاثة التي تحوم في السماء. كانوا حقاً مرتعبين من إله أفريقيا... الذي قد يتدخل من مكانه الأعلى! ويقال إن حفلة أقيمت، قذلك الأسبوع، في كل بيت لمستوطن أوروبي، ابتهاجاً بانتصار الكولونيالية الموقت على النضال التحرري. لكننا في الجبل، جلسنا ننتظر جواسيسنا المرسلين إلى نييري. كنا نتوقعهم في أي يوم، في أي لحظة.

وحين عادوا، أخيراً، مبكرين في صباح اليوم الرابع، لم نكن لنحتاج إلى كلمات ينطقونها: كيف أقولها لكم؟ تعلمون ما يجري في الموت المهم. الجو حار وغير حار. بارد وغير بارد. طير وحيد يحلق في السماء. أنت لا تعرف إلى أين يمضي، لأنه يمضي إلى لا مكان. عدنا جميعاً إلى مواقعنا، مصممين على مواصلة القتال والنضال، لكن الأمور لم تعد كما كانت... أيها الأصدقاء... لم تعد كما كانت».

3* لم يعرفوا ذلك، لكن تلك الليلة ستكون قمة رحلتهم الأسطورية عبر السهول. حقيقة أن مأثرة عبد الله، كما سموها، قد بعثت فيهم حياة جديدة وعزماً، إنهم ساروا في اليوم التالي، رغم الشمس التي بدأت تلهبهم مبكرة، بقسوة أشد، وكأنها تختبر قدرة احتمالهم حتى النهاية، رغم شجيرات الأكاسيا والليليشوا والصبار المتهافتة أمام هذه الشمس، ساروا بخطى سريعة كأنهم يعرفون رغبة الشمس السرية، وصمموا أن يبلغوا غايتهم مرفوعي الرؤوس. لقد جعلتهم حكاية عبد الله يدركون علاقة جديدة بينهم وبين الأرض التي يطأونها: الأرض، حشيش المرام، الأغابانثا، والصبار، كل شيء في السهول... مرت عليه أقدام أولئك الذين قاتلوا وقتلوا من أجل حرية كينيا: أليس في نفوسهم شيء، روح من أولئك الناس، أيضاً؟

الآن، حتى هم، أهل المووروغ، لهم صوت في بيوت الحكم والامتياز. وسوف يلتقونه، قريباً، الليلة. غداً، يوماً، في نهاية رحلتهم، وجهاً لوجه. وستكون المرة الأولى التي يطلبون فيها رحلتهم، وجهاً لوجه. وستكون المرة الأولى التي يطلبون فيها شيئاً منه، وقد شعروا، بطرق مختلفة، بهيبة وجدة العمل الذي أقدموا عليه. تذكر بعضهم، متشككاً، إنه وعدهم في الحملة الانتخابية الأخيرة، وعوداً كثيراً من بينها الماء والطرق الجيدة. حذرهم من أن

الأمر يتطلب وقتاً وفكروا: ربما لم يزل في مفاوضات طويلة مع حكومة كينياتا. كما تذكروا بطولة عبد الله في الماضي، وأمس أيضاً ـ كما كانوا محظوظين لأن الله أرسل إليهم عبد الله، وانجا، منيرا، كاريغا ـ ساروا، وعيونهم مثبتة في أماكن حياة مختلفة بالمورورغ، إن لم تكن لهم، فلأبنائهم في الأقل. حتى أنهم وضعوا أغنية في مديح عبد الله، منيرا، وانجا، كاريغا، تتناول أيضاً آمالهم ورؤاهم. لكنهم في الأيام الثلاثة التي تلت، غدوا أكثر هدوءاً واستكانة. وبعضهم، بقيادة نياكينيوا، عبروا مرة أو مرتين، عن تذمرهم من رحلة متعجلة تمت بنصيحة من الأطفال. تذكر كاريغا تحذير وانجا قبل بضع ليال، فتجنب عينيها. هم الآن بدون طعام، وبدون ماء.

في إحدى المراحل بلغ منهم العطش مبلغه، حتى كاد يهدد إرادتهم في المسير: عبد الله، قادهم إلى موضع كان يجري فيه جدول يوماً ما، فأخرجوا بعض الحجارة، وقلبوا بعض الصخور، ووضعوا ألسنتهم على الجوانب التي لا تبلغها الشمس، كي يبردوا نار ألسنتهم. لم يصادفوا قطعان غزلان في طريقهم. فقط أحشاء ظبي ميت قبل حين.

اعتلى الأطفال العربة ـ وفكروا بأنهم محظوظون لأنهم أتوا بالحمار، حتى لا يحس الأطفال بأسنان الرمل وأشواك العشب ـ وواصلوا رحلتهم، والصقور والجوارح تحلق عالياً فوقهم، ربما آملة...، نياكينيوا كانت تشجعهم. «لا تيأسوا، وقد بلغتم أكثر من نصف الرحلة».

فجأة، في صباح ما، وصلوا إلى قاع الهلال، ووديان الجروف، وبداية حزام أخضر من الدغل المتناثر وأشجار الغابة.

ارتاحوا، منهكين... لكن فخورين بالأميال الكثيرة التي قطعوها كي يخلفوا السهول الشاسعة وراءهم. شدة واحدة، شدة واحد، وتتزحزح الصخرة... شجعتهم نياكينيوا بعد أن استراحوا قليلاً، مشيرين إلى أنهم قد يجدون ماء وفاكهة برية في المخدرات. من أين استمدت القوة، هذه المرأة العجوز، التي رفضت، مثل عبد الله، ركوب العربة؟

كان فريق مساحين، قد شق نوعاً من طريق يتلوى خلال الدغل والشجر على جانب المنحدرات. وعلى كل جانب من الطريق شقت إدارة الغابات ممرات، هي أحزمة بلا شجر، كي توقف انتشار حرائق الغابات. استأنفوا رحلتهم على هذا الطريق، وقد تجدد أملهم وإيمانهم. وبعد ميل أو نحوه حلوا في واد قال عبد الله بوجود الماء فيه. ركعوا يشربون، بينما تعرى الأطفال ليغتسلوا. أما الكبار فقد اختاروا أماكن أكثر خفاء. كما وجدوا ليغتسلوا. كما وجدوا أيضاً ثمر العليق، والجوافة، وفواكه برية أخرى. كاريغا اهتم بالحمار الذي شرب وأكل بوحشية. وانجا جلست مع الأطفال. كانت وانجا، حين تسمع أصوات الأطفال تحسُّ بجرحٍ داخليٍ حاد، حتى تكاد تنفجر الدموع من أجفانها. إنها تحبهم حباً شديداً، وتود في تلك اللحظات أن تضمهم جميعاً، وتمنح كل صغار الأرض حليباً. اللهم اغفر خطايانا، ودع الأطفال يأتون إلي. أبعدت أصوات الصلاة المغمغمة في القلب، وحدقت ملياً في جوزيف، وهو الوحيد الذي لم يستحم. كان متعب الوجه، يتنفس بصعوبة، ويحاول إخفاء ألمه عنها. نهضت وتحسست صدره. كان ساخناً. استفسرت: «كم مضى على مرضه؟» أشاح بعضهم بوجودهم عنها، فأعادت السؤال.

قال أحدهم: «منذ أمس، وطوال الليل، لكنه قال لنا ألا نخبر عنه. أعني أنه لم يرد أن يزيد من تعبكم ومصاعبكم». تأثرت للسذاجة ـ حسناً، لنكران الذات هذا، وأسرعت إلى حيث كان منيرا وكاريغا وعبد الله يتحدثون. أعلنت ببساطة: «جوزيف مريض».

ذهبوا إلى حيث جوزيف. ثمت انضم إليهم نجوغونا ونياكينيوا ثم الموكب كله حين سمعوا بالأمر. نجوغونا وعبد الله ذهبا إلى الدغل حيث عادا بأوراق خضر وبعض الجذور. قدماها إلى جوزيف لمضمغها، لكن عبد الله أوضح أنه ينبغي غلي هذه الأوراق والجذور، وتغطية جوزيف كي يتعرق، فتخرج الحمى من مفاصله. لهذا، خير لهم أن يتحركوا، ويذهبوا إلى أقرب مزرعة طالبين المساعدة الطبية، أو مكاناً يعالجون فيه جوزيف هم أنفسهم.

أعادوا الحمار إلى الطريق، وربطوه إلى العربة. كان الطريق ما يزال شديد المرتقى، بالرغم من أن الطريق هو على امتداد السفح، لهذا كانت حوافر الحمار كثيرة الانزلاق. ساعد منيرا وكاريغا وانجا في دفع العربة، وظلوا هكذا، يلهثون ويعرقون، حتى بلغوا القمة، واتصلوا بالطريق المعبد. لولا مرض جوزيف، لتهللوا سعادة لرؤيتم المدينة الآن تحتهم. بل استطاعت وانجا أن تميز فندق هيلتون، ومركز كينياتا للمؤتمرات، مشرفاً في وسط المدينة.

اسرعوا منحدرين على الطريق، وكان الظلام يوشك أن يهبط حين بلغوا، أخيراً، أول مزرعة. كان كاريغا ومنيرا يوشكان أن يفتحا البوابة الحديدية حين خرجت إليهما امرأة أوروبية، وأخبرتهما بعدم وجود أعمال شاغرة، وأمرتهما بالخروج من المكان دون أن تنتظر ردهما. لم يكتم كاريغا ومنيرا ضحكهما وهما ينحدران على الطريق. «لم ظنت أننا جئناها، في المساء، نبحث عن عمل؟» تساءل كاريغا،

وأراد أن يقول شيئاً عن البيض، حين تـذكر كفاحـه هـو في المدينـة، فظل ساكتاً.

عند البوابة الثانية، اهتما بقراءة اللوحة أولاً، خفـق قلباهمـا أمـلاً. الموقر جيرود براون. وأعاد كاريغا قراءتهـا. كـانوا يفـضلون أفريقيـا، لكن رجل الله مهما كان لون بشرته، هـو نفـس طيبـة رحـيم عطـوف. أرسلوا كاريغا ومنيرا وعبد الله. وكانت سـاق عبـد الله المعطوبـة دليـل حسن نيتهم.

الممر المؤدي إلى البيت تسيجه مـن الجـانبين أشـجار سـرو دقيقـة التهذيب، ووراء السياج، تمتد فسحة ذات عـشب معـتنى بـه. وهنـا، وهناك، في هذه الفسحة الواسـعة، تنـهض صـنوبرة منفـردة، هـذبت أوراقها وأغصانها، وجمعت في هيأة مخـروط. وفكـر كاريغـا بـالعرق والطاقة والفكر الذي بذل على هذه الأشجار الجميلة، عبر الـسنوات. البيت نفسه كان بنغلاً ذا قرميد أحمر، وجملون حاد.

بغتة، اندفع كلبـان نحوهمـا. كـان نباحهمـا العـالي كافيـاً لإيقـاف المرء، ودفعه إلى الفرار. لكن رجلاً برز من خلـف صـنوبرة وأمرهمـا بالكف عن النباح. ظنوه حارساً. كان يرتدي بزة زرقاء، ويعتمـر قبعـة عليهـا عبـارة «حـراس الأمـان». ثم خـرج شـخص آخـر ذو ملابـس خضراء، وطربوش أحمر، ونطـاق أحمـر علـى محزمـه، وانـضم إلى الحارس الذي كان يمسك الآن بالكلبين الإزاسيين من طوقيهما.

قال الرجل ذو النطاق الأحمر، والذي يظهر أنه طبـاخ رب البيـت: «من أنتم وماذا تريدون؟». أما الحـارس فكـان يربـت علـى الحيـوانين السمينين، وفي الوقت نفسه يرفع عينيه، كأنه سـيكون في أتم الـسعادة حين يطلق هذين الوحشين على هؤلاء المتشردين.

«جئنا من مكان بعيد، ونريد رؤية مالك البيت. فنحن في مشكلة صغيرة».

قال الحارس: «قولوها، وإلا كانت مشكلتكم أكبر، أن لم تتبنوا ما تريدون سريعاً».

وأصر الرجل ذو النطاق الأحمر: «ولكن ماذا تريدون؟ أن الموقر براون يصلي الآن، وبعد صلاته يكون في مكتبه، ليهيّئ موعظة أو سواها. هو رجل مشغول جداً، ويكره أن يزعجه أحد».

ورد منيرا: «نحن نعاني متاعب، وثمت مزيد منا عند البوابة. لدينا طفل مريض. ونحن لا نبالي، أكيداً، بأن ننتظر السيد الموقر حتى ينتهي من صلواته».

«تستطيعون الدخول والانتظار في الشرفة»، ورمق كل واحد منهم بنظرة قاسية متفحصة. وبدا لكاريغا أنهم أهل للفرجة، بعد هذه الأيام العديدة التي أمضوها بلا استحمام ولا تغيير ملابس.

وقفوا في الشرفة. ومن هناك استطاع كاريغا أن يرى صفين من مساكن العمال ذات الجدران الطينية وسقوف الحشيش. بينما كان عبد الله، طوال الوقت، يفكر: ونحن قاتلنا لإنهاء الطرابيش الحمر، والأنطقة الحمر، من على أجسادنا. منيرا كان يتخيل أباه في صلواته الحارة.

وسرعان ما خرج الموقر، ووقف تماماً خارج الباب، ولم يكادوا يصدقون عيونهم. الموقر جيرود براون رجل أسود. توقف قلب منيرا عن الخفقان. لقد عرف الرجل، إذ رآه مرة أو مرتين في بيت أبيه. لكنه معروف في البيت باسم الموقر كاماو. جيرود براون كان اسمه المسيحي. وهو من أجل الشخصيات في الكنيسة الإنجليكانية، ومرشح محتمل لمنصب الأسقفية.

سألهم في صوت حاد ذي صرير: «كيف حالكم؟».

ردوا، آملين، وفي صوت واحد: «نحن بخير»...

واستمر منيرا: «فقط نحن في متاعب».

وقال كاريغا: «جئنا من مكان بعيد».

وأضاف عبد الله: «نحن ظمـاء جيـاع، ولـدينا طفـل مـريض عنـد البوابة».

«من أين جئتم؟».

قالوا ثانية بصوت واحد: «من الموروغ؟».

«المـوروغ! المـوروغ!»... كررهـا بـبطء، وهـو ينظـر إلـيهم مـن رؤوسهم إلى أقدامهم، ومن واحـد إلى آخـر. لـو أنهـم طلبـوا عمـلاً لاستطاع أن يفهم، لكن أن يطلبوا طعاماً، وهم القادرون جسمياً، كما يبدو! وتنهد شفقة لا غضباً.

«ادخلوا البيت!».

كان صوته مفعمـاً بـالعطف والـتفهم. فهـو كمـسيحي يعـرف أيـن موضع واجبه. وفكر منيرا، الممتلئ سعادة: قد أعرِّفـه بنفـسي. كانـت غرفة الجلوس واسعة جداً، والزوجة الضخمة، التي لاحظ مـنيرا أنهـا تشبه أمه، جالسة على أريكة، قرب النار، وهي تحوك. ألقـت علـيهم نظرة سريعة، وسألتهم إن كانوا بخير، ثم عادت إلى شغلها. وقربهـا، عند الحائط، كـان رف كتـب داخـل الزجـاج ملـيء بانـسكلو بيـدات الأطفال ذات الحـروف المذهبـة، والأناجيـل مـن مختلـف الأشـكال والألوان. فـوق رف الموقـد، عبـارة مـؤطرة بالخـشب، خلـف وجـه زجاجي: المسيح رب هذا البيت، المستمع الـصامت لأي حـديث في

أي وجبة. وعلى جدار آخر صورة مؤطرة للملك نبوخذ نصر، عارياً، أشعر، على أربع كالحيوان، وكلمات الوعيد مطبوعة تحت الصورة. والباقي، صور فوتوغرافية للموقر مع شخصيات بارزة كثيرة.

تنحنح منيرا استعداداً لتقديم نفسه، لكن الموقر بعد أن أخذ كتاباً من الرف، سألهم الانضمام إليه في الصلوات. صلى للفقراء في الروح، لمعطوبي النفس، للمتشردين بلا عمل، ولكن الجياع الظماء لأنهم لم يأكلوا، البتة، الخبز، ولم يشربوا الماء من نبع يسوع. صلى لكل شيء، ولكل أحد، تحت الشمس، ومس صوته نعومة في قلوبهم. أتم الصلاة.

تنحنح منيرا، ليقدم نفسه، لكن الموقر كان قد فتح الكتاب: وصعد بطرس ويوحنا معاً إلى الهيكل في ساعة الصلاة التاسعة. وكان رجل أعرج من بطن أمه يحمل. كانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذي يقال له الجميل ليسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل. فهذا لما رأى بطرس ويوحنا، مزمعين أن يدخلا الهيكل سأل ليأخذ صدقة. فتفرس فيه بطرس مع يوحنا وقال انظر إلينا. فلاحظهما منتظراً أن يأخذ منهما شيئا. فقال بطرس ليس لي فضة ولا ذهب ولكن الذي لي فإياه أعطيك. باسم يسوع المسيح الناصري قم وامش.

جلسوا صابرين، أثناء التلاوة، والموعظة التي أعقبتها، ظانين أنها تمهيدات ضرورية، وإن كانت طويلة شيئاً ما: لكن... ماذا كانوا يتوقعون من ممثل كنيسة؟

«ما يتحدث عنه الكتاب ليس مرضاً جسمياً، بقدر ما هو حالة روحية. لاحظوا أن الرجل لم يدخل الهيكل إلا بعد شفائه من عرجه الروحي. لم يسأل ثانية، أبداً. الكتاب، إذاً، ضد حياة العطالة والتسول، هذا هو الغلط في هذه البلاد. يبدو أن أغلبنا يفضلون حياة

التشرد والتسول على حياة الكدح والعرق. ومنذ اللحظة التي أكل فيها الإنسان فاكهة المعرفة بإهمال تام، وتحد، لإرادة الله وأمره، أخبره الله أنه، سيكد ويشقى، وأنه لن ينال شيئاً بلا مقابل، لن ينال المن التي أنزلها الله. حتى أولادي، حين يأتون من المدرسة الداخلية في ليننانا، ونايروبي، المدرسة الكينية العليا، ومدرسة ليمورو للبنات، أجعلهم يعملون: يقطعون الحشيش، ويهذبون الأسيجة، ويطعمون الدجاج، كي يكسبوا مصروف جيوبهم. أما عن الطفل المريض (ولماذا لم تدخلوه؟) فقد صليت من أجله. اذهبوا بسلام، وآمنوا بالله».

«لكن يا سيدي الموقر...» حاول كاريغا أن يقول شيئاً، فلم يستطع.

«نحن نحتاج... نحن نحتاج فقط...»عبد الله أيضاً حاول، لكن شيئاً أغلق حلقه.

أما منيرا، فقد بهت، حتى لم يكد ينطق. كان مبتهجاً في نفسه، لأنه لم يعرّف الموقر جيرود على شخصه. نهضوا لينصرفوا، لكن كاريغا لم يستطع إلا أن يلتفت حوله، ويتلو مقطعاً يعرفه:

وبعد ساعات كثيرة تقدم إليه تلاميذه قائلين الموضع خلاء والوقت مضى. اصرفهم لكي يمضوا إلى الضياع والقرى حوالينا ويبتاعوا لهم خبزاً. لأن ليس عندهم ما يأكلون. فأجاب، وقال لهم أعطوهم أنتم ليأكلوا. فقالوا له أنمضي، ونبتاع خبزاً بمئتي دينار، ونعطيهم ليأكلوا. فقال لهم كم رغيفاً عندكم. اذهبوا وانظروا. ولما علموا قالوا خمسة وسمكتان. فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر. فاتكأوا صفوفاً صفوفاً مئة مئة وخمسين خمسين. فأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك ثم كسر الأرغفة وأعطى تلاميذه ليقدموا إليهم. وقسم السمكتين للجميع. فأكل الجميع وشبعوا.

قال الموقر بجلال: «ها هي ذي يا بني... خبز يسوع وسمكه!».

عاد الثلاثة خائبين، يشعرون بالمرارة، إلى الجماعة المنتظرين عند البوابة. لم يعرفوا كيف يعلنون النبأ، لكن وجوههم وصمتهم، قالت كل شيء. قال عبد الله: «لنجرب بيتاً آخر. وعلينا هذه المرة أن نتجنب الأوروبيين ورجال الدين» انضمت وانجا إلى كاريغا، وسألته عما حدث. انفجر كاريغا بالضحك فجأة. «هل تتذكرين الترنيمة التي غنيناها في بداية الرحلة؟ وتلا الكلمات: جياع ظماء أولئك الذين لم يأكلوا خبز يسوع. أتعرفين أن ابن الكلب المقدس هذا لا يستطيع أن يقدم لنا إلا غذاء الروح: خبز يسوع وسمكه؟».

* * *

اجتازوا عدة بيوت لا يعرفون أيها يختارون للدخول. معظم البيوت ذات أسماء آسيوية وأوروبية، فهذه المنطقة من أجل مناطق الزراعة والسكن حول المدينة. أما بالنسبة لوانجا، فإن هذه المنطقة قد أعادت ذكريات مزعجة عن تجربتها تلك في المدينة، ولم ترد أن تغامر في الدخول بأي بيت. توقف منيرا، عامداً، وأخذ قلبه يخفق. قرأ الاسم قبل أن ينادي كاريغا. قرأ كاريغا «رايموند جوي»، ونظر إلى منيرا.

أخبره كاريغا: «لن أصحبك، سأظل مع الآخرين أنتظرك».

قال منيرا مبتهجاً: «جيد... جيد... أتعرف أنه كان زميلي في الصف... لاعب عظيم... أوه يا صديقي... أنت تعرف... لقد تحدثنا أنا وأنت كثيراً عن... طردنا من سيريانا معاً... رفيق في الاحتجاج، أنت تعرف».

ذهبت وحده. ثمت في الساحة سيارات كثيرة. استطاع منيرا أن يرى، من خلال النافذة، العديد من السيدات اللواتي يرتدين الفساتين

الطويلة، ويمسكن بالكؤوس، ويتكلمن بأصوات عالية. بدأت جماعة تغني أغنيات محلية. كانت الأصوات نسائية:

بطاطا حمراء /في أي محل تقشر؟/ تقشر في محل نغينا/ نحن بانتظارها لتأخذ المفتاح/ صغارنا يتكلمون الإنجليزية/ يعيش! لنا الوظائف العليا.

أما الرجال، فقد أخذوا يغنون مقاطع من أغان تردد عادة في الختان:

يقولون ظلام/ يقولون ظلام/ لكني ما أزال أرى/ تلال تومو تومو/ أوه... نعم يا واينانغا/ هراوة كبيرة/ هراوة كبيرة/ لتجذب فك الفرج/ أو.. نعم يا واينانغا/ فرج ذو أوراق موز/ فرج ذو أوراق موز/ أو... نعم يا واينانغا.

ثم ينفجرون ضاحكين مصفقين، لجسارة أصواتهم. كان معهم أيضاً قليل من السواحليين والإنجليز. كانت حقاً حفلة ثقافية مختلطة، وفقد منيرا شجاعته. وقف فقط عند الباب متردداً، إذ أحس الآن بجسمه المنتن، وشعره المنفوش، وثيابه الموحلة القذرة، وفي الوقت نفسه كان يفكر بهذا اللقاء الاجتماعي لعدد كبير كهذا من ممثلي الجماعات المختلفة: لكن بالأمس فقط، قبل حوالي ستة أشهر، كان الشغيلة البسطاء يؤدون قسماً لحماية: ماذا؟ الأصوات المغنية؟

فتح الباب من الداخل، ووقف منيرا مغموراً بالضياء، وجهاً لوجه أمام سيدة مصبوغة الشفتين، ذات شعر أفريقي مستعار ضخم، وأساور، وقلائد على كل عنقها ويديها. لم يكن لديها وقت لرؤية البقية. فالسيدة بعد ذهولها المباغت، تمالكت صوتها، وأطلقت صرخة عالية تجمد الدم في العروق، قبل أن تسقط على الأرض،

مغشياً عليها. تجمد منيرا لحظة. ثم سمع وقع أقدام مهرولة، وصوت زجاج يتهشم. لقد جاء جوي وأصدقاؤه لنجدة السيدة. ربما تناوشوه بالضرب قبل أن يستطيع لحاله شرحاً. انهارت شجاعته تماماً. لن ينتظر... لن يستطيع انتظار النتائج. انسل في الظلال، وجرى بقدر ما تستطيع ساقاه. قفز عبر السياج الخارجي. لم يدر منيرا كيف ومن أين أتته هذه القوة. التحق بالآخرين وحثهم على التحرك، والإسراع على الطريق. سمعوا وراءهم إطلاق رصاصة في الهواء، فعرفوا دون أن يخبرهم منيرا، أنه تورط في كارثة أخرى. اقترح عليهم منيرا: «لنذهب رأساً إلى المدينة، لا فائدة في دخول أي من هذه البيوت، فهي سواء» وافقه عبد الله: «كما أن الوقت متأخر على كل حال». لكن حمى جوزيف اشتدت، وصار الجميع يسمعون آهاته وأناته. وأحاطوا به. إنه يتكلم مع نفسه الآن، مستذكراً مشاهد وأشياء من ماضيه الذي لا يعرفه إلا عبد الله. كان يصرخ، ويبكي ويضحك ويشكو: «لي... لي... ذلك... ذلك... العظم.. أنا جائع... وحق الله... لم آكل شيئاً البارحة.. لا تضربني... أرجوك لا تضربني». توقف. وهو الآن يتكلم مع شخص، مجيباً عن أسئلة تتعلق به: «سأنام في حفرة الليلة... أحياناً أنام في سيارة محطمة مهجورة... نعم... نعم... في الغابة أيضاً» شهق، يريد التنفس، واستغاث مرة أو مرتين بأمه. لكنها لم تكن هناك. لم تستطع وانجا أن تتحمل. لقد عضت الآهات في أمومتها المتعطشة. وهي التي اقترحت أن تدخل البيت التالي. عرضت نياكينيوا أن ترافقها، لكن الآخرين احتجوا، خوف كارثة أخرى قد تستلزم هرباً سريعاً. عرض كاريغا وعبد الله أن يمضيا معها، لكن ارتؤي أن يظل عبد الله إلى جانب جوزيف. إلا أنهم حثوا نجوغونا على مرافقتهم، فإن كبر سنه دليل جيد على حسن نواياهم. أما منيرا، فلم

يتماثل بعد، إثر صدماته الثلاث السابقة. لهذا قرر البقاء، وانتظار مهمة وانجا الأخيرة.

لكن البعثة أحبطت حتى قبل أن تقترب من البناية الأولى. إذ طوقها سبعة رجال، بدون صوت، من كل جهة، ممسكين بأذرعهم، ثم رابطين إياهم خلفهم. احتج كاريغا، لكن الرجال الذين قبضوا عليه، لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء الإجابة. فقد أضاؤوا المشاعل في وجوههم. وقال أحدهم: «توجد حتى امرأة بينهم»، ثم دفعهم إلى الأمام. أخذوهم إلى غرفة في بيت كبير، وأغلقوا عليهم، في الظلام. كان الأمر كله غامضاً إلى حد أنهم ظنوا أنهم في منطقة خارجية. وهذا ما كان يفكر به نجوغونا حقاً: كنت سعيداً في الموروغ. قال بصوت عال: «ما معنى هذا؟ كيف يجرؤون على حبس رجل شيخ، أبيهم؟ أهذا الذي حدث لأبنائنا؟ أهكذا تحولوا بعد أن غادروا الموروغ؟».

قبل أن يجد كاريغا ووانجا، ما يجيبان به، أو يقولانه، اشتعل الضوء فجأة، فبهرت أبصارهم لحظة، لكنهم بعد ذلك نظروا حولهم، فلم يجدوا سوى وجوههم الخزيانة. مرت بضع دقائق من الصمت. سمعوا من يحاول فتح الباب. نظروا إلى الباب متوقعين شيئاً. فتح الباب، ودخل سيد في بدلة داكنة، وربطة عنق ذات أزهار، ووقف أمامهم. التقت عينا وانجا بعينيه لحظات قليلة، وأخذ يتفحص أحدهما الآخر في صمت. لم يلاحظ نجوغونا وكاريغا الدراما الصغيرة. نظر السيد الآن إلى نجوغونا وكاريغا قبل أن يستدير ثانية إلى وانجا، التي كانت تنظر الآن بعيداً، أبعد من الرجل، أبعد من الباب، إلى مكان ناء، إلى بقعة أخرى.

قال في أدب متكلف: «آسف لأن عليّ أن أدعوكم إلى بيتي بهذه الطريقة، لكنكم قد تعرفون الازدياد في حوادث السرقة والعنف، في

هذه الأماكن. يجب على المرء اتخاذ الاحتياطات اللازمة. الوقاية خير من العلاج. هل تعرفون... حتى الماساي موران يحبس أحياناً المواطنين المسالمين الطيبين حين يجيئون مطالبين بأبقارهم؟ لا... يجب أن نكون حذرين، ولا نقصد إيذاء أحد. والآن، كيف أساعدكم؟».

احتج نجوغونا: «كيف تجرؤ أن تعامل شيخاً هكذا؟! أهكذا تعامل أباك، وهو الرجل الذي شاب شعره؟».

«لو كان أبي حياً، لما أزعج الناس وطمأنينتهم في مثل هذا الليل. على أية حال، عليك أن تشكر شعرك الأشيب، وهذه السيدة، لأنكم لم تقتلوا رمياً بالرصاص».

شرح كاريغا الحال بأفضل ما يستطيع. حتى لقد أشار إلى غايتهم من زيارة المدينة.

«سعادة نائب الموروغ؟ السيد نديري وا ريرا؟ أعرفه. صديق لي. أترى كيف تتبدل الأمور أيها الشيخ، لهذا لا تذكر بالسوء أحداً. أنت لا تعلم أين سنلتقي غداً. الآن، السيد نديري وا ريرا. كنا مختلفين قليلاً. كان... إيه... إيه... يسمى مناضلاً في سبيل الحرية، هكذا، كان عضواً في الحزب، واعتقل. أما أنا... فهل أقول إن نظراتنا كانت مختلفة تماماً؟ اليوم، نحن صديقان. لماذا؟ لأننا أدركنا، سواء أكُنّا في هذا الجانب من السياج، أو ذاك، أو كنا جالسين ببساطة، بعيدين، فإننا نناضل من أجل الغايات ذاتها. أليس كذلك؟ نحن جميعاً مناضلون في سبيل الحرية. على أي حال، أنا والسيد نديري صديقان حميمان. لدينا أشغال مشتركة. هل ذهبتم إلى الشاي؟ سأخبركم شيئاً. بعض حفلات الشاي أقيمت هنا. كلنا أعضاء في الـ م.ث.ك وبعضنا استطاع أن يستدين قليلاً ـ هل نقول آلاف؟ ـ من الأموال التي جمعت

في هذه الاحتفالات. أنا عضو مدى الحياة في الـ م.ث.ك. وكذلك نديري. أنا أقول لكم هذا لأبين أن نديري ليس غريباً عني. لكنه لم يخبرني عن جفاف، دعك من المجاعة، في الموروغ! أنا متأكد من أنه كان سينظم حملة عون ذاتي هناك ـ أنتم تعرفون، المساعدة الذاتية ـ له أصدقاء كثيرون ـ وكانوا سيساهمون. الإحسان يبدأ بالبيت، ها! ها! ها!».

قاطع نجوغونا ضحكته: «هل لك بتقديم بعض الإحسان، فتقطع هذه الحبال؟» تعجب كاريغا من حُب هذا الرجل للكلام. كأنه يجهد للتأثير فيهم. لكن لماذا يستعرض نفسه، أمامهم، وهم السجناء؟ لماذا؟

«شيخ قوي الروح. سأرسل بعضهم» وغادر الحجرة دون أي كلمة. نظر كاريغا إلى نجوغونا ووانجا كليهما. لقد استحالا تمثالين. زحف إلى الباب وحاول فتحه بقدمه. كان مشهداً غريباً في فيلم ميلودرامي أو رواية... فيلم مخيف. كان الباب مغلقاً، والتجربة لم تكن مخيفة إلى هذا الحد. بعد بضع دقائق جاء الرجل الذي أغلق الباب. كان وجهه أكثر ليناً، كأنه كان يريد أن يقول شيئاً لهم جميعاً، ثم بدل رأيه. قطع الحبال، وقال إن السيد يريد أن يرى السيدة. تحرك كاريغا يريد مرافقتها. لكن الرجل قال: السيدة فقط. استيقظت وانجا من ذهولها التمثالي، وعضت شفتها السفلى، وتبعته خارج الحجرة، بقلب مرتجف وذهن يحاول التوصل إلى قرار. سارا عبر ممرات عديدة: كان منزلاً ضخماً. أدخلت إلى حجرة الرجل التي تشبه المكتب.

وقف حين دخلت، وأغلق وراءها. أشار إلى كرسي، لكنها رفضت الجلوس.

«هل لي أن أجلس؟ أخيراً يا وانجا، أخيراً» قالها في نبرة بين السؤال والبيان.

«لِمَ تفعل هذا بنا، برجل عجوز، بطفل مريض حد الخطر؟».

«أتظنين أني صدقت حكايتك يا وانجا؟ أرسلت اثنين من رجال إلى البوابة ليدخلوا الآخرين. سأساعدهم جميعاً من أجلك. لكنهم لم يكونوا هناك».

«ليس صحيحاً. أنت تكذب. إنهم هناك مع عرفة ذات حمار».

«لا أريد أكاذيبك الصغيرة يا وانجا، ربما ظننت هذا المنزل بيت شخص آخر. ربما جئت لزيارة صديق. ذلك لأني رأيتك مندهشة من رؤيتي. لن أوذيك ـ أخبريني، لماذا هربت مني؟».

«ألا يمكننا الحديث عن شيء آخر؟ لقد حطمت حياتي مرة. ألا يكفي ذلك؟».

«كيف؟ أنت التي هربت. سخرت فقط من كونك حاملاً. أردت فقط أن أختبرك، وأعرف إن كنت تقولين الحقيقة. قولي... ماذا حل بالطفل؟ أين هو؟ أكان ولداً أم بنتاً؟ ها أنت ترين أنني تزوجت امرأة لا تلد إلا أناث الأرانب». نظرت إليه بعينين قاسيتين. وثمت قسوة في قلبها. وقالت في نفسها، ستدفع ثمن كل هذا يوماً ما، ستدفع ثمن كل هذا يوماً ما. أما بصوتها العالي، فقد توسلت: «لماذا لا تتركني، لا تتركنا، بسلام؟ هل آذيناك؟ كنا نبحث فقط عن مساعدة طفل مريض».

وقف، وسار إلى حيث كانت واقفة. تحركت إلى جانب. كان هذا الرجل لا يكبر. هكذا فكرت وانجا، وكرهت نفسها لأنها تفكر هذا القدر به. اقترب منها. تراجعت أكثر. خطت على الأريكة. ضغط زراً

فانبسطت الأريكة فراشاً. «كيميريا! لو اقتربت مني فسوف أصرخ، لتسمعني زوجتك». حذرته، وهي تنظر إلى شيء كالسكين على الطاولة. توقف. نهضت، واتجهت نحو النهاية القصوى من الفراش. نهض، وثبت عينيه عليها. ثم ركع فجأة على ركبة واحدة، متوجهاً إليها وهو يتكلم.

«زوجتي ليست هنا هذه الليلة، لكن المسألة ليست هذه. أنت ساحرة، أتعرفين ذلك؟ ساحرتي. هلاّ عدت إلي؟ أستطيع أن أقدم لك شقة صغيرة لطيفة وسط المدينة. شارع موينددي مبنغو. أو شارع هيلاسيلاسي. أي مكان تختارين. وسأدفع الإيجار. لن تعملي شيئاً. اصبغي أظافرك فحسب. أو انتظري. تستطيعين الالتحاق بكلية للسكرتارية. هناك العديد منها في المدينة. تحتاجين فقط إلى أن تتعلمي كيف تدقين. دق! دق! الآلة الكاتبة. آنذاك سأحصل لك على عمل. أنا أعرف بعض الناس. كينيا وطن الرجل الأسود، كما تعرفين. ماذا تفعلين، حقيقة، مع هؤلاء الناس الذين يبدون طريفين؟ ماذا تفعلين في الموروغ؟ أحبك، يا وانجا. كأن المتاعب والسنين لم تؤثر في جمالك».

جلس بجانبها، وحاول أن يطوقها بذراعه.

«اترك ذلك، يا كيميريا»... ثم دفعته عنها بكل قوتها، وفي الوقت نفسه أحست بنوع من الوهن في بغضها الحاد.

«لِمَ لا تستطيع أن تتركني وحدي؟ كيف تقدر ـ لكنك كنت دائماً هكذا ـ بدون مشاعر ـ أنت لا تهتم إلا بعضوك، وبسلطة الانتصار الفوري».

وثبت فجأةً وأمسكت بالسكين. فنظر إليها، والخبث في وجهه. كان صوته الآن صلباً قاسياً.

«أهذا كل ما تستطيعين أن تقوليه وتفعليه؟ بينما قدمت لك كل شيء؟ اسمعيني، إذاً. لن تغادري هذا البيت حتى آذن أنا. أستطيع أن أرفع هذا الهاتف، فيلقى القبض عليكم جميعاً، وتوجه إليكم تهمة التعدي على الممتلكات الخاصة في «بلوهلز». ويمكن أن تظلي موقوفة مدة ستة شهور. وكل ما نحتاجه هو أن نجعلك تظهرين أمام المحكمة بين وقت وآخر، مجاراة للعدالة، فنحن مواطنون نحترم القانون. لم تعاملني امرأة، قط، كما فعلت. تهربين، وتختفين عني. أوحش أنا؟ وتجرؤين على رفع سكين علي؟ الآن، وقد ساقك القدر إلى بيتي، لن أدعك تخرجين، حتى تتمددي، مرفوعة الساقين، على ذلك الفراش. عليك أنت أن تختاري، والحرية لي... أمنعها أو أمنحها. اذهبي».

دق جرساً، فأخذوها إلى الآخرين. ذهبت إلى زاوية، وجلست مواجهة الجدار عاجزة عن الكلام أو البكاء.

سألها كاريغا ونجوغونا عما أراد الرجل. فاكتفت بهز كتفيها. فتح الباب، ونودي على نجوغونا. خارج الغرفة استمع نجوغونا. خارج الغرفة استمع نجوغونا إلى رسالة من الزعيم. كانت وانجا زوجة سابقة للسيد. هربت إلى الموروغ، والآن ترفض فراش الرجل. عاد نجوغونا وهو ينظر متسائلاً إلى وانجا.

شرح نجوغونا الأمر، بالمهارة التي يستطيع، مبيناً لهم الآفاق القاسية التي تنتظرهم.

«كلا» صاح كاريغا حين درك ما ألمح إليه نجوغونا من مراد الرجل.

أصر نجوغونا: «هل يموت طفل.. هل يموت جوزيف.. فقط بسبب... بسبب... ثم إنها... بطريقة ما زوجة الرجل».

اعترض كاريغا بقوة: «لكنها لا تعرف الرجل، التقت به، مثلنا، هذه الليلة، للمرة الأولى!».

قال نجوغونا باقتناع المنتصر: «دعها تنكر الأمر».

سألها كاريغا، وانتظر جوابها: «أصحيح، يا وانجا، أصحيح؟».

لكنها ظلت على جلستها، كأنها لم تسمع السؤال. إن ما يؤلمها أكثر، ليس أكاذيب الرجل، ولا موقف نجوغونا، حتى ولا سؤال كاريغا، وإنما ما قاله نجوغونا عن احتضار جوزيف. ستكون مسؤولة عن موت آخر لا يمت لها بصلة. التفتت إلى أصل الرحلة. ربما كانت الملومة. لو لم تقترح هي دخول البيت، ولو امتثلت للرأي القائل بمواصلة الرحلة.. لو لم تزل في صباها.. لو... لو... الكثير من «لو»... وكلها تثقل عليها.

ماذا تراها فاعلة؟ أتستسلم لرجل تكرهه، ولم يمر على قسمها الخاص حتى ستة أشهر؟ إن لم تفعل، ومات جوزيف... ونياكينيوا والآخرون... في البرد... والجوع... والعطش... الجفاف في المووروغ... البعثة الفاشلة... لا إنقاذ... مزيد من الموت... ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ أواجه مذلة جديدة؟ ودت لو أخبرت كاريغا كل الحقيقة عن ماضيها.. فربما ساعدها في حل مأزقها... رفعت رأسها، ونظرت عميقاً في عيني كاريغا.

«نعم, نعم»... همست، ثم وقفت، واتجهت إلى الباب. للحظة، ظل كاريغا ساكناً بلا حراك، ينظر في جلسته إلى البقعة نفسها: ماذا يصدق المرء؟ ماذا يصدق المرء الآن حقاً؟ هز نفسه. وقف. ورأى أنه يسير نحوها، ويمسكها من يدها، وهي تهم بفتح الباب. أحست بارتجافة مخيفة في جسدها، ورفعت عينيها إليه، في ضعف وتوسل،

ثم أشاحت بعينيها عنه، منتظرة منه حكماً. أي شيء. أي شيء. إلا هذا المأزق الذي هو عارها أيضاً. قال منطفئاً قليلاً، بسبب الصمت المفعم في الحجرة: «لا أعرف أي شيء... ولكن... ولكن... أمن الواجب أن تذهبي؟»...

نظرت إليه ثانية، نظرةً قصيرة، ورأت الحدة المتراقصة في عينيه، وكادت تكرهه لشبابه وبراءته. كانت في تلك اللحظة واعية بالبرزخ الأخلاقي بين المعرفة والتجربة الذي يفصلهما، واستطاعت أن تنسل من البكاء.

أطلقت يدها، نافدة الصبر، منزعجة قليلاً، وفتحت الباب، ومشت إلى الخارج، بعد أن صفقت الباب بشدة، وراءها، بحيث خلف اهتزازاً، في الحجرة، وفي داخلها. يجب أن يموت. يجب أن يموت. هبط الصوت ثقيلاً. يجب أن يموت. الأمر بسيط. عذب بمرارة. أعاد إليها هدوءها وطمأنينتها.

تأوه كاريغا، مرة واحدة، وقد انسحب أكثر، إلى الزاوية. يجب أن يموت. قالها كمن يجيب عن سؤال وجهه شخص ما.

لو كان عندي نار، لأحرقت المكان كله. أجفل نجوغونا من الآهة، ومن القول، ونظر إليه، فوجده متكوماً، ثم نظر إلى الحائط. غمغم نجوغونا لنفسه: الشباب، الشباب. الصمت والعتمة يطوقانهما الآن.

4* أخيراً، في صباح الاثنين، وصل الوفد المدينة. كانوا يتندرون، ويضحكون لمشكلاتهم الجديدة، ودهشتهم المستمرة إزاء كل شيء: الشوارع، البنايات العالية، السيارات المزدحمة، وحتى الألبسة المتنوعة التي يرتديها الرجال والنساء في المدينة. من متاعبهم الكبرى عبور الشوارع. مرة، أو مرتين، ركضوا بكل سرعتهم، يعبرون

الشوارع، فتعالى الصرير من عجلات السيارات في توقف مفاجئ، وأخذ السائقون يشتمون: من هؤلاء الماساي؟ هؤلاء الدوروبو، وعربة حمارهم، يجب أن يمنعوا من دخول المدينة! لكنهم كانوا مبتهجين لأنهم بلغوا المدينة الشهيرة بعد كل تلك المصاعب. ومهما يطل الليل ينجل الصباح. كانت مكاتب صاحب السعادة نديري وا ريرا، نائب الموروغ وجنوبي روا ـ ايني، تقع في الطابق الثاني من بنايات أقبال أقلود، فيما كان يدعى شارع السوق، على مسافة قليلة من مطعم كاماي، وحدائق جيفانجي، انتظر الوفد الرئيس، في الحدائق، بينما ذهب كاريغا ومنيرا إلى المكاتب، ليروا إن كان سعادة عضو البرلمان، سيستقبل الوفد. السكرتيرة، ذات الشفتين المصبوغتين صبغاً ثقيلاً، والشعر المستعار، والتي وجداها تقلم أظافرها، نظرت إلى الرجلين من رأسيهما حتى أقدامهما، ثم جمدت قلبيهما المنتظرين: نائب البرلمان ليس هنا. ذهب إلى مومباسا. وينتظر وصوله في أي وقت. رأت الخيبة في وجهيهما، والأسى في عيونهما، وأحست لسبب ما، بالعطف: ألا يأتيان بعد الظهر، أو غداً؟ عاد كاريغا ومنيرا مكفهري الوجه والقلب إلى الآخرين: أين تراهم ينامون الليلة؟ لِمَ لَمْ يفكروا بهذا الاحتمال؟ لكن ماذا تراهم سيفعلون حتى لو عرفوا بالأمر؟

وجد كاريغا ومنيرا، الآخرين، في أزمة جديدة: لقد حجز الشرطة حمار عبد الله وعربته، بسبب تعطيل المرور، ورمي الروث في أحد الشوارع، وفي حدائق جيفانجي. لكن عبد الله شرح ظروف رحلتهم. فقال الشرطة إنه سيحتجزون الحمار حتى تكون الجماعة مستعدة للمغادرة. لم يكن كاريغا متديناً. لكنه شعر بأن الشيطان يطاردهم، ويطارد بعثتهم. لقد تحملوا سياط الجوع والعطش وقسوة أبناء

جلدتهم. والآن ينقلب الحظ حتى على الساقطين. نظر الناس إليه، هو مؤسس الرحلة، متوقعين منه أن يحل الأحجية. لكنه سأل نفسه بمرارة: ماذا عساي أفعل؟ ولم يخبرهم بالحقيقة الساطعة: إنهم سيبقون ويمضون الليلة في حدائق جيفانجي.

وانجا، هي التي أنقذتهم، ثانية.

كانت جالسة وحدها، كأنها منفصلة عن الآخرين، لكنها بالرغم من ذلك رأت وجه كاريغا المتألم المتأمل، غير البعيد عما يغلي في فؤادها ويضطرب، يقترب منها.

«اسمع يا كاريغا، كنت أخبرتك عن رجل، محام، في هذه المدينة. إنه... إنه مختلف عن أكثر الناس».

تشبث كاريغا، ممتناً، بهذه القشة، دون أي سؤال. مضى الاثنان، عبر الحدائق، إلى مطعم هندي قرب مسجد الخوجا. لو كان كاريغا في وقت آخر، لأحب أن يشاهد البناية، ويتصور الزاوية التي أوقف فيها أولي ماساي اثنين من رجال الشرطة الاستعماريين. أما الآن فثمت سؤال واحد لديهما: لو كان المحامي غير موجود؟ أدارت وانجا الرقم: كان صوته بالنسبة لها، بمثابة يد أخرى تمتد إليها، بعد ليلة من الرعب، فكادت تبكي. حاولت أن تشرح مشكلتها، لكنه لم يطل الكلام: لِمَ لا تأتي إلى مكتبه؟ أعطاها التعليمات وعين الحافلة التي تستقلها.

لم ير كاريغا، قط، مكتب محام، وحين كانت الحافلة تمضي بهما في شارع مبويا، وشارع نغالا، وشارع النهر، وشارع كاريوكور، ثم شارع بوموانى، ظل يتخيل الممرات المزعجة للسلطة والغنى. لكنهما انتهيا إلى جزء من المدينة ذي خطوط غير منتهية من سقوف الصفيح

والألواح. كان صف طويل من المراجعين ينتظر خارج حجرة صغيرة اعتبرت مكتباً. استقبلهما بحفاوة، ولم يدهش لرؤية وانجا ثانية.

«آه... السيدة الشابة»... ثم دعاهما إلى الجلوس على مصطبة. توقع كاريغا أن يرى شيخاً، ذا نظارات ثقيلة الإطار، وشعراً أشيبَ، وبدلة مخططة، وصداراً، وقبعة، ومظلة الى جانبه. لكنه شاهد رجلاً ربما كان في الأربعينيات، يرتدي قميصاً قصير الردنين، ورباط عنق بسيطاً. كان يبدو صغيراً على مهنة المحامي، وعلى جمهور المراجعين المنتظر. ولاحظ كاريغا بعد نظرة متفحصة، أن ثمة شيئاً من الإعياء والقلق في عينيه، المضطربتين بنور داخلي... وإنه مثقل بأعباء معرفة ضافية.

قال لها: «أنت لم تعودي إلى البيت». لكن صوته لم يكن يحمل ملاماً، أو اتهاماً... لكأنه يريد حقاً أن يعرف.

أجابت هامسة: «لا... لم أستطع».

«وكيف أستطيع أن أساعدك؟» تساءل، مشركاً كاريغا في الحديث، بنظرة منه. إن له طريقة في الحديث، تبدي الاهتمام والتقبل، وتيسر كلام المقابل، بحيث يشعر أن ما يقوله لن يستخدم ضده، في رقابة، أو لوم، أو سخرية، أو أي حكم مضاد. وهكذا أخبره كاريغا عن الجفاف في الموروغ، وقرارهم إرسال وفد إلى المدينة، والرحلة، حتى محنتهم الراهنة. استبعد وصف المصاعب. كل ما يريدونه الآن، مكان يبيتون فيه الليلة، انتظاراً لمقابلة النائب. غام وجه المحامي قليلاً: قرع الطاولة مرتين بأصابعه، وقال:

«أنتم ترون هؤلاء الناس المنتظرين في الخارج. أغلبهم جاؤوا من القرى، وهم يحتاجون إلى النصيحة في كل شيء، من أراضيهم

المهددة باستيلاء المصارف، إلى الحصول على هذا الكشك أو ذاك... إلى استرداد مال أخذه شخص منهم بعد أن وعدهم بشراء أرض في المرتفعات... كل ذلك! أتستطيع أن تتذكر محلي؟».

«نعم... إن عينت لي الحافلة التي أستقلها، أو الطريق الذي أتبعه».

«تأخذهم إلى هناك. ثمت حديقة خلف البيت. على أي حال لا يوجد بيت آخر بعد بيتي. أراكما في وقت آخر».

شعر كاريغا بارتياح هائل. لن يقضي الآن ليلة بين عيون متسائلة. لكن أي شخص غريب... إذاً ما يزال هناك بعض الناس في البلد... كان شاكراً لوانجا.

في الحافلة، حاول أن يقول هذا لوانجا، ثم غير رأيه، وأخذ ينظر إلى الأكواخ المتداعية، والأطفال العراة يلعبون في الأزقة الضيقة، وتساءل: أيهما الأفضل... الفلاح في قرية منسية، أو ساكن المدينة المرمي في أكوام القمامة هذه، التي تسمى مسكناً؟

لاحظت وانجا تردده، وتألمت له، إذ لمس جراحها التي لم تكد تبرأ، لكنها حاولت أن تفهم. إنه سيحكم عليها دائماً في ضوء امتحان المنزل. من أين لها أن تعرف أن القدر سيقودها، وجهاً لوجه، أمام ماض ظلت تهرب منه؟ فجأة أحست بالحقد: إنها تكره براءته: تكره العبء الأخلاقي الذي جعلها تتحمله حتى في الصمت. وماذا لو استسلمت؟. غمغمت كي تمنع دموعها... ماذا؟ ألم تتحمل ما يكفي في سبيلهم؟ إنها لم ترد حتى المجيء في هذه الرحلة؟ كان بيت المحامي في غربي نايروبي، في منطقة كانت في السابق وقفاً على الهنود وحدهم. كانت للبيت ساحة أمامية واسعة مرصوفة بالحجر، وجدران حجر، وحديقة صغيرة تحيطها أيضاً جدران حجر، في الخلف. بعضهم جلس في الساحة الأمامية، والآخرون في الحديقة.

جذور عبد الله وأوراق الكالبتوس نفعت: فقد غليت الجذور والأوراق، وغطي جوزيف ببطانية، حتى تعرّق، وشفي. وهو الآن يلعب مع الأولاد. إنهم سعداء لكونهم في نايروبي. وانجا مختلطة المشاعر والمواقف إزاء هذا المكان: فهو يذكرها بالخلاص والعار. ثم تذكرت لحظة عارها ومذلتها الأخيرة قبل ليلتين فقط، حين انضمت بعد عشر دقائق إلى كاريغا ونجوغونا. لقد سار كاريغا ونجوغونا ووانجا إلى البوابة، صامتين، لكنهم وجدوا الآخرين قد ذهبوا. وفجأة برز رجل من العتمة، وأمرهم أن يتبعوه. آنذاك انكشف السر:

كان صحيحاً أن الرجل قد أرسل رجلين إلى البوابة، ليتحققا من قصة وانجا وكاريغا. وبعد أن سمع الرجلان حكاية الناس التعسة، تشاوروا معاً. كانا يعرفان كم يستطيع أن يقسو سيدهما الذي يعرفانه باسم السيد هوكنز: فلقد سجن، مرة، لأسبوع كامل، رجلاً جاء المنزل مستفسراً فقط، وكان يقدم له الماء، حسب، طيلة الأسبوع. هكذا قررا أن يكتما وجود هؤلاء الناس. قادهم أحدهما إلى مساكن العمال، وعاد الآخر ليكذب كذبته. هناك أمضوا الأحد، وليلة الأحد، ليستأنفوا رحلتهم في الصباح. وطوال يوم الأحد، والليل، تحاشى كاريغا ووانجا بعضهما. حتى نجوغونا كان معتزلاً حزيناً.

كاريغا أيضاً كان يفكر بتجربة الليلتين الماضيتين، وسر ماضي وانجا. ما العلاقة الحقيقية بينها وبين السيد هوكنز ذاك؟ أبعد الفكرة. لكل شخص ماضيه السري. نظر إلى عبد الله الجالس مستنداً إلى الجدار. لقد انسحب إلى قوقعة، إلى عالم لا يخترق من العتمة والصمت. وقد تألم كاريغا للأمر: التبدل من صياد السهول الإله، وسيد البنادق والسكاكين والأعشاب والعناصر، الواثق من معرفته وحميميته بالماضي البطولي - إلى هذا الرجل العجوز المنكمش في

نفسه. ثم تذكر كاريغا أن الحمار محتجز لدى الشرطة، ففهم. شاهد وانجا تنسل من البيت، فتبعها إلى الشارع. هو وحده يعرف كم هم مدينون لها. أدركها، فسارا معاً صامتين على الطريق المعبد الضيق، خلف البيت.

قالت، فجأة، وبوحشية: «ابتعد، ابتعد عني». لكنه لم يفعل، وظلا يسيران، في طريق موهوهو، عبر شارع غادي، إلى طريق لانغاتا، باتجاه ثكنات لانغاتا. توقفت عند سياج، ونظرت إلى سهول بارك نايروبي. ووقف هو إلى جانبها، ينظر إلى تلال نغونغ البعيدة، ماثلة في السماء المضببة. ثم رأيا طائرة صغيرة تطير منخفضة... منخفضة. قالت وانجا «سوف تسقط، سوف تسقط». ثم رأيا طائرة أخرى، فثالثة، وتذكر كاريغا أنهما قرب مطار ولسون، المكان الذي يستأجر فيه السواح طائرات خاصة للقيام بمغامرة سريعة في الداخل لمشاهدة حدائق الحيوانات الوحشية، والعودة إلى المدينة قبل حلول الظلام.

قال مضطرباً، آملاً ألا تخطئ المعنى: «أردت، أردت أن أشكر لك كل ما فعلته».

«آسفة لانفجاري. إنني جد خجلى...».

فكر برهة.

«لا... لم تكوني وحدك... كان إذلالاً جماعياً». لم يعرف كيف يستمر، لذا حاول أن يكون كلامه عمومياً: «كلما أذل واحد منا وأهين، حتى لو كان طفلاً صغيراً، فإننا جميعاً نذل ونهان».

عاد المحامي إلى البيت بعد الساعة السادسة، جالباً معه علباً من طحين الجوغو، والحليب، وكذلك اللهانة. دعاهم إلى غرفة الجلوس

الكبيرة المستطيلة. هتفت نياكينيوا قائلة إن كوخاً يمكن أن يقام فيها: أي مضيعة! وضحكوا كلهم. بعض الأطفال بعض الأطفال ما يزالون يلعبون في الخارج، ويشاهدون الطائرات تنطلق نحو امباكاسي، لكن قليلين جلسوا مع الكبار. كانت الجدران مزينة بصور شي غيفارا بخصلات شعره التي تشبه خصلات المسيح وعينيه القديستين، وددان كيماثي وهو جالس بهدوء وكبرياء متحدية، ورسم لماغالولا يمثل متسولاً في شارع. وفي إحدى الزوايا تمثال خشبي لوانجو عن مناضل في سبيل الحرية. وقف عبد الله بضع لحظات أمام صورة كيماثي، ثم أخذ ينط عبر الحجرة، إلى الخارج. الآخرون أحاطوا بالتمثال، وعلقوا على شعر المناضل، وشفتيه الغليظتين، وضحكته الواسعة، والسيف المعلق من محزمه. ولكن... لم هذان الثديان؟ قال أحدهم: كأنه رجل وامرأة في آن: كيف يمكن هذا؟

أخذوا يتناقشون، حتى أسكتتهم نياكينيوا بمنطقها البسيط.

«لا يمكن أن يكون للرجل طفل بدون امرأة. ولا يمكن للمرأة أن تحمل طفلاً بدون رجل. أو لم يكن الرجال والنساء هم الذين قاتلوا فداء لهذا الوطن؟».

قال نجوغونا: «لكن الرجل أهم من المرأة، أليس الرجل هو الذي ينام... هـ م م م... هـ م م م... تعرفين أين؟».

سألت نياكينيوا المحامي لتبدل الحديث: «أين زوجة البيت؟».

«ذهبت إلى بلد آخر، كي تكون قابلة. لكني سأكتب إليها طالباً إسراعها في العودة، بعد أن صار لي فجأة زوجة ثانية وهذا العدد من الأطفال». ونظر بعينين متآمرتين إلى المطبخ حيث كانت وانجا تعد الطعام.

ضحكوا جميعاً، واندلع نقاش حول تعدد الزوجات.

قالت نياكينيوا: «ليس كل رجل قادراً على الزواج بأكثر من واحدة. عليك أن تدفع ماعزاً، وكانت الماعز ثروة في تلك الأيام. الأسرة الكبيرة فقط هي التي تفعل ذلك في الغالب».

كان كاريغا يفكر بأن المحامي جد مختلف الآن، عما كأنه في المكتب. فلقد زال عنه الإعياء. وأراد أن يوجه إليه أسئلة لكنه لم يعرف كيف يبدأ.

بعد تناول الطعام، أدخل المحامي، كاريغا ومنيرا إلى مكتبته، وسرعان ما انضم إليهم وانجا وعبد الله. ثمت كتب كثيرة، أكداس فوق أكداس، وكان يتصفح كل واحد منها بعناية وحب. وقد خجل منيرا من رفوفه شبه الفارغة. جلسوا على الأرض، وشرع المحامي، فجأة، يسألهم أسئلة دقيقة عن الموروغ، تاريخها، نائبها، ظروفها، وماذا يأملون أن يحققوا في هذه الزيارة. حاول كاريغا أن يشرح. لكنه أحس، أثناء الحديث، بالغموض الذي يلف المغامرة كلها. كما لاحظ عودة الإعياء إلى وجه الرجل، وتسلل الحزن إلى صوته وهو يقول:

«أظنه سيستقبلكم، بل يستطيع أن ينظم اجتماع مساعدة، كي يشتري الاطمئنان لضميره المعذب.. شيء من الإحسان...».

وقال منيرا: «نحن نتقبل بعض الإحسان، إلا أننا لم نلتق بأحد في هذه المدينة». ثم تحدث عن تجربتهم في بيت القسيس، وفي منزل جوي. «ما لم أستطع فهمه، هو تسابقهم الواضح لقول الكلمات البذيئة. يقولون إن الأغاني والكلمات وكل شيء، في الأيام السالفة، كانت في محلها ـ المغنون يتكلمون مع بعضهم، وحتى يشتمون بعضهم، لكن كانت ثمت هيبة في الأمر كله. عندما كنت صغيراً، اعتدت الاختفاء من المنزل، كي أشهد مهرجانات الختان».

سكت، وتساءل: ربما كان أحد أشقائه، أو أشقاؤه كلهم هناك. بينما أبوه جالس في البيت ينشد مدائحهم. كاريغا ووانجا يفكران بمحنة البيت. لكنهما لم يقولا عنها شيئاً. شرع المحامي يتحدث. كأنه مونولوجٌ مع النفس الداخلية، أما هم فليسوا سوى متفرجين على هذه المصارعة المكشوفة مع شكوكه ومخاوفه. «أمر محزن، ومؤذ، أغضب له أحياناً، وأنا أنظر إلى المخلوقات التائهة السوداء، إلى الكارتونات، ترقص رقصة سيدها، على صوت سيدها إنهم يفعلون هذا إلى درجة الكمال. لكنهم حين يسأمون هذا، أو حين نسأم نحن ذلك، يتحولون إلى ثقافة شعبنا، ويسيئون إليها... فقط للهو، بعد زجاجة شمبانيا. لكني أسأل نفسي: أي ثمرة أتوقعها أن تنتج من بذارنا؟ إنني أعود إلى الوراء، أنظر إلى الفرص الضائعة: في الساعة، واليوم، والفترة، حين سلكنا السبيل الخطأ، ونحن على مفترق الطرق. آه... كان زمناً للذكرى، حين كان العالم بأسره، لدوافع وتوقعات مختلفة، ينتظر ويقول: أولئك الذين بينوا لأفريقيا والعالم، طريق الرجولة والفداء الأسود، ماذا تراهم صانعين بالوحش؟ أولئك الذين غسلوا رماح المقاتلين بدم المستغلين البيض، بدم الذين استعبدوهم تحت سيطرة الوحش المسبوك من فضة وذهب... أي رقصة تراهم سيرقصونها في الحلبة؟ كان باستطاعتنا أن نفعل أي شيء آنذاك، لأن الشعب وراءنا. لكننا، نحن القادة، اخترنا مغازلة الآلة المسبوكة، ذلك الوحش الأعمى الأصم، الذي استنفدنا لمئات السنين. قلنا: الخطأ هو في لون بشرة الذين يخدمون هذا الإله: نحن سوف نروض الوحش ـ الإله، ونجعله ينصاع لإرادتنا. لكننا نسينا أنه كان دائماً أصم أعمى عن المظالم البشرية.

هكذا مضينا نبني الوحش، وكان ينمو، وينتظر المزيد، ونحن

الآن كلنا عبيد له. عند هيكله نركع ونصلي، ونأمل. واليوم انظروا إلى النتيجة... سكنة التلال الزرقاء، أولئك الذين أخذوا على أنفسهم أن يكونوا قساوسة الإله الأعمى، ألف هكتار من الأرض... مليون هكتار في يدي القسيس، بينما الرعية تئن من أجل هكتار واحد! يقال للرعية: ليس هذا إلا بعض عرقكم... لنكن عبيداً صالحين للوحش - الإله، لنعطه أرواحنا... والعشرة بالمائة معها... إذ يجب أن يأكل قساوسته أيضاً... وسوف نأخذها إلى تابعه، المصرف...

والآن، لنصل، فربما لاحظ الإله صدقنا وتولهنا، وسوف نحصل على بضع كسرات. في هذه الأثناء، يغدو الإله ضخماً، سميناً، أكثر بريقاً، يسيل لعاب قساوسته، ويثير اشتهاءهم، فقد سن الوحش، عبر القساوسة، قاعدة أخلاقية وحيدة: الجشع والجمع. إني لأسأل نفسي: أعدل هذا... أعدل هذا لأطفالنا؟ أنا محام... ما معنى هذا؟ أنا أيضاً أعيش من خدمة الوحش. أنا خبير بهذه القوانين التي تحمي حرمة الوحش - الإله وملائكته وسلسلة قساوسته. فقط اخترت الدفاع عن أولئك الذين خرقوا القوانين، والذين قد يمنع الاتصال بهم. وتذكروا، أن قلة فقط، يسمح لها بأن تجد مكاناً مفضلاً في السلسلة. ولاحظوا، وهذا أمر مؤلم، أن عرق أولئك هو الذي يطعم كل القساوسة والأساقفة والملائكة... السلسلة كلها. ومع هذا فهم مدانون.... ملعونون.

أنا قسيس، أب يعترف له، وإذ أنظر من النافذة الصغيرة أنظر حقيقة إلى روح الأمة... الندوب، الجراح، الدم المتخثر... كلها على وجوههم، وفي أحداقهم... أخبرنا، أخبرنا، قبل أن نعترف بخطايانا: من سن هذه القوانين؟ لمن؟ لمساعدة من؟ لا أستطيع الإجابة عن الأسئلة.. لكننا - كما قلت - فتحت أمامي نافذة لرؤية العالم.

سألت نفسي: ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ أخذت كل هذه الكتب، محاولاً التوصل إلى الحكمة، وإلى المفتاح لأسئلة كثيرة. قال شعبنا: لا نكن عبيد الوحش: لنصلّ ونتصارع مع الإله الحقيقي في داخلنا. نريد السيطرة على هذه الأرض كلها، هذه الصناعات كلها، في سبيل إله واحد فينا. قاتلوا... أراقوا الدم... لا لكي تعيش قلة في التلال الزرقاء، تخدم الإله المسبوك، الإله الخارج، وإنما لتعيش الكثرة حياة جيدة أينما حلوا. بعد أن رأى القساوسة البيض هزيمتهم، تحولوا إلى السخرية من القساوسة الجدد. انظروا إلى هؤلاء المخربين. نحن راحلون. نعم. لكن هؤلاء الناس سيخربون، بالتأكيد، قوانين الشريعة... أما نحن... نحن الذين تعلمنا في مدارسهم، فقد ضربنا صدورنا: أنحن مخربون؟ أنخرب نحن قوانين الشريعة؟ نحن متحضرون مثلكم، لن نكون هادمي الوحش ـ الإله، وسنبرهن لكم ذلك. سوف تخجلون لأنكم شككتم فينا، يوماً ما.

إنها حكاية قديمة. تقولان إنكما كنتما في سيريانا، مع جوي. أنا أيضاً كنت هناك، لكن في وقت متأخر... بعد سنين. كنا نسمع جوي، لكنه كان يسمى مخرباً آنذاك. كان طموحي أن أغدو قسيساً: قسيساً عالي الثقافة. لهذا كرهت جوي. اسمه فقط يوحي لي بأشباح الغابة الليلية... ثم قتل بيتر بولس بالرصاص، رجلاً أفريقياً حصب كلابه. أثارت المحاكمة اهتماماً شديداً في سيريانا. كنا سعداء جميعاً حين حكم عليه بالإعدام. لكن... أتدرون؟ عقد فرودشام اجتماعاً مدرسياً، وتحدث عن ضرورة الرفق بالحيوان. وقال إن مقياس التمدن هو مقدار رفق الناس بالحيوان. أتريد أن نكون قساة، مثل أولئك الروس، الذين أرسلوا، رغم احتجاج العالم، كلبة إلى الفضاء كي تموت؟ مسكينة لايكا. ربما تجاوز بولس قليلاً. لكن دوافعه كانت سامية نبيلة: حماية العاجز ورعايته. وقرأ لنا رسالة كان قد أرسلها إلى

الحاكم يطلب فيها الرأفة، وختمها بمقطع من شكسبير:

الرحمة سمحة

إنها تساقط كالرذاذ من السماء

على الأرض. مباركة مرتين

مبارك من يمنح

ومبارك من يأخذ

غادرنا الاجتماع، نادمين، غاضين البصر. وبكى بعضنا. أتصدق؟ بكينا مع فرودشام. لكن ما تزال ثمت شكوك، ولم أصدق الأمر كله. كيف لي أن أصدق؟ لم تؤهلني التربية التي تلقيتها لفهم تلك الأشياء: المقصود أن تميع العنصرية وأشكال الاضطهاد الأخرى. المقصود أن نتقبل دونيتينا كي نتقبل فوقيتهم، وتحكمهم بنا. ثم ذهبت إلى أميركا. قرأت في كتاب تاريخ إنها المكان الذي يؤمنون فيه بالمساواة وبحرية الإنسان. أثناء وجودي في كلية باتون، بلويزيانا، شاهدت بأم عيني رجلاً أسود يتدلى من شجرة خارج الكنيسة. ما جريمته؟ كان قد تشاجر، مع رجل أبيض ضرب أخته. كان الجو في المدينة شديد التوتر. آه... أميركا! أرض الأحرار والشجعان! توقف، كأن عينيه تحدقان في ماض بعيد. ثم أخذ يهمهم أغنية زنجية لجوش وايت:

الأشجار الجنوبية

تحمل ثماراً غريبة

الدم حول الأوراق

الدم في الجذور

جسد أسود يترجح

في النسيم الجنوبي

ثمرة غريبة

تتدلى من أشجار الحور.

صمت ثانية... مع أنهم لم يفهموا كل التلميحات، إلا أنهم تلمسوا ما وراءها من شعور. ثم استمر قائلاً:

«أليس هذا ما يحدث في كينيا منذ 1896؟ لـذا قلـت لنفـسي: الرجـل الأسود ليس آمناً في وطنه، الرجل الأسود ليس آمناً خارج وطنه. إذاً، مـا معنى هذا كله؟ ثم أني رأيت في مدن أميركا أناساً بيضاً يتـسولون أيـضاً... رأيت نساء بيـضاً يـبعن أجـسادهن ببـضعة دولارات. الرذيلـة في أميركـا بضاعة. كنا نعمل أوقاتاً إضافية لندبر عيشة ضنينة. رأيـت بطالـة كـثيرة في شيكاغو والمدن الأخرى. تشوشت. فقلـت: فلأعـد إلى وطـني، مـا دام الرجل الأسود يحكم. وفجأة، رأيـت، في لمـح الـبرق، أننـا كنـا نخـدم الوحش ـ الإله، ذاته، كما يفعلون في أميركـا... رأيـت العلائـم نفـسها، الأعراض عينيها، حتى العلة إياها... ارتعبت... ارتعبت جـداً... وصـحت بنفسي: كم كيمائي يجب أن يمـوت، كـم مـن أطفـال يتـامى يجـب أن يبكـوا، إلى مـتى يظـل شـعبنا يعـرق مـن أجـل أن تحـتفظ قلـة بـآلاف الدولارات في مصارف الوحش ـ الإله الذي ظل يلتهم قارة مـدة أربعمئـة عام، واليوم أرى في وضح النهار، الدور الذي يلعبه فرود شامات العـالم الكولونيالي، من أجـل أن يخلقونـا جميعـاً، مخـاليق تـرقص الرقـصات الماجنة في التلال الزرقـاء بينمـا يمـوت شـعبنا جوعـاً، ولا يجـد مـأوى مناسباً، ولا مدارس صالحة لأطفالهم، ونحن سعداء، سعداء حين يقـال هنا إننا مستقرون متمدنون أذكياء!».

تحدث بنبرة اعتيادية إلا في النهاية حين بصق كلمـات الاسـتقرار، التمدن، والذكاء باشمئزاز ظاهر. كانوا مأخوذين بالمثل، رغم أنهم لم يفهموه دائماً، لكن كلاً منـهم الـتقط جوانـب مختلفـة منـه. لعبـد الله

كانت فكرة الدم الذي أريق لأن هذا السؤال كان يؤرقه على الدوام، وهو يرى إلى أراضي تيغوني والأماكن الأخرى: أصحيح أن هذه الأراضي التي اشتريت بدم الشعب، تذهب إلى حفنة معينة لأنها تملك المال وقروض المصارف؟ هل قاتلت الأموال والمصارف في سبيلها؟ لكنه لم يجد الجواب، لأن السود كانوا يمتلكونها. ولقد أحب أن يمتلك بنفسه واحدة من تلك المزارع. لوانجا، كانت فكرة العاهرات البيض في البلاد البيضاء: أيمكن أن يحدث هذا حقاً؟ منيرا ضجر من صورة الوحش، لكنه صدم بالمصادفة: المحامي كان في سيريانا؟ كاريغا كان في سيريانا، والاثنان دخلا منزله الآن!

ما معنى هذا؟ ما هو؟ أحس كاريغا أن الرجل لم يكن يروي القصة كاملة. لكن الحديث أثار فيه فضولاً، وتطلعا، كأن ذهنه يوشك أن يبلغ، ويمسك الفكرة المراوغة، كأن نظرة عامة كانت تتشكل في الكون المضطرب المشوش لتجربته وتاريخه الخاص.

«ماذا حدث لك حقاً في سيريانا، يا كاريغا؟»... انفجر منيرا، بغتة، في أفكارهم المختلفة، وقد أجفلوا لعنف اهتمامه.

استفسر المحامي، مندهشاً، ملتفتاً إلى كاريغا: «هل درست أيضاً في سيريانا؟».

قال كاريغا «نعم». وبدا له أنه قد يكون غير عادل إزاء منيرا: فالثلاثة شهدوا سيريانات مختلفة، وعرفوا فرودشامات مختلفة، وربما لم تحركهم الأشياء نفسها: لم يتوقع أن يتابع منيرا كل ما حدث في سيريانا؟

«متى كان ذلك؟».

«تركتها... طردت منها... قبل حوالي سنة ونصف... سنتين... ثلاث سنوات تقريباً... الزمن يطير».

«بسبب الإضراب؟ أكنت متورطاً؟» استثير المحامي. وأحس

كاريغا بتسارع نبضات قلبه، بسبب التطلع المتعاطف مع شخص سمع في الأقل عن الإضراب.

«يمكنك أن تقول هذا....».

«كان ـ كيف أستطيع ـ كان ـ» قاطعه المحامي، وهو يبحث عن كلمات «حين عدت من أميركا، ورأيت أننا جميعاً نعبد الوحش نفسه، عانيت الكآبة. سألت نفسي: مم يبدأ المرء؟ هكذا بدأت أمارس عملي في الأحياء الفقيرة. آخذ أجراً قليلاً: لكن، ألست أجمع المال منهم أيضاً؟ أوليس تعليمي، وعملي، وحقيقة ممارستي، هي في ذاتها تبرير لكل هذه القوانين التي تخدم الوحش؟ ألست أعتاش ـ بمعنى من المعاني ـ على ذات النظام الذي أستنكره؟ ثم جاء إضرب سيريانا، وحين قرأت ما بين السطور، فكرت بأني أشهد ولادة شبيبة جديدة، شبيبة متحررة من العار والمهانة المباشرين للماضي، ولهذا فهم لا يعرفون جراح الروح شأن الذين سبقهوم. جد مختلفين عن زماننا، جد مختلفين عن أولئك الذين رأوا آباءهم الأقوياء وأخوتهم الكبار يلفون أزراراً خلفهم حين يرون صبياً أبيض. قلت لنفسي: هنا أملنا... في الأطفال الجدد.، الذين ليس عندهم ما يبرهنونه للرجل الأبيض... الذين ليسوا بحاجة إلى أن يبرهنوا أن باستطاعتهم الأكل بالسكين والشوكة، والتكلم بالإنجليزية من الأنف: وخدمة الوحش بكفاءة كالقساوسة البيض، ولذا يستطيعون رؤية المهانة العامة بوضوح، ومن هنا، يقدرون على الإضراب انطلاقاً من الملكوت الحقيقي للإله الأسود، الذي في داخلنا جميعاً: موغييكيو، ماساي، ماجولو، مغيرياما، مسومالي، مكامبا، كالنجين، ماساي، لوهيا... كلنا... عموم طاقتنا... روح الشعب، الـ«نحن» الجمعية، تعمل في سبيلنا... ربما قرأت في الإضراب أكثر مما يلزم، لكنه انتشلني من كآبتي. رأيت وميضاً قد يغدو نوراً، وقلت: يا فرودشام، ويا كل

الفرودشـامات الـسود... لقـد جـاءتكم الـضربة». كـانوا مـأخوذين بحماستهم، واستجاب كاريغا لهذا التشجيع:

«حدث، بالفعل، إضرابان، لكن معظم الناس يعرفون عن إضراب واحد، بسبب أن أوروبياً كان فيه، كما أعتقد. الإضـراب الثـاني كـان جدياً أيضاً، وقد غـضبنا لا، أنبـاءه لم تنتـشر. لكـن الإضـرابين كانـا واحداً، لأن الشخـصين الرئيـسيين فيهمـا كانـا كيمـبردج فرودشـام، وجـوي ريمـوي ـ وأنـا لا أتحـدث ـ والتفـت إلى مـنيرا ـ عـن ذلـك الإضراب المبكر الذي قدته أنت وجوي».

وسأل المحامي: «هل طردت أنت أيضاً، يا سيد منيرا؟».

قال منيرا: «نعم».

«غريب... متى؟».

«أثناء الإضراب الأول.. إضراب جوي».

««مع جوي؟ كان ثمت رجل... أسطورة... نتحدث عنه... ونحكـي الحكايات. ولأنه ذهـب إلى أميركـا أردنـا كلنـا أن نـذهب إلى هنـاك. فرودشام لم يحب أميركا... قال إنهم يتكلمون إنجليزيـة سـيئة... لكـن لأن جوي اختار أميركا... فيجـب أن تكـون جيـدة...». هـز المحـامي رأسه وهو يتذكر. «كان موهوباً». وافق منيرا، واستدار إلى كاريغا.

سعل كاريغا، وتنحنح، ثم بدأ كلامه:

* * *

«حـسناً، تعرفـون أن كيمـبردج فرودشـام كـان عظيمـاً بطريقتـه الخاصة: يستطيع أن يزعـزع وجهـاً، مهمـا كـان هادئـاً وواثقـاً. حـين يذهب إلى المدينة ليقابل رجال الوزارة، يتمهـل المعلمـون الآخـرون في الساحة، بطيئي الخطا، أو يجلسون على الطاولة وقد وضعوا سـاقاً على ساق، يدخنون، ويثرثرون، ويتنادرون، ويـضحكون معنـا نحـن

الأولاد. لكن ما إن يلمحوا فرودشام أو سيارته الفولكيس واجن من بعيد، حتى يتوتروا، ويطفئوا سجائرهم، ويرموا الأعقاب من النافذة، أو يسحقوها على الأرض نثيراً. هؤلاء الرجال بيض، فكيف استطاع فرودشام أن يجعلهم يبولون في سراويلهم؟ كيف أدخل خشية الله فيهم؟ كنا نتحدث في هذا الأمر، ونحن راقدون على أسرتنا في المهاجع: ونحار فيه، ونحن نغسل الأرضية صباحاً. ونتناقش بأصوات عالية عن الطبع الداخلي للبياض ونحن نغتسل برذاذ الماء البارد في الخامسة صباحاً. اتفقنا كلنا على أن «فرودشام شديد». كان سيغدو حاكماً أو شيئاً أكبر من مدير مدرسة، لكنه رفض، هكذا ادعى بعض العارفين من التلاميذ. ازدادت هيبة الرجل عندنا. أخذنا ننسج أساطير عن حياته وحبه... بالرغم من أن كيفية معرفة هذه الأساطير كانت أسطورة بحد ذاتها. لكنه كان أنبه رجال زمانه في كيمبردج، هذا ما نعرفه. كان من أشجع الناس، حارب في تركيا، وفلسطين، وبورما، وأوقف دبابة ألمانية وحده: ولهذا تسلم وساماً أو شيئاً من الملك. في بورما أصابته شظية في فخذه ومنح إجازة. بم كان يفكر حين عاد إلى وطنه حياً، وبطلاً؟ نتخيله وهو يخرج محفظته، وينظر في ذهول الإنكار إلى صورتها التي وهبته القوة خلال كل تلك الحملات، في رمال الصحراء، وفي غابات الشرب الكثيفة، خلال رعد المدافع، والشظايا، والقنابل، والصواريخ. القطار يرن على السكك: قلبه يخفق: خياله يطير أمامه. كانت بين ذراعيه، ذراعيه، لكن... حين وصل أخيراً، جلس، حسب، وبكى. ثم ذهب إلى الكنيسة وصلى. صلى حتى سمع صوتاً مجيباً. ليذهب إلى أفريقيا، في سبيل الله، وليمت هناك... مخلفاً أثراً ضئيلاً من بطولة الروح والمجد. لكنه لن يغفر للمرأة التي هجرته إلى جندي عائد آخر. ولن يغفر لأي امرأة. كان حبه الحقيقي للكلاب. كانت له في زماننا كلبة صغيرة تدعى

ليزي، هي رفيقته الدائمة في الصفوف، والمصلى. ونايروبي، وأي مكان. وغالباً ما تملي الكلبة مزاجه. إن مرضت صار صعباً، منزعجاً، وحيداً، مهجوراً. ليزي، الفولكس واجن، فرودشام: كنا نسميهم فرسان المدرسة الثلاثة، لأنهم لا يفترقون.

ليزي ماتت.

انقصم شيء في فرودشام. لم يعد قادراً على التدريس، وإلقاء الموعظة. غارت خطوط وجهه فجأة، وأرمدت عيناه، وكان يتحدث أو لا يتحدث كأن ذهنه في مكان آخر. كان وحيداً حقاً، بحيث أشفقنا عليه. لكننا لم نستطع للأمر فهماً، فلقد ماتت كلاب في قرانا: ماتت كلاب في الطرقات: ونحن طاردنا كلاباً عبر الحقول ومصاطب الأرض، وكلما أصبت واحداً بحجارة وعوى ضحكت حتى تدمع عيناك. الكلاب الجيدة تلك التي تقنص الأرانب والغزلان: كلاباً شجاعة كانت تلك التي تحرس الماشية والمنازل من الضباع المغيرة واللصوص. لكن ليزي لم تكن واحدة منها: فكيف يضيع رجل نفسه حزناً عليها؟

جمع المدرسة. ظننا أنه اجتماع آخر يحدثنا فيه عن الحركة الكشفية، وإنجلترا، وجامعة كيمبردج، وتاريخ العالم، من السلتيين حتى ولادة الدول الجديدة في أفريقيا وآسيا. لكن ما قاله دفعنا إلى الرغبة في الضحك: لقد أوجعتني أضلاعي وأنا أحاول كتم ضحكتي. تحدث عن منزلة الحيوانات الأليفة في الحياة البشرية: ذلك أنه في كل البلدان المتمدنة تعتبر رعاية الحيوانات الأليفة إغناء لتقدير المرء، الحياة الإنسانية، وحب الله.

وفجأة، أرعدت المدرسة كلها بالضحك. أرغى فرودشام وأزبد، وقال إن الأفارقة بلا مشاعر. لكننا ظللنا نضحك أثناء هيجانه... إذ

كيف نفهمه؟ وكيف نصدق آذاننا؟ أعني من سمع بكلب يدفن كالبشر؟ طلب من كابتن المدرسة، أن يختار أربعة تلاميذ من كل صف، يأخذون أدوات كي يحفروا قبراً ويصنعوا تابوتاً للكلبة ليزي. كما طلب حملة للنعش.

الكابتن طلب متطوعين. انفجار ضحك آخر. كنا نطأطئ رؤوسنا خوف اختيارنا. ليس من متطوعين. سمى الكابتن عدداً. رفض هؤلاء الذهاب. رفضنا الذهاب كلنا. انتفض فرودشام للتمرد الماثل.

طرد التلاميذ الذين اختيروا.

أضربنا جميعاً.

كانت المدرسة ترتعش... غير مصدقة. كان ثمت إضراب وحيد في تاريخ المدرسة، انتصر فيه فرودشام. الآن يرعد ويزبد ويهد. ادعى أننا رفضنا إطاعة الأوامر. في أي مجتمع متحضر هناك من يصوغ الأوامر، ومن يطيعها: يجب أن يكون من يقود ومن يقاد: فإن رفضت أن تطيع، أن تقاد، فكيف تأمل في أن تقود، وتطلب أن تطاع؟ انظروا إلى السماء: هناك إله على العرش، وملائكة ذوو أدوار مختلفة: لكن الكل في انسجام.

لقد فتح عيوننا.

بالأمس، كان أبيض، كبيراً، قوياً، لكنه لم يعد مثلما كان. بالأمس، كان أبيض، قوياً، لا يقهر، صخرة لن تزحزح، لكنه لم يعد كما كان. واندفعت إلى الواجهة كل الأشياء والصدوع، والتناقضات التي لم تشكل يوماً، جزءاً من عقولنا الواعية. أراد أن يساومنا: يطرد واحد فقط. إلا أننا رفضنا العودة إلى صفوفنا. حسناً. عقوبة بسيطة حسب: أربع خيزرانات لكل واحد، وقطع الحشيش ليوم واحد. لاحظنا ضيقة، فقدمنا مطالب جديدة. أردنا أن ندرّس الأدب

الأفريقي، والتاريخ الأفريقي، إذ أردنا أن نعرف أنفسنا بصورة أفضل. لماذا يجب أن ننعكس في ثلوج بيضاء، وأزهار ربيع ترتعش عند بحيرات باردة؟ ثم هتف أحدنا: نريد مديراً أفريقياً، ومعلمين أفارقة. استنكرنا نظام الأمناء، وطريقة الفرسان من سادة وتابعين. تصوّر. لقد تلقفت الصحف هذا الجانب من الأزمة، وأدانتنا. فمنذ متى كان الطلاب، الغوغاء، يعلمون أساتذتهم ماذا ينبغي أن يتعلموا؟ فإن كان الطلبة بهذا الذكاء، ويعرفون منذ الآن ما يجب أن يتعلموه، ومن هو المناسب لتدريسهم، فلماذا أزعجوا أنفسهم، وسجلوا في المدرسة؟ وفي مدرسة ذات سجل كهذا! مدير تفخر حتى أفضل مدارس إنجلترا، مثل أيتون، بأن يكون فيها؟

ثم أعدوا حساباً بالأموال المصروفة على أحد الطلاب، وقارنوها، بدخل الفلاحين الفقراء.

لكننا، كنا متضامنين، رغم حملة الحقد المفرقة.

صاح أحدهم: جوي، جوي. جوي كان اسماً حياً، أسطورة. أردنا أن يأتي ويقود المدرسة. يسقط فرودشام: يسقط نظام الحاكمية: يسقط البيض: يو يـ يـ يـش جوي. هزيهم... أيتها السلطة السوداء! حسناً... جاء أهل الوزارة. أحدهم كان تلميذاً قديماً في المدرسة. وجهوا إلينا نداء كي نعود إلى صفوفنا. أما مطالبنا ومظالمنا فسوف ينظر فيها: الطلبة الأربعة يقبلون عقوبة بسيطة هي قطع الحشيش ليوم واحد، وحلق الشعر كاملاً.

عدنا إلى صفوفنا: لكن شيئاً حدث: وضعت قواعد اللعبة موضع التساؤل، وجرى تعديل كل شيء. عرفنا ذلك. فرودشام عرف. وبعد حوالي شهر استقال وسرعان ما التحق بـ«ليزي». أحسسنا بالفخر، وبأننا قد خلقنا من جديد. وأقسمنا لنكونن في منتهى الطاعة إن جاءنا

مدير أفريقي، ولندرسن بصورة أفضل، حتى لا يلحق الخزي بنا وبه. لا تعيين. سوف ننتخب قادتنا. سمينا أنفسنا أفارقة شعبيين، وأردنا مديراً شعبياً.

جوي. جوي. انتظرناه متلهفين. لم يره أحد منا أو يعرف عنه شيئاً، خارج الأسطورة المدرسة وفولكلورها. إلا أننا انسرحنا مع الآمال: مدرسة جديدة. بداية جديدة، شعب جديد. أما بين المعلمين البيض، فكان الحزن والقلق: وفعلاً استقال واحد أو اثنان منهم: خشية وفرح، يأس وأمل، شفاه مزمومة وابتسامات متألقة: كلها تتصارع، ونحن بانتظار وصول جوي. حسناً... لم يأت في النهاية: اصطففنا على الممر بين البوابة والإدارة. لوحنا بأيدينا، في آن واحد، وهتفنا عالياً: جـ وووي!

الاجتماع الأول... دخلنا القاعة قبل ساعة من الموعد. غنينا، وصفقنا، وألقينا خطباً. والمعلمون البيض وقفوا خارج القاعة وهم يتكلمون بعصبية.

جوي وصل... صمت كصمت الموتى... ارتقى الدرجات... درجة... درجة... إلى القاعة. كانت عيوننا مسمرة على المشهد أمامنا. كان يرتدي سراويل خاكي قصيرة وقميصاً وخوذة شمس: نسخة سوداء من فرودشام. انتظرنا كلمات تهدئ من شكوكنا ومخاوفنا. تحدث، وأعلن جملة قواعد. شكر المعلمين لمستواهم العالي وسمعة المدرسة العالية، وبين أنه يتمنى، بل يبتهل، حتى يظل كل المعلمين في مكانهم، فقد جاء بانياً لا هادماً. لا برنامج أفرقة. فالسرعة ستخرب مدرسة جيدة كهذه. ثم أشار إلى انهيار الانضباط مؤخراً، وأخذ عهداً على نفسه، لإعادة الانضباط، بمساعدة الجميع. وبدلاً من تحطيم النظام السابق، سيضخ فيه دماً جديداً. الطاعة هي الطريق الملكي للنظام والاستقرار، والقاعدة الوحيدة للتعليم الرصين.

المدرسة كالجسد: فيها رأس، وأذرع، وأقدام، كلها تقوم بعمل متناسق، دون شكوى، لمصلحة الجسد كله. ثم تلا مقطعاً لشكسبير.

إن تقاليد المدرسة، التي أثبتت جدارتها في امتحان الزمن، يجب أن تبقى. لهذا لن يسمع أي هراء حول معلمين أفارقة، وتاريخ أفريقي، وأدب أفريقي، من تراه سمع برياضيات وعلوم أفريقية، أو صينية، أو إغريقية؟ ما يهم: المعلمون الجيدون والمضمون السليم: التاريخ هو التاريخ، والأدب هو الأدب، وليس للأمر علاقة بلون البشرة. يجب أن تكافح المدرسة من أجل ما وصفه أحد المربين الكبار بخير ما كتبه العالم وفكر به. كانت العنصرية دماراً لمدارس كثيرة. ودول كثيرة، وأمم كثيرة: سيريانا تؤمن بالسلام والأخوة بين البشر. لن يسمح بمدرسة يقودها متمردون ورجال عصابات. وعلى الأجانب الأوروبيين ألا يخشوا شيئاً.

أصغينا صامتين، عدم التصديق يصارع التصديق: أهذا هو جوي الذي قاد مرة الإضراب في المدرسة نفسها؟ ناقشنا كلماته فصلاً دراسياً كاملاً. الأمناء الجدد كانوا أكثر شدة من أمناء الأمس. المدير الجديد يصدر أوامره في سلسلة محكمة دقيقة للسيطرة، من كابتن المدرسة، إلى كبار الأمناء، فصغار الأمناء، حتى تصلنا. والامتيازات تتدرج مع تدرج الصفوف. فالسنة السادسة مسموح لطلابها بارتداء السراويل والسترات والأربطة بينما لا يسمح لطلاب السنة الأولى بالأحذية إلا في يوم الصلاة. تشوسر، شكسبير، نابوليون، لفنجستون، والفاتحون الأوروبيون، كانوا يدقون على رؤوسنا بحمية أشد. تساءلنا: أين مضى الحلم الأفريقي؟

اشتكى من المستوى المنخفض للغة الإنجليزية، منطوقة، ومكتوبة. وفي أحد الاجتماعات التفت إلى المعلمين الأوروبيين، قائلاً:

أنا لا أنظر طبعاً في فم حصان قدم هدية لي. لا أريد أن أتدخل فيما ينبغي أن تفعلوه. لا أريد أن أكون كذلك البائع الأميركي الجوال الذي ذهب إلى الأسكيمو يبيعهم الثلاجات. لكني المدير، ونافخ البوق هو الذي يصدر النغمة.

«درسوهم إنجليزية اصطلاحية جيدة».

أضربنا، ورفضنا ثانية تاكتيكات فرق تسد. يسقط جوي: تعيش الشعبية الأفريقية: يسقط مَنٍ لا وطن لهم والمستشارون الأجانب: تعيش السلطة السوداء. حسناً... البقية معروفة للجميع.

استدعى جوي فرقة مكافحة الشغب التي جاءت إلى مدرستنا. وهل تصدق أن ضابطاً أوروبياً كان يقودها... تفرقنا كلنا، وقد كسرت عظام بعضنا وجماجمهم. أغلقت المدرسة، وعندما أعيد فتحها كنت بين عشرة طلاب منعوا من توقيع طلب لإعادة القبول».

كان في صوت كاريغا وهو يروي قصة الإضراب، نبرة أسى شيء بين اليأس وعدم التفهم الأخرس.

خيم على الحجرة حزن معين، حاول كل منهم دفعه. تحدث منيرا أولاً، مردداً كلمات المحامي:

«لست أفهم ـ مختلفة جداً عن زمننا ـ أقصد المطاليب. أكان هذا بسبب الاستقلال؟ أقصد ماذا أردتم حقاً؟».

«لا أعرف في الواقع... حين تكلم المحامي، ظننتني أعرف، لمحة... لكنها زاغت في الذهن... فكرة... أعني... كنا رجالاً، نضال عام.. كنا في المدرسة... ألم نكن؟ تخيلنا آفاقاً جديدة... بدايات جديدة... مدرسة تقوم على أسس من عرقنا... عقولنا جميعاً... مطامحنا، مخاوفنا، آمالنا... الحق في تعريف أنفسنا... صورة للذات جديدة... كل هذا وأكثر... لكنها لم تكن واضحة... فقط تعبير الشعبية الأفريقية يلخصها كلها».

5* مضى زمن كان فيه نديري واريرا رجل الشعب حقاً. اعتاد أن يلعب النبال والداما في المقاهي الصغيرة والكبيرة، منقطعاً لعبه بتعليقات ذكية خفيفة الروح، وتهديدات لإثارة خصومه: ستعرفني اليوم... تعتقد أني في مانياني بدون سبب؟ ويقال إنه اختار مكاتبه في ماركت ستريت ليكون قريباً من كامي الذي كان مركزاً شهيراً للنبال والداما ولحم الماعز المشوي والبيرة. لقد تخرج في كامي لاعبو نبال أفارقة من الطراز الأول، مث لويغيرو وبارسالي، اللذين وصلا إلى دور النهائي في نادي بريليانت الليلي، وهو أمر كان حكراً على الآسيويين والأوروبيين، وصارا فيما بعد اسمين مألوفين في كل حلقات لعبة النبال... على امتداد نايروبي كلها. آنذاك، كان من أشد دعاة الإصلاح، وأعلاهم صوتاً، خارج البرلمان. كان المدافع عن قضايا شعبية مثل وضع حد أعلى لملكية الأرض، تأميم الصناعات والمشاريع التجارية الرئيسة، محو الأمية، والقضاء على البطالة، واتحاد شرق أفريقيا باعتباره خطوة نحو الوحدة الأفريقية. ثم انهالت عليه عروض الإدارات في الشركات التي يملكها الأجانب.

«سيد ريرا، لن تفعل شيئاً: لا نريد أن نأخذ كثيراً من وقتك الثمين المشغول. فقط نحن نؤمن بالمشاركة بين البيض والسود، من أجل التقدم». لم يكن المال الذي جمعه من ناخبيه لمشروع الماء، كافياً لمد أنابيب المياه، لكنه كاف كضمان لقروض جديدة حتى يشتريها أسهماً في شركات، ويستثمر في الأراضي، والإسكان، والأعمال الصغيرة. فجأة، انقطع عن الظهور في الأماكن الصغيرة. ولم يعد يرى إلا في النوادي الخاصة بالأعضاء فقط، أو في الصحف، مصوراً أثناء حضور هذا الكوكتيل أو ذاك.

ولكي يقوي مركزه الاجتماعي الجديد، اشترى مزرعة ضخمة في وادي ريفت. لكن علاقته الكبرى كانت بالصناعة السياحية. فهو يملك

عدداً من الأماكن السياحية في مومباسا، ومالينـدي، وواتـامو، كمـا منح أسهماً في منتجعات سياحية عديدة على امتداد الساحل. وسرعان ما أخذ يتحدث عن «حاجة الشعب إلى البلـوغ ومواجهـة الحقـائق. إن أفريقيا محتاجة إلى رأس المال، والاستثمار من أجل النمو الحقيقـي ـ لا إلى الشعارات الاشتراكية».

لكنه ظل مدافعاً قوياً عن الثقافة الأفريقية، والشخـصية الأفريقيـة، والأصالة الأفريقية «إن كان عليكم ارتداء الشعور المـستعارة فلمـاذا لا ترتدونها أفريقية أو سـوداء»؟ وكـان يـصر في أغلـب الـشركات الـتي يرأسها أو يديرها، على التخلي عن أسمائها الأوروبية واتخـاذ أسمـاء أفريقية مثل أوهورو، وأنانجي، تايفا، هارامبي، أفرو، بان أفريكـان، مما يمنح المؤسسة لمسة من الأرض. كان نديري واريرا موضع حـسد من أغلب أنداده البرلمانيين. فمنطقته جد بعيدة عن المدينـة بحيـث لا تكاد تزعجه شكاوى ناخبيـه الـتي لا تنتـهي. جماعتـك قـوم راضـون سعداء، هكذا يقولون له. ويتقبل هو هذا الثناء بابتسامة وضـاءة. حريـة النائب السياسية لا والحق أن كراسي مكتبه وسجاجيده كانت ستجمع غباراً كثيراً لو اعتمدت في نظافتها على زيارات من المورروغ!

وصـول الوفـد مـن منطقتـه، صـار خـبراً طازجـاً عنـد أصـدقائه البرلمـانيين. انتظـروه متلـهفين في مظانـه الليلـة ليعرفـوا نتيجـة هـذه المواجهة غير المتوقعة.

لكن، كان على الجميع أن ينتظروا حتى الثلاثاء: فقـد ذهـب ريـرا إلى مومباسا ليفتش عملاً، ويتحرى، موقعياً، منتجعين سياحيين أشير إليهما في إحدى الصحف الأجنبية باعتبارهما «أماكن خاصة، يـستطيع فيها حتى الأوروبيون الشيوخ أن يشتروا فتاة أفريقية أصيلة عـذراء بـين الرابعة عشرة والخامسة عشرة بسعر تذكرة عـرض سـينمائي رخـيص» هذه الإشارة أثارت تعليقات وأسئلة خرقاء في الصحف.

عاد ليلة الاثنين، وبعد زيارة سريعة إلى بيته وأسرته في لافنجتون جرين ذهب إلى بعض الأماكن ليطلع على آخر الشائعات. ذهب إلى بار تمبو في آدم أركاد، فلم يجد شخصاً يعرفه، لهذا شرب مسرعاً زجاجة بيرة باردة، وانحدر، بسيارته، على طريق نغونغ، إلى جيلورد أن. هناك، في مشرب فيرويل، أحاطه بسرعة، أصدقاء يستفسرون جميعاً عن الوفد. ظن، لحظة، أنهم كانوا يسألونه عن قضية العذارى الحقيقيات. استبعد الأمر بضحكة منه: ليس للأمر من صحة... الأوروبيون لا يستطيعون تحديد أعمار الأفريقيات. وكل امرأة ذات نهدين غير متهدلين ـ حتى لو كانا من القطن الطبي ـ يعتبرونها عذراء.

فقط حين ذكروا اسم الموروغ، نظر إليهم نظرة حادة، كمن تعرض إلى مزحة عملية مزعجة. صديقه كيميرريا هو الذي أكد صحة الكلام، مشيراً إلى جفاف.

استبعد ديرا أهمية الوفد، واستمر يشرب. لكنه كان متهيباً في داخله: أتراهم جاؤوا قاطعين كل ذلك الطريق، بسبب جفاف لم ينشر عنه حتى ربع عمود في الصحف؟ وكيف استطاعوا تنظيم أنفسهم؟ وفكر فأن أحداً دفعهم ليزيحه عن مقعده البرلماني.

كان في مكتبه، الساعة الثامنة. أرته سكرتيرته مواعيد اليوم. كان ينتظر الساعة الثانية بصبر نافد: إنه مستعد للقتال فهو كبير السن، خبير في المناورة السياسية: سيبين لأولئك المتآمرين ضده أنه لم يزل نديري بن ريرا، وأنه لم يأكل، البتة، في منزل أم أحد!

تأخر الوفد قليلاً، لأنهم ناموا أكثر من اللازم، وأمضوا وقتاً في إعداد العصيدة وأكلها. كم هم محظوظون بعثورهم على المحامي! علامة فأل حسن، فكر كاريغا، وهم يقتربون من حدائق جيفانجي.

كانوا قد سهروا حتى ساعات الفجر الأولى يتحدثون مع المحامي. وفتح الحديث مسالك جديدة عديدة أمام تفكير كاريغا، بحيث ود لو أن الموروغ تلاصق نايروبي، ليكون باستطاعته مواصلة الحديث يومياً. اهتم المحامي بألا يثبط عزمهم على مقابلة نائبهم:

«يجب أن نمد مصادر الديمقراطية ومساراتها إلى أبعد الحدود، لكن... إن حدث أي مكروه، فمرحباً بكم هنا. إنني على أي حال تواق إلى معرفة نتيجة مسعاكم». وكالأمس، جلس الوفد الرئيسي في الحدائق، بينما انضم نجوغونا وعبد الله ووانجا إلى كاريغا ومنيرا، واتجهوا نحو بناية أقبال أقلود. لقد جعلتهم ملابسهم المتطوية المدهنة القذرة أعجب مجموعة من الفزاعات تقابل نائباً برلمانياً في مكاتب لم تعرف إلا سادة وسيدات في بدلات رجال الأعمال الأنيقة.

لكن نديري وا ريرا، في بدلة رمادية ذات ثلاث قطع، لم يبد أي دهشة، وهو يقف مرحباً بهم، ومقرباً الكراسي منهم، شخصياً. فكر كاريغا بأن البداية حسنة، واعتدل في كرسيه مطلقاً آهة ارتياح. بينما كان ريرا يفكر ـ قد يكون الناس خبثاء ـ خمسة فقط، بينما تحدث أصدقاؤه عن جماعة ـ لكنه تضايق في الوقت نفسه، فالسياسي يحيا بالجماهير. «أأنتم بخير؟» سألهم بأدب، وصافحهم واحداً واحداً. «بخير» أجابوه في صوت واحد.

«هل قطعتم طريقاً طويلاً؟» كان يريد إخبارهم بأنه يعرف عنهم.

قال منيرا: «الموروغ، وصلنا هنا أمس. ألم تخبرك سكرتيرك؟».

«طبعاً أخبرتني» وضحك. «بعض من لغتنا. تذكر.

«أنت ترى شخصاً يحفر أو يقطع شجرة، فتسأله: ماذا تفعل؟».

قال منيرا: «صحيح، صحيح» وضحكوا جميعاً.

سأل وضغط زراً «يجب أن تكون متعبين، بعد هذا الطريق كله، هل ركبتم حافلة؟».

قالت وانجا: «لا. مشينا».

«حقاً؟».

أطل رأس السكرتيرة، خلال الباب.

«أرجو أن تعدي قهوة. خمسة للسادة، وللسيدة... حقاً؟».

سأل ثانية، وهو ينظر إليهم «لكني أسأل أسئلة كثيرة. فنحن لم نقدم أنفسنا. اسمي نديري وا ريرا».

قالوا جميعاً: «نحن نعرفك».

«كان اسمي ديفيد صاموئيل. لكني قلت لنفسي: لماذا نترك أسماءنا، ونتخذ أسماء أجنبية؟ ها! ها! ها!

أعرف صديقاً، أسود مثل سخام القدر، يسمي نفسه ونتربوتوم. ها! ها! ها!».

«هؤلاء الأوروبيون جعلونا نترك كثيراً من عاداتنا الجميلة، وأنا لا أتكلم فقط عن الختان» قال نجوغونا، وفكر: أنا برلماني معقول. «أنا نجوغونا. مزارع في المورروغ».

«آسف لأن العمل البرلماني ثقيل، بحيث لا أجد دقيقة لنفسي. لكني كنت أخطط للمجيء أسبوعاً كاملاً أو نحوه، لأقوم بجولة في دائرتي الانتخابية، وأتعرف على أحوال الشعب. أردت أن أكون على دراية بالمشكلات الزراعية في المنطقة، كينيا بلد زراعي، ويعتمد بقاؤنا على المزارعين أمثالك».

دخلت السكرتيرة تحمل صينية. أخذ كل واحد منهم فنجاناً وقطعة بسكويت، وشرعوا يحتسون.

وسأل مشيرا إلى وانجا: «وأنت؟».

«أنا وانجا... شبه زائرة إلى المورووغ».

«حسن. وانضممت إليهم في هذه الرحلة؟ أليس كذلك؟».

ثم التفت إلى منيرا: «أنت أيضاً مزارع؟».

«لا. أنا مدير مدرسة المورووغ الابتدائية الكاملة، اسمي منيرا، جودفري منيرا. أخشى أني لم أترك بعد الأسماء الأجنبية. بعد ذلك... إن كنا نرتدي قمصانهم، ونسكن بيوتهم... لكننا تحدثنا عن هذا قبلاً». قال هذا ملتفتاً نحو كاريغا ووانجا.

قال النائب: «يجب أن تكون في البرلمان. سعيد بلقائك يا سيد منيرا. ماذا يعني الاسم؟ المهم نوعية ما يفعله المرء للوطن. خذ المعلمين مثلاً. لا أمة بدون معلمين جيدين. المعلمون هم رجال الشعب الحقيقيون. نحن هنا لسنا غير مبعوثين. هل أنت من المورووغ؟».

«ليس بالضبط. قدمت من ليمورو».

«الوزير هو ممثلكم، أعرفه جيداً. أنت أيضاً من ليمورو؟».

استفسر من كاريغا.

«نعم، لكني أدرّس في المدرسة نفسها، مثل منيرا».

قال ضاحكاً: «تبدو في سن أصغر من أن تكون معلماً»، لكنه فكر، يجب أن أكون حذراً الآن. ليس بينهم غير المورغي حقيقي واحد... لماذا؟ «شيء جميل أن أرى شاباً معقولاً هذه الأيام. معظم

الآخرين يريدون أن يكونوا كتبة - أعمال الباقة البيضاء - وهم لا يعرفون استعمال الآلة الكاتبة».

«لا أتفق معك يا سيدي، في هذه النقطة». أجاب كاريغا مستعيداً تجربته في هذه المكاتب نفسها.

«أنا متأكد من أن العديد ممن تركوا مدارسهم سيكونون سعداء بقبول عمل ذي مرتب معقول».

فكر النائب، عرفت أن عليّ أن أكون حذراً، كان يرقب الانفعال وراء كلمات كاريغا. لقد تعلم نديري، باعتباره سياسياً، أن لا يستصغر شأن عدو مهما كان صغيراً، وألا يقلل من أهمية حادث وإن كان تافهاً... بل ينبغي أن يحسب لكل أمر حساباً دقيقاً.

«أتفق معك. البطالة مشكلة حادة في هذا البلد. لكنها المشكلة ذاتها في كل أنحاء العالم. حتى في إنجلترا وأميركا تقرأ عن ملايين العاطلين المتسولين. إنه الانفجار السكاني. تنظيم الأسرة وتحديد النسل هو العلاج الوحيد».

«ثانية، لا أظن أنني أتفق معك. ألا تظن تنظيم الأسرة خدعة متعمدة من الحكومات الغربية لإبقاء عدد سكاننا منخفضاً؟ بريطانيا جزيرة صغيرة، لكن بها أكثر من خمسين مليون إنسان: لم لا يخففون من نموهم السكاني؟ ثم أن الصين قادرة على إطعام وإكساء ملايينها».

فكر نائب البرلمان، وهو يرى في هذا الشاب المتحمس بعضاً من نفسه. غريب أن يتكلم كما كنت أتكلم.

«لكن أي ثمن دفعته الصين لتكون قادرة على هذا؟ لا حرية شخصية.. لا حرية صحافة... لا حرية عبادة أو تجمعات، والناس يرتدون بزات موحدة سمراء. أتريد هذا لبلادك؟ حين كنت شاباً، ظننت أني قادر على حل مشكلات العالم بإطلاق هتاف. لكني حين

كبرت تعلمت أن أكون أكثر واقعية، وأن أواجه الحقائق مواجهة. وعلينا، نحن السود، أن نتعلم ألا نطير بعكس الحقائق الصلبة، حتى لو اقتضى الأمر إعادة النظر في نظرياتنا التي نعتز بها. خذ هذه المشكلة السكانية ـ!».

سألته وانجا بصوت متألم غريب: «أتقول إن على النساء ألا يلدن مزيداً من الأطفال؟».

«لا. لكن يجب أن يتناسب الأمر مع إمكاناتنا لإطعام الأفواه. إن لم يحدث إجراء سريع، فسوف نغدو، قريباً، مثل الهند، حيث ألف فم جائع يمتد إلى رقابنا. ألا تتفقين معي؟». واستدار إلى عبد الله: «أنت لم تقل لنا، بعد، اسمك... وها أنا مع كاريغا نحل مشكلات العالم».

فكر كاريغا: «هكذا، الشعب هو العدو».

لم يستجب عبد الله رأساً. سعل قليلاً، ثم تكلم بصوت لا حياة فيه:

«سقط الأرنب والغزالة، يوماً، في حفرة. فقال الأرنب: دعني أتسلق ظهرك أولاً، ثم أسحبك خارج الحفرة. وهكذا تسلق الأرنب على ظهر الغزالة، وقفز إلى الأرض اليابسة المشمسة. عفر نفسه قليلاً، وشرع يمشي مبتعداً. صاحت الغزالة: هيه... أنت تنساني. قال الأرنب للغزالة: دعيني أنصحك يا صديقتي. لقد سقطت معك في هذه الحفرة، خطأً. مشكلتك يا غزالة، أنك تمضين نطاً نطاً قفزاً قفزاً في الهواء، بدلاً من أن تسيري بثبات على الأرض، وتنظري إلى أين أنت سائرة. أنا آسف، لكن لا تلومي إلا نفسك».

ثم نهض عبد الله، وغادر الحجرة، تحت ظل ثقيل مرهق.

سأل النائب البرلماني: «من هو؟».

أجاب منيرا: «عبد الله، رجل أعمال... صاحب مخزن في المورووغ».

«وراوية حكايات جيد أيضاً. ها! ها! ها! هل الأعمال جيدة في تلك الأنحاء؟».

«ليس رديئاً... إنه يدبر» تابع منيرا، محاولاً إزالة أي ضرر قد يترتب على انصراف عبد الله المتعمد.

«هذه هي الروح، الاعتماد على النفس. أنت تعرف، قبل الاستقلال كانت الأعمال التجارية بأيدي الهنود. لكن عندنا الآن أفارقة يدبرون الأمور كلها، بصورة جيدة، وأحياناً يجنون أرباحاً أكثر من الهنود. إن الربح الجيد ليس احتكار جنس من الأجناس. أهو من أهالي الموروغ؟».

«ليس بالضبط. فهو أيضاً قادم جديد إلى المكان».

مال النائب على ظهر كرسيه. لقد تأكدت مخاوفه الآن. لا بد أن ثمت مؤامرة لتلطيخ اسمه. أعداؤه السياسيون يرسلون أناساً غرباء إلى الموروغ ليثيروا قوماً مسالمين. وهو لم ينس بعد، ما جرى لمبعوثيه اللذين أرسلهما إلى الموروغ ليعدا أمر الشاي. وهو نفسه كان جد مشغول بأن تتم عملية حفلات الشاي بأيسر السبل، وأقصر الأوقات. ثم أن فكرة الحركة الثقافية كانت فكرته وفكرة قلة من أصدقائه. لقد باعوا الفكرة إلى شخصيات هامة جداً. لقد هز التوتر الذي ساد البلد، بعد اغتيال الشيوعي الهندي، نديري وآخرين قليلين، وبدت فكرة شرب الشاي ويمين الولاء، على نطاق جماهيري، فكرة مثالية. لكن أهل دائرته الانتخابية خذلوه.

«والآن يا أصدقائي، كيف أستطيع أن أساعدكم؟ نحن كلنا خدمكم. أنتم تعرفون، مهما كانت الدائرة الانتخابية التي جئتم منها».

«سيدي، هناك آخرون ينتظرون في حدائق جيفانجي. أرسلونا فقط لنرى إن كنت في مكتبك».

«لمَ لم تأتوا بهم إلى هنا؟». ضغط على زر، وهو يشعر بارتياح أكثر، ودخلت السكرتيرة. «هل بإمكانك الذهاب إلى حدائق جيفانجي وتطلبي من الآخرين المجيء إلى المكتب؟ إنه مكتبهم، بيتهم، ويجب ألا يخشوا».

عقب منيرا: «انتظري لحظة... إنهم أكثر من أن يسعهم المكتب. ومن الأفضل أن تذهب أنت إليهم، وتتحدث معهم هناك».

«حسناً، أيتها السكرتيرة... آسف حقاً لأني لم أكن هنا أمس. كان عليّ الذهاب إلى مومباسا. عمل حكومي. آه... كثير جداً. لكننا أقسمنا أن نخدم الناس. لن يعجز فيل عن حمل أنيابه مهما كانت ثقيلة. فهل تستطيع إخباري لم جئتم بهذه الطريقة، قبل أن ألتقي مع الآخرين؟».

كان، يريد، في أول الأمر، أن يذهب رأساً، ويلتقي مع الحشد، لكنه فكر فجأة بأن الأفضل أن يعرف شيئاً عن المهمة مسبقاً، كي يهيئ نفسه.

قال نجوغونا: «جئنا لمعرفتنا أنك ولدنا. ليس من بيت فيه طفل ذكر، لا يؤكل فيه رأس تيس ذكر. منذ ستة شهور ونحن بلا مطر في الموروغ. وأخذت ماشيتنا وأبقارنا تهلك. وقد أكلنا آخر حبات الذرة من الموسم الماضي. لهذا تشاورنا وقلنا: عندنا ولد فمه قريب من آذان حكومتنا».

وبينما كان نديري ينصت، غدا أكثر فأكثر قتامة.

إذ كان عليه، وهو النائب، أن يعرف ما يجري في منطقته. فإن أمسى الأمر معروفاً للجميع، استغل خصومه الوضع، واتخذوه رأسمالاً سياسياً. قد يكون جد متأخر. ربما عرف خصومه بالجفاف ودبروا القضية كلها ليروا ما سوف يفعل، بغية مضايقته، بالتأكيد.

«لم لم تأتوا قبلاً؟» سأل مقطباً، باحثاً في ذهنه عن سبيل نجاة، وفي الوقت نفسه.

«نعرف أنك رجل مشغول، وأن العمل الحكومي يبعدك، وإلا... لكنت عدت لترانا. لقد انتخبناك لهذا: إذاً، لماذا نشكو؟ كما ظننا المطر هاطلاً. لكن يقال إن الله، في الأعالي، لا يأكل العصيدة. وقد أرسل إلينا هذه المرأة، وهذين المعلمين، وهم يعرفون أكثر منا. وقد أخبرونا بأنك ستكون سعيداً برؤيتنا».

«طبعاً، طبعاً. كانوا مصيبين. وأنا شاكر لهم»...

ثم نظر إلى منيرا وكاريغا بعينين تنمان عن التقدير. لكنه، في داخله، كان يتميز غضباً لهذه الحيلة الواضحة. يظن أعدائي أنهم فطنون، يعملون عبر المعلمين، وربما كانت لمنيرا هذا مطامح، يتدخله في شؤون أهل دائرتي. ها! «شيء جيد أنك ذهبت لتدرّس في المووروغ. هل... إيه ـ نسيت اسمه ـ من ضابط التعليم في روا ـ ايني؟».

«السيد مزيغو».

«كم مضى عليك ـ ايه ـ في ـ».

«نحن في الحقيقة غريبان هناك. لكني ثمت منذ أكثر من عامين، والسيد كاريغا منذ الشهور القليلة الماضية».

ها! مزيغو ذاك. مرتش. يثير المتاعب ضدي. يخلق الاستياء.

لقد تصاعدت غريزته المقاتلة.

«كانت رحلتكم شاقة طويلة. حسناً! لنخرج الآن حتى نلتقي بالآخرين. ثم أجيبكم مجتمعين».

ساروا إلى حدائق جيفانجي، وعندما اقتربوا من الآخرين، زغردت النساء زغاريد نغيمي الخمس التي تتعالى للطفل الذكر، والبطل العائد. وخلال ثوان، اجتذبت الزغاريد حشداً من الجوابين، وجحافل من العاطلين، الذين ينامون عادة صابرين على جوعهم، في الحدائق، ويفرحون لكل دراما دينية أو سياسية أو حتى إجرامية. سر نديري للاستقبال، لكن مخاوفه لم تتبدد. قدمه نجوغونا إلى الحشد باعتباره «ابننا الكريم الذي أرسلناه ليجلب نصيبنا من المدينة»، وأعاد نداءهم طلباً للمساعدة إزاء الجفاف. كاريغا لم يستطع أن يحلل موقفه، جيداً، للنائب، لكنه، مثل الآخرين، يأمل، متعلقاً بشفتي النائب، متتبعاً حركاته وإشاراته، ومنتظراً بلهفة، الحل الدرامي لمشكلاتهم.

أما نديري، فلم يضع بعد، خطة مناسبة. لكن السياسي هو السياسي، وقد أثاره منظر الحشد المتزايد، وألهمه، بل ذكره بالأيام العاصفة في مؤتمر لانكستر هاوس، والسفرات إلى لندن، والجماهير المنتظرة في المطار، والخطب في كاموكونجي التي كانت تقابل دائماً بالصيحات الهادرة وزغاريد الأمل والمجد.

الحرية!

الحرية أو الموت!

الحرية أو الموت!

يسقط أعداء حريتنا التي أخذت بالقوة!

يسقط أعداؤنا!

يسقط مروجو الشائعات ومثيرو الفتن!

يسقط مروجو الشائعات ومثيرو الفتن!

هارامبي!

هارامبي!

«شكراً يا أصدقائي. شكراً يا أهلي في المورِوغ. هذا أسعد يوم في حياتي منذ منحتموني أصواتكم، وقلتم لي أن أمضي قدماً، أناضل إلى الأبد، خادماً لكم في البرلمان».

توقف، منتظراً انتهاء تصفيق التشجيع.

«سمعت عن مصاعبكم في المورِوغ. وهي ليست من عمل أي إنسان. لكنني سعيد بنقلكم المشكلة إلى خادمكم. نديري. هذا هو معنى الهارامبي. أتريدوننا نعمل معاً مناضلين ضد العطالة والآفات الأخرى؟».

«نو م م م م م!».

هتف حشد الباحثين عن عمل: «أنت تحكي!».

وأضاف آخرون: «توبوا! توبوا!».

توقف ثانية، كي ينحسر الهتاف الغاضب. وفجأة، كان إلهاماً جاءه من الحشد والهتاف، رأى بوضوح، كيف يرد كيد أعدائه إلى نحورهم، ويحوله لفائدته هو. كانت الفكرة بسيطة ومباشرة، بحيث استغرب لأنه لم يفكر بها قبلاً، فينتهي من القضية بأسرها.

«شكراً، يا أصدقائي. لدي الآن بضعة اقتراحات أقدمها، وأريد منكم أن تصغوا إليها بعناية، لأنها ستعني تضحية من جانب كل واحد منا ـ الصغير والكبير، المعلم والتلميذ ـ من أجل المصلحة العامة، ومجد المورِوغ».

زغردت النساء، لثلاث دقائق مستمرة، مما جاء بمزيد من الناس الذين كانوا يتمشون في ماركت ستريت، وموينـدي، وشـارع مبنغـو، وطريق الحكومة، أو داخل أماكن عملهم، كما جـذبت أيـضاً، قلـيلاً من طلبة الجامعة.

«الآن، أريدكم أن تعودوا إلى المـوروغ. تعـاونوا. اجمعـوا المـال. بإمكانكم حتى أن تبيعـوا بعـض أبقـاركم ومـاعزكم بـدل أن تتركوهـا تهلك. غوصوا عميقاً في جيوبكم. وعلى رجال أعمـالكم، وأصـحاب مخازنكم، بدلاً من رواية الحكايات، أن يتبرعوا بسخاء. كونـوا أيـضاً فرقـة غنـاء ورقـص ـ مـن أولئـك الـذين يعرفـون الأغـاني التقليديـة. جيتيرو. موثو. ندومو. ممبورو. موثنغوكو. موومبوكـو ـ أشـياء كهـذه. ثقافتنا، ثقافتنا الأفريقية وقيمنـا الروحيـة، يجـب أن تـشكل الأسـاس الحقيقي للأمة. سنرسل، يجب أن نرسل، وفداً قوياً، إلى غاتوندو!».

كان مـنفعلاً تمامـاً لمـستقبل هـذه المهمـة، بحيـث ظـن الـصمت المخيم، موافقة، مما زاد في حماسته وتخيلاته.

هتف أحدهم: «لنشرب مزيداً من الشاي!».

«ولكن ـ» حاولت أصوات قليلـة أن تبلغـه، لكنـه كـان منـدفعاً في تفاصيل جديدة.

«يجب أن نثبت أننا نقوم بدورنا في مـشاريع العـون الـذاتين بـروح الهارامبي، لنضع حداً، مرة وإلى الأبد، لكل جفافـات هـذه الأرض، في المستقبل».

«لكننا... لكنننا... نتضور جوعاً» أصوات أخـرى حاولـت مقاطعـة هذا السيل البلاغي، بلا فائدة.

«مهـم جـداً، وأنتمـا يـا مـنيرا وكاريغـا، قومـا بـدوركما، أعـدوا التلاميذ. دعوهم يكونوا جوقة. علموهم بضع أغان وطنية».

وخطر لكاريغا أن الرجل مجنون.

كان يحس القلق والاضطراب في الجمهور.

«سيد نديري!». صاح، ونهض يريد الكلام، لكن نديري أشار عليه بالسكوت.

«أجمع قلة من الكبار. عقلاء مثل نجوغونا - أنت تعرف، يستطيعون أن يزوقوا خطبهم بمثل أو مثلين. دع الألموروغيين الحقيقيين يكونون الناطقين باسمكم، لا الغرباء - ولسوف أقود الوفد. سأقيم صلواتكم واسترحاماتكم. يجب أن يكون اسم المورووغ على الخارطة الوطنية. أوهورو. هارامبي!».

توقف، ليستجمع أنفاسه، ويستنفد الهتاف. صاح بعض من في الحشد «هؤلاء هم الناس الذين يسيئون إلى حريتنا»، فتعالت همهمة تأييد واحتجاج. وفجأة، طار حجر في الهواء فضرب نديري على أنفه. ثم انطلقت زوبعة من قشور البرتقال، والأحجار، والعصي، وكل شيء. حاول نديري، لبضع لحظات، الحفاظ على هيبته، وإهمال المقذوفات المتتابعة، المتطايرة حوله. ثم صكت فمه كتلة من الطين. الوقت متأخر على فرار كريم. بغتة أطلق ساقيه للريح، متعجباً مما جرى، وعما إذا كان قد استصغر شأن أعدائه السياسيين. هرول عبر حدائق جيفانجي، نحو دائرة الشرطة المركزية، متبوعاً بأناس قلائل يهتفون «أمسك. أمسك. هويداً!» كان يتمنى لو طار حقاً في الهواء، فوق المارة.

غمغم كاريغا بمرارة: «لقد فشلت المهمة». أحس بدموع ساخنة. تحاشى عيون الناس. هكذا جلس وفد المورووغ على العشب، بعد أن هجره نائبه، وجمهور المدينة الذين تفرقوا مسرعين في الشوارع المحيطة... وأحس الوفد أن العالم كله يقف ضدهم.

قوة من شرطة مكافحة الشغب، وسيارة شرطة ذات صفارة دخلت إلى المشهد. لكن الضابط المسؤول دهش حين رأى مجموعة محترمة، وإن كانت حائرة، من الرجال المسنين، والنساء، والأطفال. نديري جلس في السيارة بجانب الضابط، وأشار إلى منيرا، وعبد الله، وكاريغا.

قال الضابط للرجال الثلاثة، وهو يقودهم إلى سيارة الشرطة المنتظرة: «أنتم مطلوبون في مركز الشرطة للإجابة عن بضعة أسئلة».

راقبتهم نياكينيوا وهم يبتعدون. استدارت إلى الوفد الواجم: «لنتبعهم، ونطالب بإطلاق سراحهم، إنهم لم يفعلوا سوءاً، لم يفعلوا سوءاً!».

6* أوقف منيرا، وكاريغا، وعبد الله، في دائرة الشرطة المركزية، لليلة واحدة. في الصباح التالي أخذوا إلى المحكمة، حيث قالوا بأنهم غير مذنبين بصدد التصرف بطريقة قد تؤدي إلى خرق الطمأنينة والسلام. المحامي هو الذي أنقذهم. فلقد طالب، بنجاح، ليس فقط بالنظر في قضيتهم غداً، وإنما بإطلاق سراحهم أيضاً، كفالة، بينما أراد المدعي تأجيل القضية أسبوعين، وإبقاء الثلاثة موقوفين، طوال استمرار التحقيق.

في يوم المحاكمة، شاهدوا وجهاً آخر للمحامي: لا المضيف المحتفي، لا المحلل الاجتماعي، بل المحامي الشديد العنيف، الذي لا يعرف الرحمة، والشديد الاشمئزاز في مناقشة شهود الإثبات، والنائب البرلماني، بخاصة. من الأسئلة والتعليقات الجانبية استطاع المحامي أن يروي قصة بطريقة ماهرة، تؤيد دعوى هؤلاء الذين يهددهم الجفاف، والظروف العامة في المنطقة. ووصف

الموروغ بتعابير مثل «البيت المهجور» و«القرية المنسية»، جزيرة للتخلف، امتصت، وجفت، وتركت واقفة وحدها، صورة مهولة مشوهة لما كانت عليه حياة الفلاح، وما ينبغي أن تكون. وفضح إهمال أولئك الذين استؤمنوا على مهمة تمثيل الشعب. لو قام ممثلو الشعب بواجبهم، فهل ستكون مثل هذه الرحلة ضرورية؟

واختتم مرافعته بوصف رحلتهم الأسطورية، في تفاصيل تأثر لها الحاضرون في المحكمة، حتى القاضي نفسه، ثم طلب، بصورة درامية، من المحكمة، أن تخرج وترى الحمار والعربة اللذين لم يطلق سراحهما من التوقيف، إلا ذلك الصباح.

وعند تبرئتهم، اتفق القاضي مع المحامي، على وصف الرجال الثلاثة بـ«السامريين الطيبين»، مما أفعم قلوبهم دفئاً. مثيراً أيضاً كان منظرهم، صورهم وأسماؤهم في الصحف. إحدى الصحف اليومية جعلت عنوانها الرئيس:

ثلاثة سامريين طيبين يبرؤون

ثم جاء محرر التقارير، الذي أحس بالدراما الإخبارية خلف العناوين الرئيسية، فتتبع المجموعة، والتقط عدة صور، وسأل أسئلة كثيرة. وبعد يوم، انتشرت قصتهم على الصفحات الوسطى، تحت ثلاثة عناوين:

موت في الصحراء : جوع في الموروغ. حمار في مهمة إنقاذ :

وكانت صورة حمار عبد الله تحتل القصة، وهو يجر وراءه عربة فارغة، والمجموعة تنظر مشدوهة من الخوف، ضائعة قليلاً في غابة المدينة ذات السيارات والعمارات والناس المزدحمين في الشوارع.

من السخرية، أن هذا الأمر هو الذي أنقذ بعثتهم. فلقد انهالت عليهم التبرعات من كل مكان. وبعد ثلاث ساعات من نشر القصة في الصحيفة، غمرت مكتب المحامي التبرعات العينية إحدى الشركات بنقل المجموعة مجاناً: حمارهم، وعربتهم، وهداياهم. ودعا الموقر جيرود تجمعاً كنسياً لإرسال فريق إلى المنطقة ليرى ما يمكن أن تقدمه الكنيسة. ووعد ناطق بإرسال خبراء يدرسون إدخال الموروغ في مشاريع الخطة الحكومية بعيدة المدى، وإمكان الإسراع بالمشاريع، حتى تغدو الموروغ والمناطق المماثلة مكتفية ذاتياً، بحيث تستطيع مواجهة تهديد الجفافات.

بعد شهر كامل من العودة الظافرة للمجموعة، جاؤوا: رجال كنيسة أقاموا الصلوات استمطاراً، ووعدوا بكنيسة للمنطقة. وموظفون حكوميون قالوا إن المنطقة بحاجة ماسة إلى ضابط منطقة خاص بها ـ فهي بعيدة جداً عن روا ـ ايني لغرض الإدارة الفعالة ـ كما وعدوا بكتابة تقرير يوصون فيه بتشكيل لجنة تحقيق عالية الصلاحيات، لتدرس حاجات التنمية في المنطقة. منظمات إحسان. فريق من طلبة الجامعة الذين كتبوا، فيما بعد، تقريراً يرجع الجفاف والتخلف إلى الاستعمار الجديد، ويدعو إلى إلغاء سريع للرأسمالية، ووقعوا التقرير باسم «لجنة الطلبة ضد الاستعمار الجديد».

* * *

الرجل الوحيد الذي ساءه، بالتأكيد، المسار الذي اتخذته الأمور، كان نديري وا ريرا. فقد عاد إلى نواديه الاجتماعية، مغطياً هزيمته الموقتة بالبيرة والوسكي. لكن ذهنه المخطط كان يعمل. فكلما فكر أكثر بالموضوع، ازداد يقيناً من أن أعداءه السياسيين، وهم حقاً أعداء رفاهية البلد واستقراره، قد دبروا الأمر كله. ثمت مخطط لتنسيق الأحداث التي أدت إلى الظهور في المحكمة.

تذكر، ثانيةن، إذلال مبعوثيه. إنه ما يزال يشعر بأذى شخصي، لأن عليه أن يكتم القصة، خشية أن يقال عنه، وهو الدماغ المفكر وراء ثقافة شرب الشاي كلها: إنه فقد السيطرة على دائرته الانتخابية. لكن أعداءه ربما حسبوا صمته ضعفاً. سوف يثبت لهم خطأهم، ذلك لأنه بسبب علائقه العملية مع الكثير ممن في القمة، يزن أكثر من وزير. سيستخدم الآن كل علائقه ليهزم أعداءه. كما وضع تفاصيل ليجعل من الـ م.ث.ك، الآلة المخيفة، للرعب في البلاد.

كانت الـ م.ث.ك شيئاً غامضاً في ذهنه. وقد تطورت انطلاقاً من إيمانه بالأصالة الثقافية التي استخدمها بنتائج إيجابية، في مشاركته أعمال الأجانب، والشركات الأجنبية. لِمَ لا يستخدم الثقافة أساساً للوحدة الاثنية؟ لقد قرأ في موضع ما، أن بعض القادة المعروفين في بعض بلدان غرب أفريقيا، كانوا أعضاء في جمعيات سرية، استخدمت السحر والشعوذة، وبقايا العبادات قبل ـ الكولونيالية، والحفلات، كي تُبقي أعضاءها تحت الخوف والطاعة. نعم. لم لا؟ هو نفسه تلقى مؤخراً دعوة سرية للانضمام إلى الماسونيين في نايروبي ـ وهم أخوة سرية أوروبية لرجال الأعمال. لم لا يكون هناك مقابل ذو قاعدة أفريقية للسيطرة على الإقليم الأوسط، حيث يبدو الفلاحون والعمال، كثيري الشغب، وهو أمر خطر، لأن لهؤلاء الناس تاريخاً في المقاومة العنيفة ضد الاستعمار، وروح نضال، يمكن أن يستخدمها أعداء التقدم والازدهار الاقتصادي.

وفيما بعد، يمكن بيع هذه الفكرة لزعماء آخرين من جماعات أخرى. ناقش الأمر، مع المدراء الكبار للشركات، وملاكي الأرض

الكبـار، ورجـال ذوي مراكـز. قليلـون عارضـوها، قـائلين إن هـذه الممارسـات جـد بدائيـة، وأن هنـاك دائمـاً الـشرطة، والجـيش، والمحاكم القانونية، للقضاء على أي مقاومة.

لكن حججه ازدادت أهميـة، بعـد التـأثير غـير المتوقـع، لاغتيـال الهندي، ثم اغتيال سياسي أفريقي بارز. فجأة أيد الفكرة حـتى أولئـك القليلون الذين عارضوها.

نجحت «حفلة الشاي الجماعيـة» مائـة بالمائـة، إذا اسـتثنينا بعـض الأصوات المضللة في البرلمان، والكنيسة، وطلبة الجامعة. إضافة إلى الصحافة الأجنبية التي ظنت، لسذاجتها، أن حفلة الـشاي، مـاو مـاو ثانية.

وفي خضم انفعالات الفترة، كان صـعباً جـداً أن يـشرح للـصحافة الغربية أن هذا الأمر مختلف تماماً، وأنه لـيس ضـد التعـاون التقـدمي والمشاركة الاقتصادية الفعالة مـع الإمبرياليـة. إنـه، نـديري وا ريـرا، مقتنـع بـأن أفريقيـا لـن تحتـرم إلا إذا أصـبح لهـا روكفلراتهـا، وهيوزوتهـا، وفوردداتهـا، وكورباتهـا، وميتـسوبوشيها... الــ م.ث.ك ستخدم مصالح الأغنياء المحليين وشركائهم الأجانب، لخلـق عمالقـة اقتصاد مماثلين!

تغلبت الـ م.ث.ك على الاستنكار الأخير لحفلة الشاي الجماعيـة، وهو الآن واثق تماماً من أن المنظمـة سـوف تنمـو باسـتخدام وسـائل جديدة. حتى الـصحافة الأجنبيـة، وزعمـاء الجماعـات الأخـرى لـن يعارضوها، إذا ما فهموا طبيعة المصالح الاقتصادية والاجتماعية الـتي تدافع عنها.

شعر بالاطمئنان والهدوء، فجأة، حين فكر بـ م.ث.ك أنه يعرف

كيف يرد لأعدائه الصاع صاعين. في البداية، اعترف بأنه أهمل الموروغ. وسوف يعمل الآن لتقوية فرع الموروغ لـ م.ث.ك الذي هو رئيسه، وسكرتيره العام، وأمين صندوقه. في الوقت المناسب، قد يسند منصبين إلى شخصين معتمدين من المنطقة. ثم يؤسس شركة (م. ث. ك) الموروغ المساهمة المحدودة. رأس المال يمكن دائماً جمعه من الناس. بع اسمها إلى كل أبناء الموروغ، سواء كانوا منها أم من خارجها. قد يستطيع حتى استخدام حصته من الملايين التي جمعت في حفلة الشاي الجماعية. باستطاعته أن يقترض مبالغ إضافية من المصارف. شركة (م. ث. ك) الموروغ المساهمة المحدودة، مع شركات أخرى، ستطور إمكانات الموروغ السياحية.

.... لكن الطرق!

ثم تذكر أعداءه. ألن يفضحوا دوافعه؟ من هم؟ أيمكن أن يكونوا ذلك الصبي كاريغا، وذلك المعلم، وذلك العاجز؟ لا... إن هؤلاء ليسوا سوى رجال واجهة: كانوا يعملون لصالح شخص آخر. من هو؟

فجأة، عرف.

إنه المحامي طبعاً. قدم نديري شراباً لكل من في النادي. لِمَ لم يرَ الأمر قبلاً؟ لماذا؟ المحامي هو الدماغ المفكر وراء هذا كله. المحامي هو العدو. إنه عدو الـ م.ث.ك والتقدم. سيصغي نديري، المحامي، ولو اقتضى الأمر عشر سنين. سيطلب من جلاديه أن يفتحوا «ملفاً» للمحامي في أذهانهم.

عاشت الموروغ، عاشت الـ م.ث.ك هتف قلبه مبتهجاً. تلك الليلة ذهب إلى الكازينو ليجرب حظه الجديد.

في اليوم التالي أصدر بياناً، يعد بتقصي الإمكانات، بغية فتح المنطقة للسياحة، وتأمين قروض لأهالي الموروغ ـ لكن للألموروغيين الحقيقيين فقط، لا الغرباء الذين يرسلهم إلى هناك أعداؤه السياسيون كي يستفيدوا من الكوارث الطبيعية ـ لتطوير حقولهم. سيدشن قريباً مشروعاً مالياً ضخماً ـ شركة (م.ث.ك) الموروغ للاستثمار المساهمة المحدودة ـ باعتبارها، وسيلة سريعة لتنمية المنطقة.

الموروغ لن تعود كما كانت...

* * *

القسم الثالث

الـميلاد

الفصل السابع

1* «أجل، لم تعد المورُوغ كما كانت... بعد الرحلة».

هكذا كتب منيرا، بعد سنوات، مردداً كلمات نديري. كانت كتابته مزيجاً من الاعترافات الذاتية وأوراق السجن. إنه يخطو، ليلاً، على الأرضية الإسمنت الباردة، وهو يشعر بعداء جدران الزنزانة العارية، وعتمتها القاحلة، يتسلل في لحمه وعظمه. ها هو ذا يغمغم...

«لم تكن الأشياء في يوم من الأيام نفسها». جلس في ركن، مستنداً إلى الجدران، ومد رجليه على الأرض.وبدأ يحك نفسه، أضلاعه، وخاصرته، ومؤخرته، وكل جسمه، وكاد يستمتع، للحظة، بهذا الانقطاع القاسي عن أفكاره وذكرياته. من بين شعره، اقتنص قملة سمينة قصعها بين أظافره. وقد جفل لصوت الموت، الحاد جداً، في العتمة الباردة. مسح أصابعه بأطراف سرواله، وغمغم: «بعد الرحلة... بعد الرحلة... حل شيطان بيننا، فلم تعد الأشياء هي نفسها».

مضى الآن ثمانية أيام على احتجاز منيرا، في مركز شرطة المورُوغ الجديد. توقع أن يأتيه المفتش جودفري، يومياً، للاستجواب والمناقشة. كل مساء يأتي أحد الشرطيين ـ إما القصير أو الطويل ـ ليجمع حلقة اليوم، ويأخذها. فيهيئ منيرا نفسه، شاعراً بتألق الروح، واتقاد الذكاء، وفخر المخترع أو المكتشف، وكان متلهفاً لنقل هذا إلى أي مستمع. إنه يحس أكثر مما مضى بامتلاكه، الآن، المفتاح، الذي فتح مرة وإلى الأبد، الارتباط الحقيقي الشامل بين الأشياء، والأحداث، والأشخاص، والأماكن، والزمن.

ما سبب حدوث الأشياء؟ الموروغ الجديدة، ذات أضواء النيـون، والبارات، والمنازل، ومحلات البقالة، والمـزادات الدائمـة، وقنـاني التنغيتا، والسرقات، والإضرابات، وإغلاق المعامل، وجرائم القتل، ومحاولات القتل، والعاهرات الجوابات في النوادي الليلية الرخيصة، ومراكز الشرطة، وإغارات الشرطة، وزنازين الشرطة: مـا الـذي جـاء بالموروغ هذه، من الموروغ القديمـة ذات الأطفـال النعسانين الـذين يملأ أنوفهم المخاط، والذين يصعدون، ويهبطون أشجار الماريكي؟ ولماذا حدثت الأشياء بهذه الطريقة، وفي هذا الوقت، ولـيس بطريقـة أخرى، وفي وقت آخر؟ كيف حدث أن أفعال البشر التفاهة، الصادرة عـن آلاف الأسـباب والـدوافع، قـادرة علـى تغيير التـاريخ، وإدانـة النفوس، وإلحاق اللعنة بها، ورميها في العذاب الأبدي، والخسران، والذنب والقسوة، ولكـن في الحـب أيـضاً ـ نعـم ـ في الحـب الـذي تجاوز كل فهم؟

لا... ثمت نظام، قانون، وهذا ما أراد أن يبينه للمفتش جودفري.

لكن حين مضى اليـوم التاسـع، ولم يـأت المفـتش، أحـس مـنيرا بشيء من القلق. لقد بدأ يشعر بالإعياء من الروتين اليومي: عصيدة في الصباح، طاولـة الكتابـة. غـداء الاوغـالي والـسوكوماويكي المغليـة، طاولة الكتابة. عـشاء الـذرة والفاصـولياء المليئـة بالحـشرات. وأخـيراً أرضـية الإسمنـت. قلـق جـامح يتأكلـه في نومـه، ويتركـه مـشتتاً في الصباح. حاولن ترويحاً عن أنفسهم أن يتمشى في ساحة التمارين. لقد أحس بتأثيرات العزلة، ليلة اليوم الخامس، فجـأة. كـان الـزمن فراغـاً شاسعاً، لا بداية، ولا وسط، ولا نهاية، لا تقسيم تك ـ تون ـ تـك ـ تون. لا امتداد ظلال، ولا تقاصر ظلال. لا ضحكة إنسانية، ولا غـدو ورواح يشعرانه، عادة، بقياس الزمن ومـروره. أفتـرض... أفتـرض...

أفترض أن الأمر ليس!... وحيداً في الظلام، بلا صوت بشري يحدثه، أحس بالثقة تفارقه. إنه فزع ـ حاول أن يبلغ القانون، لكنه لم يجده بهذا اليسر، مثلما كان يجادل خصماً أو يحاول إقناعه. كان المفتش جودفري يعبث به. يضحك منه. ربما كان يستمتع بطريقة القط حين يترك الفأر يهرب قليلاً، متوهماً الحرية والنجاة الوشيكة، قبل أن يثب عليه. في الصباح، سار منيرا إلى الشرطي الطويل، الذي كان في نوبة الحراسة، ووجد نفسه يتوسل ويطالب في آن:

«أريد التحدث مع الضابط المسؤول. أطالب بمقابلة أعلى سلطة في مركز شرطة الموروغ الجديدة. لماذا أيها السيد الشرطي، حتى أنت ترى أن الأمر صار سخيفاً. أنا، المعلم، الكبير السن، أحرس، وأسطر قصة خيالية على الورق. فهل الذكريات سوى قصة خيالية أنتجتها مخيلة محمومة؟ أعني كيف يصل المرء إلى حقيقة فترة ماضية من الأحداث؟إن لي حقوقي أيضاً. أنا أعرف طرقهم البارعة: الضابط يتظاهر بالاستجابة إلى رغباتي: سيد منيرا، كل ما نريده منك إفادة بسيطة...

إذاً، لماذا أبقيتموني هنا، ثمانية أيام؟ هذا اليوم هو التاسع: سيد منيرا... سنعطيك قلماً وورقة.

لا أريد ورقتهم، لا أريد قلمهم. اسمعني أيها السيد الشرطي... إنهم لا يريدون إفادة... يريدون اعترافاً، اتهاماً. قل لهم إني لا أتهم أحداً. لا، أيها السيد الشرطي. هذا ليس صحيحاً. أرجو أن تذهب وتخبرهم، أخبر أي شخص، حتى الضابط الأول، أقصد الشات، بأنني مستعد للإجابة عن أي أسئلة. فقط يجب أن يبعدوني عن هذا... هذا السجن...».

نظر الشرطي الطويل إليه، عاجزاً عن تتبع منطق حجته. لكنه ما يزال خائفاً من منيرا، شأنه مع كل من يدعي أنه يسمع أصواتاً من الله. والواقع أنه يفضل لو كان يحرس آخر: حاول أن يكون معقولاً وجد مؤدب.

قال: «لكنك لست في السجن، يا سيد منيرا!». أجفل منيرا حين سمع اسمه.

«ما هذا، إذاً؟ افتح الباب ودعني أخرج».

ذعر الشرطي ذعراً حقيقياً، خشية أن تقع واقعة. منذ طفولته ظل يخاف من قيامة المسيح الثانية، فأبقى نفسه مستعداً للوثوب إلى الجهة الحق. لكن المرء ليس متأكداً في هذه القضايا. تحدث الآن بسرعة، بل بعصبية.

«كن معقولاً يا سيد منيرا، الآن. لديك هنا زنزانة، حسناً، غرفة خاصة. وعندك باحة مفتوحة. تستطيع التمشي أو النوم أو الكتابة. لا أحد يتدخل في أمرك. انظر إلى الجهة الأخرى من هذا القاطع. كل أولئك المقبوض عليهم حديثاً، وكل المحتجزين، قابعون هناك. إنهم في زنزانات مشتركة، أحياناً أربعة أو خمسة أو عشرة في زنزانة واحدة. وهي ليست كبيرة كزنزانتك. البارحة جيء بشابين رديئين. أتود هذا النوع من الصحبة؟ أنا لا أقول إنك في السجن، موقوف، أو محتجز. فقط... حسناً... جوي، كيميريا، ومزيغو كانوا أناساً مهمين جداً. وسوف نحتاج إلى سنين لنجد أمثالهم. جد أغنياء. مليونيرات. تصور. ديلاميرات أفارقة. هل زرت يوماً مكان القتل؟ لن تستطيع طبعاً. إنه رهيب... رهيب... يا سيد منيرا، القضية، بيني وبينك، لم تكن قضية سرقة أو محاولة سرقة. إن فيها أكثر مما ترى العين. على

الشرطة ألا يتركوا حجراً في موضعه. وهـذا هـو المفـتش جـودفري... شهير جداً... غريب بعض الشيء... أعني أساليبه... مثل الآن... إنـه لا يغادر مكتبه البتة... يقرأ.. يقرأ...».

«لا أريد نظرياتك. أريد فقط أن أتكلم مع المفتش جـودفري. أنـت لـست إلا سـجاناً. ونحـن كلانـا في الـسجن. حـسناً... الجميـع في السجن».

«يا سيد منيرا. لكنك أنت اخترت أن تحتجـز هنـا! أردت أن تـدون الحقيقة. أنت نفسك رجل كبير. معلم. أحد رجال الله. يجب أن تكـون لطيفاً. تصور. ربما كنت أنت. حسناً. ربما كنت أنـت، المـرة القادمـة. يا سيد منيرا، الوقاية خير من العلاج».

ضحك منيرا، متضايقاً.

«أنت كثير الكلام. لكن انظر. لـيس عنـدي حـتى ملابـس أغيرهـا. جئتني هذا الصباح. قلت لي: ليس في الأمر، الكثير، يـا سـيد مـنيرا، استجواب روتيني فقط: ليس لدينا شيء ضدك. والآن لا تعطيني حـتى جريدة...».

«جريدة، يـا سـيد مـنيرا؟ لكنـك لم تطلبـها. لـدي تعليمـات مـن المفتش جودفري نفسه، تقضي بأن أزودك بما تحتاج. اطلب تعـط مـا طلبته. الآن أذهب وآتيك بواحدة، يا سيد منيرا. فقط يجـب أن أغلـب هـذا البـاب. لكـن لا تـسيء فهمـي. أنـا لـست سـجانك. إنـني ألـبي رغباتك».

راقبه منيرا وهو يغلق الباب الحديـدي الثقيـل. لقـد تحـسن مزاجـه قليلاً حين تكلم معه. أما الآن فقـد عـاوده الفـزع الليلـي. كـاد ينـاديـه ليعود. كأنما فارقته أي صلة بشرية، وعاد وحيداً مع سؤاله الـذي ظـل

بلا جواب... تصور تصور أن هذا القانون غير موجود... ابتعد عن الباب، وجلس عند السلك الشائك الذي يفصل باحته عن الآخرين. أحس بالنوم يدب فيه. استعد للاستسلام، مفعماً بالأمل. فجأة سمع أصواتاً آتية من الجانب الآخر، فخفق قلبه قليلاً بالفرح.

في البداية، كانت الأصوات بعيدة شيئاً ما وغامضة، لكنه بعد حين استطاع أن يتتبع الحديث. اتجه ببصره إلى هناك. كان ظهراهما نحوه. لهذا أصغى فقط.

كانا يرويان قصتهما، ربما إلى شخص ثالث، قد يكون الخفير، أو ربما كانا يعيشان تجربتهما من جديد، غير عابئين باحتمال أن ينقى الخفير أن المستمع هذه القصة إلى خارج تلك الجدران. سوف ينكرانها طبعاً في المحكمة. ضحك الواحد من الآخر، ضحكاً من إعلانهما براءتهما قبلاً أمام القاضي المقيم في الموروغ. لقد ألقي القبض على الثاني، أثناء محاولتهما السطو على فرع الموروغ للمصرف الاقتصادي الإفريقي. وبدا أنهما يتفاخران بأفعالهما السابقة، وزوغاناتهما من القانون. الأصوات أليفة بعض الألفة في مسمعي منيرا. لكنه عاجز عن تحديدهما. تمنى لو استدارا بوجهيهما نحوه. استمرا يتحدثان ويضحكان كأنهما غير عابئين بأي شيء في الدنيا، وكأن الأمر كله لعبة ذات قواعد معينة، وباستثناء «الخائن» لم يكونا يحملان ضغناً على أحد، أو على أي شيء آخر.

عاد الشرطي، وجاء معه بنسخة من «الصنداي موثمبيس». نظر منيرا إليه ببساطة: لم يعد مهتماً بالقراءة. ماذا يهم إن قرأ المرء أو لم يقرأ؟ لكنه أخذ الجريدة رغم ذلك، وقلب صفحاتها بإهمال.

جلس، وحدق في العناوين الرئيسية على الصفحة الرابعة: «جريمة قتل في الموروغ. شكوك في قضية لا أخلاقية. دوافع سياسية؟»،

ظهر أن العنوان الرئيسي أكثر دراماتيكية من القصة التي تلته وفكر منيرا بأن الجوانب الإخبارية للحادث كانت قد استنفدتها الصحف اليومية القومية، وبخاصة «الديل موثبيس» المثيرة، ومن هنا فالتخمين هو بلا دليل. إذاً، فهذا مصدر نظريات الشرطي. رمق بنظرة خاطفة، الشرطي الذي كان يرقبه من الباب، واستأنف قراءته. كان العمود الخاص أكثر إمتاعاً، فبعد أن لخص الكاتب تاريخ حياة كل من جوي، كيميريا، مزيغو، وصفهم بأنهم مناضلون وطنيون بارزون في سبيل الحرية السياسية والتربوية للأفارقة، والحرية الاقتصادية خاصة. إن ملكيتهم وإدارتهم لشركة تقطير تنغيتا المحدودة، التي جلبت السعادة والرخاء لكل بيت في المنطقة، إضافة إلى إعلاء سمعة البلد في العالم، تعتبر أنموذجاً لعبقريتهم في تسيير المشاريع، التي لا يضاهيها حتى بناة الثورة الصناعية في أوروبا. إنهم كروباتنا، وروكفلراتنا، وفورداتنا! واليوم انتهت حياتهم نهاية قاسية، أثناء ما كانوا يناضلون نضالاً مريراً من أجل الملكية والسيطرة الأفريقيتين الكاملتين، على معامل تنغيتا ذاتها وفروعها في مناطق البلد الأخرى. وكان من المؤمل أن تبدأ في القريب العاجل، مفاوضاتهم لشراء بقية الأسهم التي كان يمتلكها الأجانب. من تراه يستفيد من موتهم؟ على كل الوطنيين المخلصين أن يتوقفوا، ويفكروا!

ثم تأتي مدائح واستنكارات أخرى.

لكن خبراً آخر أثار اهتمام منيرا أكثر من سواه:

نائب برلماني يقود وفد احتجاج

«النائب البرلماني لالموروغ وجنوبي روا ـ ايني، سعادة نديري وا ريرا، صرح أمس، في مؤتمر صحفي، بأنه سيقود وفداً قوياً، إلى كل الوزراء، حتى إلى سلطات أعلى، إن اقتضى الأمر، مطالباً بتطبيق

عقوبة الإعدام في جميع قضايا السرقة، بعنف أو بدون عنف. كما سيطالب أيضاً بتطبيق عقوبة الإعدام نفسها، في كل الجرائم ذات الدوافع السياسية والاقتصادية.

وقد دعا النائب، أثناء تناوله مواضيع عديدة، إلى منع شامل ودائم للإضرابات. فالإضرابات تثير جواً من التوتر لا يؤدي إلا إلى عدم الاستقرار، وإلى أعمال العنف الدورية. والواجب أن تعتبر الإضرابات أعمالاً عمدية معادية للمصالح القومية، وتخريباً اقتصادياً. ودعا القادة النقابيين إلى التخلي عن الأنانية، وإلى الامتناع عن المطالبة بزيادة الأجور دون اعتبار المجموعات العاطلة عن العمل أو ذات الدخل الضئيل، التي سوف تكون المنتفعة الوحيدة من إعادة توزيع الأموال التي كانت ستذهب إلى زيادات غير منظمة في الأجور. لقد حان الوقت لتحذير النقابات من ابتزاز البلاد.

وحين أشار النائب إلى الوفد المقترح، دعا المعلمين، والمستخدمين، ورجال الكنيسة، وكل الناس ذوي النية الحسنة، إلى المشاركة في الوفد، إظهاراً لوحدتهم في استنكار الأعمال الخسيسة التي لن تؤدي إلا إلى إفراغ السواح والمستثمرين المحليين أنفسهم قد يجدون من الضروري استثمار رأسمالهم في الخارج عندما يتدهور الوضع».

قال منيرا في نفسه إن النائب مولع بالتصريحات الصحفية والوفود والعوائض. واستذكر صورة النائب قبل عشر سنوات، وهو في بدلة وقورة وربطة عنق... يجري هارباً عبر حدائق جيفانجي، متخلياً عن كل وقاره وكبريائه... بينما يطارده حشد من عاطلي المدينة... وربما كان يصلي من أجل معجزة تنقذه. شرع منيرا يضحك. ضحك حتى سقطت الصحيفة من يديه. استدار بعينيه إلى الناحية الأخرى، فرأى

الشبان الثلاثة يضحكون أيضاً، وينظرون إليه. التقت عيونهم. توقف عن الضحك. لقد عرف موريوكي بينهم. إذاً، فقد علم هو منيرا، موريوكي، كي يؤهله للسرقة والسجون؟

وكتب مجيباً إغراء الليلة الماضية: «لم شكي المباغت؟ كل شيء قدره الله تقديرا. يا لنفاق الأعمال البشرية المنفصلة عن الاستسلام الكلي لإرادة الله! لقد ارتحلنا إلى المدينة كي ننقذ الموروغ من الجفاف. وعدنا بجفاف الروح من المدينة!».

ثمت عنصر حق في تفسير الأحداث التي تلت رحلتهم إلى المدينة. إذ كان أول ما بني في المنطقة دائرة لمسؤول حكومي، ومركز شرطة. ثم جاءت الكنيسة التي شيدها اتحاد البعثات التبشيرية، باعتبارها بعضاً من رسالتهم الإنجيلية في الاندفاع نحو المناطق الداخلية الوثنية. وبدا له، بعد كل هذه السنوات، أن سخرية التاريخ تلك، كانت هي الطريقة التي تجلت بها إرادة الله.

2* حتى المطر الذي هطل بعد شهر من ارتحال الأفراد المحسنين والجماعات مع حقائبهم إلى المدينة، رآه منيرا، فيما بعد، الطريقة التي تجلى بها الله، بكل مجده المرعد المبرق. هكذا يظهر الله أن كل جهود البشر ستؤول إلى العدم، وأن إرادة الله ليس فوقها إرادة... لكن بالنسبة إلى نياكينيوا، ونجوغونا، ونجوغو، وورورو، وكل الآخرين العارفين بقوى مواثي... كان المطر استجابة جلية من الله للقربان، وضعت نهاية لعام من الجفاف. لقد سمعوا إله أفريقيا يصارع آلهة البلدان الأخرى. سمعوا، وأنصتوا، دهشين، إلى زئير الآلهة المخيف، وإلى صليل سيوفهم وهي تقذف النار من السماء.

خرج تلاميذ المدرسة جميعاً، وغنوا بأصوات تواقة، استبشاراً بالمطر:

اهطل... اهطل... يا مطر

كي أذبح لك

عجلاً شاباً...

وآخر... ذا سنام

سنام! سنام!

لكن المطر سمعهم. ها هي ذي الأرض تشربه طمأى. تتشرب القطرات الأولى، ثم ترتاح، شيئاً فشيئاً، وتفقد صلادتها، فتغدو لينة طريئة. الأطفال يخوضون في البرك الموحلة، وينزلقون خفافاً على المنحدرات والتلال.

وانجا مسكونة بجني المطر. إنها تسير خلال المطر، مبتلة الثياب، وتنورتها لاصقة بعجيزتها... ممراحة في أمواه السموات. كانت تجلس أحياناً، أو تقف ساكنة عند شرفة كوخها، وتنظر دهشة، إلى حياتها، التي يقطر عليها المطر من السقف. ماذا كان معنى حياتها؟ أين تراه استمرار الهدف؟ لم تظل في الحياة هكذا... امرأة غير متحققة؟ أرادت أن تبكي شيئاً... لم تعرف ما هو. إنها ونياكينيوا الآن قريبتان، جد قريبتين، أم وابنة... أكثر منهما جدة وحفيدة، وحين يتوقف المطر ستسيران في الموروغ، وتذهبان إلى الحقل، تكسران كتل التراب... وتزرعان بالطبع معاً. في المساء، يزدحم الناس في دكان عبد الله، ويتحدثون عن بركات المطر: Baada ya dhiloi faraja «بعد الضيق، الفرج»... ويود عبد الله لو يصدق هذا حقاً. والشيوخ يروون حكايات عن المطر والشمس والريح، وكيف ذهبوا يخطبون الأرض أخت القمر، فظفر بها المطر، ولهذا انتفخت الأرض، بعد أن مسها المطر. وقال آخرون لا... فالمطر هو حقاً بذور الله، وأن الناس

أنفسهم نجموا من رحم أمنا الأرض بعد أول تدفق... بعد مياه التكوين الهاذرة.

هذه الأرض التي تنتظر:منحت قوة لأجنحة وانجا... أجنحة الآمال والرغبات العميمة. وهي تتطلع، محمومة، إلى الغد، منتظرة مثل النساء الأخريات أن تنشق الأرض، وأن تفتحها براعم الحياة العارية.

ولقد جاءت الشمس حقاً، وانقطع المطر، وأخذت الأرض تطلق أبخرتها... منفتحة، وأخصبت البذور، وخفقت بسلات الفاصوليا، في النسيم، وانتصبت أوراق الذرة مصوبة نحو السماء، وانتشرت أوراق البطاطس خضراء عريضة في الشمس.

غالباً ما كان كاريغا وعبد الله ومنيرا يلتقون في دكان عبد الله. يجلسون خارج الدكان تحت أشعة الشمس الغاربة على النبت الطري، دافئي المعد، دائخي الرؤوس، حالمين مع زجاجة البيرة... وفجأة تخفق أفئدتهم لمرأى وانجا وهي تتجه إليهم يضطرب ما وعوه من الرحلة، ومن التجارب التي تتحدث عن قادمة من الحقول. لكن.... تحت وجودهم الهادئ، كان عالم أقل اطمئناناً، وأشد اضطراباً... بإمكانه أن يهبط عليهم، في أي لحظة، مشظياً هدوءهم المفعم بالمطر، الدافئ بالشمس. لم يتحدثوا عن الأمر: لكنهم عرفوا، كل بطريقته، أن الأشياء لن تعود كما كانت. إذ أثارت الرحلة، أمام كل واحد منهم، عدداً من الأسئلة التي لا جواب جاهزاً لها... ودهمتهم، مما رأوه، وخبروه، تحديات لا يستطيعون لها نسياناً أو دفعاً، تحديات تغور عميقاً في النفس، وفي ما يعنيه كل واحد منهم... حين يريد أن يكون إنساناً، حياً، وحراً.

قال كاريغا لعبد الله: جوزيف يتقدم. إنه مجتهد في المدرسة، وقد طلبنا الموافقة على انتقاله إلى الصف الرابع.

* * *

استؤنفت الدراسة، مباشرة، بعد أن ارتحل حشد المدينة الذي جاء يوزع الحسنات والوعود. لقد ارتحل، بغتة، مثلما جاء، مخلفاً وراءه ذلك الصمت القلق الذي يحسه المرء إثر توقف عامد لأصوات عالية كثيرة. انهمك كاريغا، ثانية، في التدريس، كي يتفادى الإجابة عن أسئلة نفسه. لكن الأسئلة ذاتها عادت، بعدم تأكد أكبر من ذي قبل: وتساءل... أين كانت وحدة الشعب الأفريقي؟

مضى زمن اعتاد فيه الوثوق من الأشياء: فلقد مر عليه وقت، كان يعتقد فيه، مثلاً، بأن تلك الصلة بالمحبوب، قادرة على حل كل شيء، وأنها مفتاح العالم. والحق إنه كان في تلك الأيام التي خفق فيها فؤاده مع موكامي، يرى العالم بلا عقد أو أحاج... مفتوحاً أمامه... عالماً يسبح في فيض من نور براءتهما، ويعد بالجمال الأبدي والصدق. لكنه سرعان ما صدم بأن ثمت من ينتظرون في الزوايا المعتمة، كي يخنقوا المنبت، بأنفاسهم الكريهة المحملة بالفساء والغائط من نفاقهم وتظاهرهم بالدين. لكنه ظل، حتى بعد رحيل موكامي عن حياته، متمسكاً بنوع من الأمل، بحاجة غلابة إلى أن يثق، على الأقل، بمعقولية أولئك الذين عانوا العذاب في الماضي، الذين واجهوا، ببطولة، قوى الاضطهاد. إن وجود أناس مثل جوي، حتى ولو في أسطورة المدرسة الشعبية، قد قوى ثقته بفعال الأبطال. ولقد حلت بطولة أولئك الذين ظنهم قادرين على تنقية الهواء من الروائح الخبيثة صنيعة البشر، حلت، تدريجياً، محل إيمانه السابق بقدرة الحب والبراءة على الشفاء الشامل. لكنه راقب في سيريانا،

تحول جوي، من بطل شعبي إلى طاغية يظن قوته مستمدة من الله الخائب عن عمل في المدينة، ومغامرته الأكثر إذلالاً في بيع الفاكهة وجلود الخراف إلى السواح. لم لم يتعلم، إذاً، من هذه؟ ولماذا حث مجموعة سكانية كاملة على الانطلاق في رحلة كان عليه أن يعرف مسبقاً أنها لن تؤدي إلا إلى مزيد من الإذلال والهواء؟

أجل، كان نجوغونا محقاً: لقد ذهبوا جميعاً يتسولون في الطرقات!

لم يطق النوم، سريعاً، وهو وحيد في مسكنه ذي غرفة النوم الوحيدة، على مبعدة ياردات قليلة من مسكن منيرا.

في الصف، لم يحس بذلك الوقد الذي أحسه قبل الرحلة إلى المدينة. الفكرة ذاتها تظل تطن في ذهنه: إذاً، لم يكن هو، وحده، باعتباره فرداً: فقد حكم على مجموعة سكانية كاملة، وعلى منطقة بأن تعطيا فقط! وحين يستنزف خزينهما عبر ما تدفعانه إلى المدن والصفوف العاطلة، أو بسبب إنهاك التربة، أو الأدوات البائسة، أو الجفاف... لا يتبقى لهما من متوجه تقصدانه! مجموعة سكانية كاملة من المنتجين المباشرين تتدهور إلى التسوُّل وسوء التغذية والموت في وطنها! وهو يستعيد كلمات نياكينيوا قبل الرحلة فيراها محقة أيضاً. وانجا كذلك كانت محقة. الكل كان محقاً، ما عداه، بحماسته ومثاليته: أين تضامن السواد ووحدته الآن؟

وفي خضم تشوش الأفكار وزوبعتها هذه، كانت تنتصب، فجأة، صورة المحامي، نظيفاً، رائعاً، بإخلاصه وفهمه. جلس، في أحد الأيام، وكتب إليه رسالة. أبعث لي كتباً. كان يرجو أن يتلقى مؤلفات رجل شهير في كراسي التعليم بالمدينة. وانتظر أسبوعين... لا يقصد الكتب ذاتها، وإنما يقصد كلمة تعيد إيمانه ومعتقده. لكن المحامي لم

يقل شيئاً. بل أرسل إليه كتباً وقائمة بعناوين كتب أخرى من تأليف أستاذة الجامعة. «انظر ما تستطيع صنعه بهذه».

لم يعرف كاريغا ما يريده حقاً. لكن كان لديه أمل غامض في التوصل إلى منظور للمستقبل، متجذر في إدراك نقدي للماضي. هكذا عالج أولاً كتب التاريخ. بدا له أن على التاريخ أن يكون مفتاح الحاضر، وأن على دراسة التاريخ أن تساعدنا في الإجابة عن أسئلة معينة: أين نحن الآن؟ كيف حدث أن صرنا حيث نحن؟ كيف حدث أن 75% من منتجي الغذاء والثروة هم فقراء، وأن مجموعة صغيرة ـ جزءاً من الجزء غير المنتج من السكان ـ هم أغنياء؟ يجب أن يتناول التاريخ أولئك الذين غيرت أفعالهم وأعمالهم، الطبيعة، على مر السنين. لكن كيف حدث أن الطفيليات ـ القمل، وبق الفراش، والبراغيث ـ التي لا تؤدي عملاً نافعاً، تعيش الرخاء، بينما يظل الذين يكدون أربعاً وعشرين ساعة جياعاً عراة؟ كيف تكون بطالة في بلد يحتاج إلى كل أوقية عمل؟ إذاً... كيف كان الناس ينتجون ثروتهم، وينظمونها قبل الاستعمار؟ وما الدروس التي يمكن استخلاصها من ذلك؟

لكن هؤلاء الأساتذة، بدلاً من أن يجيبوا عن هذه الأسئلة، وبدلاً من أن يمنحوه المفتاح الذي يتشوف إليه... أخذوه إلى عصور ما قبل الاستعمار، وتركوه يهيهم بلا هدف، من مصر، أو أثيوبيا، أو السودان... فقط ليوقفه عن تطوافه الرعوي، مجيء الأوروبيين. ثمت يوقفونه وقفة كاملة. فلم يكن تاريخ كينيا قبل الاستعمار، لدى هؤلاء المؤرخين العارفين، إلا هجرات وحروباً لا معنى لها، بين الشعور. هؤلاء العارفون لم يشاؤوا مواجهة معنى الكولونيالية والإمبريالية. وحتى حين يلامسونه... فلغرض واحد، هو وصف أعمال المقاومة

العنيفة بأنها حوادث قتل مروعة، بل لقد طالب بعضهم بإعادة الاعتبار إلى الذين باعوا أنفسهم للعدو خلال سنوات الكفاح. وبلغ الأمر بأحدهم حد الاستشهاد بالحاكم ميتشل حول بدائية شعوب كينيا، والمضي في إظهار الأصول التاريخية لهذه البدائية، التي سماها اللامدنية. واختتم كلامه بأن الطبيعة كانت جد رحيمة بالأفريقي. وتساءل كاريغا: هكذا، يستحق الأفريقي، إذاً، قسوة المستعمر، كي يوصله ركلاً إلى المدنية؟ لا كرامة في هذا التاريخ: إن الأساتذة ليبتهجوا وهم يسيئون إلى الشعب وكفاحه في الماضي. أشاح بوجهه يائساً: أيكون السبب جهله وافتقاره إلى التعليم الجامعي؟ ماذا عن مقاومة الشعوب الأفريقية؟ ماذا عن كل الأبطال الذين مروا بعالم الشعوب السوداء جميعاً؟ أكان ذلك كله خياراً؟

ثم عالج علم السياسة. لكنه غاص هنا في وحل أكبر. فالأساتذة يبتهجون، ثمت، بموازنة عبارات ثقيلة مدورة على خيط رفيع مهترئ من الفكر، أو يعكفون على إحصائيات ورياضيات معادلة القوة. هم يتحدثون عن سياسة البؤس، مقابل لا مساواة السياسة. عن التحديث التقليدي، مقابل تحديث التقاليد. وإلا فإنهم يقدمون عرضاً لما فعلته الحكومات المحلية والبيروقراطيات المركزية، أو لما قاله هذا السياسي أو ذاك إزاء ما قاله آخر. ومن أجل إسناد هذا كله، يستشهدون بكتب عديدة ومقالات جيدة التهميش. بحث كاريغا عبثاً عن ذكر للكولونيالية والاستعمار: أحياناً يرد تعبير مجرد عن لا تكافؤ الفرص أو التوازن الاثني في الحكومات الحديثة.

أما الأدب فليس بالمختلف كثيراً: الكتاب يصفون الظروف وصفاً صحيحاً: كأنهم قادرون على أن يعكسوا بدقة، الوضع الراهن، الخوف والقمع والاستلاب: لكنهم يقودونه، فيما بعد، إلى دروب

التشاؤم واللامعقول والتصوف: أما من مخرج إلا الشك؟ وهل الناس ضحايا عاجزة؟ وضع الكتب في علب، وأعادها بالبريد إلى المحامي، مع ملحوظة: لماذا أرسل إليه كتباً لا تحدثه عن تاريخ شعب كينيا ونضالاته السياسية؟

هذه المرة، تلقى رسالة طويلة من المحامي.

«سألتني عن كتب ألفها أساتذة سود. أردت أن تحكم أنت بنفسك. المربون، الأدباء، المثقفون: هؤلاء أصوات فقط ـ ليست مقطوعة ـ لكنها تعود إلى أجساد أشخاص، جماعات، مصالح. وأنت الذي تبحث عن حقيقة الكلمات التي يصدرها صوت... ابحث أولاً عن الجسد الذي وراء الصوت. الصوت لا يفعل إلا عقلنة حاجات صاحبه وأهوائه ونزواته. والأفضل أن تعرف السيد الذي يقف الذكاء في خدمته... آنذاك ستكون أقدر على تقييم أهمية ما يردده. أنت تخدم الشعب المناضل، أو تخدم الذين يسرقون الشعب. وفي وضع السارق والمسروق، في وضع يجلس فيه شيخ البحر على عنق السندباد... ليس من تاريخ محايد وسياسة محايدة. فإن أردت التعلم فانظر حواليك: اختر جانبك».

ماذا يقصد بقوله: انظر حواليك؟ اختر جانبك؟ إنه لا يريد سادة جدداً ـ فقد أراد أن يعرف الحقيقة. لكن أي حقيقة؟ ألم يكونوا جميعاً... ألا يجب أن يكونوا جميعاً، مع السواد ضد البياض؟

نظر عبر النافذة، ورأى النبت الأخضر الجديد: ستزهر الغلال، ثم نبدأ الحصاد.

تمتم لنفسه، لكن أسئلته ظلت بلا جواب: أهذه هي الدراسات الأفريقية التي أضرب هو والآخرون من أجلها؟

* * *

لم يقدر منيرا على فهم الحركة الجديدة للأشياء، الحالة الجديدة للقرية بعد الرحلة. فقد شكلت وانجا والنساء الأخريات، على التلعة، ما أسمينها «جماعة نديمي ـ نياكينيوا» لتعهد الأرض واقتلاع الأعشاب وقطف الغلال، وكن يعملن معاً، في حقول بعضهن، بالتناوب. كان منيرا وكاريغا مشغولين بالتدريس، لكن المدرسة كلها، وكانت تنضم، في أيام معينة، إلى المشروع الجماعي. في البداية كان الشك يساور بعضهم، لكنهم انضموا جميعاً إلى «الجماعة» بعد أن رأوا ما تستطيع إنجازه في أسابيع قليلة فقط.

أحسوا، كلهم، بمخاض ميلاد جديد، بقوة مجهولة على جناحين من الخوف والأمل. اليقين السابق هجر القرية. إن أهلها يعرفون الآن بقوة غير الجفاف تفرض نوعاً من التهديد جديداً... لكن لم يشأ أحد أن يتكلم عن هذه المخاوف الجديدة.

نظر إلى وانجا، إلى وجهها، ودهش لانخراطها الفوري في الشغل. نظر إلى يديها، مشققتين الآن، مكسورتي الأظافر... فلم يكد يصدق كل تلك الحكايات التي روتها له عن المدينة، وعن جولاتها هي. أرادها الآن، أراد أن يتملكها، وقد آلمه أنها أبقته على مسافة منها. لكنها، كما يبدو، على مسافة متساوية من الجميع. وقد وجد في هذا عزاء. هو نفسه، مسكون الآن، بتعطش لمعرفة الأشياء. عادت إليه، تدريجياً، رغبته في القراءة. وكلما ذهب مع كاريغا إلى روا ـ ايني، ليقبضا مرتبهما، مرا بمكتبة، واشتريا كتباً. كان يوشك أن يدخل في الأشياء... ولهذا يشعر بأنه في حالة جيدة عموماً.

عبد الله، الوحيد في دكانه، يحتفظ بذكريات الأمل والمرارة، حية. وأنه ليتساءل: أي مزاج يرتضيه، وهو يرى التحول المباغت، بدون إنذار، من مزاج إلى آخر. لكنه فرح بدوام جوزيف في

المدرسة: وهو يسأل نفسه، مراراً، كيف استطاع أن يبقي جوزيف خارج المدرسة؟ إنه ينتظر، متلهفاً، عودتهم من المدرسة، ومن الحقول، آنذاك فقط... وبين أحاديثهم وشرابهم... يمكنه التأكد من أن هدوءه هذا لن يغادره، ولن يغدو هشيماً تحت وطأة الذكريات الماضية. رأى إلى تحول وانجا التام.. روحاً صبية، وأحس بأن شيئاً جديداً يحدث، مع المطر والغلة والحصاد.

الرعاة عادوا أيضاً. تحدثوا عن مواشيهم التي نفقت تحت الشمس. عن رحلاتهم عبر السهوب. وتمنوا ألا يعود الجفاف ثانية. خاصة بعد هذه الضحايا الكثيرة. سرعان ما تعود الأمور إلى طبيعتها. لكن المجرى السابق للفصول قد غيرته، بصورة واضحة، الأمطار الأخيرة. فالفصل غير المنتظم، مثلاً، يمتد من كانون الأول حتى آذار الذي كان يجب أن يكون، حسب النظام القديم، بداية موسم مطر الناجاهي الرئيس. أما غلتهم الأولى منذ رحلتهم إلى المدينة، فلم تكن كبيرة، إلا أنها كافية لإبقاء الجلد على العظم.

كيفوا أنفسهم للمجرى الجديد، وتعهدوا، ثانية، الحقول، بعد الحصاد، مهيئين الأرض للأمطار الجديدة والزرع الجديد، متى حان الوقت.

وهكذا انتظر فلاحو الموروغ، ثانية، المطر، بينما يتناوب الخوف والأمل قلوبهم. كان شيئاً لم يتغير في الموروغ، وكأن الرحلة إلى المدينة أمست شيئاً من الماضي. وفجأة، جاءت شاحنتان في الوقت ذاته تقريباً، محملتان برجال شرعوا يبنون كنيسة ومركز شرطة. وتساءلوا عن معنى هذا كله. أهذه هي التنمية الموعودة؟ قيل لهم إن مسؤولاً سيقيم في المركز.

البناؤون الذين يسكنون خياماً، كانوا يأتون بين حين وآخر إلى دكان عبد الله. إن أصواتهم ذاتها. ووجودهم نفسه، تميزهم عن أهالي الموروغ، باعتبارهم مختلفين، وغرباء، مما جعل الأهالي متضامنين أكثر مع بعضهم، متضامنين أكثر... كطريقة لرفض الغرباء. كما لو أن هؤلاء الرجال قد أرسلتهم ذات القوى التي أذهلت الأهالي في المدينة. حتى عبد الله ومنيرا وكاريغا ووانجا التزموا جانب الموروغ ضد هؤلاء الواغلين.

لكن سرعان ما لف النسيان الكنيسة والمركز في خضم النشاط الجديد.

لقد جاء حزيران بالمطر.

ظل المطر يهطل، ليل نهار، مدة أسبوعين، بحيث لم يكن الناس يغادرون أكواخهم.

أما البناؤون فقد اقتلعوا خيامهم، وأخذوا أدواتهم، ومضوا. وجلس الأطفال عند الأبواب يغنون:

اهطل... اهطل... يا مطر

كي أذبح لك

عجلاً شاباً...

وآخر، ذا أجراس حول العنق...

دنغ ـ دنغ ـ دنغ ـ دونغ

بعد أسبوعين تبدلت الحال: صار المطر يهطل ليلاً فقط، ليتبعه نهار أو نهاران من الشمس المشرقة.

إن هذه هي البشارة التقليدية بغلة وفيرة.

ظل الأمر هكذا، حتى غدت الأرض كلها، خضراء رائعة، مكتظة بالزهور من ألوان شتى.

وهكذا، قبيل نهاية الموسم، حتى حين عاد البناؤون، واستأنفوا بنايتيهم، رسبت مخاوف الموروغ تحت أملين عظيمين.

إن غلتهم الثانية، منذ عودتهم من المدينة، ستكون أوفر غلة في تاريخ الموروغ. وفي المقابل التام للسنوات السابقة حين جاء موسم الناجاهي الذي يبدأ في آذار بغلة وفيرة. إنه الآن، بهذا الشكل أو ذاك، موسم المويري في نهاية العام، وهو يحمل كل علامات الحدث الضخم. وقد عرض منيرا وكاريغا مساعدة المدرسة في الحصاد.

سيكون، ثمت، احتفال ختان، بعد الحصاد. وسوف يدخل عدد من الفتيان الرعاة مدخل الرجال. حين كان منيرا ولداً، اعتاد الاختفاء من بيته كي ينصت إلى الأغاني التي تصاحب الاحتفال. بل لقد تسلل، مرة أو مرتين، إلى الاحتفالات، حتى حين غدا معلماً شاباً. حدث هذا قبل منع الاحتفالات أثناء «الطوارئ». وخلال أحد هذه الاحتفالات التقى «جوليا» وكان اسمها آنذاك وانجيرو. لقد اجتذبه صوتها، وحركتها، وكل ما فيها، وقرر أنه وجد هنا، أخيراً، ما يملأ حياته. لكنها غدت جوليا، واختفى حلمه القصير بالخلاص عبر الإحساس، في فراش الزوجية.

ربما كانت ذكرى الحلم: لكن منيرا كان يفكر ثانية بامتلاك وانجا في موسم الحصاد، أو بعده، وأحس بارتعاشة في دمه لهذا الأمر.

3* ثمت شيء في الحصاد، سواء كان ذرة، أو فاصولياء، أو لوبياء، شيء يطلق الروح الفتية في الجميع. الأطفال يتراكضون في الحقول وراء أصوات النسوة المتعالية. بدرجات مختلفة من التحذير البائس. وأحياناً يفاجئ الأطفال أرنباً أو غزالاً في مخبأ بين المحاصيل الناضجة: آنذاك يلقون سريعاً بكل ما يحملونه ويجرون وراء الحيوان، عبر المورزوغ بأسرها، وهم يصيحون: أمسك... أمسك... أمسكه... أمسك اللحم. حتى الشيوخ يبدون أطفالاً، بعيونهم المتجهة ناحية الحقول: ويحاولون فقط إخفاء هياجهم بحمل حزم رمزية من الفاصولياء إلى موضع الدرس. لكنهم حين يجلسون ويحتسون البيرة، أو يتحدثون حسب عن هذا الأمر أو ذاك، يظلون منفعلين إزاء مرأى الأطفال المتنافسين على دراسة بسلات الفاصولياء واللوبياء بعصي رقيقة. ويتعالى حفيف ناخر حين تتقافز حبات الفاصولياء واللوبياء من بسلاتها، وتنحدر عبر السيقان الجافة، على الأرض. إن تذرية النسوة الفاصولياء في الريح... مشهد يستحق الرؤية: أحياناً يتوقف النسيم، فتتعالى شتائم النساء، وينتظرن، وهن حاملات الأطباق المجدولة من الأماليد، هبوب الريح ثانية. كأن الريح تعابث النسوة، متلاعبة بآمالهن ورغبتهن في إنهاء العمل قبل حلول الظلام. ثم يأتي دور الأبقار: تطلق، حرة، تتجول في حقول الذرة المحصودة.. فتندفع في كل ناحية، مرتفعة الذيول، راكلة الأرض بقوائمها الخلفية، ممتدة الألسنة إلى غذاء الذرة الماثل. أحياناً يجري ثور وراء بقرة فتية، دون أن يترك لها مجالاً للراحة أو الأكل، آملاً في حصاد من نوع آخر.

* * *

كان منيرا وعبد الله جالسين ذات مساء، يرتاحان من مراحل الحصاد الأخيرة، ويتحدثان عن احتفال الختان المقبل. وكان كاريغا يدرّس جوزيف بعض المقادير الجبرية، منيرا يحدّث كاريغا كيف أنه يشعر قليلاً بالنقص لأن ختانه تم في المستشفى تحت تأثير المخدر، ولهذا لم يحس بأنه ينتمي، حقاً، إلى لداته. فجأة وثبت وانجا بينهم، وعلى ثوبها العشب وأزهار البرية والأعواد. قدم لها عبد الله بيرة. وداعبها منيرا قليلاً: أين كانت مالكتنا؟ استمر كاريغا يدرّس. جلست وانجا، هادئة، على مقعد خفيض، منفرجة الساقين نوعاً ما، ويداها تضغطان تنورتها داخل فخذيها. نظرت إليهم جميعاً كأنها في تأمل عميق.وفكر منيرا: عذراء من الحقول... وتذكر الخدوش التي يسببها جمع سيقان الفاصولياء، على البشرة. كانوا جميعاً في ذلك الجو من الخدر والراحة بعد يوم عمل منهك في تكسير الذرة تحت الشمس، بحيث لا يحتاجون سوى بيرة ونار كي يناموا. وتابع منيرا أفكاره: «كأنها آتية من عالم آخر». أيمكنها أن تفعل شيئاً يجعلها أقل إغراء؟ كان في عينيها اهتياج محموم لا يتطامن حتى حين تضحك، مستبعدة الاهتمام الذكوري في عيني منيرا. شرعت وكأنها تحدث نفسها: «وجدتها الآن، الآن وجدتها. ولن تصدقوني حين أخبركم. لكنني سأخبركم، فأنتم ترون... أليس علينا أن ننقذ هذه القرية، ونرشو الأشباح المرتجفة التي تمر أمامنا؟ أحياناً تكون الذاكرة مؤلمة. أليس علينا أن نجتذب دماً جديداً إلى هذه القرية المنسية؟ إن التنغيتا هو النبات الذي لا يتحدث عنه إلا المسنون. لماذا؟ الأمر بسيط. لأنهم وحدهم الناس الذين سمعوا به، وعرفوا عنه. إنه ينمو، برياً، في السهول... الرعاة يعرفونه، ويعرفون أين ينمو، لكنهم لن يخبروكم. قالت نيكينيوا إنهم كانوا يخمرونه قبل مجيء الأوروبيين. ولا يشربونه إلا بعد انتهاء العمل، وخاصة بعد احتفال الختان أو الزواج، وبعد

الحصاد. وخلال احتسائهم التنغيتا كان يؤلف الشعراء والمغنون كلماتهم لموسم الغيشاندي، ويقول الرائي نبوءته. لقد منعه المستعمر. قال: هذا الشعب كسول. يشربون التنغيتا طوال اليوم. لهذا لن يعملوا في مد الخط الحديدي. ولن يعملوا في مزارع شاينا وقهوتنا وسيزالنا. ولن يكونوا عبيداً لنا. قالت نياكينيوا إن هذا حدث بعد معركة الموروغ، وظنوا أن المحاربين كانوا سكارى: إذ كيف جرؤوا على مد ألسنتهم، ومط عضلاتهم أمام المستعمرين بعد أن عرفوا بما جرى للمقاومين؟

لهذا، لا يسمح الآن، إلا بالنوع الأقل قوة، الموراتينا. حتى هذا لم يرخص به إلا للرؤساء والزعماء الذين أبدوا استعدادهم لتأمين أناس أكثر يعملون في مزارع الأوروبيين ـ فقد ظل الناس ـ كما ترى ـ يهربون من تلك المزارع. إذ كيف يستطيع شعب كامل أن يهجر أرضه ليشتغل لدى الغرباء؟ ولهذا السبب، ضاع فن تخمير التنغيتا، ولم يحفظه إلا القليل. التنغيتا أيضاً مشروب عازف الغيشاندي، كما أنه يستخدم كذلك في طقوس الإخصاب».

سألها كاريغا، الذي أنهى تدريسه الآن: «ماذا قالت عن معركة الموروغ هذه؟».

«آه... إنها تروغ دائماً. ستروي لك القصة دون أن تسألها، وحين تزداد لهفتك تقطعها. الأفضل أن تسألها بنفسك».

واستفسر عبد الله: «والتنغيتا؟ ألم تخبرك كيف يصنع؟».

«قالت إنها سترينا كيف يصنع. التنغيتا... القليل منه، حسب، لتبارك عمل أيدينا».

وسأل منيرا «متى؟».

«حالاً. يجب أن يكون جاهزاً يوم الختان. حين يكون المسنون يحتسون النجوهي، ننضم إليهم بالتنغيتا».

وهتف كاريغا بحماسة الأولاد: «لم لا؟ لنحتفل! لنقل وداعاً لموسم الجفاف لا لنحتفل بالحصاد الكبير!».

وأضاف عبد الله: «وداعاً للجفاف في حياتنا».

قال منيرا: «ومزيداً من بذور الله لإخصاب الأرض».

ووافق عبد الله: «مهرجان قرية».

وأضاف كاريغا: «الوقت مناسب أيضاً، قبل أن تسكن الكنيسة ومركز الشرطة».

* * *

بدأوا ينفذون الفكرة بحماسة دينية نشطة. واتخذوا كوخ نياكينيوا مقراً لعملهم. أخذت العجوز حبات دخن، بللتها بالماء، ووضعتها في كيس سيزال. وكل يوم، حوالي الخامسة، كان الجميع يمرون بكوخها، ليروا إن كانت البذور نبتت. في اليوم الثالث رأوا نياكينيوا واقفة عند الباب، تدعوهم إلى الإسراع.

وأخبرتهم بلهفة الطفل أنها رأت براعم صغيرة. الأمر حق، فقد كانت أشياء عارية مصفرة مخضرة تطل من عيون الكيس الكثيرة. يا رب انظر إلينا. أفرغت وانجا البذور النابتة في طبق، واشتركوا جميعاً في نشرها كي تجف. أصابع منيرا ترتجف بسبب قرب وانجا. يا رب... لتكن أنفاسك حارة في أيدينا. ثلاثة أيام أخرى من الانتظار المتلهف. العجوز أشرفت على الطحن لكن وانجا هي التي قامت به، معتمدة على ركبتيها، ونهداها مغطيان فقط بقطعة قماش، كي تظل

كتفاها عاريتين. عملية الطحن ذاتها كانت أشبه بمهرجان، وجاء الأطفال، وحتى الكبار، وجلسوا في دائرة، يشاهدون الطحن بالرحى. كانت تضع قليلاً من البذور على حجر الغرانيت المسوى، وتستعمل حجراً أصغر لطحن الدخن. أما المشاهدون، فكان بعضهم واقفاً، والآخر جالساً، وعيونهم تتحرك أمام ووراء، مع حركة جسدها الجميل، حتى غدت البذور كتلة مخملية ذات خيوط. كان العرق يتصبب منها حين أتمت الطحن، لكن عينيها تشعان بتيه خفي.

شرعت العجوز تعمل. خلطت بور الدخن الثابتة المسحوقة بطحين الذرة المقلي، ووضعت الخليط في قدر فخار، ثم أخذت تضيف الماء، ببطء، وتحرك. غطت فوهة القدر، بفوهة قدر آخر كانت قد فتحت فيه ثقباً. ومدت أنبوبة قصب في الثقب، وجعلت طرفها الثاني في جرة مغلقة وضعت فوقها حوضاً صغيراً به ماء بارد. ثم أغلقت كل فتحة ممكنة بروث البقر، وعندما أتمت كل شيء نهضت تراقب ما فعلته من فن وعلم. وهتف كاريغا:

«لكن هذه كيمياء! عملية تقطير». الآن، وضعت القدر قرب الموقد.

لم يبق الآن إلا انتظار اكتمال التخمير. أخبرتهم أن الأمر يقتضي عدة أيام. لكن انتباههم الآن موجه إلى التحضير للاحتفال. لقد بدأ الناس، فعلاً، يغنون، ويرقصون جماعات، استعداداً لأمسية الاحتفال. ستكون الأمسية أيضاً، وقتاً لاحتساء التنغيتا والابتهاج.

كاريغا كان يتحرق لهفة ليوم السبت. لقد أحب دوماً الرقصات المتصلة بطقس الختان, والأغنيات، خاصة حين يحضر مغنيان معروفان، أو ثلاثة... يواجه أحدهم الآخر في مطارحة شعرية. آنذاك يتسامى قلبه إلى أراض بعيدة جميلة، يحيا فيها الناس معاً... في روح مشتركة.

جاء معظم الضيوف إلى بيت نجوغو، ذلك لأن أحد أبنائه، نجينغا، سوف يختن. موريوكي، أيضاً، مع آخرين قليلين، سيواجه السكين، كما يقولون.

اجتذبت الرقصات، ليلة الختان، أناساً من الجبال القريبة والبعيدة. حتى البناؤون جاؤوا يشاركون... فامتلأ كوخ نجوغو وساحته بالوافدين. شارك كاريغا في عدد من الرقصات الأكثر عمومية مثل الممبورو. لكنه، مثل منيرا، لم يعرف القتال الكاذب. وبدا له، أحياناً، أن شخصاً أراد أن يقذف آخر في النار، فانقبضت معدته خوفاً. لكنه، على أي حال، انجر إلى الرقصة، وأخذ العرق يتصبب منه، بعد قليل.

استمتعت وانجا بمرأى كاريغا وهو يضحك، ويتواثب، منغمساً تماماً في الجو. إنه جاد، اعتيادياً، بالغ الجد، بحيث كانت وانجا تود لو تدغدغه تحت إبطه، لتراه يضحك، أو لترى وجهه الجاد ينبسط.

منيرا، أحب الرقصات: لكنه يحس بالحزن لأنه لا يستطيع المشاركة فيها، ولا يعرف الكلمات، ولأن جسده بالغ التصلب. لهذا اكتفى بالمراقبة، وهو يشعر شعوراً خفيفاً، بأنه وحيد، مهجور، غريب على باب بيت لشخص آخر. البيت، هذه الليلة، بيت كاريغا وعبد الله ونياكينوا. نياكينيوا خاصة. فهي تؤلف كلمات تشير إلى شخص أو حادثة، دون أن تقطع النغم أو الإيقاع. معظم أغاني الرقصات ذات لازمة، وبمقدور أي شخص الاشتراك في الجوقة. لكن نجوغونا ونياكينيوا هما اللذان يهيئان الجو الدرامي في أوبرا الشهوة. لقد شكل الكبار والصغار، رجالاً ونساء، حلقة. وهم يدورون، مثيرين غباراً قليلاً، على إيقاع الأغاني: نجوغونا الآن

ضيف زائر، واقف عند باب منزل. إنه يمتدح صاحب البيت، لكنه يريد أن يعرف من هو، كي يأذن له بالارتماء على الأرض، والتمرغ في التراب، مثل صغير وحيد القرن. نياكينيوا تجيبه، مرحبة، وتخبره أنه في بيته:

نجوغونا: واريني العروس!

واريني العروس!

الجوقة: سأمر عبر الموروغ ـ

نجوغونا: التي يبكيها ماعزنا في ضوء النهار.

الجوقة: سأمر عبر الموروغ ـ

أحيي موتوري والفتيان الشجعان.

تسحب وانجا إلى وسط الحلقة. كل الأصابع تشير إليها، بينما تجيب نياكينيوا بأنها العروس، «عروسنا، لا العروس الأخرى، من جيرة أخرى، التي أهنت بسببها». فجأة، تتغير نبرة نجوغونا. يتظاهر وجهه بالاشمئزاز:

نجوغونا: أهذه هي العروس؟

أهذه هي العروس؟

الجوقة: سأمر عبر الموروغ ـ

نجوغونا: رائعة السواد، رائعة الجمال

لكن... أي فرج كسير؟

الجوقة: سأمر عبر الموروغ ـ

أحيي موتوري والفتيان الشجعان.

ويأتي صوت نياكينيوا، قوياً، متقبلاً التحدي، وتحلف لتشتمنه، بل لتشتمن عشيرته:

نياكينيوا: لكن هل تقدر أن تفعلها؟

لكن هل تقدر أن تفعلها؟

الجوقة: سأمر عبر الموروغ ـ

نياكينيوا: أنت الهادر بالتهديد

لكن عروسك تبقى مستيقظة...

عبثاً....

نجوغونا لا تعوزه الكلمات، فيعاود الهجوم بقوة العاشق المرموق:

نجوغونا: أبصر فرجاً يحمل تبغاً ملفوفاً في أوراق الموز، أبصر فرجاً يحمل تبغاً ملفوفاً في أوراق الموز.

الجوقة: سأمر عبر الموروغ ـ

نجوغونا: لا أعرف ذلك الفرج

أنت تشم كثيراً.

الجوقة: سأمر عبر الموروغ ـ

أحيي موتوري والفتيان الشجعان.

إنها الآن معركة شاملة من كلمات الشهوة وإشاراتها، والألحان تثير معاني عديدة وأوضاعاً مختلفة. حشد الراقصين يزداد هياجاً

واستثارة، بانتظار من سيكون المهزوم، ومن سيتحطم تحت وطأة شتائم الآخر وادعاءاته. نياكينيوا، متقدمة الآن، وهي تستفيد من وضعها:

نياكينيوا: حتى لم أكن لأعطيك إياه

حتى لم أكن لأعطيك إياه

الجوقة: سأمر عبر المورروغ ـ

نياكينيوا: فقط لأنني رأيتك

تنكح ثقباً.

الجوقة: سأمر عبر المورروغ ـ

أحيي موتوري والفتيان الشجعان.

يتراجع نجوغونا. ويسأل... لماذا يتقاتل أطفال من رحم واحد، والعدو على الأبواب؟ إنه الآن يتوسل بأمه. إنه، حقاً، محاربها العائد من الحروب منهكاً، لكن منتصراً...

هللي يا أمي لي!

هللي يا أمي لي!

أم تراك تتركين الغرباء

يهللون لابنك العائد؟

النساء كلهن، يزغردن الآن، الزغردات الخمس، للطفل الوليد، أو المحارب العائد من قتاله أعداء الشعب.

حاول منيرا، فجأة، تحت تأثير انفعال الساعة، أن يقرأ شعراً

يعرفه، وكان نجوغونا ونياكينيوا يرددانه بسهولة تامة، لكنه اضطراب في المنتصف، فداهمه الاثنان:

أنت الآن تكسر تناغم أصواتنا

أنت الآن تكسر تناغم أصواتنا

إنها الطريقة التي ستكسر بها، أكيداً، تناغمنا

حين يحل وقت الختان.

عبد الله، هب لإنقاذه:

لم أكن أكسر الأصوات الناعمة

لم أكن أكسر الأصوات الناعمة

توقفت فقط

لأمسد أثواب المغنيات والراقصات.

انسرح صوت نياكينيوا، الآن، مسترضياً، لكن معلناً نهاية هذه الرقصة بالذات. وتساءلت مغنية: لو انقطع خيط، فلن ترمى الخيوط المتقطعة، كي يعيدها خيطاً جديداً؟ أجاب نجوغونا، ملتفتاً إلى كاريغا: لقد رميت إلى كاريغا، فهو محارب عظيم... نجامبا نين.

اتجه الجميع بأبصارهم ناحية كاريغا، ليتناول الخيط. وضحك أولاد المدرسة، ليس فقط من عجزه عن قبول التحدي، وإنما من الإشارة إلى نجامبا نين أيضاً. عبد الله ساعده في الأمر حين غنى قائلاً حين ينقطع الخيط العتيق، فعلى الجميع البحث عن نغمة أخرى، وغزل خيط جديد متين. واستجابة لدعوة عبد الله إلى تبديل الخيوط، جلسوا، ينصتون إلى نياكينيوا وهي تغني الغيتيرو. في البدء كانت

لطيفة المزاج، خفيفة الروح، تعلق على الحاضرين، في عاصفة من الضحك. لكنهم، أخذوا، بغتة، بالارتجاف الهين في صوتها. كانت تغني تاريخهم الأخير. غنت عن عامي الجفاف، عن مجيء البنات والمعلمين، عن الخروج إلى المدينة. روت كيف كانت تتخيل المدينة، مدينة ثراء فقط، لكنها وجدت البؤس، والشحاذين العاجزين، رأت رجالاً، رجالاً كثيرين، أبناء نساء، يتقيَّأهم نفق مدخن ـ ببيت كبير، كبير ـ فشعرت بالخوف. من ابتلع كل ثروة البلاد؟ من؟

الآن، لم تعد تغني عن جفاف العام الماضي. الجفاف هو كل جفافات القرون، والرحلة هي كل الرحلات التي قطعها الشعب حتى في الأرضين الأسطورية، حيث ماريموس ذو الفمين، والبشر المكافحون. غنت عن نضالات أخرى، عن حروب أخرى ـ مجيء المستعمرين والكفاح المرير الذي شنه ضدهم الفتيان المختونين حديثاً. أجل... واجب الشبيبة الدائم هو طرد الأجانب والأعداء المستحكمين بين الناس: كان واجب الشبيبة الدائم مصارعة كل ماريموس، كل غول ذي فمين، وهذا هو معنى الدم المراق في الختان.

توقفت عند النداء الدرامي والتحدي. فزغردت النساء. لقد جعلتهم نياكينيوا يعيشون تاريخهم، ثانية. وهكذا استمر الاحتفال حتى ساعات الفجر الأولى. كان جميلاً حقاً. لكن كاريغا أحس في نهاية الأمسية بالحزن. كان كمن يمسك بلقية جميلة عثر عليها للتو، أو كمن ينصت إلى لحن فريد جميل، كان تائهاً وقتاً طويلاً، من عالم محتضر.

* * *

بعد أن مضى احتفال نهر الموروغ، ذهب كاريغا ومنيرا إلى دكان عبد الله، ينتظران وانجا والمرأة العجوز من أجل النبتة الغامضة. جاءتهم وانجا في الأصيل، فتوجهوا جميعاً إلى بيت نياكينيوا. قالت لهم وانجا: «بحثنا عنها في كل مكان، وأخيراً وجدناها حيث تنمو وفيرة». وسأل عبد الله: «ألم تذهبا إلى الاحتفال؟».

«ذهبنا. واجتازوه كلهم بشجاعة. لم يبد أي واحد جبناً، ولهذا لم نجد فرصة لضرب أي منهم».

كانت النبتة صغيرة جداً، ذات تويجات أربع صغيرة. وهي عديمة الرائحة.

تنغيتا. الروح.

فككت نياكينيوا جهاز التقطير. كانت الجرة مليئة بسائل أبيض رائق.

قالت نياكينيوا: «هذا.. ليس شيئاً حتى الآن. فقط سوف يسمم رؤوسكم وأحشاءكم. اعصروا التنغيتا فيه، تجدوا روحكم. تنغيتا. إنه حلم. أمنية. يهبكم البصر. أما الذين باركهم الله فإن تنغيتا يجعلكم يعبرون نهر الزمن ويتحدثون مع الأسلاف. لقد وهب الرائين ألسنتهم، ووهب الشعراء وعازفي الغيشاندي كلماتهم، وجعل النسوة العقيمات ذوات أطفال كثيرين. فقط عليكم أن تشربوه، مؤمنين، طاهري القلوب».

أحاطوا بها وهي تعصر قطرات من سائل مائل إلى الخضرة في الجرة. حدث أزيز ضئيل، ثم تحول كل شيء إلى أخضر رائق خفيف.

«بإمكاننا أن نجربه في المساء. سوف تدعو وانجا بعض المسنين، لأن هذا ليس شراباً للأطفال».

عادوا، في المساء. وهم يحسون في الجو الصريح للختان بأنهم جماعة ذات سر ما. جلسوا في دائرة حسب السن. ووجد منيرا نفسه جالساً جنب نجوغونا. وانجا بين عبد الله وكاريغا. نحى الجميع أربطة العنف، والأحذية، وكل ما يمنع أجسادهم من الحرية ولاسترخاء. وأمرتهم بأن يتخلوا عن المال في جيوبهم، هذه الحشرة المعدنية التي تفرق البيوت، وتدفع الرجال إلى المدينة. أخذت كل المال ووضعته على الأرض، بعيداً عن الدائرة الطقسية. ثم جلست.

الدخن، قوة الله.

سكبت بضع قطرات على الأرض، وغنت: لأولئك الذين قضوا قبلنا، وللآتين بعدنا. ثم وضعت شيئاً من الشراب في قرن صغير، واستمرت في تذكاراتها، ناظرة إليهم، مثبتة عينيها في كل واحد منهم.

ثم قالت، ممسكة بالقرن الصغير بين يديها: «والآن، يا أبنائي، عليكم أن تشربوا، دائماً، من الإناء المشترك. فهو الإناء الصحيح دوماً، مبتدئين بالأكبر سناً بيننا. ولكم، فيما بعد، أن تحلموا بأمنياتكم، وتتمنوا أحلامكم. ومن يدري؟ فلربما كنت المحظوظ، والأكثر استعداداً لأن ينال. لست المعنية اليوم، لكني سأستاف قليلاً».

قربته من أنفها، وبدت كأنها تستاف شيئاً. ثم ذاقت قطرة أو قطرتين.

«آاااه. إنني عجوز ولم تعد لي أحلام. وماذا أتمنى؟ أمنية واحدة. أن أكون مع رجلي في العالم الآخر. أتعلمون أننا أحببنا بعضنا ونحن في حقل دخن نطارد الطيور؟ كان رجلي عارفاً بالأعشاب. علمني كيف يصنع ماءه المقدس بينما نحن يقظان لضجة الطيور وحركتها.

كل ليلة كنا نستاف الشراب ونذوق منه قطرة.. والسلام محيط بنا. أصابع الدخن تداعب جسدينا... والآن، يا نجوغونا، لم لا تأخذ هذا، وتبدأ الدورة؟» طمأن صوتها قلوبهم، وأحسوا بأنهم متحدون حتى وهم ينتظرون دورهم، الواحد بعد الآخر. حين جاء الدور إلى منيرا، استاف، فاندفعت الأبخرة الحامضة قليلاً من أنفه إلى رأسه. سمع قائلاً يقول: عليك أن تشرب أيضاً. أحس بالشراب يلهب حلقه ـ شيء مثل أوراق اليوكالبتوس التي شفت جوزيف ـ ثم يبلغ قرارة معدته. وللحظات أحس هذه الحرقة فقط في معدته ورأسه. لكن النار بدأت تخبو، تدريجياً، بينما كان جسده وذهنه يرتخيان، ويغدوان أدفأ فأدفأ، وأخف فأخف. آهٍ لهدوء الشفق في داخله. كانت عيناه مثقلتين قليلاً، وغائمتين... لكنّه قادر على أن يبصر بوضوح حتى أدق التفاصيل. يا لصفاء النور. يا للون نورك أيها الرب. يا للألوان المتغيرة في قوس قزح الحلم! إنه الآن طائر، يحلق ويحلق في الفضاء، وفي الوقت نفسه يرى السماء والأرض، والماضي والحاضر، مفتوحة أمامه. وقوى هذه المرأة العجوز، التي جلبتها الأرض والشمس والمطر، هي الصلة التي تشد الماضي والحاضر والمستقبل. معاً. إنه يراها في أردية الاحتفال السود، تبصر طريقها متوغلة في الماضي والمستقبل، في موجة زمن مستمرة... يراها هائلة إلى جانب نديمي، تقطع الأشجار، وتروض عناصر الطبيعة وأسرارها، خدمة لأبنائها. شعر بالحنين إلى ذلك الزمن. الماضي والحاضر والمستقبل ـ واحد، وأبناؤه يتعلمون لغاية قومية ما، يقطعون الأشجار أيضاً، ويفتحون الأرض العذراء، والآفاق الجديدة لمجد الإنسان وعبقريته الخلاقة.

وبالتدريج، سمع صوتاً بعيداً ينادي: أرو لنا أحلامك وأمانيك. توقف عن تحليقه: ماذا يتمنى لحياته؟

ماذا يريد؟ كان أبواه يؤثران السلامة دائماً، أما هو، منيرا، فقد ظل على الشاطئ يراقب الجداول تندفع على الحصى والصخور. إنه لا منتم، كان دائماً غير منتم، مراقباً الحياة والتاريخ. أراد أن يقول: وانجا! هبيني ليلة أخرى بدراء في كوخ... فيك... دفيناً فيك... كي أنبعث في التاريخ، لاعباً، ممثلاً، مبدعاً، لا أن أظل هكذا، في هذا الانقطاع. لكن صوته، وهو يتحدث، كان غريب الهدوء: لا أعرف حقاً أمنياتي، أما أحلامي فقليلة. لكن الذي أراه الآن ـ ما هو؟ ما معنى هذه الحركة من حولي؟ كأني أرى نياكينيوا أمس وغداً! أراها إلى جانب نديمي... لكن كيف حدث هذا، ونديمي ميت منذ زمن طويل؟ أراها، أيضاً، مع أولئك الناس السائرين إلى القتال: أخبرينا، يا نياكينيوا، أخبرينا... ما دمت قد بدأتها أثناء الرحلة إلى المدينة. ماذا رأوا؟ ماذا رأوا من ذلك الذي يبدو، بغتة، خفياً عن البصر؟

***

لم تسألون يا أبنائي... أسئلة كثيرة، حتى بعد أن أخبرتكم بأنني لم يعد لدي ما أقول. كنتم في المدرسة. أنتم، وهذا الصغير معلمو أطفالنا. ماذا تقولون لهم؟ وماذا عن عبد الله؟ أي أسرار يخفي في ساقه الخشبية؟ الجيل الذاهب... لكنهم سيعودون يوماً إلى معرفة أنفسهم، وآنذاك تكون لهم مملكة الله والإنسان. لقد ترك نديمي لعنة. لن يغادر أبناؤه هذه الأرض: كان عليهم أن يدافعوا عنها بالدم. عنها، وعن كل ما تنتج. لست أفهم معنى هذا كله... لم يقهروننا، ويشتتوننا مع الرياح الأربع، بالرغم من رماحنا، بالرغم من عددنا... كيف لي أن أفهم تناوب الخصب والعقب هذا؟ الجفاف والمطر، الليل والنهار، الدمار والخلق، الميلاد والموت؟.... لا... ثمت أشياء جد كثيرة لا أفهمها. تذكروا زوجي أيضاً. كان بين أولئك الذين حملوا

الطعام والبنادق إلى البيض المقاتلين. لم يختر أن يكون عبداً مثل مونورو. فالزعيم الذي عينه المستعمرون حارساً، طلب سمن عشر من النعاج والماعز. كان زوجي أبياً. رفض وبصق اشمئزازاً من أن يكون عبداً. هكذا سجل مع الفقراء الذين لا يتمكنون من إنتاج السمن بسبب بؤسهم. كان زوجي غنياً، لكنه أبيّ. بعضهم أخذ للعمل في المزارع الأوروبية، بينما ذهب البيض إلى الحرب. تصوروا هذا: يؤخذون ليتعهدوا حقول الرجل الابيض، بينما يحل الدمار بحقولهم هم! فالمرأة الوحيدة لا تستطيع أن تقوم بشؤون المزرعة. كيف تقدر أن تزرع قصب السكر، واليام، والبطاطا الحلوة... كلها من عمل الرجل؟ كيف تحرث الأرض الجديدة؟ وكيف تقوم بأعمال الحدادة... تصنع السلاسل، والأسلاك، وخلايا النحل، وتجد الأغصان للأهراء؟ ثم عليها بعد هذا كله أن تؤدي قسطها من العمل؟ أما الآخرون، فقد مضوا، الواحد يتلو الآخر، في صف طويل، والأحمال فوق رؤوسهم... مضوا إلى الشاطئ، قاطعين مسالك الغابة، والنياسم التي استخدمها، يوماً ما، المغيرون السواحليون والعرب، من الشاطئ. لكنهم قبل أن يبلغوا كيبويزي، رأوا هذا الحيوان الأرضي. كان حيواناً طويلاً لم يروا له مثيلاً من قبل، ذا منظر أشد إرعاباً من نداماثيا البحر الذي أخذنا منه ظلالنا جميعاً. عيناه تقذفان الضوء، ولسانه يقذف اللهب ويئز. أما هم، فقد تسمروا إلى الأرض مسحورين، بالرغم من أنهم مختونون. قال لهم صوت: لا تلمسوا هذا المخلوق الغريب الذي يمشي على بطنه. تفحصوه جيداً، واعرفوا عطايا الله إلى أبنائه... عالماً بلا نهاية. كانوا متعبين. ساروا الأميال والأميال، يوماً بعد يوم، يغالبون النوم، بل يرغبون في رقاد لا يقظة بعده. والآن يواجهون الحيوان الذي يغلق عليهم الطريق. تناول رجل حجراً ورماه. رفع رأسه مرة واحدة، برهة، ثم قذف ناراً

ونوراً أشد من البرق بعشر مرات، ثم تحرك بـأزيز صـاخب، مبتعـداً، ومعدتـه علـى الأرض. اسـتولت شـهوة الـدم علـى آخـرين، فرمـوه بالأحجار والشتائم، بل لقـد ضـحكوا لنـصرهم الـسهل! اسمعـوا يـا أبنائي! اسمعوا، ولتخافوا مكائد الله. كل من لمـس ذلـك الحيـوان لم يعد أبداً. بعضهم سقط تحت النار الألمانية، آخرون قتلتهم الملاريـا، وبعضهم مات بسبب قيء عنيف غريب. قلة فقط عادوا من الحرب.

وسأل أحدهم: وزوجك؟

عاد. عاد حقاً. لكنه لم يعد ذلك الرجل نفسه الـذي التففـت معـه، أفخاذاً وجسدين... طريين بزيت المباريكي والعرق.

صمتت ثانية. حركت قدر التنغيتا مرة، ثم تركت يدها تلامس عـود التحريك فقط. إنها ليست معهم الآن... لقد هبطـت في عتمـة خاصـة من الذكريات والمقلقات، شأنها عندما روت لهم القصة في الـسهول. وظلت هكذا: يدها على عـود التحريـك، ورأسـها مائـل إلى ناحيـة، وعيناها إلى الأرض... ممتنعـة عـن إجابـة أي سـؤال علـى وجـوههم الصامتة.

* * *

نظر كاريغا إلى هيئتها، منحنية هكذا، وتمتم لنفسه: لم تعد الأمـور كما كانت. قلـب الجملـة في ذهنـه، مـراراً، كأنهـا تـشرح وحـدها، العذاب كله، وكل المعـاني الناقـصة في قـصتها ـ في قـصتهم. هكـذا أحس بعد رحيل موكامي: وهكذا أحس بعد مغادرته سيريانا، وكذلك بعد رحلته الأخيرة.

وفكر الآن... حقاً لن تعود الأمور كمـا كانـت، حـتى باسـتعراض ماضي هؤلاء الناس، الماضي الذي حاول الإمساك بـه، في سـيريانا،

وفي مدرسة الموروغ. أي ماض يتحدث عنه المرء؟ ماضي نديمي، والخالقين من مالندي إلى سونغاي؟ من رأس العواصف حتى البحر المتوسط؟ ماضي حضارة كسيرة، وتطور مكبوح حتى البحر المتوسط؟ وشعب أسود متناثر على الكرة الأرضية ليطعم إله الريح النهم الذي تحدث عنه المحامي؟ ماضي المنازل والغلال المحترقة، والأوبئة التي ضخت في القارة؟ أم هو ماضي لوفرتور، ترنر، تشاكا، عبد الله، كويتاليلي، أولي ماساي، كيماثي، ماثنجي، والآخرين؟ أهو ماضي الزعماء الذين باعوا الآخرين، ماضي أولئك الذين حملوا ليفنغستون وستانلي على ظهورهم، مضللين بأن خدمة الرجل الأبيض هي خدمة الله؟ ماضي كينيانجوي موميا، ليNانا، جوي جيرود، نديري وا ريرا؟ ليس لأفريقيا ماض واحد، بل أكثر من ماض، متصارعة مع بعضها صراعاً مستمراً. الصور تتراكم على الصور. حاول أن يصارع مع كل واحدة، أن يثبتها، ويتفحصها، ويستجلي سرها الذي فاته. وفجأة، بينما كان الماضي يكتشف أمامه، رأى، أو تخيل أنه رأى، وجه أخيه! لكن كيف حدث هذا، وهو لم يلتق أخاه البتة؟ إلا أن الوجه ما يزال ماثلاً... وتذكر القصة التي رواها لهم عبد الله في السهول... وتساءل عما إذا كان عبد الله قد عرفه. إن عبد الله، على أي حال، هو من ليمورو. ثم فكر بمنيرا: لقد عرفه، واستغرب لماذا لم يسأله المزيد من ندينغ أوري. لكنهما، بالرغم من عيشهما معاً طيلة سنتين، يتقاسمان المسكن ذاته، كان لا يعرف أحدهما عن حياة الآخر إلا القليل القليل. استعاد، وهو يفكر بمنيرا، وجه موكامي. أهو التنغيتا في رأسه؟ لكن وجه موكامي ظل هاجس حياته بأسرها. حاول مراراً أن يمنح ما يحسه، صيغة تمسك به، كلمات ـ يدان مضمومتان ارتفعتا إلى القلب في صلاة. بدا أنه يحس باللكمات تحت مفعول التنغيتا. لكنه، فجأة، وبالرغم من الوجه الماثل أمامه ـ أتراه عبر نهر

الزمن؟ ـ أراد أن يضحك. لقد تذكر، للتو، فرودشام، وهو يخبرهم بأن الكتابة صنو الديانة:

«يا أولادي... إنها عبادة... عبادة مطهرة»، والمسيح وشكسبير غيرا اللغة. كان يلقي عليهما محاضرة، قبل أن يبدأوا كتابة موضوع، وكان بالغ الجد: يا أبنائي، عليكم أن تدونوا على الورق ما تشعرون به حقاً. لا يعني هذا أنهم صدقوا كلامه عن الكتابة باعتبارها عملاً اعترافياً، من عواطف ساخنة وعذاب. كاريغا، مثلاً، كان ينسج في الغالب أعمالاً بطولية لا تصدق، ويلصق حكمة مسيحية حول أبسط الأمور، مثل زيارته تلك لعمته. وفكر بتلك العمة الخيالية، كيف تبعثه في كل صف، من كل مدرسة، ولم يستطع أن يفهم لماذا كان المعلمون، سوداً وبيضاً وحمراً وصفراً، مسكونين دائماً بعمات الناس، وعطلاتهم الأخيرة، وزيارات الناس الأولى إلى المدينة. ألم وعذاب. أي سخافة. كل ما أحس به حقاً، كل ما حدث حقاً في حياته، كان ممنوعاً على قلمه. ثمت أشياء لا يستطيع المرء ذكرها على الورق، ثمت مشاعر تعود إلى المرء وحده: كيف تراه، إذاً، قادراً على أن يبوح بما في قلبه للآخر، لمعلم.. بغية علامة أو علامتين؟ أتراهم سيصدقونه لو قال لهم إنه لم يذهب في زيارة أي عمة أو أي مدينة، وأنه في كل غروب كان يصعد، ببساطة، التل المشرف على مانوغو، وينتظرها، آملاً في أنها سوف تسلك هذا الطريق؟ وأنه ليصلي. كاريغا يصلي حقاً، عسى المسيح، الله، الرب، من كان في تلك السماء العالية... أن يهديها للخروج من البيت الكبير، في جولة قصيرة بين الحقول، أو يأمرها بارتقاء الجبل، أو الذهاب إلى مانوغو كي تغسل الملابس، أو شيئاً آخر، أي شيء!

«الدخن، قوة الله!» بدأ يتكلم. وعرف، من صمتهم المثقل، حتى وقرن الشراب ما يزال يدور بينهم، أنه سيقولها. وهي التي كتبها، مراراً عديدة، وأعاد كتابتها، في دفاتره المدرسية، وذهنه، وأفكاره.

«مهما فعلت، وحيثما ذهبت... فهي في داخلي دوماً، مرفرفة على أطراف أحلامي ورغباتي، بين المنام واليقظة. الله يعلم... كأني التقيتها في عالم آخر قبل هذا، وخلفت لي علامة... أعرفها بها... فيما بعد. التقيتها للمرة الأولى، جالسة على حافة مقلع مانوغو، فوق التل الذي نسميه ها ـ موتابوكي، قرب أهل نجنجو واندوكو، وأهل أوماري جوما، الذي نسميه أوماري واجوما. كانت جالسة على حافة المقلع، مائلة إلى الخلف، معتمدة على يديها، وساقاها تترجحان في فراغ الهاوية الخطر. أسفل التل، كان الطريق المعبد الذي نحته، كما يقال، أسرى الحرب الإيطاليون. وكان يبدو لي، دائماً أن السيارات والدراجات والناس، تقذف فجأة، وتبتلع فجأة... فالطريق حاد جداً في الموضع الذي ندعوه انحناءة كيمونيا، بمواجهة تلعة كينيا التي تنتصب فوقها مدرسة مانغو. عجبت لجرأتها، إذ كنت أدوخ، دائماً، حتى أثناء تفكيري بالوقوف على حافة مهواة. تقدمت نحوها، مع ذاك، ونظرت هي إلى الأعلى، فرأتني، فدعتني، تتحداني، أن أنضم إليها. ترددت. قالت: تعال، لا تخف. قلت: من أخبرك أني خائف؟ وتظاهرت بالغضب. تقدمت لأنها تحدثني، ولأني لم أشأ أن تراني خائفاً. ومع هذا كنت فزعاً. خفق قلبي خفقة هائلة واحدة، وكادت ساقاي تنهاران عند الركبتين. كنت فزعاً. فزعاً. لكن الخوف أيضاً أدهشني وأثارني. إنه لأمر غريب: كنت أسير نحو الحياة والموت، كانت ساقاي تتخاذلان حقيقة، لكن شيئاً بين الألم والفرح كان يندفع في دمي المدفأ بالخوف، وغدا هذا الشيء أكثر توتراً. أردت أن

أصرخ، لكني واصلت تقدمي، ممغنطاً بذلك الوجه، وتلك الابتسامة، والانفراجة اليسيرة في صف الأسنان الأعلى ـ لقد شاهدت هذا كله، قبلاً، لكني ما كنت منتبهاً إليه فعلاً.

جلسنا ثمت، وتحدثنا، وراقبنا طيور الثبيري تحلق، مبتعدة، مع الشمس. كنت أعرفها طبعاً، إذ عاشت أمي هناك، تعمل في مزرعة أبيها، على الجانب الآخر من التل الذي واجه بلدة ليمورو والمنطقة الآهلة.

سألتني لماذا لم أذهب إلى المدرسة. قلت إنني أردت ذلك دائماً، ولم يكن القول صحيحاً. قالت إنها في مدرسة بكاماندورا. آنذاك أقسمت لأذهبن إلى المدرسة. في الأسبوع التالي، كنت أذهب كل يوم إلى مزرعة أبيها، مزرعة حشيشة الحمى، أقتطف الزهر الأصفر.

كنت، على أي حال، ماهراً في القطاف، لكن لي الآن التزاماً شخصياً إزاء العمل، حتى لقد استغربت أمي مما دهاني.

قلت: أريد الذهاب إلى المدرسة. وسوف أجمع مالاً كي أدفع الأجور. أحياناً تأتي لمساعدتي، فتحكي لي، المزيد، عن مدرستها، وتجلب لي خوخاً أحمر ناضجاً، ثم كمثرى لذيذة مرتوية. حسناً، جمعت ما يكفي لأجور فصل. وحين رأت أمي تصميمي ساعدتني ببقية المبلغ. علمتني ما عرفت، فتقدمت سريعاً. وسمح لي المعلمون بتخطي عام أو عامين، بحيث لم يكن بيني وبينها إلا عام واحد، بعد سنتين من دراستي. كانت أمي، ورعة، تقية، تردد صلواتها في كل مناسبة. لكنها لم تستطع حملي على الصلاة، أو إفهامي معنى الصلاة. موكامي هي التي علمتني الصلاة. صلاتي الأولى ـ أخبرتني أن الله يجيب كل دعوة من داع ـ كانت في الطريق إلى المدرسة، تحت

شجرة أرز، في موضع يدعى كاموتاراكويني. لم تكن معي ذلك اليوم، كانت مريضة أو نحو ذلك. على أي حال... انتابتني، فجأة، عاطفة لم أحسها قبلاً. أحنيت رأسي، وأغمضت عينيّ، وسألت الله أن يشفيها: أيها الرب... إن كنت قادراً على كل شيء، وقديراً، فافعل أي شيء.. لتكون موكامي لي. في نهايات الأسبوع، وأثناء العطل المدرسية، كنت أشتغل في مزارع أبيها، وتأتي هي، ثانية، لتساعدني، آه، وأحياناً نتوغل خلل القصباء الخضراء في بحيرة مانغو، مطاردين طيور الشبيري، جامعين بيض الشبيري. وأحياناً نتصارع في حقول حشيشة الحمى، أو عند البحيرة، فتسقط على الأرض، وأكون فوقها، فتصرخ... وأتركها، لتنهض وهي تنفض التراب أو العشب من تنورتها... وإذاك تضحك مني، قائلة: جبان أنت. أتبعها، ونتصارع ثانية، فترتخي فجأة، وأسقطها على الأرض، فتتعالى في دمي الأغنية الغريبة... لتصرخ وتسميني خاطئاً شريراً، فأبتعد ثانية.. لتضحك مني. لقد كرهتها بسبب كل تلك الأشياء التي في داخلي، والتي لا أستطيع لها شرحاً. ذهبت إلى مدرسة كانجيرو الثانوية، فظننت عالمينا قد افترقا. بعد عام، تبعتها، وذهبت إلى مدرسة سيريانا الثانوية. المدرستان، كما تعرفون، قريبتان من بعضهما، لا يفصل بينها إلا واد. ثمت استمرت لقاءاتنا أيام السبت، وكنا نتحدث عن مدرستينا، ومعلمينا، وبيوتنا، عن الحرية... وكان كل شيء بديعاً.

نلتقي أثناء العطل المدرسية ـ ليس كثيراً الآن ـ وإنما مرة أو مرتين في الكنيسة. خلال سنتها الرابعة، وسنتي الثالثة في الثانوية، أخذت ألاحظ تبدلات في موقفها. كانت أشد انزعاجاً. كأنها غاضبة لمرآي... لكنها تغدو أشد غضباً حين أغيب عن موعد معها. ما كنت قادراً على

أن أفعل أمراً حسناً... وظننت حمى الامتحان سبباً. في أحد أيام العطلة المدرسية، مرت ببيتنا، بكوخنا في قرية كاميريثو، ودعتني أن نذهب إلى الكنيسة. سلكنا ذاك الدرب المترب الذي ألفنا أن نسلكه حين كنا أطفالاً نذهب إلى المدرسة الابتدائية. تذكرنا أصدقاء كثاراً، وحوادث عديدة. ذلك الولد الطويل الهزيل ايغوغو: كان الأولاد يغمزونه حتى البكاء حين ينادونه: باز، باز. وهناك ابنة كيمونيا، التي يقال إنها أجمل امرأة في البلاد كلها. دخلنا الكنيسة: وفرحنا لأن الموقر جوشوا ماتنجوا، وهو المفضل عند الشباب آنذاك، كان على المنبر. خلال الوقت كله، كانت مرحة. ولم تعد تهتم بأن يراها أحد معي، بعد أن خرجنا من الكنيسة، سلكنا الطريق المعبد، عبر نجينيا، إلى نغيروبي.

تمددنا على العشب، نحلم أحلاماً كبيرة: أن ننتهي من الثانوية، وندخل الجامعة، نتزوج، ويكون لنا أطفال، وما إلى ذلك... بل كنا نتخاصم على من يكون الأول: ولد أم بنت. أرادت ولداً، وأردت بنتاً. تناقشنا. ولم نشعر بالوقت يمر. ركضنا خلال غيتوغوثي، وفجأة قالت لي قرب بيت مبيرا: لنفعل ما اعتدنا فعله حين كنا صغاراً نجمع بيض الثبيري من البحيرة. إنه الجنون. فالغسق يهبط. لكن الأمر كان بديعاً. خضنا في الماء، والطيور تندفع في السماء هاربة، والقصب الأخضر والعشب العالي يتعلقان بأقدامنا، ويعرقلان تقدمنا إلى الوسط. جمعنا عدداً من البيض ونحن ماضيان في سبيلنا. كان في وسط بحيرة مانغو، نشزان لم يغمرهما الماء يوماً، مهما كان المطر غزيراً... ويبدوان كأنهما يطفوان فوق الماء. عرفت، فيما بعد، أنهما جانبا سد بناه الشبان من جيل كهيو مويري، بإصرار من موكوما وانجيريري، الزعيم آنذاك، كشرط لإجازة رجولتهم، لكن الأسطورة التي انتشرت بيننا، نحن الشبيبة، تقول بأنهما سناما حيوانين

كوسجين، هائلين، كانا يسكنان البحيرة، أما القصباء فهي شعر بلوغهما. ذهبنا إلى أحدهما وجلسنا. السكون مخيم. راقبنا طيور الثبيري وهي تحلق متتبعة الشمس. جمعنا البيض. عشر بيضات. وفجأة مزقت السكوت بصرخة حادة... أووو... كانت علقة قد عضت حنكها وأخذت تمتص دمها. انتزعت العلقة فسال الدم. حككت موضع الجرح، وقلت لها ألا تقلق. نهرتني، فهي ليس بالطفلة. غضبت، وهي غضبت، وأردت أن أصفعها فعلاً لأنها سمتني طفلاً كبيراً، لكنها أمسكت بيدي، وشرعنا نتصارع، وكنت ما أزال غاضباً عليها. رميتها أرضاً، وارتميت عليها. أحسست بالحرارة تغمرني، واندفع الدم في كل وريد وشريان مني... وضمتني إليها. الغسق يغطينا. والسكون محيط.

حين استيقظت، فيما بعد، كان الليل قد هبط، وطلع قمر صغير. موكامي جالسة. لقد هشمت البيض كله، وتناثرت قشورها حولها.

سألتها: «ماذا فعلت؟ لماذا فعلتها؟».

آنذاك رأيتها تبكي. ضممتها إليّ، وطمأنتها.. لن يحدث لها شيء. سوف أتزوجها، إن حدث شيء.

نظرت إلي، حزينة كما أتصور، وقالت:

«الأمر ليس هذا. ليس هذا إطلاقاً».

«إذاً... ماذا؟» سألتها، مهتماً، خائفاً من أنني لن أسبر أغوارها، أو أغوار أية امرأة.

سؤالها الثاني، صدمني حقاً، إذ لم يكن متوقعاً البتة: «ألك أخ مات؟».

أحسست دائماً بمشاعر غائمة إزاء أخي. حتى كان لدي إحساس غائم غامض بأنني قد رأيته... أيام كنت طفلاً صغيراً. لكن هذا غير ممكن. ومع هذا، فلا بد أن شيئاً قد حدث، لأننا انتقلنا من بيتنا في مزرعة أبيها، وذهبنا إلى القرية. الأمر كله مختلط تماماً في ذهني. سألت أمي مرة أو مرتين ـ أعتقد أنني سمعت همساً من الجيران ـ لكنها تحاشت أسئلتي، وقالت ما يوحي بأنه ذهب إلى أبي في وادي ريفت، وبما أنني لم أر أبي، أبداً، فقد تركت ملاحقة جوابها بمزيد من الأسئلة.

قلت: «لا أدري. ربما... لا، لا أظن هذا. أعني أن الذي أعرفه ذهب إلى وادي ريفت. لكن لماذا تسألين؟».

«تعرف أن أبي اكتشف حبنا. وهو يعلم أنك ابن مريم. ويقول إن أخاك كان من الماو ماو... ويجب أن يكون هو الذي قاد مجموعة إلى داخل بيتنا، وصلم أذنه اليمنى، بعد أن اتهمه بمساعدة البيض، وإلقاء المواعظ في الكنيسة ضد الماو ماو. حرية، أو لا حرية... إنه لن ينسى هذا الفعل الشنيع، ولن يدع ابنته تتزوج في عائلة كهذه، فقيرة جداً، ذات سجل في الجريمة. ظل يحرضني طيلة فصل كامل على ترك العلاقة. والآن، سألني أن أختار: إما هو أو أنت. عليّ أن أتركك أو أبحث عن أب آخر وبيت آخر».

خضنا، عائدين، في الماء البارد والقصب، عبر صمت القمر والعتمة. أوصلتها قرب منزلها، وعدت إلى كاميريثو. سألت أمي عن أخي.

قلت لها: «أرجوك... قولي الحقيقة».

«ندنغ ـ أوري، حمل الرصاص إلى المقاتلين، وأعدم شنقاً. لا تسألني أكثر. لست قاضياً في ما يفعله الرجال. نحن كلنا بيد الله».

حسناً... لم أر موكامي ثانية.

موكامي، حياتي، ألقت بنفسها، فيما بعد، من المقلع حيث التقنيا أول مرة. ماتت قبل أن يوصلوها إلى مستشفى آغا خان في نايروبي.

4* كان تأثير هذا الاعتراف الغريب شديداً على الحاضرين. ظلت المرأة العجوز تحدق في الموضع ذاته. لكن يديها كانتا تحركان، تلقائياً، قدر التنغيتا، أسرع فأسرع. وانجا اقتربت منه أكثر. وتأوه منيرا، تأوهاً بين السعال والصرخة المخنوقة. نهض ثم خرج. كان عاجزاً عن فهم الكره الذي استولى عليه فجأة. موكامي كانت أخته، الوحيدة التي وقفت إلى جانبه، ولم يعد يعرف من يلوم، أباه، أو كاريغا. كل خارج الكوخ، حتى تمالك نفسه قليلاً، وعاد ليجد أمامه مشهداً أكثر غرابة. كان عبد الله ممسكاً بكتفي كاريغا، يهزه هزاً عنيفاً، ويسأله ملحفاً، معيداً السؤال ذاته: «أأنت أخو ندنغ ـ أوري؟»، وكان صوته مثل صرخة حيوان مخنوق. في ذهنه ـ لكن أنى لهم أن يعرفوا ـ انسابت ذكريات طفولة مشتركة مع صديق، حين كانا يرتادان محلات الجزارين والمقاهي في ليمورو، يلتقطان الخبز العفن الملقى في أكوام القمامة من مخبز مانوبهاي في ليمورو، المرارة والعذوبة. مرارة الحلم بتعليم مفتقد في كينيا المستعمرة، والذكريات المثقلة بالبحث عن عمل مناسب أو حرفة: سنوات الكدح في معمل الأحذية: سنوات اليقظة، والحلم بداود أسود ينتصر بمقلاع، ورمح، وبندقية مسروقة، على جوليات الأبيض ذي الشيكات السمينة والبنادق الرشاشة... حلم التحرر النهائي، كي يستطيع الأسود أن يرفع رأسه مطمئناً في أرضه، مطمئناً في مدرسته، مطمئناً في ثقافته ـ كل هذا وأكثر ووراء هذا كله... الخسران... الخسران الذي لم يثأر له أحد. لم يطق أن يقول هذا، دفعة واحدة. اكتفى بالسؤال: «أنت؟ أنت؟ أخو ندنغ ـ أوري؟».

انتظروا جميعاً ما سوف يفعله، انتظروا تفسيراً. عاد عبد الله إلى مقعده، وابتلع، بسرعة، قطرة أو قطرتين من التنغيتا. عيونهم الحائرة مثبتة فيه. لقد أبعدهم فعله الدرامي عن قصة كاريغا. بدا أنه يستمتع بتأثير التنغيتا... ثم نظر إليهم جميعاً. ضرب ذبابة كانت تطن عند أذنه اليمنى، ثم أراح عينيه على كاريغا. وبين أسئلتهم الصامتة، شرع يتكلم بصوت مؤثر منغم.

«الدخن، قوة الله!».

«ندنغ ـ أوري ابن مريم. ندنغ ـ أوري طفولتي. ندنغ ـ أوري أشجعهم جميعاً. لم يبكه أحد. لم يثأر له أحد. يرقد في مقبرة جماعية بمكان ما. الجندي المجهول لحرية كينيا الذي لم يغنه أحد...».

أحسوا جميعاً بعدم الراحة، بل بالضيق.

ثم انتفض، وتمالك نفسه، وغدا صوته الآن متعباً قليلاً، محايداً، يكاد يخلو من الانفعال.

وكرر: «الدخن، قوة الله».

«ندنغ ـ أوري ابن مريم. جاء مبكراً إلى كوخ أمي، وحسونا معاً عصيدة الدخن التي طبختها. بعد يوم أو يومين سيأتي دوره لدخول الغابة. لم أكن قد أقسمت بعد، قسم الباتوني، لكني كنت سأنضم إلى المقاتلين حين أجتاز الطقوس بنجاح. بعد تناول العصيدة خرجنا إلى الساحة، واستندنا إلى جدران الطين كي نستقبل شمس الصباح. ثمت الشمس. ولا ريح. لكن الجو ما يزال بارداً. درنا دورة حول الحقل الذي تبلغ مساحته أكراً[1] واحداً، نقتلع عشبة هنا، وعشبة هناك، من

---

(1) حوالي 4 آلاف متر مربع.

بين أزهار الفاصولياء واللوبياء. رمينا أحجاراً على شجرة الكمثري في وسط الحقل، لنرى من يكون الأول في إسقاط ثمرة كمثرى. لكن اللعبة، وحتى الثمرة، كانتا بلا طعم. وحين بلغت الساعة العاشرة، تمشينا نحو المركز التجاري الهندي. مررنا بمنزل كيموتشو وايدنغو وهو رجل غني مؤيد للماو ماو، أعدمه فيما بعد، البيض: توقفنا عند البيت، كان قد شيد حديثاً، بيتاً من الحجر، البيت الوحيد الذي يملكه رجل أسود في المنطقة، وسألنا أنفسنا: هل سيأتي يوم يحصل فيه الكينيون جميعاً على بيوت جيدة كهذا؟ قال ندنغ ـ أوري: لهذا أنا ذاهب للانضمام إلى كيماثي وماثنغي. في المركز التجاري الذي يملكه الهنود، كنا سنلتقي رجلاً، رجلنا، الذي كانت له علاقات ما مريبة بالشرطة الاستعمارية، وكان يأتينا منهم بالرصاص، مقابل أن يأتيهم هو بنساء جميلات، حسب رأيه. إنها القصة التي رواها لنا في الأقل. كانت أخته، على أي حال، فتاة ندنغ ـ أوري ـ إنهم من نغيتشا ـ أوكابوكو أو مكان آخر من تلك الناحية ـ ربما من وانجيجي ـ نعم ـ أظنها وانجيجي، لكنه يوجد غالباً في ليمورو. وقد باعنا، بالفعل، بضع رصاصات، مرة أو مرتين، وأوصلنا هذا الرصاص إلى أخوتنا في الغابة، بمقتضى قسم الوحدة الذي أقسمناه. كان سيأتينا اليوم بالمزيد من الرصاص، وربما بمسدس. ندنغ ـ أوري ابن مريم. كان منفعلاً تماماً لأنه سوف يمسك بمسدس، أعرف هذا، أعرف هذا من وجهه، مع أني حاولت إخفاء الأمر. أخذت أتندر حول التحاقه مقاتلاً.

وحكيت له: «في سالف الأزمان، ذهب مقاتل ليحارب في أرض العدو. ثم عاد، وأخذ يصف المعركة لأبيه... وإذا بهذا العدو يداهمني، ويضربني ضربة على أضلاعي. سقطت. جاء آخر، وكاد

رمحه يصيبني في عنقي. ثالث رماني بهراوته فأصابتني مباشرة على الأنف...، وظل على هذا المنوال، دون أن يشعر بغضب أبيه. «يا بني، لم أرسلك إلى هناك كي يضربوك، وتستمتع بالهزيمة. مثل هذه الحكايات أروها لأمك». ضحكنا. فجأة توقف في منتصف الطريق، وشكل أصابعه في هيئة مسدس، صوبه إليّ. «قفوا يا شاربي الدماء! قفوا. تعالوا هنا! انبطحوا. مدوا أذرعكم. أخرجوا أيديكم من جيوبكم... لماذا تضطهدون الشعب الأسود؟ لماذا تستولون على أرضنا؟ لماذا تسلبون عرقنا، وتفسدون نساءنا؟ يا أولاد جوني، أيها الرجال الحمر، صلوا لآلهتكم صلاتكم الأخيرة... أما من جواب؟ مذنبون... ترررررو - تررروو...» المسدس الآن رشاش في يديه المتلهفتين. وكان فعلاً يتصبب عرقاً. قلت له إن كل شيء حسن، وهززته من كتفه. ضحك، وضحكت، بصعوبة. والآن أتذكر الليلة التي فعلنا معاً، فعلتنا بالفتاة نفسها، في كوخ جدتي، حيث كانت تأوي الماعز والأغنام. فعلت بها أولاً، وقد أوقفتها إلى جدار، رافعة تنورتها. كانت الماعز والأغنام تثغو، وبعضها يجري. كانت تبكي، بكاء غير حقيقي، مزيجاً من التأوه والأنين، وتمتص وجع الداخل، وكان الأمر بديعاً. وحين جاء دور ندنغ - أوري، احتجت قليلاً، ثم رجتنا أن تستريح برهة. لكن ندنغ - أوري لم يتمالك نفسه، وهجم عليها. وجد من الصعوبة أن يولج عضوه فيها، وهي واقفة...

حاولت هي أن تساعده... ليس هناك... إلى الأسفل... لا... هذا كثير... هناك، وفجأة سقط الاثنان أرضاً، ملطخين بالروث والبول، لكن ندنغ - أوري لم يطلق سبيلها. استعدنا كلماتها ونحن نضحك. نهضت حين انتهى الأمر، وقالت غاضبة: انظر الآن، لقد أفسدتما تنورتي، وقميصي... واندفعت خارج الكوخ. وتساءلنا، عما إذا كانت

تتذكر الآن تلك الليلة، وهي زوجة سعيدة ذات طفلين. امتد حديثنا إلى فتاة ندنغ ـ أوري الحالية. كانت، مثلما أخبرتكم، أخت صديقنا، والحق أننا التقيناه بوساطتها. أخبرتنا أنه لم يود صداقتهما، في أول الأمر، لكن ندنغ ـ أوري، وأنا، استبعدنا هذا الأمر، باعتباره غيرة وقائية مألوفة من الأخ، وقد غدا ودوا، حقاً، فيما بعد. كان متكلماً، وهو الذي عرض علينا إمكان تزويدنا بـ«حبات الذرة، كما كنا نسمي الرصاص عادة. قلت لندنغ ـ أوري إن عليه أن يتزوج المرأة فوافقني، وقد وعدته بأن تنتظره حتى ينتهي الكفاح. كان، على أي حال، محتاجاً إلى من يناضل في سبيله. هكذا وصلنا المكان، وهو شارع خلفي، يلي دكان هندي اسمه جوفنجي ـ نغونجي. كان ينتظرنا. تصافحنا، وكانت كل مصافحة تسليماً لحبوب. جرى الأمر بيسر وسهولة، ولم يكد يستغرق دقيقة واحدة. ومضى الرجل.

أما المسدس فقد نسي أن يسلمه إلينا... ذكرت ندنغ ـ أوري بالمسألة، وحاولت أن يتبعه. لكننا قررنا أن من الأفضل الانتظار حتى المساء أو الغد. جاء رجلان من حيث لا ندري، وربتا على كتفينا. اندفع شيء بارد وساخن في أحشائي. لقد عرفت، وأظن ندنغ ـ أوري عرف أيضاً، إننا ضحية وشاية. صر ندنغ ـ أوري على أسنانه: الفأر، وإذا بركلة تدفعه. كانت سيارة شرطة متوقفة عند سياج قرب المخازن الهندية. كان الجاسوسان يسخران منا، ويطلقان القهقهات، ويدعواننا فيلدمارشالات، وجنرالات. أحسست بالمرارة لعجزي، وتقبلت استهزاءهما بصمت مرير. فتشني أحدهما. ثم توقف بغتة، ونظر إليّ حائراً. وصاح بي: أين الأشياء؟ أنا أيضاً كنت حائراً. وفجأة ارتفعت صيحة النصر من الثاني الذي كان يفتش ندنغ ـ أوري. نظرنا جميعاً نحوه. كان يمسك عالياً بالأشياء القاتلة التي وجدها في جيوب

ندنغ ـ أوري. ثم خطر لي أن الرجل الذي فتشني لم يفتش جيوب السترة الداخلية حيث وضعت الحبوب. إنه جزء من ثانية. لم أفكر. القرار قد صدر بنفسه. لم أفعل إلا الامتثال له. فقفزت قفزة يائسة نحو الحرية. ذهلوا للوهلة الأولى. ثم أشهروا مسدساتهم. سمعت أصوات الإطلاقات. لكنني كنت شخصاً آخر: فمن أين لي هذا البرود الداخلي؟ اختلطت بالأطفال الهنود، وكل ما بقي لرجال الشرطة هو أن يطلقوا الرصاص في الهواء، ويستنجدوا بالهنود. ربما خاف التجار من دخان المسدسات، وربما حسب أطفالهم الأمر فكاهة، إذ كانوا يهتفون ويصفقون وينادون... هيا!. هيا!. مما جاء بالمزيد منهم إلى الطرقات، فزادوا الأمر تعقيداً، وحفظوني من الأذى. مضيت عبر الأزقة الخلفية، إلى الحقول القريبة من غواكارابو، متجهاً نحو رونغاي، حيث الدكاكين الأفريقية. أطلقوا النار عليّ. سقطت. نهضت. أطلقوا النار ثانية. أخذت اسقط وأنهض، عبر القنوات والأكمات، خلل حقول العشب، مخترقاً ساحة السوق في رونغاي، متخطياً سكة الحديد، متجهاً إلى الحي العمالي لمعمل «باتا». في هذه الأثناء بلغ النبأ «باتا». أخفوني. ومضوا بي، من باب إلى باب، إلى ممر سري أدى إلى أجمة الشاي، إلى الغابة، وإلى الأصدقاء.

ندنغ ـ أوري، ابن عمتي. لم أره ثانية. قد شنقوه بعد أسبوع، في غيثنغوري.

«الدخن، قوة الله».

صليت: «احفظ حياتي، احفظ حياتي، يا رب... عساني أظفر يوماً بذلك القملة». وماذا فعلت حين خرجت؟ لقد نسيت، أنا، عبد الله، قسمي أمام الله... وشغلت بالبحث عن المال... بل جئت أختبئ في الموروغ».

انهار، مختنقاً... ولعدة ثوان كان غائباً عنهم. ثبت كاريغا عينيه على عبد الله. ورفعت نياكينيوا رأسها ونظرت إليهم جميعاً، الواحد تلو الآخر، كما لو أنها ترى، وحدها، المخبأ عنهم، كأنها تقرأ، وحدها، الإشارات، في عتمة الكوخ المكتنزة بالأسرار.

5* طيلة سنين، كان على منيرا أن يتذكر ليلة شرب الثنغيتا تلك. وفيما بعد، وهو يدون إفادته، حاول أن يقدم صورة للمشهد، معالم فقط لتلك الوجوه الحائرة، وأن يمسك بالكلمات صوت وانجا المضطرب، وهي تقتحم أفكارهم بالسؤال الكامن وراء الإعترافات، والذكريات، والصراع الداخلي للنوازع المتناقضة، والليلة الأولى من التنغيتا، الروح، في شكلها الأصفى. وتساءل: أتراها كانت تريد إنقاذ المناسبة بتبديل الموضوع؟ لكن الأمر كان مغرضاً، موجهاً إلى الشخص الوحيد القادر على أن يريهم النور، في ظلمتهم.

«أخبرينا، يا أمي، أخبرينا: ماذا رأى زوجك بحيث تغير؟ ما الذي جعله غير ما كان عليه؟ هل أخبرك بمعنى ما رآه؟».

«في وهج ذلك الضوء؟» سألت كمن أنتظر هذا السؤال طويلاً، وأستعد له. «حاول مراراً أن يخبرني ماذا رأى في وجه ذلك الضوء، لكن شيئاً ما كان يجعله يغص في البدء، فيعجز عن الاستمرار. ثم جاءت الحرب الكبيرة الثانية، فذهب أطفالنا، أبناؤنا، مرة أخرى، وأبوك بينهم... أخذوهم بعيداً. وسمعت أسماء غريبة حين عادوا: أبيثينيا، باما، أنديا، بوبوا، نجيوفاني، نجيريماني، وغيرها. هذه المرة، كان أبناؤنا يمسكون فعلاً بالبنادق، ويشاركون بغير إرادتهم، في المذبحة العامة للبشر. كان زوجي يهمس لي بهذه الأشياء في أواخر الليل، مرتعداً بالحمى، بحيث كنت أضمه كي يهدأ. وذات ليلة أخبرني بكلمات كانت غريبة آنذاك، وكأنها بلا معنى. حتى هذه،

حتى هذه المذبحة، ليست ما رأيت. حاولت معه ثانية: قل لي ماذا رأيت... ما الذي ظل يثيرك كل هذه السنوات؟ أهو ابنك؟ ارتعد مرة أخرى، وشاهدت الدموع في عينيه، فضممته لأطمئنه.

أخبرني بهذا: يا امرأتي... حين رأيت الحيوان، الأضخم من نداماثيا الشهير، يقذف الضوء، فكرت بأني أرى أبناء الشعب الأسود وبناته على مدى القرون ينهضون نهضة رجل واحد، ليروضوا قوة ذلك الضوء، أما الرجل الأبيض الذي كان معنا فقد كان خائفاً مما سيحدث لو صارت تلك القوة في أيدي هؤلاء الآلهة السود. أدار شروره نحونا: أدار لسانه المسموم نحونا: أتتذكرين واكارويغي، الرجل الأبيض الذي سميناه الباز؟ كان يمضي إلى قبيلة الأغيكوبو ويقول لهم: قبيلة الماساي، آتية لتنهب أبقاركم، وهي مسلحة حتى الأسنان: ثم يمضي إلى قبيلة الماساي ويقول لهم: قبيلة الأغيكويو آتية لتنهب أبقاركم وبناتكم، وهي مسلحة حتى الأسنان. أتتذكرين كيف كدنا نذبح بعضنا... وكيف جاء واكارويغي في اللحظة الأخيرة، صانع سلام؟ وحين أخفق نهائياً، وجه بنادقه نحو الأبناء السود، الذين ازدادوا حكمة، فتراجعوا إلى الغابات والجبال، ليرصوا صفوفهم الكسيرة. عادوا، لا عبيداً مرتعدين، بل مقاتلين مسلحين بالرماح والبنادق والإيمان. أجل، أيتها المرأة... إن الإيمان ضوء هو الآخر. ثمت خونة قليلون بينهم، ارتضوا أن يظلوا بوابين، وجامعي فتيات مما يتساقط من الرجل الأبيض. لكن السواد الأعظم ظلوا معاً... فأريق دم غزير، وتيتم الكثير، وقطعت الأرجل، وانهارت البيوت... كل هذا بسبب حفنة جشعين أرادوا لأنفسهم كل شيء. لقد اعتبروا الخصال المتأتية من وضع كهذا، فضائل حقيقية للقلب الإنساني، ومارسوا الإحسان، والشفقة، بل سنوا قوانين وقواعد حسن سلوك

لأولئك الذين يتموهم وشردوهم في الطرقات. قولي، يا امرأة: هل نحتاج إلى الشفقة، والإحسان، والكرم، والعطف... لو لم يوجد فقراء وبؤساء نشفق عليهم؟ وهل يظنون أننا سنبقى متلقين عطفهم وإحسانهم، حين تكفي قوتنا لإطعامنا وإكسائنا جميعاً بالقدرة البشرية والحكمة والحب؟

هذا الأنين يا امرأة، هو الذي كان يهزني، هو الذي كان يسكنني، في محتدم القتال. هذا هو المشهد المرعب الذي رأيته، والصوت المفزع الذي سمعته... والذي ظل يؤرقني، أو يلقيني في نوم مضطرب... وهو ما خفت أن أخبرك به».

كان عبد الله يئن، بالفعل، مما جعل المرأة تقطع ما ترويه عن رؤيا زوجها، هذه الرؤية التي اعتقدوا أنهم فهموها: أولم تحدث فعلاً؟ لكن عبد الله ظل يئن، ويطلق الشتائم على وجوه يراها هو وحده، وظنوا تذكره تلك الوجوه سبباً لتأثره. أراحت وانجا يدها على كتفيه، فتوقف عن التأوه والأنين المؤلم، ونظر في عينيها، ثم أشاح عنها... ووجهه يحمل تعبيراً غريباً عصياً على الفهم. وجهها هي أيضاً يغشاه ألم خفيف... وعضت شفتها السفلى كأنها تحبس دموعاً كادت تنحدر.

نهضت المرأة العجوز من مقعدها عند قدر التنغيتا. ونظرت إليهم جميعاً، وأحس منيرا بتبصر هائل ولطف ولهفة في وجهها النحيل.

«اذهبوا إلى بيوتكم يا أبنائي. اذهبوا إلى بيوتكم وناموا. لقد قرأتم كلكم كتاب الله العزيز.... الثأر ثأري، وأقول، أهو شاغل أي امرئ أن يؤدي قضاء الله وثأره؟ ناموا. وليكن. ليكن. فما زال العديد من الكارويجيين بيننا. ناموا».

* * *

كتب منيرا، مخربشاً، تعصف به محاولة الفهم: أظل أسائل نفسي، بعد أن انتهى الأمر، عم كانت تريد أن تخبرنا تلك الليلة. أكان بالإمكان تدارك المسألة حتى لا يقع ما وقع الآن؟ من؟ تذكر أن عبد الله كان أول الخارجين، وتبعته وانجا مع كاريغا. سارت وانجا مع عبد الله مسافة قصيرة ثم عادت، وانضمت إلى كاريغا حيث كان واقفاً. بإمكان منيرا أن يستعيد، غريزياً، ما انتابه من شعور بأنه مستبعد عن شيء يشد الآخرين معاً. كان يريد، على أي حال، أن يظل وحيداً، مع أفكاره، لكن فعل وانجا أجج من غضبه المتفجر على عدم قناعاته هو. ناداها فجاءته. ظن أنه سوف يتحكم بكلماته، لكنها انطلقت ناطقة بمرارته وألمه ومعاناته خلال تلك الشهور العديدة التي أبعدته فيها، عابثة، متلاعبة بعواطفه، وذكرياته، وآماله.

«لم أتيت إلى الموروغ؟ لقد كان فيها سلام أكثر قبل أن تأتي هنا».

أجابته: «سلام أن لا يحدث شيء؟» وأنتظر منيرا أن تتم وتستمر، لكنها كانت قد ذهبت راقصة إلى كاريغا.

* * *

تركتهما واقفين معاً، وذهبت إلى بيتي، وحيداً، أصارع أفكاري وقلقي. تنغيتا... الموروغ... قصة كاريغا. حين كان يروي القصة، أومض ماضي عبر هاوية حاضري المعتمة. كأنني، قبل هذه الليلة، لم أعرف عائلتي وماضيّ، البتة. تذكرت فقط محادثتي الأخيرة مع أبي والتبدل الواضح في موقفه. تذكرت أذنه المقطوعة. اعترفت لنفسي بأنني لم أكترث كثيراً لوالدي، مع أني كنت أخافه قليلاً. ولم أعرف معرفة حقيقية أياً من أخواتي أو أخوتي الذين تزوجوا الغنى، أو كسبوا الثروة. وبعضهم ذهب حتى إلى إنجلترا، ليدرسوا التمريض والطب

والهندسة. كنت غريباً. مشاهداً. أستطيع أن أحزر ما يحدث فقط عبر تلميحات تصدر في أحاديث جادة تتوقف حين أدخل. كان أبي يتولى حتى إدارة بيتي، وكانت زوجتي تتلقى منه الأوامر والموافقات. لا أستطيع أن أعبر عما آلمني الآن... لكنه الشعور بأن كاريغا كان أكثر مني دخولاً في عائلتي. ألم يؤثر في مسار تاريخها؟ موكامي، مع أني لم أعرف عنها ما وراء كونها أختاً لي وتلميذة، إلا أنها من دمي: أتراه قطع هذه المسافة كلها كي يرمي بموتها في وجهي؟ أهذا هو سبب مجيئه إلى الموروغ، مخفياً دافعه الحقيقي وراء تلمذته ونشدانه النصيحة والعون؟ ألم تكن ثمت نبرة انتصار في أطراف حديثه؟

تناقشت مع نفسي: أبي هو أبي، رغم كل شيء. أحسست إحساساً غريباً، بالضيق... ضيق ابن شرب وطعم مع أناس شوهوا أباه، وسببوا الموت للأسرة. كنت عاجزاً عن تبرير هذا في ذهني. تذكرت كلمات عبد الله وهو يطلب من الله أن يجعله ذات يوم، وجهاً لوجه، مع القاتل الحقيقي لندنغ ـ أوري. كيف نسيت، بهذه السرعة، كلمات نياكينيوا عن الحكمة والتبصر! صرخت في قلبي: هبني القوة، يا رب، هبني الإرادة الحازمة. أحسست، وليغفر لنا الله، أن عليّ أن أخطو خطوة قاسية، تعيدني إلى تاريخي المغتصب، إلى إرثي المغتصب... خطوة تعيد صلتي بتاريخي. خطوة تمكنني من المطالبة بأبي. وتراءى كاريغا، ضخماً، في الطريق.

والحق أقول، إني لم أعرف، ولست متأكداً، لمن أردت أن أنتقم: لنفسي، لموكامي، لأبي: لكني أحسست، حسب، بأني مدفوع إلى أن أفعل شيئاً يمنحني انتساباً. لقد تعبت من البقاء، مشاهداً، غريباً.

* * *

الفصل الثامن

1* مضى كاريغا قدماً في الظلام، كمن سيسعد، وحيداً، فقط مع أفكاره، في رفقة مبهمة. لكن وانجا تبعته دون أن تنطق كلمة. كان ذهن كاريغا ملتهباً بما جرى في كوخ نياكينيوا. الليلة، الليلة، عاش تجارب مشتبكة أكثر مما عاش طيلة حياته. لقد فقد موكامي، ووجد، وهو يروي القصة، أن الألم وجلد النفس لم يضعفا مع السنوات. إلا أنه اكتشف أيضاً، أخاه، الذي لم يكن إلا خيالاً دفيناً في أعماق ذكرياته الطفولية المبكرة. إنه الآن يفخر به، متباهياً، ممتناً: ألم يسلم طلقات حية، وهو مستعد للموت... المقياس الأخير لالتزام المرء بقضية تحرر الشعب؟ شعر، في الوقت نفسه، بالرهبة، إزاء الرجل وإزاء عبد الله: فمن أين جاءت تلك الشجاعة والثقة بالنفس، بينما يضحك عالم كامل، من تهديدات فلاح لم يتسلح إلا بسكين صدئة وبندقية محلية الصنع؟ ومن أين جاء هذا الإيمان بالعدالة قريباً من الثقة المطلقة؟ صار عبد الله، الآن، في عيني كاريغا، أفضل الجماعة، ورمز شجاعة كينيا الحق. أما التاريخ الذي حاول أن يدرّسه كمغامرات رومانسية، وجوهر للنضال الأسود، متخيل في مستوى الإمكانات، قد اكتسى، هذه الليلة، لحماً ودماً.

الليل الحالك حولهما، كان مكتنزاً بقوة من قرابة الدم. توقف كأنه يريد أن تدركه، لكن الممر كان أضيق من أن يسع اثنين، فاستمر يتقدمها. لم يعرف ماذا أراد أن يقول لها، لكنه شعر، رغم ذلك، أن في ذهنه وقلبه، أفكاراً وأحاسيس، واضحة، تتأبى على الكلمات. مضيا نحو تل الموروغ. وصدمت وانجا، داخلياً، بتكرار تجربة

سابقة. كان لديها، هي أيضاً، إحساس غامض بالحتمية، كأن الحوادث العديدة، والمصادفات، وتقلبات الماضي، كانت تؤدي إلى هذا: إلام؟ أي حيوان في الداخل، يتمطى، ويناضل، ليولد؟ وقفاً جنباً إلى جنب، ناظرين إلى السهول التي لم تعد واضحة. جلس كاريغا على العشب، وتبعته. إن لديها، هي الأخرى، أشياء كثيرة تريد أن تقولها، وتسأل عنها... لكن لا أحد يأتي.

«يجب أن يكون دم المتمردين في عائلتك».

قالت هذا، دون أن تعرف أنها لمست التوتر ذاته في أفكاره.

«لماذا؟».

«لنبدأ بأخيك. هل كان يشبهك؟ لكن ما كان باستطاعتك أن تعرفه طبعاً. ثم تجيء أنت. لقد نظمت مرتين إضراباً في سيريانا».

«وهكذا فعل منيرا».

قالها ذاهلاً، إذ كان يفكر بأخيه وبعبد الله، وماذا كان يعني الكفاح في الغابة.

«أجل. لكن الأمر مختلف هنا. فهو يقول إنه لم يكن إلا مشاهداً، متفرجاً، ألقي صدفة في الهرج والزحام».

«كيف تعرفين؟ لم تكوني هناك».

«هو أخبرنا».

وروت قصة منيرا وجوي، كما رواها منيرا مرة.

«تكلم كمن تجمد في ذكرى ذلك الحادث. أما أنت فقد حاولت أن تنظم باعة الجلود والفاكهة على الطريق. وفي الموروغ اقترحت، ونظمت الرحلة إلى المدينة، وأنقذتنا من المجاعة. ألا تعد هذا شيئاً؟».

أحب الغنج في صوتها. وأشعلت أصابعها وهي تحتك، صدفة، بأصابعه، حرارة الدم في أنامله. لكن ذهنه كان في استدارات سريعة نحو عبد الله، ونياكينيوا، وموكامي... نحو كل شيء... إلا المدارس والإضرابات ودوره فيها، فهو يراها الآن جد تافهة، إزاء المسرح الأوسع للأحداث التي خلقت الروح الحقيقية الخالدة لكينيا.

سأل بغية السؤال فقط: «أتظنينه قال لنا كل شيء؟».

«من؟».

«عبد الله».

«مثلما قالت نياكينيوا: ثمت في هذه الساق الخشبية، خبيء الكثير، ولكن من ليس لديه شيء يخفيه؟».

«ألديك ما تخفينه؟».

قالت بهدوء: «نعم».

«لماذا؟ ألم تخبريني بكل شيء؟».

«أظن... أن عليّ إخبارك أيضاً كيف تركت المدرسة؟».

وحدثته عن حبها الأول: سعيها إلى الانتقام، والتغرير بها من المدرسة.

استمع، ثم سألها «أهو... أهو نفس الرجل الذي التقيناه ونحن في طريقنا إلى المدينة؟».

«نعم، نعم... لكنني أحاول ألا أفكر كثيراً بالأمر. إنه لا شيء».

«لا شيء؟ وانجا، لا شيء؟ لا. اللاشيء هو لا شيء».

«لكن، لماذا أظل سجينة لهزيمة ماضية؟ لماذا ترفع المسألة ضدي دائماً؟».

ارتفع صوتها قليلاً، وهي تحتج على ما اعتبرته اتهاماً في صوته. أجفل، مأخوذاً بحرارة احتجاجها: من تراه يكون؟ ضحية تصدر الحكم على ضحية؟

قال «ليس الأمر هكذا. ليس الأمر هكذا إطلاقاً. ثم أنك حاولت، وكافحت». والتمس غريزياً، يدها، يريد طمأنتها.

ازدادت اقتراباً منه، تريد ملاطفته، لتكافح عدو الحياة في ذلك الصوت. تسللت حرارتها، تدريجياً، في رئتيه وأضلاعه: وتسارعت فيه الحياة. وأحس بألمه الحاد، بتناوب الموت ـ الميلاد ـ الموت ـ الميلاد، وشدد قبضة يده اليسرى حول أصابع يده اليمنى.

أحس بارتجافة جسدها المستمرة تتغلغل فيه، فأراد هو أن يبكي وقد تذكر موكامي، كان هذا ممتزجاً بآلام وانجا ومعاناتها الماضية، التي امتزجت هي أيضاً بالغليان الذي يحسه. أين هي قوة الكلمات التي تحدث عنها فرودشام يوماً؟ الآن وقد هربت الكلمات، لم يتبق إلا معرفة عذاب الماضي وخسرانه، ووعيهما، هذا ما جمعهما، وما ولد حاجة أحدهما للآخر. امتلأ قلب كاريغا بغضب يائس: عض على شفتيه محاولاً أن يتماسك، وكتم ما يستحثه على الاعتراف بعريهما المتبادل. لكنه ضمها إليه، ومددها، تدريجياً، على العشب، مزيحاً ملابسها بحركات واثقة منتظمة، بينما كانت يداها تحتجان في إيماءات عاجزة. أوه... أرجوك... كاريغا لا تفعل ذلك. أحس وهو يسمع في صوتها ذلك الخوف الأصيل من الحاجة والرغبة، أحس بالدم الحار يندفع في عروقه كلها، بينما كان جسده يبحث عن جسدها في صراع مشتبك على الأرض. أحس بطرف دمه الحار يلمس رطوبتها، فتعلق، لحظة، في سكون جسدي. ثم صرخت مرة، أوه...، وهو يهبط، غائصاً فيها... وهي تتلقاه الآن في تهيئ حنون.

ثم شرعا، بطيئين، غير واثقين تقريباً، يأخذ أحدهما الآخر، يتحركان معاً، حركة متوافقة، في بحث متناغم عن مملكة مفقودة، عن براءة وأمل ضائعين، مكتشفين، غائرين، أعمق فأعمق. جسده بأكمله متقد ومشدود برغبة مؤلمة. وهي متشبثة به، تريد أن يكتسح فيضان التكوين الجديد، الذكريات. شعر الآن بقوته، قوة الشفاء، القوة على الموت، القوة، القوة... وبغتة، كانت هي التي رفعته عالياً على موج المحيط... في آفاق وإمكانات جديدة، في لحظة واحدة من وميض البرق... يا لقوة الجسد المتحد... قبل أن ينفجر، ويغور في العتمة، وفي رقاد بلا كلمات.

استيقظا في الصباح. الندى على شعرهما. الندى على ثيابهما. الندى على العشب. الندى على التلال والسهول، والأرض متقدة بالنور العنبري قبل الشروق.

ناداها كاريغا: «استيقظي، يا وانجا!».

سمعت صوته، وأحسَّت بالبرد، لكنها أبقت عينيها مغمضتين.

«استيقظي، وشاهدي شارات الفجر على المورووغ». غادرا التل، ومضى كل منهما في سبيله، مغتسلاً بألق الصباح البارد.

2* الفجر على المورووغ. عام جديد سعيد. وحدها في الفراش تتمدد منبطحة، مسترخية الردفين تماماً. كم هو غريب. الاسترخاء بالإنهاك. إنها تستمتع باطمئنان داخلي، وخفة داخلية. لم تشعر بهما قبلاً. فقد كانت شؤونها الجنسية الأخرى مصحوبة دائماً بالقلق، والمرارة، وبحاجة مؤلمة إلى مشه، إلى انتصار مؤقت، حاجة تعذبها إلى الدم والانتقام، والكسب. الفعلة اليوم مختلفة. هذا اطمئنان. هذه قداسة. جفناها مثقلان فاتران. وهي تغرق في أرض محرمة، لكنها

متشبثة بوجهه وعينيه. تنغيتا... الروح... الدخن قوة الله... الدخن أصابع الله. الحصاد. آلام واخزة من زغبٍ واخز على سيقان الذرة. حزم من سيقان الذرة. أوراق العشب. الشوك والزهر على الثياب. والطين على الأقدام والأيدي التي تضع البذور في الأرض. الرحلة. رحلات على الأرض، في الهواء. طيران. اللقاء في كوخها بليمورو. في كوخ أمها. غريب. ليس وجهه الذي تنظر إليه. إنه وجه فتى يقدم لها هديته قلماً وممحاة متآكلة الأطراف. إنها جائعة. ترمي الهدايا. تريد رسالة.. أتسمع؟ صرخت، إن كنت تحبني فاكتب إليّ رسالة تقول فيها إنك تعبدني... وإنك لا تعرف ذراعي فتاة غيري. هو يجري إلى القلم والممحاة. يكتب لها رسالة بيدين مرتجفتين. أحبك قدر رمل البحر، والنجوم والسحب المتحركة في السماء... هي في الثياب اللامعة لمجد نهاية الأسبوع... تختطف منه الرسالة. تشرع في قراءتها لابنة خالتها القادمة لتوها من المدينة. استاليه. نظرت عبر كتفها إلى العينين الضارعتين، وأخذت تقرأ الرسالة بصوت عال... لكن ابنة خالتها ليست هناك... إنها جالسة على ركبتي أبيها، تحاول أن تتهجأ وتنطق بضع كلمات. ترفع رأسها، حائرة إلى أبيها، لكن أباها يرتدي بدلة عسكرية ويغني بصوت خشن قوي... حين كنت فتى كبيراً أحارب في سبيل الملك... فتذكر أيها الفتى الفضي، أيتها الفتاة الفضية... جندياً يحارب في سبيل الملك. سألته وهي تحاول اقتلاع شارة الكتيبة الكينية من قبعته الماثلة: «أين كنت؟».

«بورما. الهند. اليابان. بلدان بعيدة. جندي يقاتل في سبيل الملك».

«من كنت تحارب؟».

«الإيطاليين. الألمان. اليابانيين».

«أكنت في خصام معهم؟ أوه... كنت غاضباً».

«لا».

«لم حاربتهم إذاً؟».

«الجندي لا يسأل... يطيع الأوامر، ويموت، يموت محارباً في سبيل الملك».

«أي ملك؟ أيحارب هو أيضاً؟».

«أوه. اسكتي أيتها الفتاة الصغيرة. أنت تسألين أسئلة كثيرة جداً. لنذهب إلى الساحة كي نلعب... جندياً يحارب في سبيل الملك».

خرجا، وذهبا إلى ورشته، ثمت أنابيب حديد كثيرة، مختلفة الأحجام والأطوال. كان يحمي بعضها على النار. إنه يطرقها بأشكال عديدة. كان فائق المهارة بيديه، بحيث يتمكن من أن يحني أي أنبوب من أقسى أنواع الفولاذ، ويجبله على الهيئة التي يريد.

«من أين تعلمت هذا، يا أبي؟».

«في الحرب، يا بنيتي... تبديد فظيع للحياة... القنابل... الطائرات... هؤلاء الرجال البيض، يا ابنتي، قادرون على صنع أي شيء، إلا البشر. لكني لم أكن سوى جندي يحارب في سبيل الملك».

شرع يغني، ترنيمة، هذه المرة. انضمت إليه أمها في الغناء. أمي... أمي، التي تقول دائماً إنها علمت نفسها القراءة والكتابة كي تقرأ كتاب الله، وتتجنب مهانة أن يكتب لها الآخرون رسائلها. الغناء يتناوب مع طرق الحديد على الحديد. الأب يشرح دقائق عمل الأنابيب. وانجا تضحك لأنها سعيدة، ولأن أباها قد جلب لها أشياء

من نايروبي، سكاكر، وفطائر. لكنه لم يعد الآن في الجيش. إنه يرتدي معطفاً طويلاً قذراً ويحمل أدوات حرفته الثقيلة، ويعد دائماً المال الذي كسبه، ويضع صلباناً إزاء الذين يطلبهم، وصلباناً إزاء الذين دفعوا. فجأة يتغير المشهد. إنها أكبر قليلاً. الأم والأب لم يعودا يغنيان معاً، وحين يفعلان ذلك فربما تطور الأمر إلى همس وشجار.

توسلت: «لننتقل من كابيت، بعيداً عن المدينة الخبيثة».

«إلى أين تريدين الذهاب، يا امرأة؟».

«إلى الموروغ... إلى أمك وأبيك... والدينا. لم ترهما أنت إلا مرة أو مرتين منذ عودتك من الحرب».

«أنعود إلى الجهل والتخلف؟»

«أتراك خائفاً مما قال لك؟ مما رآه في الضوء؟».

«اخرسي يا امرأة».

أبوها يرتجف ـ ويتوسل في الوقت نفسه. يتفاهم مع أمها. «اسمعي يا امرأة. كنت في الحرب. أعرف كم هو قوي الرجل الأبيض. ماذا يعرف أبي عن الإنجليزي؟ فقد حمل البنادق سنة 1914. وهناك سمع عن ماجي ماجي والأفارقة الذين تحدُّوا الرجل الأبيض. ماذا حصل؟ لقد أبادوهم وهم ينتظرون أن تتحول الطلقات ماء. كنت في الهند. الهنود أذكى منا. وحكمهم البريطانيون أربعمائة سنة. هل رأى أبي القنبلة يوماً؟ أنا رأيتها. سأكشف لك السر الحقيقي لقوة الرجل الأبيض: المال. المال يحرك العالم. المال هو الزمن. المال هو الجمال. المال هو الأناقة. المال هو القوة. أجل... فبالمال أستطيع أن أشتري حتى أميرة إنجلترا. هذه التي جاءت هنا مؤخراً. بالمال أشتري

الحرية لكل شعبنا. وبدلاً من هذا الكلام الانتحاري عن البنادق والمسدسات وقسم الوحدة السوداء لطرد الرجل الأبيض، علينا أن نتعلم كيف نجمع المال. بالمال نجلب النور إلى الظلام. بالمال نتخلص من مخاوفنا ومعتقداتنا الخرافية. لا مزيد من حكايات ندامائيا يمنحنا ظلالنا: لا مزيد من المعتقدات الخرافية عن حيوانات الأرض التي تنفث الضوء. المال، يا امرأة، المال. أعطيني مالاً أشتر القداسة والعطف والإحسان، أشتر بالفعل طريقي إلى الجنة، وتنفتح الأبواب المقدسة لمقدمي. تلك هي القوة التي نريدها».

«أي مال تجمعه، باعتبارك خائناً في هذه الحرب؟» أمها تبكي الآن... لا. إنهما في الكنيسة معاً، يصليان، ويطلبان المغفرة لخطاياهما السابقة، وخطايا أولئك الذين أخذوا القانون بأيديهم، وتحدوا رسالة الله المقدسة إلى البشرية جمعاء... آمين.. لكن التوتر في المنزل يشتد، وتزداد مشاجرات الليل. إن أمها لا ترفض أن تزور أختها القريبة، في القرية الجديدة ذات صفوف الأكواخ الممتدة، على طول الدروب المطروقة والطرق. يقال عن أختها إنها متصلة برجال الغابة.

«ستنزلين غضب الله على هذا البيت».

«تعني غضب الرجل الأبيض؟».

«أختك تساعد الماو ماو. ألا تخبرينها بما حصل لزوجها حين ألقي عليه القبض، ومعه بنادق محلية الصنع؟».

«استعمل مهارته في الأنابيب، على الأقل، استعمالاً أفضل. لم يكن جباناً. وأختي ليست جبانة، مثلي، لأني أعرف الحقيقية ولا أستطيع أن أوجهها. رأيت الظلم وعجزت عن فضحه. لهذا، ألتجئ

إلى كنيسة الله، وأدعو إلى الخلاص، لكـني لا أريـد أن أكـون وسـيلة هذا الخلاص».

«تذكري الكتاب العزيز. لا تنحن للأصنام. لا تقتل... لا...».

«لكنك تعبد النقود الذهبية: هل صورة الله مطبوعة على النقود؟ إله أبـيض اسمـه جـورج؟ وأنـت قتلـت، واغتلـت، في سـبيل الرجـال البيض».

يقول أبوها: «ذاك مختلف».

«مختلف! مختلف! أليس القتل هو القتل؟ كنت شجاعاً وقوياً كـي تقتل من أجل الجنس الأبيض، ألم يتبق لـديك قليـل مـن الـشجاعة، وشيء من القوة، كي ترفع إصبعاً تدافع عن قومك، عن شعبك؟ مـاذا أخبرك أبوك؟ لم يكن بينهم جبناء. لم يكن بينهم خونـة ضـد شـعبهم. لقد أخافتك كلماته. أليس هذا السبب في أنك لم تعد أبداً؟ حتى بغيـة رؤيته يشنق كالكلب، بيد نفس الرجل الأبيض الذي خدمته بـإخلاص في الحرب؟». لم تر وانجا، أمها، بهذه الحالة، البتة.

«يا امـ مـ مـ مـ رأة...» أبوها يصيح، ويضرب أمها، مرة، مـرتين، ثم يفقد صوابه، وينهال عليها ضرباً، وتخميشاً، مرعداً مزبداً، وأمهـا تستغيث عاجزة... وهي، وانجا، أرتج عليها من الرعب. وفجأة تطلـق أمها صرخة ثاقبة، مستنجدة: الغـوث! الغـوث! النـار! النـار! البيـت يحترق... أوه، أوه، أوه، أختي، أختي الوحيدة...».

وأبوها يحملق في أمها وهي تقول:

«لقد أخبرتك... إنه عقاب من الله».

والآن، جاء دور أمها، كي تخـرس رعبـاً وحقـاً علـى أبيـه بـسبب

كلماتـه. والكـوخ مـا يـزال يحتـرق. اسـتعادت وانجـا صـوتها الآن، وانضمت إلى ابنة خالتها القادمة للتو مـن المدينـة، في صـوت يملـؤه الرعب: «الغوث! الغوث! كاريغ! كاريغا! الغوث».

استيقظت وهي ما تزال تصرخ مستغيثة بكاريغا لينقـذها مـن النـار. كانت خائفة، وتلفتت حولها مرتعبة من ألسنة اللهب الحمر في ذهنها. كانت نياكينيوا واقفة جنب السرير.

«ما الأمر يا ابنتي؟ ما الأمر؟».

في البدء لم تجـد وانجـا الكلمـات. لكنـها اسـتعادت، تـدريجياً، دقائق مجدها على التل. ضحكت مرتبكة. وسألت:

«أخبريني. أرجوك. أخبريني: لِمَ لَمْ يعد أبي أبداً؟ ما الـذي حـدث لجدي حقاً، كيف مات؟ أريد أن أعرف».

3* تجارب عديدة، اكتـشافات عديـدة، في ليلـة ونـصف. وقـت الحصاد للبذور التي زرعت منذ زمن. إنهـاك الجـسد. لكنـه خفيـف، متألق النفس. شعر في داخله بقوة فجر ندي هائل يطلع على المرووغ. كيف يمكن أن يمنح اتصال معين بامرأة مثل هذا الاطمئنان، مثل هـذا الانسجام مع الأشياء كلها، وكيف يهب مثل هذا الإحـساس بـالوعود الهائلة وآلاف الإمكانات؟ إنه يحاول النوم. جـسده مهيـأ. لكـن ذهنـه متوقد، يبحر بيسر، ولكن بلطف، على أمواج خفيـضة مـن ذكريـات الجسد في الجسد. هو يدرك أنه لم يزح إلا الطبقة الأولى مـن مجهـول لا يحد، ولا يسبر، إلا أنه يشعر بأنه قد عرف وانجا طيلة حياتـه، وأن ما حدث قبلاً كان له نطقُه ووتيرته اللذان يؤديـان، حتمـاً، إلى لحظـة صدق الجسد تلك. حاول أن يسبر الـصلة، هـذه الاسـتمرارية، لكـن الخيط ضـاع في ضـباب بعيـد يطـوّق طفولتـه. أشـباح مـشاهد معينـة

وأحـداث وشـخوص أخـذت تتـشكل في الـضباب، ومثـل أمامـه، بالتدريج، شبح يأبى المغادرة. إنه طفل صغير يلعب بالرمل قرب أمـه. أمه تصرخ: آه أيها الطفـل الخبيـث، لقـد رميـت الرمـل في عـينيّ. ثم جاءت نسوة يحملن حبالاً في أيديهن، وقلن: مريم لنـذهب نحتطـب. أمه مريم تستدير نحوه، اذهب إلى بيت نجيري، والعب مـع الآخـرين حتى أعود. أعول غاضـباً. وانـدفعت الـدموع مـن عينيـه الـصغيرتين. النسوة الأخريات يضحكن منه. ويقلـن: أي طفـل لـك... ثم تدللينـه، وتسمينه رجلاً: الآن الآن... امض يا رجلنا، والعب مع البنات، فهـن ينتظرنك... أوه... أوه... إنه ماكر، شيطان مع النساء، ألـيس كـذلك؟ ليس من السهل استرضاؤه. تركن يمضين مسافة قليلة. وهرول وراءهن منحدراً، ثم مرتقياً تلا آخر، وهابطاً إلى نجينيا. النسوة يبلغن مـنحنى، وينعطفن نحو كينيني، وربما إلى داخل الأجمة، لأنه لم يعـد يـراهن. يدخل الأجمة. يجري هنا. يجري هناك. بغتة رأى نفـسه في دغـل مـن أشجار الموباج. استولى عليه الخـوف. ينـادي باسمهـا. يـسمع تقليـداً ساخراً، وإعادة لا منتهية لصوته تتـضاءل في قلـب الغابـة البعيـد. إنـه يائس. مرعوب من هـذا الـصمت الـشامل، الـذي يغـدو أشـد صـمتاً بضجة الحشرات والطيور. وحيد. وحيـد تمامـاً. في عـالم بـلا صـوت بشري. يصرخ محتجاً على هذه العزلة التامة، كأنه يقـول: يحـس بأنـه سيموت. هو ميت.ويصرخ مستغيثاً بيد تنقذه، بفرصة تجعلـه يلعـب، ولو مرة واحدة، مع الأطفال الآخرين. ربما صرخ حتى اسـتولى عليـه النوم، فقد وجد نفسه في الفراش حينما استيقظ، وأمه جالـسة قربـه، لم تراها الذاكرة تعابثه؟ إنه مشهد آخـر، مـن زمـن آخـر، إذ لم تكـن جالسة، بل منحنية على شجرة من أزهار حشيشة الحمى كأنها تـصلي. السكون مخيم. وهو مشغول بصنع كريات طين مـن التـراب الممـزوج

ببوله. حقل الأزهار يملكه والد موكامي. نظر إلى فوق، بعد أن أتعبه صنع الكريات، فذعر لتوقف حركة أمه. نادى باسمها، في شدة تكاد تكون فزعاً ويأساً. عدلت انحناءتها، وحاولت أن تضع ابتسامة على شفتيها اليابستين. رأسي يدور... يدور... لنذهب إلى البيت... لا شيء. هكذا تقول. لكنه بغزيرة الطفل شك في الأمر. إنها جائعة متعبة تحت الشمس المحرقة. يبلغان كوخهما في القرية ـ متى تركا العيش في مزرعة والد موكامي؟ النسوة يزرنها في المساء. وهو في الفراش. لكنه يتسمع. إنهن يتهامسن طويلاً في الليل، وينام هو، ويستيقظ، ليجدهن مازلن يتهامسن، والكلمات الوحيدة التي يميزها هي غينغوري، والرصاص، والحرية. هن ينظرن إليه بعيون غريبة، عيون دامعة، ومريم تدعوهن إلى أن يركعن، فيصلين، ويغنين ترنيمة، ثم يصلين ثانية صلاة رتيبة خفيضة... ترده إلى النوم... وهو يغوص عميقاً عميقاً في أرض نائمة ذات ضباب شفيف... ويرى مزيداً من الوجوه الأليفة والمشاهد. فموكامي هي التي تصلي فعلاً. بعد ذلك يقفان، هو وهي، على تل، ويراقبان طيور الثبيري تحلق عابرة مناقع مانوغو، ثم تطير بعيداً مع غروب الشمس البهي، المتألق بآلاف النيران المتقدة.. ها هما جالسان على نشز وسط بحيرة مانوغو، يمد يده ليلمسها... لكنها تطفو مبتعدة عنه، ويدهش: كيف تستطيع أن تطفو بهذه السهولة، بلا أجنحة، فوق القصباء؟ ثم يدرك أنها تطير مع طيور الثبيري، فيحزن حزناً شديداً: كيف يفقدها لحظة نيلها؟ آه... لم تكن هي إطلاقاً.. إنها وانجا... لكن من أين أتت؟ لقد أكلت ملحاً أكثر مما أكل لأنها، بالفعل، نياكينيوا، ونياكينيوا عرفت نديمي، ونديمي... لكن يجب أن يكون فيه عيب ما. كيف يرى تلاميذه فيتصورهم وانجا وموكامي ونياكينيوا؟ هو في الصف. اليوم، أريد أن أحدثكم أيها

الأولاد، عن قصة السيد سويدان في ثلاث جمل. في البداية كان له أرض وعقل وروح. في اليوم الثاني أخذوا جسده ليقايضوه بنقود فضة. في اليوم الثالث، بعد أن رأوا أنه ما يزال يقاوم، جاؤوا بالقساوسة والمعلمين ليوثقوا عقله وروحه، حتى يتمكن هؤلاء الأجانب من الاستيلاء بسهولة على أرضه ومحصولها. والآن أسألكم سؤالاً: ماذا فعل السيد سويدان ليحقق الملكوت الحقيقي لأرضه؟ ليستعيد عقله وروحه وجسده معاً على هذه القطعة من الأرض؟ إنها بالفعل ـ ويا للغرابة ـ على طوف من جذوع الموز منسرح عبر محيطات الزمان والمكان.

لم يعد هو، معلماً، بل زعيماً يقود كتيبة بعد كتيبة ضد الغازي الأجنبي. إنه لوفرتور يرفض الدعة والغنى والاطمئنان المزيف للعبد ليضع ذكاءه وعضلاته عند قدمي عبيد الحقول، مستعداً لتوحيد نضال الشعب ضد شاربي العرق البرشي، وآكلي لحم البشر. هتف: انظروا يا أبنائي إلى هذا الأفريقي الجديد بلا سلاسل على رجليه، بلا سلاسل على عقله، بلا سلاسل على روحه، انظروا إليه محارباً ـ منتجاً أبياً في قارات ثلاث. وهم يرونه مراراً وتكراراً في صور جديدة: كويتادل، واياكي، نات تيرنر، سنك، كيماثي، كابرال، نكروما، ناصر، موندلين، ماثنغي ـ ناشراً الرسالة نفسها، الإمكانات ذاتها، الصيحة عينها، وأمل ملايين الأفارقة... وانظروا: من ذلك الجندي المجهول الذي يتبعه حاملاً ثلاث رصاصات حية في يده؟ ذلك... انظروا يا أولادي... أتعرفون أخي؟ الكادح الذي لا يكل... العامل الذي لا يكل، أتعرفونه؟ ندنغ ـ أوري... هيه، ندنغ ـ أوري. ويصمت. ويسال كاريغا قلقاً: «ألا تعرفني؟».

«بلى... وإلا... ما سبب مجيئي؟».

«غريب. أعرفت أننا آتون؟ أعرفت حقاً برحلتنا؟».

«نعم».

«وهذا أكثر غرابة.».

«لماذا؟».

«تصور... لم أكن لأظن ـ».

«ماذا تظن؟».

«إنك ستعرفني.أقصد كنت صغيراً جداً... ربما لم أكن قد ولدت بعد».

«وهل يهم؟».

«براعم من الرحم نفس. أبناء مومبي. يهم... أليس كذلك؟».

«لم تهيم على طوف؟».

«أردت أن أجدك... لأريك أني قد كبرت... و... و... وأني أعرف سرك... أعرف عبد الله».

«لكن... من أنت؟».

«ظننتك تعرفني، وتعرف عن رحلتنا».

«أجل، أعرف عن رحلتكم، أعرف رحلة البحث والاكتشاف التي يقوم بها كل أخوتي وأخواتي. أولم نسلك هذا الطريق معاً؟ أخبرني باسم رجل أسود واحد لم يكن يهيم حتى في مسقط رأسه. لكن أنت؟ ظننت، لحظة، أني أعرفك. اسمعوا يا أخوتي، أن بيت مومبي

الحقيقي، مومبي الأم الخالقة، هو كل الجماهير السوداء الكادحة التي تحمل عصا بيد، وثلاث رصاصات بالأخرى، مكافحة طيلة قرون... شاهدة وحيدة على عودتها إلى الوطن... لهذا أدينا القسم سنة 1952.

«لم أديته أنت؟».

«أرضنا... عرقنا... أجسادنا... عقولنا... أرواحنا السوداء».

ومضى في طريقه، يتبع جنود القارة الكادحين.

ناداه كاريغ «أريد أن أتبعك! أتسمعني؟ لنقم بالرحلة معاً».

توقف ندنغ ـ أوري، وكان، الآن، متعباً غاضباً.

«أي معلم أنت؟ تترك تلاميذ يهيمون؟ النضال، يا شقيقي، يبدأ من حيث أنت».

ذاب في ضباب الزمن. وأحس كاريغا بالوطأة الكاملة لذلك التعنيف الأخير. كم كنت أحمق... كم كنت أحمق. الأفارقة الحمقى لا يتناولون الكحول. فانتا. نقابة المعلمين تقول إن كاريغا يتحاشى المسؤولية. بيرة تسكر... أي أجوبة حمقاء. إنه يرى مزيداً من التلاميذ يرفعون كي يسألوا أسئلة.

«نعم. جوزيف».

«حدثتنا عن التاريخ الأسود. وحدثتنا عن أبطالنا وانتصاراتنا المجيدة. لكن يبدو أنها تنتهي كلها بالهزيمة. والآن أريد أن أوجه سؤالي... إن كان ما تقوله حقاً، إذاً... كيف تمكن حفنة من الأوروبيين أن يقهروا قارة، ويحكموها طيلة أربعمائة سنة؟ أكان

باستطاعتهم هذا، لو لم تكن لهم عقول أكبر، ولو لم نكن نحن أبناء حام، كما يقولون في الكتاب المسيحي؟

تملكه الغضب فجأة. يعرف أن على المعلم ألا ينفجر غاضباً، لكن أحس بهزيمته إزاء هذا السؤال. ربما كانت الرحلة طويلة، تاهوا فيها طويلاً عبر قارات عديدة، وعلى لوحة للزمن واسعة جداً.

«اسمع، يا جوزيف. كنت تقرأ... إيه... دائرة معارف الأطفال الأمريكية والكتاب المقدس. لقد استخدموا الكتاب المقدس كي يسرقوا أرواح الأفارقة وعقولهم، هؤلاء الأفارقة المبتسمين دائماً، ذوي القبعات المفتوحة من الخلف، الذين يؤدون صلوات الشكر لكل الفتات المسمى مساعدة، وقروضاً، وإغاثة من مجاعة، بينما تنهمك الشركات الكبرى في جمع الذهب والفضة والماس، ونعترك نحن فيما بيننا، قائلين: أنا كوكي. أنا لوو. أنا لوهيا. أنا صومالي... و... و... ثمت أوقات، يا جوزيف، يكون فيها النصر هزيمة، والهزيمة نصراً».

إنه يرتجف غضباً، لأنه لا يستطيع أن يصل إليهم، ويصرخ بشتائم ضد نديري، وكل أتباعه، كل حملة البنادق، لجوود، ولغنغستون وردس وغوردون وميزتزغاهن وهندرسن وجونسون ونيكسون...

وفجأة، استيقظ، وهو يتصبب عرقاً.

جلس، ونظر حوله، فتنفس الصعداء حين رأى منيرا وحده، واقفاً بجنبه.

«لم أرد إيقاظك... لكنك نمت يوماً كاملاً، أمس وليلة بأسرها. والآن الساعة حوالي العاشرة».

سأل متثائباً: «هكذا نمت إذن؟».

«أجل، حتى لم تغلق بابك بالمغلاق».

«لا لصوص حتى الآن، وإلا لاحتل الشرطة ورجال الكنيسة بنايتهم اللتين اكتملتا».

أخذ منيرا يخطو في الحجرة، ثم توقف. حاول أن يقول شيئاً، ثم بدأ أنه يكبح كلماته.

احتار كاريغا لسلوك منيرا. نظر إليه محدقاً. كان منيرا قد استأنف خُطَاه في الحجرة، يداه خلفه، وهو يضم أصابعه ويبسطها، وأحس كاريغا، حتى من خلل الوهن الذي سببه الرقاد الطويل، بشيء يرهق منيرا، فقلق عليه.

تثاءب ثانية: «ما الأمر، يا معلم؟ آه... للنوم، اعذرني لتثاؤبي. إنه عقابيل ذلك الثنغيتا المثير الأوهام. أتظنه خطراً؟ أحس أنني صافي الذهن، خفيف الجسد. لكني شهدت كابوساً مرعباً».

«إنه لا شيء. لا شيء. أنا كذلك أشعر بالصفاء والقوة. حتى ولا آثار للشراب. أوه... لا... لا أظنه خطراً. فقط، كنت فيما سميته كابوساً، تنادي بأسماء. بعضها غير مفهوم. لكن بعضها واضح».

«آمل أني لم أبح لك بأسرار».

«لا... لا أسرار. همست بوانجا وموكامي...».

توقف منيرا، فجأة، عن خطاه العصبية. واستند إلى الحائط. ثم ذهب إلى رف الكتب، وتناول كتاب «أمام جبل كينيا»، فتح عدة صفحات، ثم أعاده إلى موضعه. وتناول كتاباً آخر ليفتح صفحات

قليلة أخرى ويعيده إلى مكانه من الرف دون أن يقرأ فيه. عاد إلى كاريغا، وتنحنح:

«سيد كاريغا!» قالها عامداً، وبنبرة جعلت كاريغا ينظر إليه، نظرة حادة نوعاً ما. كان يبدو أن كاريغا يريد أن يستجمع شجاعته ليمضي في الحديث:

«سيد كاريغا، لا أدري كيف أعبر عن الأمر، لكن ـ إيه ـ مضى عليك سنتان هنا. لكننا نستطيع القول إنك أتيت هنا ملتجئاً، وقد بذلت كل ما بوسعي مرحباً بك. عشنا في مكان واحد. وحدث لنا ما يسر، وما لا يسر... لكن بعدما حدث... أعني... بعد اعترافك عن أختي، وعائلتي، وكل ذلك... أفلا تعتقد أن من الصعوبة أن نعيش في المكان نفسه؟

«أتراك تقترح، يا سيد منيرا... لكني لا أفهم كيف أدخلت الأمر في رأسك... أتقترح أن أترك عملي؟».

«أنت تعرف المسألة بصورة حادة. لكنك تتفق معي على أن اعترافك جعل الأمور صعبة. نحن، بالرغم من كل شيء، لا نستطيع التملص من ماضيينا المنفصلين، المتصلين مع ذلك. أقصد أن للمرء ذكريات... مسؤوليات حتى لو كانت إزاء المرء نفسه... والآن ألا يمكن القول إنك دفعت موكامي إلى الانتحار؟».

«منيرا!».

«يا للأسف... أنت الذي أكلت، في النهاية، ملحاً، أكثر مما أكلت هي. وأقول لك شيئاً آخر، يا سيد كاريغا. إنه ليزعجني، حتى ولو حدث في الكابوس، أن تقارن أختي العزيزة... حسناً... أن تذكر بالنفس ذاته، مع عاهرة، حتى لو كانت عاهرة مهمة جداً؟».

وثب كاريغا من فراشه، واندفع إلى منيرا. خطا منيرا خطوة إلى جهة، وكاد كاريغا يرتطم بالجدار، وفجأة تعلقت يدا كاريغا في الهواء، ثم سقطتا إلى جانبه. لكن عينيه ما تزالان محمرتين من الغضب المتوتر. أوهنه ألمه، وعجزه عن الانتقام الفوري. كان هذا الرجل معلمه، وهو بالتأكيد أكبر منه سناً، ولهذا السبب فقط يستحق الاحترام. لكنه رحب به هنا، بل حصل له على عمل، كما أنه لمس وتراً مذنباً حساساً في أعماق وجود كاريغا. هكذا وقف فقط، وهو يحبس دموعاً حارة تهدد بالتحدر.

«لو لم تكن مرة... لو لم تكن... لو...».

عجز عن إتمام الجملة. عاد وجلس على فراشه، مختنق الصمت، بمزيج من الذنب والمرارة والغضب وعدم الفهم. فقط، نظر، عبر منيرا، ومن خلل الباب، إلى ساحة المدرسة وما وراءها، كأنه يبحث عن جواب هناك، حيث الحياة، الحياة الحقيقية... لا هذه الزاوية البائسة من العطالة والأحلام والذكريات. تكلم الآن، كأنه يوجه كلامه إلى عالم خارج الموروغ:

«قبل ليلتين فقط، شربنا كلنا التنغيتا، معاً، لنحتفل بالحصاد، وبالنهاية الناجحة لما كان بالتأكيد سنة صعبة لالموروغ. كانت غلة وفيرة، وأنت تتفق معي أن هذا الحس بالمصير المشترك، والروح الجماعية، أمر نادر. لهذا سمتها المرأة العجوز، بحق، شراب سلام. لكن ظهر أنه شراب خصام. وأظن أن هذا كان سيقع، بالرغم من أنني لا أفهمه. أنت لديك أسباب مجيئك إلى هنا، وأنا لي أسبابي. أنت تقول إننا لا نستطيع الخلاص من ماضينا، وأنا أتفق معك. لكن علينا ألا نكدس الإهانات على الآخرين.

نحن كلنا عواهر، ففي عالم من النهب والسلب، في عالم مشيد على اللامساواة واللاعدالة، في عالم يأكل فيه البعض، بينما الآخرون يكدحون فقط، ويرسل البعض أبناءه إلى المدارس، ويعجز الآخرون عن ذلك، في عالم يجلس فيه أمير، أو ملك، أو رجل أعمال، على البلايين، بينما يتضور الشعب جوعاً، أو يضرب رأسه بجدران الكنيسة للخلاص الإلهي من الجوع، نعم، في عالم لم يضع فيه رجل قدماً على هذه الأرض لكنه يستطيع أن يجلس في مكتب بنيويورك أو لندن ليقرر ما آكله أنا، وأقرؤه، وأفكر فيه، وأعمله... فقط لأنه جالس على كومة بلايين مسروقة من فقراء العالم، في عالم كهذا، نحن كلنا معهرون. فأنا في السجن، ما دام في السجن إنسان: وأنا جائع عار، ما دام هناك شخص جائع عار. لم، إذاً، تهين ضحية ضحية أخرى؟

والأسوأ من هذا أن نصب اللؤم والصغار على ذكرى الذين كانوا أعزاءنا، القلة النادرة التي رفضت التعالي الطبقي لفئتها، أولئك الذين يتسمون بالإيمان والحب والصدق والجمال، ولم يريدوا إلا علاقة إنسانية حرة، طليقة.

خيمت دقيقة صمت أخرى، تضايق منها منيرا، لأنه أحس نفسه أمام تجربة.. وأنه وضع في ميزان أخلاقي، ووجد ميزانه خفيفاً.

قال منيرا: «والدي من كبار رجال الكنيسة، لهذا يمكنك أن تتصور أن المرء ينشأ متعباً قليلاً من المواعظ والدروس الأخلاقية».

«أعرف هذا ـ وأكثر ـ» قال كاريغا، ونظر شزرا إلى منيرا، الذي أشاح قليلاً عن العينين الحادتين. «لكني لم أكن أحاول الوعظ. كنت فقط أفكر بأولئك الذين اختاروا قضيتهم، وفضلوا الموت من أجلها.

لن أستقيل من هذه المدرسة. سيكون من الصعب أن نعمل معاً، لكني لا أعتزم المغادرة».

قال منيرا منذراً: «سنرى، سنرى».

واستمر كاريغا في كلامه: «أنت مصيب في أمر واحد. أحس كأني كنت مختبئاً عن شيء. أتدري لم جئت، أولاً، أبحث عنك؟ كنت أخاها. علمتها. وعلمتني. وبعيداً عن طلب المساعدة، ظننت أنك ستكشف سر سيريانا، وتفهمني السبب الأساسي لسلوك جوي وأفعاله. لكني رأيت في الرحلة، الكثير من أمثال جوي، فلم أعد راغباً في أن أعرف عنه أكثر. يجب أن يكبر المرء.

إن التاريخ ليس معرضاً لأبطال جسورين. لكني عازم على البقاء هنا، والنظر حولي. أريد أن أختار جهتي في الصراع المقبل»، أضاف متذكراً رسالة المحامي.

قال منيرا بتهديد أشد: «سنرى. لكني لو كنت مكانك لبدأت أفكر في عمل في غير هذا المكان!.. أو أفكر في الدخول إلى كلية إعداد المعلمين».

* * *

الفصل التاسع

1* عام جديد سعيد. العشب في عنفوانه. والرعاة الجوابون عادوا ثانية إلى السهول. المطر سوف يهطل. عشب كثير سينمو. سو؟ نأكل حتى الشعب، وننسى جفاف العام الماضي. لكننا لن ننسى منيرا وكاريغا وعبد الله ووانجا والحمار ـ نعم، حمار عبد الله. لقد أنقذونا. معرفتهم المدينة، وعلائقهم في المدينة، والتزامهم حياتنا: كل هذا أنقذنا. حمار عبد الله يتجول في كل مكان، والنسوة والأطفال يتسابقون ليقدموا له الذرة طعاماً بأيديهم. هذه المرة لم يشتك أحد ـ حتى نجوغونا ـ من عادات أكله.

وغالباً ما كنا نستأجره لنقل حاجياتنا وأطعمتنا وبضاعتنا من وإلى الأسواق الكبيرة في روا ـ ايني. هكذا، بأجر بسيط، صار حمارنا. قال الناس إن عبد الله رجل طيب. باركه الله. انظروا إلى ما قدم لجوزيف. أدخله المدرسة. وهو البطل الذي لم يغنه أحد، بطل كفاحنا من أجل الحرية، يقوم بكل عمله في الدكان، على ساق واحدة، ولا يتذمر أبداً. لفترة ما، كان منطوياً على نفسه، وقد فهمنا. وهو في حالات انشراحه، لطيف المعشر... يزداد لطافة بحكاياته التي غدت جزءاً من تراث الموروغ.

أجل، سوف يهطل المطر، وتنمو الغلال. وسنظل نتذكر الأبطال بيننا. سوف نغني دائماً عن تلك الرحلة في السهول. ليبارك الله المرأة العجوز. سرعان ما سيغدو الجفاف حلماً هيناً في البعيد. نقول إن طبخ يوم واحد يشبع جوع ألف سنة. لتمض الذكريات المخيفة والأفكار المريضة مع الجفاف! فقط الرحلة البطولية سنظل نتذكرها.

نائبنا البرلماني لم يجيء أبداً. ليكن. قلنا في الشهور الأولى للعام الجديد: لم نكن لنعرف، آنذاك، أنه بعد عام من الرحلة، ومثل إله لا يريد أن ينسى أحد عطاياه، سوف يرسل مبعوثيه من الماضي، ليغير المورروغ ويغير حياتنا. لقد تغيرت المورروغ وتغيرنا نحن تماماً. لم يحدث هذا بعد. لكننا في بداية الفترة الخطيرة، تحدثنا وتهامسنا عن رئيس الشرطة الذي كان يأتي إلى المركز ليبقى أسبوعاً أو نحوه ثم يمضي. كما سخرنا برجال الكنيسة الذين قطعوا كل المسافة من المدينة أو ما وراءها ليلقوا مواعظهم على مصاطب فارغة، إذ رفض أهالي المورروغ أن يدخلوا المبنى الجديد.

2* شوهد جودفري منيرا، الذي هجر حصانه الحديدي منذ زمن، يسرع عليه، مندفعاً في المورروغ، وقميصه المنسل يخفق وراءه، مثل جناح طائر كسير في الريح. كان قد انطوى على نفسه، ولم يره الناس إلا نادراً، حتى في دكان عبد الله.

هذه الأيام كان كاريغا يشاهد دائماً مع وانجا: ما الذي جرى بينه وبين المعلم؟ قلنا إن الأمر غريب، جد غريب، دون أن نفهم حقيقة القضية. لكننا سرعان ما أسرنا، ودهشنا، وأثرنا بأزهار الحب الشاب والحياة، وهمسنا: انظروا إلى هبة الله الرائعة. سوف تنجم الغلال، جميلة خضراء. وسنأكل حتى الشبع، ونشرب التنغيتا في الحصاد.

3* بعد سنين، وفي مركز شرطة المورروغ، كان على منيرا أن يحاول استرجاع الإحساس بتلك الفترة في المورروغ، الإحساس الذي سيطرت عليه العلاقة بين وانجا وكاريغا. وقد استعمل التعبير نفسه، وهو يجيب عن السؤال الكامن في انتظارهم ومراقبتهم، بينما الدراما تتكشف أمام عيونهم، محفزة حتى الكبار إلى استعادة ماضيهم الشاب، وإلى ممارسة الحب تحت أشجار الليليشوا، أو تحت أصابع

الدخن. كتب وهو يحاول تفسير الوقائع في ضوء تدخل الزمن والأحداث: «كان باستطاعتي أن أحاول إنقاذه. ربما كان بإمكاني إنقاذه. هذا الإحساس يؤلمني كثيراً. أن أستطيع إنقاذه، هو المتطلع إلى السلام والعلاقة الصادقة بين الأشياء. لكني، بدلاً من ذلك، رميته بقوة أشد، في العناق المميت، الذي كان دمار العديد من الرجال العظماء، عبر القرون. أولم أسقط أنا، فيما بعد، في العناق المطيب القلب ذاته؟

حاولت، وكافحت، كي أستنقذ نفسي. لكني لم أتمكن. أتذكر أنني راقبتها تبتعد عني، تدريجياً، إلى أرض محايدة، واقفة وقتاً طويلاً، بعيدة عن كل تودداتنا وعيوننا المتطلعة، منذ أن جاء كاريغا إلى الموروغ. طمأنت نفسي، إن الأمر لا يهم، لا يهمني أنا إطلاقاً، أفلم أتجاوز هذه الأشياء؟ كنت حارس الله في برزخ الشفق بين النوم واليقظة. أفليس علي أن أظل هناك، مبعداً عن سكون الشفق، هذا الإلحاح الحاد؟

لم تعد تلك المرأة القلقة التي تتشهى الرجال بعينين واسعتين متسائلتين قد تخفيان المرارة خلف نعومتهما الظاهرة. بعد وقت قصير من اتصالها بالتراب والاستعداد للرحلة إلى المدينة، صارت عيناها أقل ألقاً، وأكثر مسالمة، تومضان ببريق مختلف، ونعومة مختلفة لا تداعب الرجال منذ الوهلة الأولى. وغدا جمالها أقل جسدية، وأقرب إلى الجمال الفظ للفلاحة. وقد تألمت لأنها رفضتني أو استبعدتني، حين أردتها، مرة، أو مرتين، مثلما فعلنا ليلة القمر الكبير. ثم ظننت أني فهمت. أفلم أكن أنا الذي تلقيت قصصها عن ماضيها ومعاناتها الأخيرة في المدينة؟ وعزيت نفسي بحاجتها إلى فترة شفاء، ومنيت نفسي بأنني سأجد فرصتي معها أثناء الرحلة إلى المدينة. انتظرت...

انتظرت، فقط لأتلقى صفعة هائلة على الوجه، الصدمة، ليلة شرب التنغيتا. ليوم ونصف، طوال رقاد كاريغا في بيته كالمخدر، قلبت القضية كلها، وتوصلت إلى أني قد كنت خجولاً، حقاً، ومتردداً. إنه وقت ينبغي أن أبادر فيه، أن أخطو خطوة، مهما ضؤلت، لأحرك الأشياء. وأخذت الضغينة تستولي عليّ بالتدريج، وأحسست بخطئي إزاء موكامي وأبي. لكن ماذا تراني صانعاً؟ هل أستطيع أن أبعث الماضي وأتعلق به، وأشد نفسي إلى نبعة التاريخ، حتى لو كان تاريخ عائلتي التي ترعرعت خارجه؟ وهل ستنمو هذه النبعة، فعلاً، وتمد فروعها فيّ، في إعادة عظيمة لدورة الحياة؟

لكني عرفت، أيضاً، أنني لا أستطيع أن أعترف لنفسي بأثر ابتعاد وانجا عني. ثم أني لم أرغب أبداً إلا في علاقة جسدية معها. وأنا أعرف الكثير عن ماضيها بحيث لا أستطيع أن أشعر بالحرية معها. إلا أني، مع ذلك، أردت أن أنهي الأمر مع كاريغا... مما دفعها إلى الابتعاد، أكثر، عني.

راقبتها بعد ليلة التنغيتا، إثر شجاري مع كاريغا، ورأيتها في خضم تحول آخر. كانت تكتسب بعد المطر، شباباً جديداً، وتمتلئ بالحياة، وتزداد بهاءً ونماء.

وقد آلمني، أن يكون هذا النماء بعيداً عن متناول يدي، لا أستطيع أكله، ولا حتى المشاركة فيه.

كلما ابتعدت عني، جذبتني أكثر إليها، حتى بلغ بها الأمر في الشهور الأخيرة حد أنها لفت روحي لفاً، وعقدتها عقداً، حولها. أما أمني ودفاعاتي التي كانت تحيط بسكون حياتي، فقد تقطعت من جذورها، وأحسست بدمي ينزف من أوردتي، مستيقظاً بعد سبات السنين. لم يكن من الأمر بد. تجسست عليهما، أراقبهما من طرف

عيني، وقد أسفت لما رأيت... أسفت أكثر لأنني أخرجته من مداري. في أحد الأصائل رأيتهما يركضان معاً عبر الحقول، يدوسان النبت المتسلق، والأزهار الصفراء الذهبية، والعشب الطويل، عائدين وقد تعلقت الأشواك على ملابسهما. وغالباً ما كانا يتمشيان عبر تلعة المورروغ، ظلين بعيدين على الألق الذهبي للشمس الغاربة، ثم يختفيان وراء التل، ليعودا في الظلام، أو في ضوء القمر.

كان حبهما ينمو مع غلال العام الجديدة.

هذا الشيء الذي أعجز عن وصفه، والذي لم أحسبه يتملكني، أخذ يطلق عروقه وبراعمه، ثم أزهاره، للأسف. إن حركة تنورتها ذاتها كانت تطعنني مثل سكين حادة. لكن هذه السكين تطعنني أعمق، فأعمق، حين لا أرى التنورة. وحين ألمحها، فجأة، أو أراها مصادفةً، تخفق في الشمس، أو في سماوات الأصيل الباردة، أشعر بآلاف الإبر الصغيرة في أحشائي، في لحمي. إنني أتشوق حتى إلى ظلها. أثار خطاها في الرمل تهيجني، وحضورها يثير بيّ خفقات أمل مرعدة.. لبلوغ البعيد.

صارت رؤيتها حاجة. لكن هذه الرؤية عذاب. كرهت أني لا أستطيع لنفسي ضبطاً. وكنت أحاول أن يكون صوتي هادئاً حين أتحدث إليها، أو إلى كاريغا، بغية إقناع نفسي بأني ما أزال قادراً على التماسك. لم جاءت إلى المورروغ؟ لم جاء كاريغا إلى المورروغ؟ وهل يمكن لمورروغ أن تضمنا نحن الثلاثة؟

ذهبت إلى ليمورو، على دراجتي، لأستخدم معلمين آخرين، كنت محظوظاً هذه المرة، فحصلت على ثلاثة معلمين دفعة واحدة! عدت مسرعاً إلى حراستي.

كانا ما يزالان يتجولان في ريف الموروغ، سوية دوماً، في الحقول، وعلى قمة الجبل، في السهول... وحبهما يزهر في الريح. كأنَّ الاثنين يرأبان إمكانات الماضي الضائعة. فرصة أخرى. فرصة أخرى له ضدي. موكامي كانت الأولى. واليوم... وانجا. بدأت أتسقط أخطاءه في التعليم، في مستوى تحضيره، في مضمون دروسه، في نوع الأدب الذي يقدمه للعقول الطرية. لكني، في الحق، لم أجد إلا القليل أنتقده. حتى بدأت أثير مع نفسي طبعاً مسألة أخلاقية، هي تأثير علاقتهما غير الزوجية، في التلاميذ.

بعد أن تنضج الغلال، تأتي مواسم حصاد جديدة.

عصر أحد الأيام، دعوت جميع المعلمين، إلى الشرب عند عبد الله. وكان ذلك في منتصف الفصل الثالث.

وجهت الحديث نحو المدرسة، ونحو تدريس مواد معينة، كالتاريخ والتربية المدنية.

«تعرفون أن للتلاميذ أذهاناً سريعة التأثر. هم يحبون التقليد. ويعتبرون رأي معلميهم حقيقة مقدسة كالكتاب المقدس. لذا، علينا أن نكون حذرين، ألا تظنون؟ سألت هذا السؤال مستديراً نحو كاريغا. كانوا ينصتون جميعاً، فشعرت بقوة حجتي.

«حذرين... مم؟» سأل كاريغا، بطريقة أزعجتني.

«حذرين من تدريسنا. مما ندرّسهم. السياسة مثلاً. الدعاوة».

لم يجب. تحمست أكثر، ومضيت في تقديم نقاطي، وأنا أكثر سيطرة وثقة.

«أنتم ترون أن ما يحتاجون إلى معرفته هو الحقائق. الحقائق

البسيطة. المعلومات، التي يجتازون بها امتحان الشهادة، لا التفسير. وفيما بعد، حين يدخلون الثانوية، يستطيعون أن يتعلموا المادة الأكثر تعقيداً. آنذاك يكونون قد تعلموا كيف يفكرون، فاستعدوا للتفسير. أقول لنعلمهم الحقائق، الحقائق، لا الدعاوة عن الزنوجة، والشعوب الأفريقية، وغير ذلك، لأن هذه سياسة، وهم يعرفون القبيلة التي ينتسبون إليها. وهذه حقيقة ـ لا دعاوة».

جلست، وشربت كأس بيرة، رضيّ النفس. بعض الأشياء قرأتها بالطبع من منشور عممه على كل المدارس مفتش إنجليزي للغة والتاريخ بالوزارة، يصف نفسه بأنه عالم لغة وأدب وتاريخ. لكن ماذا يهم؟.

«لا أتفق مع هذا التناول»... بدأ كاريغا يتكلم، وشعرت بأنه يلاقي صعوبة ما. «لست قادراً على تقبل أن ثمت مرحلة في تطورنا ككائنات بشرية، نكتفي فيها بما يسمى حقائق ومعلومات. فالإنسان كائن مفكر منذ ولادته حتى مماته. إنه ينظر، ويسمع، ويلمس، ويشم، ويتذوق، وهو ينقل كل هذه الانطباعات إلى ذهنه كي يصل إلى نظرة معينة بخبرته الحياتية المباشرة. أتوجد حقائق خالصة؟ حين أنظر إليك، فإن ما أراه منك مشروط بوقفتي وجلستي، بكمية الضوء في الغرفة، بقوة عينيّ، بذهني إن كان مشغولاً بأفكار أخرى، وأي أفكار هي. أكيد أن الحكاية التي ندرّسها عن العميان السبعة الذين لم يروا الفيل، حكاية نافعة، إذن... النظر واللمس يتضمنان تسيراً. حتى إذا افترضنا وجود حقائق خالصة... فماذا عن انتقائها؟ ألا يتضمن هذا الانتقاء تفسيراً؟ ما هي الدعاوة التي اتهمنا بتدريسها؟ حين تحدثت الآن... كان من المضحك أني فكرت بجوي. لكن هذه قصة أخرى. لننظر الآن إلى هذه الدعاوة التي هي ليست حقائق. اضطهاد الشعب الأسود حقيقة. توزع الأفارقة في

جهات الدنيا الأربع حقيقة. إنـه يوجـد أفارقـة في الولايـات المتحـدة وكندا وأمريكـا اللاتينيـة وجـزر الهنـد الغربيـة وأوروبـا والهنـد وكـل مكان ـ حقيقة. وحقيقة، أن أفريقيا من أغـنى القـارات بإمكانـات غـير محدودة للتجدد والتطور. أي معادن مـن النحـاس والـذهب والمـاس والكوبالت واليورانيوم، لا توجد في أفريقيا؟ أي محـصول؟ إن شـعبنا قاتـل ضـد تجـار الرقيـق العـرب، حقيقـة. إن شـعب الأكامبـا بـنى تحصينات دفاعية قوية ضدهم حتى وهو يتاجر معهم بالعاج ـ حقيقـة. إن شـعبنا قـاوم الغـزو الأوروبي ـ حقيقـة. لقـد قاتلنـا، انجـا انجـا، وجبلا جبلا، ولم يتغلبوا علينا إلا بتفوق أسـلحتهم وبخيانـات بعـض من هزموا منا ـ هكذا إذن... حقيقة أن لشعب كينيا تاريخاً مـن الكفـاح والمقاومة. يجب أن ينظر أبناؤنـا إلى الأشـياء الـتي شـوهتنا بـالأمس، والتي تشوهنا اليوم. يجـب علـيهم أيـضاً أن ينظـروا في الأشـياء الـتي كونتنا بالأمس، والـتي سـتكوننا طـرازاً جديـداً مـن الرجـال والنـساء الذين لن يهـابوا أن يـضعوا أيـديهم بأيـدي أبنـاء بلـدان أخـرى علـى أساس من الانغمار النضالي ضد تلك الأشياء التي حطت مـن قـدرنا. التحرير: لـيس مـن تلميـذ صـغير علـى الـتفكير بهـذا: إنهـا الطريقـة الوحيـدة الـتي يختـبر بهـا نفـسه، وهـو يجمـع، ويكـسر، ويجمـع، ويرفض، ويهضم، ويصرخ، ليكتـشف نفـسه. يجـب أن نعلـم أبناءنـا أن يكرهوا كل تلك الأشـياء الـتي تمـنعهم مـن أن يحبـوا. ويجـب أن نعلمهم أن يحبوا كل تلك الأشياء التي تمكنهم من أن يحبوا أحراراً».

لم أفكر، البتـة، تفكـيراً واضـحاً في هـذه الأمـور. وهـا أنـذا أرى الآخرين مأخوذين بجـدة القناعـة ونقائهـا. تـضايقت. حاولـت أن أرد الضربة، فلم أعرف كيف أردهـا. في هـذه اللحظـة، جـاءت وانجـا، ووقفت عند الباب.

بحثت عيناها عنه. أحس جسدي المليء بـالتوتر، أكثـر ممـا رأى، التقاء شآبيب عيونهما... لحظة، لحظتين، قبل أن تحيي بقيتنا.

لم أستطع تحمل الألم.

لم أستطع مقاومة الفكرة الشريرة.

ركبت دراجتي إلى المديرية.

* * *

الفصل العاشر

1* ثانية، نهاية سنة أخرى. لقد أغلقت المدرسة، وها هو ذا منيرا في المكتب، يعد التقرير السنوي، ويضع تخميناته للسنة المقبلة. أحس بالدهشة لمضي خمس سنوات عليه، هنا. في السنة القادمة ستكون في المدرسة ستة صفوف تداوم دواماً كاملاً. جوزيف أحرز تقدماً واضحاً. ومستوى ذكائه فوق المتوسط. حتى لو لم ترسل الموروغ أي تلميذ إلى المدرسة الثانوية في المحاولة الأولى للشهادة، فهو متأكد من أن جوزيف، في المحاولة الثانية للمدرسة، سوف يشق طريقه إلى مراحل أعلى، مثبتاً، في النهاية، اسم مدرسة الموروغ الابتدائية الكاملة، على الخارطة الوطنية. أغلق المكتب، ووقف جانباً. كان ريف الموروغ صافياً بعد الحصاد. أما الجفاف والرحلة إلى المدينة فكأنهما حدثان في أسطورة. لم يتحقق، بعد، أي وعد من الوعود. فما تزال الموروغ مثل مخفر من مخافر الجمهورية، منسي، بعيد. حتى رجال الكنيسة، والرئيس وشرطته، لا يأتون إلا مرة كل عدة شهور. لكن مزيغو زار المدرسة مرة أو مرتين. وكان يبل ريقه سريعاً في دكان عبد الله، ثم يلعن الطريق، ويختفي. لكن زياراته هذه أنتجت بعض التحسينات، خاصة في التجهيزات والأبنية. كما جاءه أيضاً بمعلم آخر، فصار عددهم خمسة.

«تعال إلى الشاي»... أمست كذلك كأنها حدثت في بلاد أخرى، منذ زمن بعيد، وفكر منيرا بزيارة بيته، لكن كيف يقدر أن ينظر إلى أبيه... فكر بهذا، بعد أن عرف كيفية موت موكامي. وفكر أن هذا توقع لا طائل تحته، ما دامت علاقته بأبيه وماضيه والخيبة التي يحسها

لا شأن لها بموت موكامي. أخذ دراجته: أراد أن يهرب إلى دكان عبد الله من أجل شربة سريعة.

كان يصفر، مرحاً، حين رآها وسط الممر الضيق، في البقعة ذاتها التي لقيته فيها قبل خمس سنوات، وسألته أسئلة مضحكة، لكن عدائية. هتف وهو يوقف دراجته «أهذه أنت يا أم الناس!»، كان مزاجه جيداً، وقد استعاد ـ باستثناء ابتعاد وانجا عنه ـ مكانته، باعتباره بطلاً، أدخل التعليم الجديد إلى أطفال القرية. كان قد فقد هذه المكانة، لمصلحة كاريغا، بعد عودته من المدينة... أما الآن... فهو يحتاج فقط إلى وانجا، كي يستكمل سعادته. نظرت نياكينيوا إلى الأرض، لكن صوتها بلغه واضحاً:

«مضى على المعلمين الثلاثة الجدد، عدة أشهر، هنا... أليس كذلك؟».

أجابها حائراً: «نعم... نعم».

«يقومون بواجبهم جيداً».

«نعم... لكن لماذا السؤال؟ هل شكاهم التلاميذ؟».

«لا. هم يقولون إن المعلمين الجدد جيدون، كالاثنين قبلهما. من قدمهم إلينا؟».

«الدولة. وإلا... فكيف ندفع لهم؟».

«يا معلم... لماذا، لماذا يعطوننا باليمين، ليأخذوا بالشمال؟ أَعَدْلٌ هذا بالنسبة للأطفال؟».

قال: «لا أفهم...».

«أنت تفهم: أنت تعرف أكثر مما تجرؤ على قوله لنا».

«حقاً... أنا لا أفهم المعنى وراء كلماتك».

سعل، وهو يقول هذا، ثم أدار رأسه عنها. المورووغ هادئة. هادئة جداً. رأى ولدين يلعبان «كرة القدم» بتفاحتي ميتورا صفراوين، متنافسين على من يدفع الكرة أبعد إلى الخلف. حين نظر إلى الطريق ثانية، كانت المرأة قد اختفت. وغمغم: «تماماً كالمرة الماضية»... وهو يفكر بكلماتها. فجأة لم يعد يرغب في الذهاب إلى دكان عبد الله. لم يعد يرغب في المزيد من الثرثرة والشائعات. أسند الدراجة إلى حائط البيت. وقف عند الباب، ونظر ثانية إلى حيث كانت تقف المرأة. كان يخاف منها قليلاً، لأن الجماعة تجلها إجلالاً، ولأن عداءها قد يعني خزي المرء وسقوطه.

بدأ. لقد أخافه، دائماً، تكرار الأنماط الماضية. وقد حاول على الدوام، التخلص من طغيان الماضي. أولاً كانت نياكينيوا: الآن وانجا. ثم فهم أخيراً، وحل الابتهاج محل الخوف الأول. قالت وهي تردد الماضي أيضاً: «لم تتعلم، أبداً، الأصول». نظرت إليه ملياً، ولم يعرف ما موقفها منه: «ألا تدعوني إلى بيتك؟».

قال بترحاب مضحك: «ادخلي، ادخلي».

أخذت كرسياً منطوياً عند الجدار، وجلست. كانت حافية القدمين، ترتدي ثوباً بسيطاً ذا أزهار. بدون حلي. كان جسدها يبدو أكثر نضجاً: عيناها مستقرتان، صافيتان. ولم تعودا تتراقصان بالدعوة الشيطانية. لكنهما كانتا حيوتين، وبعثت نظرتها المباشرة، وإن لم تكن عدائية، شعوراً بالضيق عنده.

«أتحبين كوباً من الشاي؟».

قالت: «لا أحب الشاي، لكني أستطيع أن أشرب ماء».

«الماء وفير الآن»... حاول التندر، وهو يحضر لها قدح ماء. لديه الآن خزان ألمنيوم يجمع فيه ماء المطر من السقف. كما تحسن بيته مع مر السنين: لديه الآن كراسي أكثر ـ بينها أريكة ـ وأوان أكثر، ومزيد من الكتب على الرفوف. شربت قليلاً، ثم وضعت القدح باحتراس، وربما باحتراس شديد، على الأرض.

سألته فجأة: «أتتذكر ليلة التنغيتا؟».

«أجل. أتذكرها. لم السؤال؟ لقد مر زمن طويل. عام كامل».

«أتذكرك وأنت تسألني: لم جئت، في الحقيقة، إلى الموروغ؟».

«حسناً... المرء يحب الاستطلاع... لكن لنا جميعاً أسبابنا. حيواتنا السرية».

«لكن كان عليك أن تعرف، في المرة الثانية.. فقد أخبرتك... النار... والشاي».

«لم تريدين أن تنبشي الماضي؟» سألها وهو يحس بضيق أشد، ثم أضاف: «لا أدري إن كنت أخبرتك بأنني كنت قد عدت لتوي من حفلة الشاي نفسها».

«هكذا؟ على أي حال... أنت لم تخبرني. لكن لا يهم. لماذا أردت أن تعرف سبب مجيئي هنا؟ أظنك قصدت المرة الأولى».

«اسمعي يا وانجا. ينبغي ألا تخبريني بأمر لا تريدينه. ربما كنت تحت مفعول التنغيتا. إنه شراب قوي، حل كل ألسنتنا» قالت بابتسامة ساخرة: «لكني أريد أن أخبرك. قطعت المسافة كلها لأخبرك. لهذا يجب أن أخبرك. قلت لك مراراً إنني لم أحاول أن أخفي عليك من أنا، وماذا كنت. لكن ثمت أمراً واحداً لم أتحدث إليك عنه. كنت

أخشى دائماً من أنني عقيم: عاجزة عن إنجاب طفل. كان الأمر عبثاً باهظاً حملته. لأن الأطفال، مهما أهملناهم، هم الذين يجعلون فتيات المشارب يَحْسَسْنَ بأنهن بشر. أنت أم وليس بمقدور أحد أن يسلبك هذا. حاولت. كنت في محل بارابانا في ثيغيو. وهو شهير بالأعشاب، خاصة تلك المتعلقة بالأمراض النسائية، والحمل ـ».

قاطعها منيرا: «اعذريني. أظنك أخبرتنا بأنه كان لديك طفل، وأنك كنت حبلى مرة».

«صحيح». نظرت إلى الأرض طويلاً، وعضت على شفتها السفلى كأنها تريد أن تسرق نفسها قليلاً.

«مات. لكني اكتشفت هذه الحاجة، لديّ، منذ زمن طويل. حتى وأنا فتاة في المدرسة، كنت أحس، دائماً، بتسارع في قلبي، وبنوع من السرور المؤذي، حين أرى الأطفال... وأحببت أن أقدم لهم أشياء. ثم تعاظمت الحاجة. لهذا جئت. كي أرى جدتي. أولاً لأعرف ابن ولد أبي حقاً، وثانياً طلباً لنصيحتها. أخذتني إلى مكان مواثي» ـ

«لكنهم يقولون إنه لا يرى الناس الذين هم دون سن معينة».

«هذا صحيح. تركت في الخارج. إنه ساحة واسعة محاطة بسياج من النبات الشوكي الواخز واماتورا. وحين دخلت سمعت صوته فقط. سألني بضع أسئلة لا أريد أن أفصلها الآن. لكنه نصحني بيوم معين، تحت القمر الجديد، في الحقول المكشوفة. لم آخذ بتعليماته. فأنا لا أؤمن تماماً بشغل القمر. وأنت تعرف البقية. كانت حياتي. وسوء حظي. وأنا أتقبلها».

«لم تخبريني بهذا؟». سألها متألماً قليلاً: إذاً، كانت فقط تستخدمني، في تجربة الطبيب ـ الساحر؟

«لأني أريدك أن تعرف ماذا كانت الموروغ تعني بالنسبة لي، وماذا يعني كاريغا. أرجو ألا تتضايق حين أقول لك بأنه كان لي هدفي مع معظم الرجال الذين ذهبت إليهم. أنا أحب الصداقات. حسناً. لكني أعرف أن عليّ، أولاً، أن أنسى ورطتي المبكرة. الندبة. ثم كان الأمل فيما بعد... أحياناً كنت أصادق المتزوجين فقط، وذوي الأطفال منهم. صدقني. كنت وحيدة في الممارسة. حتى معك، كنت آمل، لكن لم ينفع الأمر. لكن الأمر معه مختلف. لقد أردته. أردته حقاً. أردته لنفسه. للمرة الأولى أشعر بأني مرغوب فيَّ.. إنسانة... ليست مذلة...مهانة... محتقرة الشأن... موطوءة بالأقدام... هل تفهم؟ هذه الفرصة لم توهب للكثير: فرصة ثانية لأكون امرأة، إنسانة... بلا هذا الاستثناء أو ذاك... بلا خجل. لقد أيقظ فيّ أنوثتي المخمدة، أيقظ صباي، وأحس أني أوشك على التفتح...».

صمتت، وحدقت فيه طويلاً. كانت عيناها تتراقصان. وأحس بضيق أشد تحت عينيها العاريتين، المجنونتين، المتحديتين. ثمت جمال رهيب فيهما... جمال لبوءة.

«أقول لك هذا يا منيرا، لأنني أعرف أنك وراء سقوط كاريغا، وراء طرده من عمله».

كان يوشك أن يقول شيئاً، أن يعترض اعتراضاً واهناً، أن يلقي اللوم، على مزيغو، لكنها استمرت، مرتفعة الصوت.

«أريد أن يعود إلى المدرسة. أريد أن يعود. جميعنا يريدون أن يعود معلماً لأطفالنا. مهما فعلت... فلن يغادر الموروغ... أما هذا.. وإلا... منيرا... أنا امرأة قاسية.. وسوف يدفع شخص ما الثمن، عاجلاً أو آجلاً. أريدك أن تفهم هذا: سيحدث هذا... لا أعرف كيف... لكن لو ذهب... فإما أنت، أو مزيغو، أو كلاكما...».

نهضت، وغادرت الحجرة مسرعة، كأنها خشيت أن يخنقها الجهد والكلام، أو يضعفها عند الركبتين.

أما بالنسبة لجودفري منيرا، فقد ظلت الكلمات معلقة في الهواء، ولم ينس، لزمن طويل، قوة ذلك الصوت، وجمال جسدها، ونقاء الالتزام في قلبها، والتماع ضوء القمر في عينيها الغاضبتين... كل هذا شده، في تلك اللحظة، نهائياً، إليها، وإلى الأبد. «إنني ضائع... كلنا ضائع... لكنها... يجب أن تكون... لبوءتي ذات العينين المتوحشتين».

عرف أنها هزمته. لكنه عرف أنه لم يعد يستطيع شيئاً بصدد طرد كاريغا. ما فات فات.. والأمر لك، يا لبوءتي المقمرة...

غمغم لنفسه.

2* ساعدني، يا رب، لئلا يذهب. غمغمت وانجا. وهي تنظر عبر السهول إلى تلال دونيو البعيدة. فويق التلال شكلت الغيوم كهفين يطلقان الضباب والنور تضاءلت فوهتا الكهفين حتى تلاشى الكهفان، أخيراً، في عهد أسود مزرق... طاف. تتبعت حركة العهد الوئيدة. وهي تحاول أن تعين موضع بصمات الله. انصرف ذهنها عن مهمتها الراهنة. لكن الفكرة عادت تلح: لو ترك الموروغ... لو ترك الموروغ... فلسوف تتركها هي أيضاً. وارتعدت: إنها خائفة الآن، حقاً، مما ستواجهه في العالم خلف هذه الحدود الريفية. لقد خلفت ماضيها وراءها: ليبق هناك، خارج أسوار الموروغ. لكن ما عساها تفعل هنا في الموروغ، بدونه؟ ستتبعه... وارتعدت ثانية حين فكرت بالعالم خلف هذا الحمى. يا ندويي... ظلي بدون...

قدم عبد الله عرضاً ثانياً لكاريغا «بإمكانك العمل في مخزني. سنكون شريكين شراكة كاملة»... وشعر بعدم كفاية هذا المنفذ: هل يتسع المخزن لهم جميعاً؟ لكن هذا هو كل ما يملك.

نظرت وانجا إلى عبد الله، وتذكرت عرضه المماثل، قبل سنوات خمس. وفي الصمت المحيط، وإزاء أهمية المناسبة، بدت لها الكلمات والاقتراحات... وهي تبلغها، بينما كانت تلتف على نفسها بسبب الريح الآتية من تل المورروغ... بدت لها مضحكة، حتى كادت تضحك. لكنها تعرف المشاعر الكامنة وراءها.

كاريغا سمع الكلمات دون أن يفقه معناها. فقد عرف، وظنهم يعرفون جميعاً، أنه لم يتبق له شيء في المورروغ. فالمرارة التي أحس بها مما فعله منيرا ومفتشو المدارس، ما تزال مستولية عليه، وعلى استجاباته لكل ما حوله. كان عاجزاً عن فهم الدافع الأساس وراء طرده من هذا العمل الذي أخذ يهبه حياة ومعنى. لقد شعر وهو يعلم الأطفال بأنه ذو مهمة ممكنة، بحوار يومي مع أعماق نفسه، محاولاً أن يفهم الأطفال والعالم الذي شكل مستقبلهم وفرصهم في الحياة. بدأ يشك، بالفعل، في قيمة التعليم الرسمي كأداة لتحرر الشعب النهائي، لكنه لم يكن متهيئاً للمغادرة. لم يكن مستعداً للعالم خارج مدرسة المورروغ. لقد أوصلته مغامرته الأولى إلى السجن. وماذا الآن؟ أيعود إلى الطرقات يبيع جلود الخراف والخوخ والكمثري للسواح؟ أتظل حياته مجرد مسار. طويل من الرغبات المحيطة والأحلام؟ مسار لا تقطعه إلا هروبات عارضة إلى أماكن مثل المورروغ؟ لم يكن يبحث إلا عن الحقيقة والجمال والتفاهم، فكيف تدخل في سلام شخص آخر وراحته؟ كيف استطاع منيرا أن يفعل به ما فعل؟ إن كاريغا لم يتقبل اهتمام منيرا المعلن بموت أخت، وإذن أب مقطوعة. كان يجهل علاقة منيرا بوانجا. وهو لن يفهم حتى لو عرف. كان فتياً. بريئاً. إنه لم يعرف، بعد، عن تلك الشكوك التي تحتاج تأكيدات صابرة لإسكاتها، والتي قد تؤدي، في حالة بقائها، إلى أن يقدم الرجال

متوسطو الأعمار، على القتل، إثباتاً للذات، وتطميناً إلى أن المرء لم يفشل، بالفعل. ألم يتتبع اللورد فريز ـ كيلبي سيدته الصالحة، بالبندقية والبارود المهيأين، أصلاً، للأفارقة والحيوانات؟ لهذا لم يستطع كاريغا أن يرى في انتقام منيرا إلا سفالة بدون سبب. ما كان بإمكانه أن يفكر رأساً باهتمام منيرا: فوراء تفكيره، صالحاً كان أو طالحاً، عادلاً أو غير عادل، فهو ما يزال يحس بخيبة عميقة للآمال، تشبه إلى حد بعيد ما أحس به، حين جاء جوي، بطلهم، إلى سيريانا، وحاول المزايدة على فورودشام. حسناً. ممثلون. أبطال... ما معنى الإيمان بالشعب؟ كان يتطلع إلى أبطال كاذبين، أو يبحث عن ممثلين وأبطال حيث لا يمكن أن يوجدوا. وهكذا، في لحظة اليأس هذه، كاد يرتكب الخطأ القاتل.. فيفقد إيمانه بالشعب وبإمكانات الحق والجمال والمثل في عالم يكافح فيه الناس، يومياً، من أجل الخبز والماء. لكنه سمع صوتي وانجا وعبد الله يناديانه. تأثر للاهتمام البادي في نبرة عبد الله، وهو يعرض عليه المشاركة في التجارة. التفت إلى عبد الله، وسأله:

«لم جئت، حقاً، إلى الموروغ؟».

ارتبك عبد الله للسؤال. مع أن السؤال لم يكن غير متوقع: ألم يسأل نفسه هذا السؤال مراراً؟ راقب الشمس وهي تختفي وراء تلال دونيو، وضرب ذبابة تطن حول أذنيه.

«بعد أن ألقي عليّ القبض، أخذوني إلى معسكر اعتقال مانياني. وكنت بين آخر من أطلق سراحهم. كان ذلك عشية الاستقلال، ولك أن تتصور ما يعني ذلك بالنسبة لي من انفعال وذكريات وأمل. قلت لنفسي: لو أن ندنغ ـ أوري وأولي ماساي، والآخرين.. فقط كانوا

حاضرين هنا ليروا هذا! ثمرة الإيمان... تتويج المجد... لذلك النضال المشترك والثبات. ستتبدل الأمور. لن أرى وجه رجل أبيض يسخر من جهدنا. والتاجر الهندي السافل سوف يغادر أيضاً. وسوف تعود المعامل ومزارع الشاي والقهوة، إلينا، نحن شعب كينيا. وتذكرت كل الذين قمعوا كفاحنا... قال الرب: لكني لم أهتم: فلم أكن لأرفض مساعدته قليلاً في الانتقام: استئصال الطفيليات في الأقل... المتعاونين. ولم أستطع إلا أن أغني هذه المرة، في أمل ظافر:

أيها الخونة السود، يا حملة الرماح

أنى تهربون

حين يعود شجعان الوطن

نافخين أبواق مجدنا وانتصار كفاحنا؟

لم نخف المطر

لم نخف الموت

لم نخف الأسد الرهيب

لم نخف برد العراء والريح

لم نخف المستعمرين

فقد عرفنا كينيا

وطناً للرجل الأسود.

بعد شهور وشهور... من ترديدي الأغنية:

انتظرت إصلاحاً زراعياً، وإعادة توزيع للأرض.

انتظرت عملاً.

انتظرت تمثالاً لكيمائي ذكرى لمن سقطوا شهداء.

انتظرت.

قلت لنفسي: لأبع نصف أكر من أكري الوحيد. بعت النصف: اشتريت حماراً وعربة، وصرت أنقل بضائع الناس إلى السوق. الحمار لا يشرب البترول أو الكيروسين.

وبقيت أنتظر.

«سمعت أنهم يقدمون قروضاً للناس، كي يشتروا المزارع الأوروبية. لم أفهم السبب في أن أشتري أراضي، اشتريت فعلاً بدم الشعب. مع هذا ذهبت إلى هناك. قالوا لي: هذه هي كينيا الجديدة. لا شيء بالمجان. فبدون المال لا تستطيع أن تشتري الأرض: وبدون الأرض والأملاك لا تستطيع الحصول على قرض مصرفي لتبدأ عملاً أو تشتري أرضاً. لم أفهم. فهل سألنا، حين كنا نقاتل، أن يقاتل ذوو الأملاك فقط؟

قلت... ربما... ربما... خطة كبرى.

وانتظرت.

قلت... حسناً... سأكون أخرس، أصم. راقبت الأمور تتكشف. الأحداث. رأيت التوتر المتعاظم بين السود. بين هذه العشيرة وتلك. بين المناطق. حتى الجبال. بين البيوت. وتذكرت كفاحنا، نضالنا، أغانينا: أفلست أحتفظ بالذكرى في ساقي؟ قلت: لم هذه الخلافات بين أبناء شعبنا؟ والرجل الأبيض:

ألا يضحك الآن، ويضحك، حتى ينفطر منخراه مثل القملة في الحكاية؟

قلت: ما معنى هذا الصمت من الشهداء؟ ما هذا الصمت عن الحركة؟

وقلت: لأذهب من مكتب إلى مكتب. سأعود إلى المعمل الذي اعتدت العمل فيه. كان العمل كل ما أريده.

ذهبت إلى المكتب.

قلت: حسناً. أريد فقط عملاً.

قالوا: عاجز؟

قلت: ألا يأكل العاجز؟

نظروا إلى شخص آخر.

قالوا: ليسمع من له أذنان: ليبصر من له عينان.

هذه هي كينيا الجديدة.

لا شيء بالمجان.

إن كنت تريد أشياء بالمجان، فاذهب إلى تنزانيا أو الصين، ضحكت ضحكة مريرة. فحتى في الذهاب إلى تنزانيا أو الصين، يحتاج المرء إلى مال ليدفع أجور الحافلة.

وقفت خارج المكتب ذاهلاً. كنت أشرب كأس مرارتي، عندما خرج رجل يرتدي بدلة سوداء من سيارة مرسيدس بنز، ودخل المكتب.وقف الموظفون جميعاً، مرة واحدة، مبدين أوسع ابتساماتهم». صمت عبد الله، متأملاً. حاول أن يضرب الذبابة التي عادت تطن حول أذنه اليسرى. ثم بدا أنه نسيها، وهو ينظر عبر السهول، إلى اللاشيء.

«أصدقائي... لا شيء يصدمني الآن. كان منيرا معلمك في أحد الأيام. وقد طرد هو نفسه من سيريانا. مثلك تماماً. واليوم يستطيع أن يركلك لسبب شخصي، فتحار أنت حد اليأس. أتظن الأمر يدهشني؟ غداً، يا أصدقائي، غداً تنقلبون عليّ، لن أبكي.حتى جوزيف قد يسيء إلي، ولن أبكي. لكن... في ذلك اليوم... أأقول لكم إنني لم أتأثر؟ ماذا أستطيع أن أخبركم... ألا... ألا... ذلك الرجل الذي جاء إلى المكتب، كان هو الذي وشى بي، وبندنغ ـ أوري. وعلمت فيما بعد أنه متعاقد مع الشركة على نقل بضائعها. كان الموظفون يقولون بعد أن غادر: لقد جاءت الحرية بالفعل. فقبل الاستقلال لم يكن يسمح للأفريقي بلمس بضائع الشركة إلا باعتباره عاملاً. أما الآن فإن السيد كيميريا يتعامل بالملايين!

بقيت غائراً في الأرض. هكذا... إذاً... كيميريا وا كاميانجا يأكل ثمار الحرية!

عدت إلى القرية، بعت نصف الأكر الآخر. جمعت عدة بطانيات، ورحلت مع حماري، أتبع الشمس. أردت أن أتوغل عميقاً في البلاد، حيث لا يذكرني أحد بالخيانة المرة. سموها هروباً.

لكني مت موت الروح: أخيراً فقد عاد الدم يسري في عروقي. آه... هذه الذبابة ثانية!».

شرع يضرب الذبابة، فيخطئ... ضرب وجهه، فأطلق كلمة لا تقال. ثم التفت إلى كاريغا وقال:

«لهذا أسألك ألا تغادر. فإلى أين تذهب؟ كن فلاحاً هنا. احصل على شريط من الأرض. ازرع، مثل وانجا. فربما نبتت نبتة أو اثنتان، وأثمرتا ثمرة أو اثنتين!».

سمعا وانجا تنتحب مرة. التفتا.

«ما هذا؟ ما الأمر؟» سأل عبد الله، ثم تذكر أن كاريغا موشك على الرحيل وربما».

«هل قلت كيميريا؟».

«نعم».

«هو الذي وشى بك ـ؟».

«نعم».

«هل يحمل ندبة صغيرة على جبهته؟».

«نعم».

«إذاً هو ذاك».

«من؟ عم تتكلمين؟» سأل كاريغا.

قالت: «هو الذي غرر بي وأخرجني من البيت. إنه يسمي نفسه هوكنز كيميريا».

نظر أحدهم إلى الآخر. وغص حلق كاريغا.

«هو ـ هو أيضاً ذلك» جهد ليقول، متذكراً كيف وشى بأخيه.

«نعم. نعم. العمال فقط يسمونه السيد هوكنز». قالت وانجا ذلك، متذكرة محنتها الأخيرة مع كيميريا أثناء الرحلة إلى المدينة. أحس كاريغا بنوع آخر من الألم: هكذا كان ينام مع امرأة قاتل أخيه؟

كان عبد الله مدهوشاً، قليلاً، من إشاراتهما. ثم أخبرته وانجا بأن الرجل الذي حبسها مع نجوغونا وكاريغا في التلال الزرقاء كان كيميريا نفسه!

لكن قبل أن يتمكن وانجا وكاريغا من الإجابة عن أسئلة أخرى من عبد الله المندهش، سمعوا، فجأة، هديراً في السماء، ظنوه رعداً. كان بعيداً أولاً، وأخذ يعلو شيئاً فشيئاً. إنها طائرة. تطير منخفضة فوقهم، في دوائر، كأنها تبحث عن شيء ضائع في السماء. كانت تقترب منهم ثم تبتعد حتى الطرف القصي للسهول، قبل أن تسجل دورة أخرى في السماء. ثم سمعوا الهدير يتوقف تماماً. الطائرة تعود، ثم تبتعد فجأة. أزيز. هدير.وقفوا. توقفت الطائرة في السماء لحظة، قبل أن تندفع نحوهم بمقدمتها. عرفوا الآن أنها ستتحطم عليهم. سمرهم الخوف. وانجا ممسكة بكاريغا، وهي تئن. إلهي. إلهي. وصرخ عبد الله: انبطحوا. انبطحوا أرضاً!

انبطحوا على الأرض، وسمعوا الطائرة تندفع في الهواء، أخطأتهم على مبعدة يسيرة. وهبطت هبوطاً اضطرارياً في حقل يبعد عنهم مسافة نصف ميل.

قال كاريغا وهم يقفون على أقدامهم، ويتجهون إلى الطائرة:

«قريبة جداً. كانت ستقطع رؤوسنا».

هبطت الطائرة بسلام. ووقف أوروبي في قميص من الكاكي وسروال من الكاكي أيضاً، ومعه ثلاثة أفارقة يرتدون ملابس مماثلة.. على مبعدة ياردات قليلة منها، يتفحصون الطائرة، ويتفحصون حظهم أيضاً.

هتفت وانجا: «طائرة طفلة، مثل التي رأيناها في مطار ولسون» داروا حول الطائرة. على بعد ياردات قليلة أطلق عبد الله آهة ألم: «ساقي الأخرى. ساقي الأخرى». اتجه كاريغا ووانجا نحوه. نظر أحدهما إلى الآخر. لكن لم يعرف أي منهما ماذا يقول.

خلال ساعة من الزمن، انتشر نبأ هبوط الطائرة الاضطراري، في الجبال والقرى البعيدة والقريبة، وجاء الناس بالمئات. حتى هبوط الظلام لم يمنع الناس من التدفق على الطائرة، حاملين المصابيح والمشاعل.

أسروا الطائرة، وشكلوا دائرة ضخمة كثيفة حولها. متفحصين كل جزء منها، ومعلقين عليه، شاعرين بقوتهم الخاصة التي أنزلت الطائرة.

ودار مهرجان، يوماً، يومين، أسبوعين، مع جماعات فضولية من تلاميذ المدارس جاؤوا في شاحنات مستأجرة ليروا الحصان المجنح. أخيراً، وصل شرطيان من المركز لحراسة الطائرة.

كانت وانجا التي هزت عبد الله من حزنه.

«فكرت به. لكن الفكرة جاءتني الليلة الماضية. دعنا لا ننحني للحزن واليأس. يبدو لي أن هذا المهرجان سوف يستمر عدة أيام. وربما عدة أسابيع. وسوف يحتاج هؤلاء الناس إلى طعام. لنطبخ طعاماً يأكلونه. ولنهيئ شيئاً من التنغيتا... ليغرق الطعام.. و... أحزاننا الخاصة».

كان الأمر بسيطاً: أمر جميل، وقد دهش عبد الله لطرافة الفكرة والاقتراح الملهم. إن كانت البيرة، فلم لا يكون التنغيتا، وهو أرخص، وأيسر في الصنع؟ إن كانت النوادي في كل أنحاء الجمهورية تبيع الشانغا، والكيرورو، والبوزا... فلم لا يباع التنغيتا في المورورغ؟ نجاح فوري آخر. حوالي نهاية الأسبوع، كان الناس يأتون ليتذوقوا التنغيتا، مثلما يأتون ليروا الطائرة. وسرت الشائعات عن أن التنغيتا يمتلك خصائص عديدة، من منح الخصوبة للنساء العقيمات، حتى إعادة القوة الجنسية إلى الشيوخ.

تشكلت مجموعات للرقص، جاءت جماعات الشاربين: وغدت الموروغ، بين ليلة وضحاها، مشهورة خارج أسوار السلسلة الجبلية والسهول التي لم يكن يطوف فيها إلا الرعاة والفلاحون المسنون، يغنون الأرض وعشب الفيل، ويتطلعون إلى السماء راجين الشمس والمطر.

ومرة أخرى تتصدر الموروغ الأنباء الوطنية. وعين نديري وا ريرا عضواً في لجنة من موظفي الحكومة وخبراء الطيران تقدم تقريراً عن أسباب تحطم الطائرة. ونشر خبر عن تشكيل اللجنة في كل الصحف اليومية، وأذيع في الإذاعة. وقدمت إحدى الصحف تغطية للموضوع مع صور للطائرة والحشود:

«لم تكن الطائرة ذات المقاعد الأربعة التي تحمل فريقاً من المساحين، ومصوري المساحة، والتي تحطمت في قرية الموروغ الرعوية الصغيرة بمقاطعة جيري، الأسبوع الماضي، موضوع لجنة التحقيق الحكومية فقط، بل موضوع عبادة غريبة في المنطقة أيضاً. كانت الطائرة في مهمة مسح فوتوغرافي متعلق بمشروع الطريق عابر أفريقيا، المقرر مروره بالمنطقة. إن هذا سيؤثر في مشاريع تنمية زراعة القمح، والمراعي، للمنطقة كلها.

إن تسريع التنمية، على هذه الخطوط، كان السمة الرئيسية في تقرير سري أعدته لجنة من الخبراء أرسلت إلى الموروغ قبل سنتين نتيجة الجفاف والمجاعة اللذين هدّدا الآلاف هناك. كما ينظر إلى الموروغ باعتبارها منطقة تتمتع بإمكانات سياحية عالية، وذلك بفضل نائب المنطقة النشيط، سعادة السيد نديري وا ريرا، المدافع العظيم عن الشخصية الأفريقية والأصالة السوداء، وأحد القادة القوميين لـ «م.ث.ك».

«حسناً. لدي أنباء جيدة لعضو البرلمان».

«لقد بدأ السواح يؤمّون المنطقة».

«قد لا تكون عندهم دولارات أمريكية. لكنهم يحملون قطع العشرة سنتات من المناطق المجاورة. كل هذا بسبب الطائرة. إن هذا الجمهور الحاشد سوف يستمر حتى بعد أن تذهب الطائرة.

«فالموضوع الآن هو موضوع عبادة. هذه العبادة مرتبطة بحيوان أسطوري على الأرض يقال إنه سيجلب القوة والنور إلى المنطقة. ويقولون إن هذا الحيوان هو الذي أسقط الطائرة، بالفعل.

«الجماهير ترقص حولها في كاراج كانييكيني. وهم يغنون، ويحتسون مزيجاً غريباً يسمونه تنغيتا، يقال إنه يمنح النساء العقيمات الإخصاب، ويهب الرجال الواهنين القوة. تنغيتا للقوة. بعضهم استولت عليه النشوة: بعضهم يقول إنه رأى الطائرات وغيرها يطردها حيوان أرضي عجيب، ينفث النار والنور...».

أما بالنسبة لوانجا وعبد الله ورورو ونجوغونا ونياكينيوا، وأطفال مدرسة الموروغ الابتدائية الكاملة، فلم تكن الطائرة موضوع حديثهم الأهم، ولا حشود الزائرين، ولا الارتفاع المفاجئ في أسعار الطعام والشراب ـ وإنما موت حمار عبد الله، الضحية الوحيدة لتحطم الطائرة، ورحيل كاريغا من الموروغ.

* * *

القسم الرابع

ثانية ... النضال مستمر!

أجساد الشبان هذه،

هؤلاء الشهداء المعلقين من المشانق ـ

هذه القلوب التي اخترمها الرصاص الكالح،

والتي تبدو باردة، جامدة،

إنها لتحيا في أمكنة أخرى، متدفقة الحيوية.

إنهم يحيون في شبان آخرين، أيها الملوك!

إنهم يحيون في أشقاء مستعدين لأن يتحدوكم ثانية.

«والت ويتمان»

إن كنا أخوة، فليس الأمر خطأنا أو مسؤوليتنا

لكن، إن كنا رفاقاً، فهو التزام سياسي.

... والخير أن تكون أخاً ورفيقاً.

«أميلكار كابرال»

* * *

الفصل الحادي عشر

1* يعتبر الطريق عابر أفريقيا، الذي يربط نايروبي والموروغ بمدن قارتنا العديدة، واحداً من أشهر الطرق في أفريقيا كلها، ماضياً وحاضراً. إنه مأثرة ذات دلالة، وإن كانت غير مقصودة، للذين شهدوا دمارات الجريمة والخيانة والجشع التي سميت حضارة، وشهدوا أيضاً المقاومة التي شنت بأيد مشققة وأظافر مهشمة وقلوب دامية، فأعلنوا رؤاهم وسط الهز، والشك والاتهام بالجنون أو البحث عن سبل للخلود ومجد الطغاة الأبدي. لقد رأوا أن ضعف المقاومة ليس فقط في افتقاد الإرادة والعزم أو السلاح، وإنما أيضاً في تحمل الشعب الأفريقي الانقسام إلى أقاليم ولغات ولهجات، حسب رغبات السادة السابقين، فصرخوا: أفريقيا يجب أن تتحد.

يعيش تشاكا توليوي. يعيش توسان لوفرتور. يعيش كوامي ذو عيني الصقر. والمجد... المجد لكيماثي بن واتشيوري.

بعضهم خاف من الرؤيا الذاوية، طبعاً، ووجدوا أماناً أكثر في ترديد الكلمات عن فم السيد: الطرق أولاً، تخطيط الأسرة، احتياجات عملية كهذه، أهداف ممكنة التنفيذ، تجارة ـ والبقية ليست سوى أحلام مدمن على التنغيتا. وهكذا مد الطريق، لا ليمنح رؤيا القارة مضموناً وواقعاً، بل ليبين استعدادنا وإيماننا بالتوصيات العملية لشخص واقعي من وراء الحدود. هذا السيد، الإله المعادي لوحدة قارة، يصفق بيديه، ويهز رأسه استحساناً، ويقدم، راضياً، القروض المالية للخبرة والتجهيزات المستوردة. وهكذا جرّد الطريق من رؤيا الوحدة والنضال المشترك للشعوب الأفريقية، ليأتي فقط بوحدة سطح

الأرض: كل زاوية بين القارة، هي الآن في المتناول السهل للنهب والاستغلال من قبل الرأسمالي العالمي.

كانت هذه وحدة عملية.

حسناً... حسناً... إننا الآن جميعاً من الطريق، بعض من جمال التحقق الجزئي للرؤيا التي أعلنته، وكذلك بعض من الخواء والوعود الفاشلة التي يمثلها الطريق. غالباً ما يجلس الناس، أهالي المورونغ، على جانبي الطريق، يشاهدون السيارات تئز، مطلقة أبواقها، في اندفاعها إلى سبع مدن من وسط أفريقيا، في سباق نظمته شركة نفط، ويتساءلون: كيف يلعب المرء بالموت في فرق انتحار ميكانيكية من أجل بضعة دولارات فضية! ويراقبون كذلك، السيارات الحوضية الثقيلة وهي تريق القطران في مسار طويل عبر السهول لتغدو آلاف العروق في المكائن، العطشى والمحركات، ويغمغمون: قبل هذا الطريق، قبل هذا الحيوان الأرضي، هل عشنا في أورشليم الجديدة؟ إنهم يهزون رؤوسهم، من ناحية إلى ناحية، عارفين الجواب، كاتمين إياه، لصق قلوبهم: إن لم تحدث معجزة، فإنهم بانتظار أن يمضوا في ذات السبيل الذي قطعته نياكينيوا:

ربما كان أفضل

لكن...

الصغار!

كان الأولاد والبنات، غير العابثين بالذكريات والشكوك والحيرة واليأس في عيون المسنين. يتطلعون إلى السيارات الحوضية، ويحاولون أن ينطلقوا لكلمات: لونرهو ـ شل ـ أسو ـ توتال ـ أجيب، إلى جانب كلمة «خطر» على جوف السيارات الحوضية.

وهم يغنون، بأصوات حادة، عن الطريق الـذي سـوف يحملـهم، أكيداً. إلى مدن أفريقيا كلها، أفريقيتـهم، ليـضموا أيـديهم إلى أطفـال البلدان الأخرى:

على الوحل

على القطران

على الهواء

من لواندا إلى نايروبي

من مسومبيجي إلى القاهرة

من دار إلى ليبيا

يساعد أحدنا الآخر.

وهكذا يستمرون، مغيرين فقط أسمـاء مـدن أفريقيـة، أفريقيتـهم! أجل... ما يزال الأطفال يحملون الحلم في أصواتهم، إنه حلم الـرائين والمؤمنين، كل الباحثين عن استعادة ثقتهم.

هكذا كان الأمر دائماً.

أما نحن أهالي الموروغ، فقد منحنا الطريق بلـدة جديـدة، وقـذف بنا في العصر الحديث. المـوروغ الجديـدة. أورشـليم الجديـدة. مـاذا يهم؟ كلنا نمضي، كلنا نوشك أن نمضي علـى الطريـق الـذي سـلكته نياكينيوا.

لكن ماذا عن الأطفال؟

أجل... أصوات الأطفال. أطفالنا!

* * *

كيف نهضت المورروغ، من قرية مهجورة، إلى بلدة ممتدة من الحجر والحديد والأسمنت والزجاج... والنيون الذي ما يزال أسطورة زماننا. لقد دخلت البلدة في الأغاني. واختلطت الحقيقة بالخيال في المخيلة الخصبة. عليك أن تسمع عبد الله يغني، بعد كأس أو اثنتين، أو حين يبيع البرتقال، كيف نهضت المورروغ، فجأة، وبسحر ساحر، على كاراج كانيكينيي، بعد أن اصطلحت الطائرة، وحلقت بعيداً:

أغني لكم أغنية عن بلدة

وعن وانجا التي بدأتها:

كيف جعلت من قرية كبقة الفراش

بلدة، بلدة للتنغيتا.

أتذكر حين أتت إلى المورروغ المرة الأولى

قلت: من هذه الآنسة التي جاءت

تغرق قلبي

تغرق قريتي؟

أيتها الألسنة السليطة

انظروا حولكم

لتروا العمل الذي أدته مهارتها.

نحييك يا وانجا كاهيلي،

من قال: فقط في بيت ذي طفل ذكر

يشوى رأس جدي، احتفالاً؟

ألم ينزل جمالك طائرة؟

ألم يأت نفسك بمدينة؟

البلدة! كيف كان لنا أن نعلم بأن انضمام وانجا إلى مخزن عبد الله سوف يبدأ هذا كله؟ حتى حين رأينا الناس يأتون بالسيارات من بعيد، فقط ليأكلوا لحم الماعز المشوي، ويشربوا التنغيتا، ظننا الأمر مؤقتاً، وجزءاً من السحر الذي جلبته الطائرة. خلال شهر، شهدنا أشياء عجيبة أكثر. جاء مساحون يسحبون سلاسل مقعقعة، وغرزوا أوتاداً حمراً. تماماً مثل أولئك الذين جاؤوا قبل سنين. لكن الجرافات تبعتهم هذه المرة مع فرق عمال مرح من كل الجنسيات، فاحتشدنا حولهم، وأنصتنا إلى أغاني عملهم الفارغة:

أيها الشجاع يا ابن أبي

العمل تؤديه المعدة الملأى

العمل لا يأكل رجلاً

إلا إذا كانت معدته خاوية.

ارمي المعول في التراب

واغرز الرفش في التراب!

قديماً كانت دروب الغابة طريقنا الوحيد ـ

أتسمع طيور الهواء تقول:

طريق

غا ـ اي ـ كيا ـ نغو

وا ـ ثي ي ـ كو

طريق

غا ـ اي ـ كيا ـ نغو

طريق

غا ـ اي ـ كيا ـ نغو

وا ـ ثي ي ـ كو

محل عبد الله، حسناً، محل وانجا، صار مركز الأحاديث: عمال الطريق يشربون، ويأكلون اللحم المشوي ويروون الشائعات. سوق الموروغ الذي كان يقام يوماً، ويخلو يوماً، حسب الحاجة، صار سوقاً يومياً... تبيع فيه النسوة البصل، والبطاطس، والذرة، والبيض، مصغيات إلى الحكايات، ومتشربات عيون الرجال الغرباء ذات العروض.

تساءلنا: ماذا هناك وراء تلال دونيو؟ هل تأكل جرافات الدي فور أس، والدي ايت اس، الأرض بنفس هذه القوة التي لا تكل وراء الآفاق التي تراها عيوننا؟ أصحيح ما قاله شعب المو من أن الطريق سوف يصل إلى زائير ونيجيريا، ثم إلى بلاد البيض، عبر البحر الأحمر؟ يرفع عمال الطرق أصواتهم أعلى من هدير الآلات التي تأكل الأرض:

الأخوة أكامبا يغنون هكذا:

الغبار يتعالى حتى السقوف

أووه موتوميا واكيبيتي ـ اي اي

لنعمل بكل قوانا

موتوميا واكيبيتي ـ اي اي

والأطفال ينتظرون أن يرونا نترك الطريق

موتوميا واكييبب ـ اي اي

فلنعمل أقوى

موتوميا واكييبتي ـ اي اي

نحن نشق طريقاً

أهو للخير؟

أهو للشر؟

هو للاثنين.

موانا وا غاسيمبيري ـ ي

أعولت المكائن، وصفرت، وهدرت في الطين، مكتسحة الشجن والعشب، وأحياناً الأكواخ التي تقف عثرة في طريق التجارة والتقدم.

هكذا وقفنا وراقبنا المكائن وهي تهدر متقدمة نحو موضع مواثي. قلنا: لا يمكن. لكن المكائن ما تزال تتقدم. قلنا: ستتحطم بقوة نار مواثي. فقط انتظروا. فقط انتظروا. لكن الماكنة اقتلعت السياج، ثم ضربت الكوخ الأول، فسقط، وخيم علينا الصمت. وانتظرنا أن تنفجر الماكنة. حتى حين هبط الأمريكيون على القمر، وحسبنا الأرض سوف تزلزل، أو سوف يحدث شيء ما، كان خوفنا أقل من الآن... حين سوّي موضع مواثي بالأرض. هدم الكوخان. لكن... أين مواثي؟ لم يكن مواثي ثمت. قلنا: اختفى وانتظرنا انتقامه. وقلنا: ربما لم يكن هناك أبداً. أما المسن موتوري الذي كان بإمكانه أن يساعدنا، فقد أمسى أصم أخرس لهذا الانتهاك. لكن ما كشفته الماكنة جعل الغرباء يتوقفون، فاستدعوا أناساً من نايروبي جاؤوا بكتبهم وآلات

تصويرهم وقياسهم من مختلف الأنواع. كان مواثي الروح الحارس، متربعاً على معرفة العديد من الفصول الماضية: خواتم. أشغال معدنية. رماح. مصهورات ـ كل هذه. أحيط موضعه بسياج من الأسلاك، وضعت عليه فيما بعد لوحة كبيرة:

«الموروغ ـ موضع أثري». فعلت قوة مواثي فعلها أخيراً. إذ حاد الطريق عن الموضع. لكن... من كان مواثي؟ بقينا نسأل هذا السؤال. لم يتحمل موتوري الأمر، ومات حاملاً معه سر روح الموروغ الحارس، الذي لم يعد إلا موضعاً للباحثين عن الماضي... الماضي السحيق، قبل أن تتاجر أفريقيا الشرقية مع الصين والهند.

بعد زمن طويل من امتداد الطريق وراء السهول والتلال، ورحيل العمال مع مخيمهم... ظل محل عبد الله يتوسع، وصار «موقفاً» للشاحنات الضخمة والسيارات التي أخذت تستخدم الطريق المعبد. وغالباً ما كان يقضي السواق ومساعدوهم، الليل، هناك، يشربون التنغيتا الذي له مفعول الحشيشة والمايرونجي!

توسع عبد الله ووانجا أكثر. فلديهما الآن مخزن، ومحل قصابة، ومشرب، وقاعة بيرة هي في الوقت نفسه مرقص، وخمس غرف يستطيع الراغبون أن يبيتوا فيها الليل: مقابل أجر. مخزن. محل قصابة. مشرب.مبيت.كان كل شيء يجري كأنه بموجب خطة مرتبة.

حتى ذلك الوقت، كنا نظن الأمر إجراء مؤقتاً، وشيئاً غريباً سرعان ما يمضي ويتركان حيث كنا، قبل أن تتحطم تلك الطائرة على حيواتنا.

لكن الطريق: كان طريقنا.

تهيأنا لتدشين قسم الموروغ، بتوقعات فخورة وإن كانت غامضة.

لم لا؟ وزير من الحكومة سيزور الموروغ. لم نر، من قبل، وزيراً، في حياتنا. اشتركنا كلنا في تنظيف محل عبد الله. وهيأت المدرسة بمعلميها الجدد فرقة إنشاد. لكن لم يأت أي وزير: لم يكن حفل تدشين، بل جولة يقوم بها موظفون حكوميون كبار يرافقهم نديري وا ريرا، ومساعداه، الكرش السمين والحشرة، اللذان جاءا إلى قريتنا مرة منذ زمن بعيد. تحدث إلينا نديري واعتذر عن عدم الكفاءة والآمال الزائفة. وعوضنا حديثه عن رؤية وزير بلحمه ودمه. تكلم عن الـ«م.ث.ك» وماذا ستفعله للمنطقة لو استمع الناس إليه.

بدأ بمناقشة أن النائب البرلماني يقاس فقط بقدرته على إدخال التنمية إلى منطقة ما. وهو، نديري، قام بذلك حين جعل الطريق يمر بالموروغ، الآن لن يضطر الناس، شأنهم في الماضي، على السير أميالاً عديدة عبر سهول قاحلة خطرة، على عربات الحمير. إذ توجد اليوم سيارات وحافلات وشاحنات. وقد جاء الطريق بالتجارة إلى المنطقة: وترتفع مراكز التسوق على كلا جانبي الطريق. ولمنع انتشار الأحياء القصديرية والأكواخ اقترح ـ والحق أن الخطط قيد التنفيذ ـ على مجلس بلدية جيري أن يبني مركزاً تجارياً منظماً في الموروغ. وسوف تؤخذ مساحة قليلة طبعاً من السكان لهذا الغرض، لكن مجلس البلدية سيقدم تعويضاً كافياً. ونتيجة لاتصالاته مع الحكومة المركزية تقرر تطوير المنطقة كلها لتربية الماشية وزراعة القمح. كما سيقام مركز سياحي وحديقة حيوانات برية يمن الرعاة من دخولها. كما ستقدم قروض إلى الناس، رعاة أو مزارعين، لتطوير أراضيهم وتربية ماشيتهم. لكن على الناس أن يسجلوا أراضيهم أولاً، حتى يحصلوا على صكوك تملك تكون ضماناً للمصارف فيما بعد. ووعد أن يدخل التنمية إلى الموروغ. فالطريق ليس غير البداية.

يا لتبدل الزمن! لم نكن لنصدق آذاننا، ولم يستوعب أحد ما سمع استيعاباً كاملاً. لكنه نائبنا البرلماني، وقد رأينا بعيوننا طائرات المساحة تغدو وتروح: رأينا رجالاً يمشون ويسحبون السلاسل، ويحملون آلات القياس: واليوم الطريق الجديد. لم لا نصدقه إذاً؟

نبهنا إلى أن الانتخابات قادمة، وأن الرجل الحكيم والمرأة الحكيمة هما اللذان يعرفان أين يضعان صوتيهما. عليهم أن يمنحوه الفرصة كي يتم ما بدأه.

هتف الكرش السمين: «تقدموا مع نديري!»، ورددنا نحن الكلمات:

امضوا مع نديري!

اغتنوا مع نديري!

تطوروا وطيروا مع نديري!

انطلقوا على طريق جديدة مع نديري!

كانت سنة تبدلات وتقدم!

لماذا شككنا مرة بأمره؟

كنا جميعاً سعداء، إلا المرأة العجوز التي كانت غير مرتاحة من أمر معين، وقالت إنها لن تخبرنا ما هو، فهو ما يزال غير واضح. وقالت: ربما كانت كلمات مغني الطريق التي بقيت في مسمعي طويلاً... لكني أحس باضطراب قليل في معدتي، اضطراب ضئيل فقط... في معدتي!

التقدم! نعم، دخلت التنمية الموروغ. أخذت قطع من مختلف المزارع لبناء المركز التجاري. وصممت المخازن. وطلبت من الناس أن

يتقدموا بطلبات البناء إلى المجلس البلدي. وجاءت عربة سيارة - المصرف الاقتصادي الأفريقي - إلى الموروغ، وشرحت للمزارعين والرعاة كيفية الحصول على قروض. تجمهروا حول الرجل مدهوشين بحركة تفاحة آدم إلى الأعلى والأسفل، وبالصوت الممتلئ المنطلق من مكبر الصوت. تعيين الحدود. صكوك التملك. القروض. تسييج الأرض. الأسلاك الشائكة. بقرة أو بقرتان محسنتان. اذبح، أو بع، أو هجن البقية. تعاونية تسويق للمزارعين. هل سمعتم، يوماً، بتعاونية ألبان المزارعين، الناجحة في مناطق أخرى؟ المصرف الاقتصادي الأفريقي سيقوم بأشياء مماثلة هنا. القروض تسدد بفائدة بسيطة. لا دفعة واحدة كبيرة... لا... لا... سيسقط التسديد على عدة سنوات. ولن يحس مزارع جيد بالأمر. لكن هناك شرطاً واحداً فقط: يجب أن يكون التسديد منتظماً. القضية سهلة. كانت سنة أمل. مزيغو جاء إلى المنطقة. يجب أن توسع المدرسة الآن. أبنية جديدة. صفوف جديدة. مساكن جديدة للمعلمين والعاملين. ملاك أكثر دربة. حقاً، كانت سنة أمل أخرى لالموروغ، ما عدا نجوغونا، الذي تدهورت أموره. فقد عاد أبناؤه الأربعة فجأة، وطالبوا كلهم بنصيبهم من المزرعة التي تبلغ مساحتها عشرة أكرات. ماذا تراه يصنع بالأكرين الباقيين؟ استخدم الابن الأصغر صك التملك ضماناً لقرض يفتح به كشكاً في نايروبي. وعاد، فيما بعد، إلى الموروغ ليضع الرجل العجوز في كشك، ثم في مخزن. لكن نجوغونا حزن حزناً شديداً، في سنة تعيين الحدود، حين كاد أبناؤه يتشاجرون بينهم حد الضرب. الطريق. التجارة. التقدم. رأينا مالكي قطع الأرض الجدد ينقلون الحجر والسمنت. وشاهدنا الأسس تحفر، وفرحنا لأن مالكين اثنين هما من الموروغ، وانجا وعبد الله، اللذان أمنا لهما قطعة، وسوف يبنيان لهؤلاء الغرباء في الموروغ أناساً قادرين على تشييد أبنية من الحجر. أزهار لأرضنا. يعيش نديري وا ريرا. صوتنا له: انتظرنا الأزهار تتفتح.

2* تكلّما في ضوء الفانوس وظله ـ الكهرباء مقطوعة ـ ومنيرا يحاول أن يجعله يعبر سنوات الانقطاع الخمس. حدثت أمور كثيرة. كثيرة جداً. وتغيرت الموروغ ومعها كل إنسان. تغيرت تماماً.

من تراه كان يظن أنه سيعود؟ المرأة العجوز وحدها قالت أنه سيعود. وهي الغائبة التي لن تراه. أم أنها تراه الآن من برزخ العالم حيث الموتى ـ الأحياء؟

استند إلى ظهر كرسيه، وأراح يديه، على الطاولة بينهما. خمس سنين ظل منيرا يفكر. خمس سنين منذ أن مضى وخلّف وراءه لعنة. لكأنه عرف أن الموروغ سترحل، حين يرحل. إنه متجهم الوجه. أصابعه تتحرك على الطاولة في عصبية الصبر النافد. في العيون نور ونار. ومع هذا، فإن وجهه ساكن، ساكن لكنه قاس. البشرة مشدودة إلى العظام. لقد سافر كثيراً، ورأى كثيراً، وكبر... لكن ما الذي جاء به هنا؟ منيرا لا يعرف. إن له طريقة في توجيه الأسئلة بلا أي خلل في أطرافها. وله طريقة في الإصغاء كأن لكل تفصيل أهميته... وعليه أن يقارنه بتفاصيل أخرى. الطريقة التي تحدث بها منيرا كانت توحي بأن الأشياء قد حدثت في تتابع دقيق للزمان والمكان. مع أن منيرا قد خبر الأحداث والتبدلات، مشوشة، داخل نفسه، وخارجها، ولم يكن هو إلا مراقباً مضحكاً ذا عواطف مضحكة لرجل مسن، عاجز عن الفعل. فقط في التنغيتا وجد واقعه الشخصي، فأمسى قادراً على رؤية الأعقاب المحترقة لسجائر حياته، وأوهامه، ورغباته. وهكذا كان يعلم أنه يزور التاريخ، وهو يحدث هذا الجالس، هادئاً أمامه، رغم أصابعه الهائمة بحثاً عن أشياء تؤديها. ترى، كيف يستطيع أن يروي هبوطه هو، في جحيم السنوات الخمس، تحت قدمي وانجا؟

لقد أمسكت به، واستولت عليه، وأدارت رأسه، وجعلت قلبه يخفق بآلاف الآمال والآهات. كانت تنفذ انتقامها: لقد كانت دماره. تراقبه، وتشرف عليه، باردة، متنحية، لكنها تبدو، رغم ذلك، قابلة للاختراق، ترقص قريبة جداً منه، وخارج متناوله بالضبط. قد يفقد قلبه نبضة. آه للخواء الذي يتهدده! فيشرب مزيداً من التنغيتا، ويحلم بالجنة.

لقد حولت طاقتها ووقتها، بعد رحيل كاريغا، إلى عمل. استولى عليها الروح الشرير للتقطير والبيع والحساب ورسم الخطط لتوسيع تجارتها وأعمالها المشتركة مع عبد الله. في حينه، استخدمت ثلاث فتيات ـ كامبا. كيكيو. كالنجين ـ يتكلمن اللغة ذاتها، بعيونهن، وأصابعهن، وحركاتهن. كما استأجرت ـ يا للعبقرية ـ فرقة حية مؤلفة كلها من نساء ينتمين إلى قوميات كينية كثيرة، مما جذب المزيد من الزبائن. أشرفت وانجا على هذا كله: لديها المال، والقوة، والنساء والرجال يهابونها. إنهم يتحدثون عنها، ويتغنون بها... أما جمهرة الناس الذين يأتون ليأكلوا لحم الماعز المشوي، ويتمتعوا بالموسيقا المنبعثة من أصابع النساء الرقيقة، ويتلمسوا نهود الساقيات اللواتي يصرخن بألم مدروس من الاعتراض المحبب، هؤلاء يأتون أيضاً ليروا صاحبة المحل الشهيرة. لكنها ظلت سامقة، بعيدة، تفرض إرادتها، وتأمر، أما هي نفسها، فكانت عصية، ممتنعة، لا تبلغها آلاف العيون الجائعة، والأصابع المتلهفة إلى اللمس، والعروق الضاجة يوم الرغبة الحار.

عمال الطريق، قدموا لها ولعبد الله، البداية. كانت هي وعبد الله، الوحيدين من أهالي المورروغ، اللذين تقدما بطلب بناء قطعة في المورروغ الجديدة، وشرعا يبنيانها. أما الآخرون الذين أفرزوا قطعاً من

ممتلكاتهم، أو تقدموا بطلب ناجح، فقد باعوا هذه القطع إلى الغرباء الذين يستطيعون دفع قيمة البناء. البناؤون، والنجارون، والمالكون، والمقاولون... غذوا، كلهم، متاجرتها بالتنغيتا. حاول شخص أو اثنان، فتح محلات لشرب الشانغا أو الكيرورو، لكن هذه الأشربة أخفقت. لن يغلب شراب الثنغيتا. ظن منيرا أن رحيل كاريغا، سوف يعيد التفاهم السابق بينه وبين وانجا. حاول إعادة العلاقة، والتفاهم، لكنه كان يواجه، دائماً، تلكما العينين غير المرحبتين. دفعه الإخفاق إلى إعادة المحاولة... وإلى مزيد من الإخفاق. كم تبدو قريبة من عبد الله!

أحس منيرا، أنه يشبه تلميذاً متنمراً، طردته الجماعة، فصار يحوم حولها الآن، متحرقاً لا، تتقبله فيعود إليها. إنه غير مرغوب فيه، مطرود من طقسهما المشترك في جمع المال، لهذا أحس بوحشة هائلة تهبط عليه... وسكنه الماضي الذي كان يظله دوماً.

غريب. مشاهد.

أخذ يشرب المزيد من التنغيتا: أحس، وقتياً، بأنه يعلو على نفسه، مبحراً على غيوم مسرعة من الآمال الزائلة. إنه ينظر إليها من مراقيه الغائمة، فيتشهاها أكثر. انتظر إشارة، يداً، طيف ابتسامة... ترحيباً. لم يحظ بشيء. كانت لا مبالية تماماً. ازدهرت أعمالها التجارية. وارتفعت البنايات في المورووغ، أعلى، فأعلى، فأعلى. التنغيتا. زهرة اللوتس المميتة. الصديق الوحيد. الرفيق الدائم. المشكلة مع الشرب أنه كان يحس بالحاجة إلى كمية قليلة أكثر من السابق كي يعود إلى حالته الطبيعية بالأمس، وكذلك كي يمنع يديه من الارتجاف لتتمكنا من الإمساك بقرن آخر. التنغيتا. الروح. أحلام الحب المستعاد. آه لو لم يحترق موضع موائي، ولم يسوّ بالأرض!

إذاً لنذهب إلى هناك طلباً للنصيحة، أو سعياً وراء برء لأوجاع الحب.

أخذ يدرس منازل النجوم والأبراج، حتى في الصحف والمجلات القديمة الممزقة. وتتبع تنبؤات فرانس مغومبي، ويحيى حسين، وأولمولو. بل فكر في الكتابة إليهم، يسألهم أن يفتحوا لهم مكتباً في المورووغ. لم يكن ليعرف يوم ميلاده أو شهره. لكن كل قراءة بدت منطبقة عليه:

برج الجدي:

22 كانون أول ـ 20 كانون ثان:

«قد يهاجمك بسرعة، آخرون يتفردون بطريقة بارزة».

وظن أنه ولد، أو حبلت به أمه، في برج الجدي.

برج القوس

23 تشرين ثان ـ 21 كانون أول:

«بما أنك تميل إلى أن تقع في الحب راغباً، فليس عجيباً أن تعمى أحياناً عن حقيقة العديد من الأوضاع والناس: وبما أنك كالحالم في شؤون الحب، فأنت تميل إلى تهويل حبك وتجربتك الجنسية».

تأكد من أنه ولد تحت القوس.

برج الجوزاء

22 مايس ـ 21 حزيران:

اهتممت، مرة، اهتماماً عاطفياً بشخص ما، عليك أن تظل تتابع الأمر، حتى تقبل نهائياً، أو ترفض نهائياً».

الجوزاء برجه حقاً.

وهكذا، حسب مزاجه، وتبعاً له، تخيل نفسه قد ولد، أو حبلت به أمه، تحت كل نجمة: وعملياً، بدت كل نبوءة أو نصيحة، منطبقة عليه. كان يحاول، أحياناً، أن يتتبع مسارات نجمية أخرى، آملاً في أن تكون واحدة منها، في الأقل، صادقة النبوءة. لكن لم يحدث شيء. غير أن وانجا ما تزال باردة، بعيدة منهمكة في أعمالها التجارية بالموروغ القديمة، وبناياتها الحجرية التي ترتفع أعلى فأعلى، في الموروغ الجديدة.

قرر الثبات على نجمة واحدة: برج الأسد. وقرأ: «يتميز هذا الأسبوع بحركة زحل إلى منزلك الشمسي التاسع، منزل الذكاء والعاطفة. وعليك أن تسلك تحت هذين التأثيرين، سلوكاً فيه التحدي والوعد بالجنة. ابتسم على الدوام. فربما كان الحب في طريقه إليك. ظل يبتسم. انتظر. وجاءه الحب.

ليو، ليليان، نجمتي!

رآها آتية إليه، فخفق قلبه عنيفاً. أممكن هذا؟ انصت إلى قصتها الغريبة. ادعت أن أحدهم عرض أن يوصلها إلى الدوريت، لكنه تركها في الموروغ. ابتسم منيرا لها. وعرفها، فلقد سبق أن رآها. دندن اللحن الذي كان تعزفه في روا ـ ايني. ردت على ابتسامته. تحدثا. ذكرها باليوم الذي وجدها فيه، قبل سنين، تعزف ترنيمة دينية تغنيها فرقة إنشاد أوفافا جرش، في مشرب فرهاها، بروا ـ ايني. وانجا شغلتها. إنها مغرمة بغناء الترانيم الدينية، خاصة بعد كأس أو كأسين. آنذاك تغني، مبحوحة الصوت، واسعة العينين... وعنقها وعيناها، إلى الأعلى في توقع سماوي:

أقرب يا إلهي إليك.

أقرب إليّ ي ي ي ي،

حتى إن كنت خاطئة

أريدك... أقرب إليّ.

كانت لديها طريقة في توليف الكلمات والجمل. بحيث تدخل في مكانها، دون أن تبذل هي جهداً من جانبها. ومع أنها موهوبة في الصوت والكلمات، إلا أنها ترفض الانضمام إلى الفرقة في غناء ما تدعوه أغاني لا أخلاقية. وهي تنتقل فقط من ترنيمة إلى ترنيمة... لكن ترانيمها مغرية جميلة:

تعال، تعال إليّ، أيها المسيح

فانا بانتظارك.

تعال سريعاً إليّ، أيها المخلِّص،

واملأني بروحك القدس.

سيطرت، مدة، على منيرا، حتى كاد ينسى هيامه بوانجا. ليليان: كانت حالة غريبة لفتاة تصر على أنها عذراء حتى بعد أن ولجها... صرخت... وخمشت ظهره، وعضت يده، وصرخت في نشوتها وبهجتها: تعال، تعال، أيها المسيح، إليّ.

كان منيرا يأمل في أن تثير علاقته بليليان غيرة وانجا. لكنها لم تبد أي حركة. تخلى عن منازل النجوم. إن ليليان العذراء ليست بديلاً من وانجا.

عاد إلى جولاته الوحيدة عبر تلعة الموروغ، التي شطرها شطرين، الطريق العابر أفريقيا. راقب السيارات تنطلق وراء التلال: بل كان يعدها...

بعد الدوام المدرسي، كان يقصد، في الغالب، الإنشاءات

الجديدة... وتاه، فترة، بين القنوات ذات الماء القذر، وأكوام حجارة المقلع، وهدير المطارق على الصخرة، والمسامير في الألواح... وضجة البنائين. ماذا يحدث الآن لالموروغ النائمة؟ ماذا حل بأرض الأطفال الذين يغنون مهيئين السبيل إلى هدهدات النوم؟

توقف، وفرك عينيه: هذه وامبوي، أم موريوكي، تدفع عربة مليئة بالصخر. لقد أدى تعيين حدود الأرض وتسييجها إلى حرمان فلاحين ورعاة عديدين من حقوقهم المكتسبة منذ زمن طويل في استعمال هذه الأراضي وزراعتها. إنهم يقدمون أنفسهم الآن لكل من يحتاج قوة عملهم، مقابل أجر. وامبوي، عاملة! لقد انضمت الآن إلى الآخرين الذين دفعوا إلى سوق الموروغ للعرق والكدح. أسرع في مشيته، ولم يتوقف إلا عند بناية وانجا وعبد الله. هذه البناية ستكون، عن قريب، مركز التنغيتا الجديد. كان يفتش في ذهنه عن وسائل وسبل تقرّبه إليها حين واتته الفكرة. سرعان ما يفتح المحل. وسوف تفتح أيضاً مشارب أخرى. ليساعدنها، إذن، في زيادة مبيعاتها من التنغيتا. وليجتذبن إليها زبائن كثيرين!

أحب منيرا الإعلانات دائماً. لكنه شرع الآن يقرأها بإنعام، فهو أمام مهمة. درس الإعلانات، الكلمات، الجمل، والفرق بين التأثير المقصود والتأثير الفعلي في القراء والسامعين. وجمع بعضاً منها:

ضع نمراً في خزانك. الشعر السليم يعني الشعر الجميل. كل وقت هو للشاي وقت. كوني بلاتينية شقراء. كوني حمراء الشعر. كوني جديدة بالشعر البشري المستورد المشغول باليد 100%. انضم إلى الأفارقة الجدد: انضم إلى أناس آمبي. الجميلات لم يولدن بعد؟ أنت تتندر. إنهن أمامك كل يوم بالشعر المستعار الحريري الجميل: بإمكان الرجل أن يضيع فيه. جرّب أن يؤلف بعض الإعلانات. قد يستطيع

بيعها إلى كل من يريد أن يبدأ عملاً تجارياً في الموروغ. منيرا: بائع الإعلانات الجميلة والشعارات. أتريد دخول البرلمان؟ اشتر شعاراً! كن ناجحاً! اشتر شعاراً! أما لوانجا فسوف يبدع إعلاناً خاصاً. مجاناً. إعلاناً يزيد شعبية التنغيتا، بحيث تكون شهيرة باسم «ملكة التنغيتا». آنذاك ستهتم به... هو باني شهرتها الجديدة:

اشرب التنغيتا، زد قوتك الجنسية: اشرب التنغيتا. أناس جميلون، أفكار جميلة، حب جميل: اشرب التنغيتا. ادخل في عصر الفضاء: اشرب التنغيتا: في طريقك إلى القمر مع آرمسترونغ: اشرب التنغيتا. ثلاث ثاءات:

Theng'a Theng'a with Theng'eta

إنه مستعد الآن. جرّب الإعلان الأخير مع حفنة زبائن، إذ وقف فجأة في وسطهم، أثناء هدأة للموسيقا من الفرقة، وهتف: اشرب مشروب الحروف الثلاثة وزد قوتك الجنسية:

Theng'a Theng'a with Theng'eta

هتف ثانية، ورفع كأساً إلى شفتيه. نظروا إليه جميعاً، وظنوه سكران. ضحكوا وعادوا يشربون. نظرت وانجا إليه وهزت كتفيها غير مبالية. لكن الشعار ظل مستعملاً ـ كفكاهة! تلك الليلة، اصطحب ليليان إلى منزله، وحين تظاهرت بأنها عذراء تضاجع ضد إرادتها، ضربها. هكذا افترقا، وغادرت ليليان الموروغ. كان وحيداً. الثنغيتا.

سوف يظل يتذكر تلك السنة، بداية لثلاث سنوات من العبودية المخزية للشهوة، وكأن اكتمال بناء المركز التجاري لالموروغ الجديدة، وافتتاحه، شهدا في الوقت ذاته، التعرية الكاملة لمنيرا، معلم أطالهم المحترم سابقاً. وكان يلاحظ ذلك: لقد رأى التدهور:

مشاهداً، غريباً، وكان عاجزاً عن التوقف. أم تـراه كـان يعاقـب نفـسه بسبب إخفاق آخر؟

* * *

إنه لا يستطيع أن يقول هـذا... بينمـا هـو ذو دور في تـسبيبه. لكـن عيني كاريغا مصرتان، وكأن كيانه كله ينتظـر جـواب الـسؤال الـضخم الذي لم يسأله بعد. هذا اللقاء يشبه تماماً لقاءهما الأول. آنـذاك أقـسم منيرا أن الطرق المعبدة لن تمد إلا إذا نبتت القرون على الـضباع. كـان يود لو ابتلع الكلمات. فالظروف المتغيرة الـتي التقيـا فيهـا كانـت مـن نتائج الطريق المعبد، الطريق عابر أفريقيا. حتى المدرسة تغيرت: فهي الآن مشيدة بالحجر: صفوفها كاملة، ومعلموها كـاملون، ولهـا مـدير جديد... ومزيغـو يزورهـا بانتظـام، ليفـتش المدرسـة، وليتـابع أكثـر مخزنه في الموروغ الجديدة. كان لمزيغو، ونديري وا ريـرا، والمـوقر جيرود، كلهم، أبنية مخازن في الموروغ.

وسأل كاريغا: «ماذا حل بجوزيف؟».

«نجح بتفوق. دخل سيريانا!».

«سيريانا!».

«نعم. سيريانا».

دقيقة صمت أعقبت أنباء منيرا. إذ تذكرا كلاهما مـاذا كانـت تعنيـه سيريانا لهما... أيام زمان. ونظر منيرا، وهو مـا يـزال قلقـاً إلى كاريغـا الذي كان يحدق في الموضع نفسه، وقد تركز الضوء في عينيه، ويداه ما تزالان تتحركان، لكن وجهه يأبى الابتـسام. لم يـدر منيرا إن كـان كاريغا، قد فرح أم لا، بنجاح جوزيف. وبـدا لـه أن مـشكلات معينـة

ترهقه... وقد مرت خمس سنوات على مغادرته الموروغ. واستفسر كاريغا كمَن يواصل حواراً مع نفسه: «وماذا حل بالمرأة العجوز؟».

ارتاح منيرا ارتياحاً واضحاً لأن السؤال الضخم لم يأت. لكن حتى هذا يصعب جوابه، لأن كل شيء حدث سريعاً جداً، مشوشاً في حلم سكران. نياكينيوا. المرأة العجوز. حتى منيرا لا يرغب في أن يتذكر، وأن يفكر بمصيرها. ماذا باستطاعته أن يقول الآن عن نياكينيوا، وعن نفسه، دون أن يبكي ثانية؟

استرجع، دون أن يخبره، أنه ظل يبحث عن شعار، عن إعلان ينال به رضا وانجا ـ حتى لليلة واحدة. إنه ليتفحص الصحف، لا من أجل القراءة، لا من أجل الأخبار، وإنما لتتبع الإعلانات. قرأ، بالطبع، عن المحامي وخطبه الراعدة في البرلمان، وكيف أنه دعا إلى حد أعلى لملكية الأرض، وإصلاحات أخرى. لكن هذا حدث فقط بسبب ذكريات متصلة باسمه. اهتمامه الرئيس الإعلانات ـ يجب أن يتوصل إلى الشعارات... ليهزم كل الشعارات... يجب أن يتوصل إلى الشعارات التي سوف تشتري وانجا أخيراً.

سيظل يتذكر ذلك المساء الذي قرأ فيه عن نياكينيوا ـ بألم... كان سكران... لكن التنغيتا تبخر حين قرأ الخبر فجأة. ارتجفت يداه والصحيفة. صحا، ونظر إلى الإعلان. غير ممكن. غير ممكن إطلاقاً.

كانووا كانيني وشركاه

متمنون، وماسحو أراض، وبائعون بالمزاد العلني

وكلاء أراض وإدارة

بتعليمات وجهها إليها

المحامون ولسون. شاه. موراجي وأومولو

نيابة عن موكلهم، المصرف الاقتصادي الأفريقي

سوف نبيع بالمزاد العلني، كل قطعة الأرض

الواقعة في المورزوغ الجديدة.... ملك السيدة نياكينيوا...

لم تكن وحدها. إن جميع فلاحي الموروغ القديمة ورعاتها الذين تم إغراؤهم بالقروض، وسيجوا أراضيهم، واشتروا أسمدة مستوردة، ثم عجزوا عن التسديد، واجهوا وضعاً مماثلاً. دون جهد كثير، بلا مكائن، بلا تخل عن العادات والنظرة القديمة، وبلا إسداء النصح... كانوا عاجزين عن أن يجعلوا الأرض تغل ما يكفي لإطعامهم وتسديد قروضهم. بعضهم استعمل المال لدفع الأجور المدرسية. واليوم يطردهم القانون الرهيب لقوة المعدن، من أراضيهم.

طوى منيرا الصحيفة، ومضى إلى محل وانجا ليعلن الأنباء. تأثر لها ولنياكينيوا. لم يتوقع شكراً. فقد أراد أن يبلغها الخبر، وأن يعرف عنه المزيد. لم تكن في مشرب الثنغيتا. أخبره عبد الله بأنها ذهبت إلى كوخ نياكينيوا. سار منيرا إلى هناك ووجد أناساً آخرين. لا بد أن أخبار التهديد بالبيع قد بلغتهم أيضاً. جاؤوا يتأسون معها، ومع الآخرين ذوي الوضع ذاته، ويبكون سوياً. كانوا ذاهلين: كيف يبيع مصرف أرضهم؟ المصرف ليس حكومة: فمن أين قوته، إذاً؟ وربما كانت الحكومة، حكومة خفية... قال أحدهم.

التفتوا إلى منيرا. لكنه لم يتمكن من الإجابة عن أسئلتهم. تحدث فقط عن ورقة وقعوها كلهم. وسندات التملك ذات الخطوط

الحمراء، وعن ورقة أخرى سلموها إلى المصرف. لكنه عجز عن أن يجيب ويهدئ الشك المرير في أصواتهم ونظراتهم. أي وحش هذا المصرف بحيث أنه قوة بذاته... قادر على اقتلاع حيوات آلاف السنين؟

عاد، وحاول أن يشرب الثنغيتا، لكنه لم يكن ذا مذاق. تذكر أنه رأى وامبوي، مؤخراً، تدفع عربة الأحجار لتكسب خبز يومها، وتساءل عما سيحدث للمرأة العجوز، فهي أكبر سناً من أن تبيع عملها وعرقها في السوق.

كرر منيرا سؤال كاريغا «المرأة العجوز؟ نياكينيوا؟».

وأضاف مسرعاً، وبلهجة عدائية تقريباً، مستيقظاً من ذكرياته: «ماتت! إنها ميتة!».

بدا التأثر على وجه كاريغا.

حاولت نياكينيوا، المرأة العجوز، أن تقاوم. وطافت على فلاحي الموروغ، من كوخ إلى كوخ، تدعوهم إلى أن يضموا صفوفهم، ويخوضوا المعركة. نظروا إليها، وهزوا رؤوسهم: من ترانا نقاتل الآن؟ الحكومة؟ المصارف؟ الـ«م.ث.ك»؟ الحزب؟ نديري؟ حقاً... من يحاربون اليوم؟ لكنها حاولت إقناعهم بأن هؤلاء جميعاً شخص واحد... وأن عليهم محاربتهم. لن يسكن الغرباء أرضها. كان ثمت شيء جليل، مليء بالتحدي، في عمل المرأة ـ كانت تحاول، وهي في حالتها الصحية المتدهورة، أن تنظم مستلبي الموروغ، في عملية احتجاج. لكن برزت اختلافات في الممارسة. فهؤلاء الذين لم تؤخذ أراضيهم بعد، بدوا بعيدين عن الأمر، غير عابئين. بل لقد أبدى أكثر من واحد ملاحظة من امرأة عجوز مختلة العقل. أما الآخرون

الذين لم يجدوا معنى في السير إلى روا - ايني أو المدينة الكبيرة فقد هدأوا من حماستها، وأخبروها أنها لا تستطيع أن تقطع كل تلك المسافة. لكنها قالت: «سوف أذهب وحدي... حارب زوجي الرجل الأبيض. ودفع دمه ثمناً... وسأكافح هؤلاء الظالمين السود... وحدي... وحدي...».

وتساءل منيرا... ماذا سيحل بها.

لم يكن بحاجة إلى القلق عليها.

نياكينيوا ماتت بسلام، وهي نائمة، بعد أيام من نبأ تهديد المصرف.

وسَرت شائعة تقول بأنها حدثت نياكينيوا عن رحلتها الطويلة: قالت إنها لا تستطيع حتى التفكير بأن تدفن في أرض غير أرضها: فماذا سيقول عنها زوجها حين تلقاه في العالم الآخر؟ انتظر الناس أن يجيء المصرف ويبيع أرضها. لكن وانجا، في يوم المزايدة، دفعت ثمن الأرض، وغدت بطلة الموروغ الجديدة والقديمة.

عرف منيرا الأمر فيما بعد.

آنذاك، كان عبد الله وحده، يعرف حقاً الثمن: عرضت عليه وانجا أن تبيعه كل حقوقها في المبنى الجديد الذي يملكانه شراكة. لم يكن لديه المال اللازم. وكان هو الذي اقترح عليها أن يبيعا المبنى كله إلى شخص ثالث، ويقتسما الثمن بينهما.

هكذا عادت وانجا إلى بداياتها.

وكان مزيغو هو المالك الجديد للمبنى التجاري في الموروغ.

3* لم تعد وانجا مثلما كانت... بعد خسارتها الأخيرة. بقيت مدة، مالكة مشرب التنغيتا القديم. فقد ظل مكانها مركز اللحم المشوي، وما تزال خطى الراقصين والراقصات تثير الغبار: حتى السقف، خاصة حين يرقص الناس على ألحانهم المفضلة:

كم أنت جميلة، يا حبيبتي!

كم رائعة عيناك، يا عسلي!

أي شيء جميل أنت

متمددة هنا

تظللك شجرة الأرز!

لكن... آه يا حبيبتي

أي سم تحملين بين ساقيك!

لكن قلب وانجا لم يكن مع المحل. فشرعت تشيد بنغلاً خشبياً ضخماً في الطرف الأدنى من حقلها، على مبعدة مسافة ما من بلدة الأكواخ التي كانت تنمو حول محل عبد الله، والمأوى، ومركز اللحم المشوي... نمواً طبيعياً يكمل الموروغ الجديدة. قال الناس... حسن أن تستثمر في البناء، المال المتبقي لديها بد استردادها حقل جدتها: لكن لأي غرض هذا البناء؟ فهي تمتلك، بالفعل، كوخاً داخل الحقل، بعيداً عن الضجيج والعيون المتسائلة في الموروغ الجديدة، ومسيجاً بسياج طبيعي ثخين. استمرت في عملها دون أ، تضع شخصاً موضع ثقتها. ولكن كان واضحاً أن البنغل قد شيد كمسكن ذي غرف عديدة واسعة. انتقلت إلى البنغل، فيما بعد، وزرعت بساتين ورد حولها، وأوصلت النور الكهربائي. كان جميلاً: وقال الناس إنه جهد

شجاع بعيد خسارتها المزدوجة. في إحدى الليالي، عزفت الفرقة أغنية كانت قد ألفتها يوم وصولها. وأثناء العزف، كان اللحن والنص يمسيان أجمل فأجمل، وصفق الحضور وصف روا وهتفوا مشجعين. أضافت الفرقة، جديداً، إلى الأغنية، وكأن الأصوات مسكِنة بشيطان خبيث ماكر:

فتاة الحقل هذه

كانت حبيبتي

قالت إنها تحب مرآي.

كسرت خزائن مصرف من أجلها.

ودخلت السجن من أجلها.

لكني حين خرجت

وجدتها سيدة

عند رجل كبير الكرش... كبير السن

وقالت لي

فتاة الحقل هذه قالت لي:

لا!

انقلاب!

توقفوا، وسط التصفيق الهادر، ودق الأقدام على الأرضية. فجأة، وقفت وانجا، وطلبت منهم أن يعزفوها ثانية. شرعت ترقص على ألحانها، وحدها، في الساحة. دهش الناس. وراقبوا حركات جسدها ناطقة بالسرور والألم، والذكريات والآمال، والخسران والربح،

والحنين والرغبة غير المتحققين. أما الفرقة، فقد استجابت للقلوب الخافقة، وعزفت بتركيز حزين يدفع إلى الجنون، كأنها تريد بلوغ وحدتها، وصراعها المنفرد. رقصت بطيئة، عامدة، باتجاه منيرا، وكان يتذكر يوم رآها ترقص على أنغام صندوق الموسيقا في مشرب سافاري بكيميريثو. توقفت فجأة، مثلما بدأت. سارت إلى خشبة المسرح حيث الفرقة. صمت «البيت». وعرف الزبائن أن أمراً كبيراً وشيك الوقوع.

«أنا آسفة، أيها الزبائن الأعزاء، إذ أعلن نهاية بار المورروغ القديم، ومراكز اللحم المشوي، ونهاية فرقة «سن شاين» لبار المورروغ. فقد قال مجلس بلدية جيري، إن علينا إغلاق المحلات».

لم تتمكن من أن تقول أكثر. وشاهدوها الآن تسير عبر الساحة المرتبة... إلى حيث يجلس منيرا. توقفت. واستدارت، صارخة بالفرقة «اعزفوا! اعزفوا! اعزفوا!. الكل يرقص ـ يرقص ص ص ص!»، وجلست بجانب منيرا. «ألا تود، يا منيرا، المجيء لرؤية بيتي الجديد، ليلة الغد؟».

لم يتمالك منيرا نفسه إلا بصعوبة. هكذا، أخيراً. هكذا انتهت، إذاً، سنوات الانتظار. تماماً، مثل الأيام السالفة، قبل كاريغا والطرق والتبدلات التي أفسدت دعة الحياة في المورروغ، حين كان معلماً.

* * *

في اليوم التالي لم يستطع أن يدرّس، ولا أن يتكلم. وكان صعباً عليه أن يجلس أو يقف، ساكناً، في مكان واحد. وحين حل الوقت، سار إلى بيتها، مرتعش اليدين، خافق القلب. لم يدخل البيت من قبل، وأحس بالتشريف لأنها اختارته من بين الوجوه الأخرى.

طرق الباب. كانت في الداخل. وقفت في منتصف الحجرة المضاءة بالأزرق. وظن لحظة، أنه دخل بيتاً آخر، والتقى امرأة أخرى.

كانت ترتدي ثوباً قصيراً جداً يكشف عن كل شيء أو يكاد، وشعرت برجولته تنتصب تلقائياً. على شفتيها طلاء أحمر ثخين. وحاجباها مخططان بالقلم ومصبوغان بأزرق براق. على رأسها شعر أحمر مستعار. وتساءل عن معنى هذا كله. وفكر بواحد من الإعلانات الكثيرة التي جمعها. كوني شقراء بلاتينية الشعر. كوني جديدة تماماً بالشعر البشري المستورد المشغول باليد 100%.

إن وانجا جديدة، فعلاً.

قالت في صوت ذي غنة إغراء زائفة: «كأنك مندهش، يا معلم، ظننتك اشتهيتني دائماً». ثم أضافت وقد تغير صوتها قليلاً، وصار أكثر طبيعية: «ألهذا أبعدته؟ أليس كذلك؟ الآن انظر... لقد سلبوني حتى حقي، حسناً، حتى حقنا في التقطير. قال المجلس البلدي إن إجازتنا قد بيعت مع المبنى الجديد. كما قالوا أيضاً إن محلاتنا الحاضرة لا تتوفر فيها الشروط الصحية! سيكون هناك مركز سياحي، وقد تجتذب هذه المحلات الزوار، بعيداً عنه. أتعرف من هو مالك معامل تقطير التنغيتا التي كانت لنا؟ أتعرف من هو مالك مركز أوتومادوني بالموروغ الجديدة؟ لا تهتم!»... غيرت صوتها ثانية: «لكن... تعال... ما الذي تنتظر؟»، مشت إلى الخلف، تبعها. دخلا غرفة أخرى ـ ذات سرير مزدوج وضوء أحمر. تسمر في مكانه. كان يلوم نفسه لبقائه معقود اللسان، وفي الوقت نفسه كان مدفوعاً نحوها بجسده وخفقات قلبه. ومع هذا، كان يحس في أعماقه، بالعار والاشمئزاز من عجزه. نزعت عنها كل شيء، قطعة بعد قطعة، ثم قفزت إلى السرير. تغنجت من تحت الملاءات: «تعال، تعال يا حبيبي!».

كان يوشك أن يقفز إلى السرير، لصقها، ويضمها إليه، حين غدت، بغتة، باردة جامدة، ذات صوت مليء بالتهديد. «لا يا معلم. لا شيء بالمجان في كينيا. مائة شلن على الطاولة، إن كنت تريد معاملة من الدرجة الأولى».

ظنها تتندر، وحين كاد يلمسها، أضافت ببرود أشد: «هذه كينيا الجديدة. إن أردتها فادفع لها، ادفع للسرير والضوء ووقتي والشراب الذي سأقدمه لك فيما بعد، ولفطور الصباح غداً. كل هذا بمائة شلن. هذا لك، لأنك صديق قديم. أما الآخرون فلهم سعر أغلى...

أذهلته المفاجأة، وشعر بطعنة هذا الإزلال غير المتوقع. لكنه عاجز عن التراجع الآن. فقد ناداه فخذاه.

أخرج مائة شلن وسلمها إياها. راقبها تعدها وتضعها تحت البساط. استولى عليه الفزع الآن. انكمش عوه. وقف هنا: وحاول أن يركز ذهنه على وانجا الأولى، على التي صرخت مرة تحت أشعة القمر المتسللة إلى الكوخ. راقبته، باردة، مهددة، ثم تكلمت فجأة بصوت مصطنع الإغراء.

«تعال يا حبيبي، سأدفئك. أنت الليلة ضيف مسكن شعاع الشمس».

ثمت شيء مؤثر، حزين، مؤلم في النبرة. لكن عضو منيرا أطاع صوتها. نزع ملابسه ببطء، وانضم إليها في الفراش. حتى بعد أن أطفأ النار والظمأ والجوع في جسده، ظل التوتر المحزن في صوتها، معلقاً في الهواء، في داخله، وفي كل مكان من الحجرة.

إنها كينيا الجديدة. الموروغ الجديدة. لا شيء بالمجان. لكنه لن ينسى لوقت طويل، لسنوات آتية، صدمة هذه الساعة ومذلتها.

لكنها تلك المرة الأولى، قبل زمن طويل، أيام كان صبياً حسب.

4* لقد حلت بالموروغ، حقاً، تغيرات. تغيرات اكتسحت الوضع القديم، وأدخلت حياتنا في عهد جديد. ولم يستطع أن يقول، بالفعل، كيف حدث الأمر. وبعد عام أو نحوه من اكتمال المركز التجاري لالموروغ الجديدة، انتشرت حقول القمح وتربية الماشية في سائر السهول: والرعاة ماتوا، أو أبعدوا إلى المناطق الأكثر جفافاً، لكن قلة منهم أصبحوا يعملون في حقول القمح وتربية الماشية المقامة في الأرض التي كانوا يرودونها أحراراً طلقاء. أما المالكون الجدد، السادة ـ الخدم للقوة المصرفية، والمال والمكر، فكانوا يأتون أيام العطلة الأسبوعية في سيارات لاندروفر أو رينج روفر، حسب الموضة الأخيرة، ويدورون حول المزارع التي فوضوا مدراء مأجورين لتسييرها. فلاحو الموروغ تغيروا أيضاً. وبعضهم سلم من الاكتساح، وظل قادراً على استخدام شخص أو شخصين في مزرعته الصغيرة. أما أغلبيتهم فقد التحقت بجيش العمال الذي أضيف إلى سكان الموروغ الجديدة المتزايدين. لكن أي الموروغ جديدة؟ ثمت الموروغات عديدة. الأولى هي الحي السكني لمدراء المزارع، وموظفي المجلس البلدي، والموظفين العموميين، ومدراس باركليز وستاندارد والمصرف الاقتصادي الأفريقي، وغيرهم من خدم الدولة والسلطة المالية. هذه المنطقة تسمى «كيب تاون». والثانية ـ واسمها أورشليم الجديدة. كانت بلدة أكواخ يسكنها العمال المهاجرون والمؤقتون، والعاطلون، والعاهرات، وصغار المتاجرين بالصفيح والأنقاض المعدنية. وبين أورشليم الجديدة وكيب تاون، غير بعيد عن الموضع الذي عاش فيه مواثي، يوماً، يحرس أسرار الأعمال المعدنية والطب الشعبي، كانت «كنيسة كل القديسين»، التي يسيِّرها الآن الموقر جيرود براون. بين المنطقتين أيضاً يقع «مسكن شعاع الشمس» لوانجا، الشهير شهرة الكنيسة. أما حي التجارة والأعمال

فتقع خارجه بالضبط قرية سياحية (أوتامادوني» يملكها نديري وا ريرا مع شركة ألمانية غربية تدعى «شركة الموروغ الأفريقية الماسية للرحلات الثقافية والتعليمية».

كثير من السواح يأتون لمشاهدة مهرجان ثقافي. هيبيون قلائل يأتون أيضاً بحثاً عن نبتة التنغيتا التي يقولون إن أوراقها الجافة لها نفس مفعول الحشيشة. وهناك معالم تقطير التنغيتا التي يملكها مزيغو، والتي توسعت الآن بحيث غدت مصنعاً ضخماً يستخدم ستمائة عامل مع عدد من الباحثين العلميين والمهندسين الكيماويين. كما يمتلك المصنع مزرعة في السهول، حيث تجري التجارب على أنواع مختلفة، من نبتة الثنغيتا، والقمح. وتقطر أصناف متعددة من شراب الثنغيتا: من الجن الخالص المخصص للتصدير، إلى الأشربة الرخيصة القوية المخصصة للعمال والعاطلين. ويعبأ بعض هذه الأشربة في عبوات بلاستيكية مختلفة، تتراوح أسعارها بين شلن واحد، وشلنين، وخمسة شلنات، بحيث يمكن أن توضع هذه العبوات السامة في جيوب الناس. وأكثر هذه العبوات، سواء كانت زجاجية أو بلاستيكية، تحمل الإعلان الشهير الذي انتشر الآن في مختلف أرجاء البلاد، بوساطة سيارات التوزيع، والصحف، والإعلانات اليدوية.

معامل التقطير هذه، تمتلكها الشركة الأنجلو ـ أمريكية العالمية، لكن فيها، بالطبع، مدراء أفارقة، وحتى مساهمين. ثلاثة من بين الشخصيات المحلية الأربعة كانوا مزيغو، جوي، كيميريا.

تعيش الموروغ الجديدة!

تعيش شراكة التجارة والتقدم!

5* سأل كاريغا مقاطعاً سجل الأحداث الذي يرويه منيرا:

«ماذا... ماذا حدث لعبد الله... ووانجا؟».

أخيراً، أخيراً جاء السؤال الذي أرهبه. ألهذا عاد من منفى السنوات الخمس وصمتها؟ أممكن أنه ما يزال يحتفظ بشرارة ذكرى من الأيام الماضية؟ بذكرى لها؟

«إنها أقوى امرأة في الموروغ كلها. تمتلك بيوتاً تمتد من هنا إلى نايروبي. وأسطولاً من سيارات الأجرة، وآخر من الشاحنات الكبيرة. إنها كذلك الطير الذي يولد من رماده... باستمرار».

وفجأة تذكر منيرا صدمته، وإهانته حين اعتبرته خنزير تجارب. عاودته المرارة. لم يجنبه الصدمة إذاً؟

«أتريد... أتريد أن تراها؟».

«الآن؟».

«نعم. الآن».

«أليس الوقت متأخراً؟».

«حسناً... ليس متأخراً... بالنسبة لها... لكننا نستطيع أن نتصل بها هاتفياً إن أردت».

سارا في الشوارع المضاءة بالنيون. كل شيء كان أليفاً لدى كاريغا بطريقة عجيبة: فلقد شاهد مدناً مشابهة في كل أرجاء كينيا. وعلى أية حال، فإن مدناً مثل نايروبي، ثيكا، كيسومو ناكورو، مومباسا، ليست إلا نسخاً أكبر وأقدم عهداً من الموروغ الجديدة. لكن الاثنين كليهما كانا يتذكران زيارة قديمة إلى كوخ وانجا: كم يبدو الأمر بعيداً... الآن!

كان منيرا يقطع الصمت بين حين وآخر، ليخبره بمن يملك هـذا أو ذاك، وكأن كل شخصية هامة في البلاد تملك قطعة من الموروغ: مـن المصنع الكبير إلى الأكواخ السكنية. كان مـنيرا يقـول: «نعـم... حـتى بيوت العمال المتداعية هـذه... سـوف تـدهش حـين تعـرف مـن هـم مالكوها الذين يجيئون لجمع الإيجارات... لم يبق حياء... إنهم يـأتون بسياراتهم المرسيدس... ومعروف عنهم أنهم يغلقون المعامل ليرضـى هؤلاء المساكين بشروطهم. بين حين وآخر يقوم مجلس المدينة بحملة إحراق وهدم... لكن الغريب أن الأكواخ التي بناهـا العـاطلون وفقـراء الريف المهاجرون هي التي تحرق وتهـدم. وهـل تـرى هـذه الأكـشاك على امتداد الطريق؟ في العام الماضي حدثت فضيحة كـبرى حولهـا، بعض مستشاري المجلس موظفيه اقتسموها بينهم، مجاناً، ثم باعوهـا بمبلغ يزيد على خمسين ألـف شـلن إلى أشـخاص أجروهـا بـدورهم للنساء اللواتي يمارسن أعمالاً تجارية بسيطة. والآن لآخـذك في جولـة بأورشليمنا الجديدة».

كان مثل دليل سياحي، ويبدو مستمتعاً بدوره. كاريغا يـسير صـامتاً إلى جانبه، يقلب التعليقات في فكره. هذه الحكاية التي أنصت إليهـا، والمتمثلة بقسوة فيما رأى بعينيه، تتضمن موضوعاً مألوفـاً، موضـوعاً عاماً تشترك فيه كل الأماكن التي رآها، على امتداد الجمهورية. توقف منيرا، عامداً، عند بيـت، يـشبه ثكنـة، ذي جـدران طينيـة، وغـرف عديدة منفصلة عن بعضها. وأعلن:

«هذا... هذا مكـان عبـد الله... إنـه كمـا تـرى في وسـط أورشـليم الجديـدة تمامـاً. أتريـد أن تـسلم عليـه قبـل أن نواصـل طريقنـا إلى وانجا؟».

قال كاريغا: «نعم».

طرق منيرا الباب، منادياً بصوت عال، فأجابه عبد الله من الداخل بصوت سكران. سمعا الأغلاق تصر. أشرع عبد الله الباب، لكنه بدلاً من الترحيب بهما، أخذ يتذمر من «الناس الذين يظلون يوقظون المواطنين المسالمين ويزعجونهم». ثم تبين منيرا.

«أوه... أنت إذاً... يا صديقي... ادخل... ادخل... لديّ أكياس قليلة ذات خمسة شلنات من الثنغيتا.. ثنغيتا... ثنغيتا... ها! ها! ها! ادخل».

جلس على السرير، وأشار على منيرا، أن يأخذ الكرسي المنطوي، الكرسي الوحيد في المكان.

وقال عبد الله: «ولا تسقط الفانوس». ثم لاحظ أن منيرا لم يكن وحده.

«أوه... أوه... وأتيت بزائر! ليأخذ هو الكرسي. وأنت يا منيرا... يا صديقي... تعال واجلس على السرير. وانتبه إلى أن السيور المطاطية هي النوابض. وأنت تعرف أنني جلست عليه يوماً جلسة ثقيلة، فتقطعت السيور، فنطَّت حقاً إلى الأعلى، ثم سقطت على الأرض. ومن هو زائرك؟ هل يشرب أيضاً الثنغيتا؟ أشرب شراب الحروف الثلاثة.

سأله منيرا بعد أن جلسوا جميعاً: «ألم تعرفه؟».

«من؟ هذا الصامت؟».

«كاريغا...».

«كاريغا...».

«نعم».

«كاريغا! كاريغا، أخو نـدنغ ـ أوري... لكـن كيـف... لقـد كـبرت حقيقة. غدوت كـبيراً مثلـي.. فقـط تحتـاج إلى خـصلات مـن الـشعر الأبيض. لكن من أي زاوية في العالم وثبت؟».

شرح كاريغا الأمر باختصار. ولم يكن عبـد الله يتابعـه. لقـد تغـير: عيناه واسعتان متعبتان غائرتان. حـاولوا الخـوض في هـذه المـسألة أو تلك.. عبثاً.

أجاب عبد الله: «مع هذا، مرحباً بكما في ركن العزوبيـة هـذا. إنـه مختلف عن مكاني القديم! كانت تلك المورروغ القديمة. جعلونا نهـدم البيت. والآن انظر إلى المكان الذي جاؤوا بنا إليه».

وسأله كاريغا: «بيت من هذا؟».

«هذا، وبيوت أخرى تملكها شخصية هامة جداً في السلطة».

استفسر كاريغا: «أتعنيه هو؟ هذا؟».

«نعم. يأخذ مائة شلن شهرياً عن هذه الغرفة. هكذا يأخـذ مـن هـذا المبنى ألف شلن شـهرياً. وهـو يملـك عـشرة مبـان. عـشرة آلاف في الشهر. فقط لأنه وضع أعمدة قليلة، وسد ما بينها بـالطين. إنـه يجـيء في سيارة لاندروفر، يوقفها إلى جانب الطريق. ويرسل سائقه الحارس ليجمع الإيجارات».

«إنه يجيء... يكسب أكثر من ستين ألف شلن يومياً من نقل الـسكر والمعدات إلى مصانع سكر مـاكميلان. وكـل هـذا زيـادة علـى مرتبـه الحكومي الرسمي!».

«حسناً. ستون ألفاً، زائد، عشرة آلاف. سبعون ألف شلن».

وأضاف منيرا: «قد يمتلك، على هذه الطريقة، أكواخـاً أخـرى في

مدن أخرى. في بلادنا كينيا تستطيع أن تكسب من أي شيء. حتى الخوف. خذ الشركة البريطانية التي تدير حراس الأمن في هذه البلاد. عليهم أن يؤسسوا وزارة للخوف».

وقال عبد الله: «وزارة لإدارة الأكواخ وإدامة مستوى الأكواخ... أفضل»، ثم أضاف ملتفتاً إلى كاريغا:

«تركتني صاحب دكان. ما زلت ـ صاحب دكان في الهواء الطلق. أبيع البرتقال جنب الطريق».

قال كاريغا فجأة كأنه يحاول أن يكون الحديث أكثر بهجة: كان تلميذاً ذكياً. آمل ألا يسلك الطريق التي سلكناها أنا ومنيرا».

قال عبد الله: «كل الطرق تؤدي إلى طريق واحد... بالنسبة لنا، نحن الفقراء. أوه. نسيت أن أقدم لكم ما تشربون. الثنغيتا. عندي كيس أو كيسان».

مال على الفراش، والتقط كيس تنغيتا: «هل ذقته يوماً، يا كاريغا؟».

«نعم، في مومباسا مرة. استغربت حين وجدته يباع. لكن ليس له ذلك المذاق. وبقيت أتساءل... كيف استعمل استعمالاً تجارياً».

«إذن، شربة ثانية. لقد صنعني... حسناً... صنعنا... لكنه دمرنا».

«أظن هذه الأشربة تصنع، كي تبقي الناس سكارى، مخدري العقول، لئلا يسألوا أسئلة أو يفعلوا شيئاً بصدد بؤسهم»... قال كاريغا بصوت عال، وهو يستعيد كل الأماكن التي رآها، وكل الأشربة القوية التي تقطر فيها: الشانغا. الكانغاري. و«اقتلني سريعاً»، والشيبوكو... وهذا الأخير يتعهده مدير أفريقي لشركة لندن روديسيا.

واستمر عبد الله في مسار أفكاره: «مثلما قلت، كل الطرق تؤدي إلى طريق واحد بالنسبة للفقراء. طريق ذو ممر واحد: إلى مزيد من الفقر والتعاسة. الفقر خطيئة. لكن تصوّر. الفقراء هم الذين يتحملون مسؤولية هذه الخطيئة التي هي الفقر، وهكذا يعاقبون على هذه الخطيئة، فيرسلون إلى الجحيم. لتذهب الجحيم إلى الجحيم. ها! ها! جوزيف كان نقطة ضوئي الوحيدة في هذا الجحيم.لذا، أظن أن ثمت أملاً. وأقول لكم إنه ليس أخي حقاً». صمت عبد الله فجأة، ففزوا جميعاً من جلستهم.

كاريغا: «ليس أخاك؟».

واستفسر منيرا في الوقت نفسه «ماذا تعني؟».

تساءل عبد الله: «نعم. ليس أخي. إنه أقرب إلى ابن لي. لكنه ليس ابني. وماذا يهم؟»... اعترى وجهه تغير كامل... إنه الآن أكثر استبطاناً. ولم يتبق في صوته حمق أو مرارة. وأنصتوا إلى عبد الله آخر، يولد أمام عيونهم:

«قبل أن تغادر الموروغ، حدثتك عن خروجي من معسكر الاعتقال. حسناً... لم أخبرك بكل شيء. كان لأبي دكان في سوق رونغاي القديم بليمورو. كان محلاً شهيراً، لأن فيه مذياعاً، وكان الناس في الأيام الأولى من «الطوارئ» يزدحمون في الدكان، ليسمعوا الأخبار التي كان يذيعها موانغي ماتيمو. كان أبي ينتمي إلى الحزب الكيني، ويحب دائماً أن يحدث الناس عن إرسال كينياتا إلى إنجلترا، تحدياً للحكومة الاستعمارية، وكيف يجمعون التبرعات ليعيش عيشة لائقة في إنجلترا، ويقوم بالتحريض اللازم من أجل بلادنا. حسناً... بعد أن أرغمت على الفرار إلى الغابة، بقيت على اتصال به. أنتما

تعرفان بيتنا في منطقة كينيوغري. كان، بالضبط، مقابل المنطقة السكنية حيث تشكل شجيرات الشاي مخابئنا في أكثر الأحيان. لكنني فقدت كل اتصال بعد أن نقلوا إلى قرية تجميع، في كيهينغو. هكذا تريان أني فقدت كل اتصال بعائلتي خلال أيام اعتقالي، وتشوقت إلى يوم عودتي. يوم تلاقي العوائل وجمع شملها. لكن هذا اليوم لم يأت البتة. أو بالأحرى أتى. ارتعشت لرؤيتي أرض ليمورو، ومنظر تل كيهينغو، ووادي مانغو، والأرض الخضراء كلها. ذهبت إلى القرية الجديدة. سألت بإلحاح عن أبي وأمي وإخوتي. فأشاح الناس بعيونهم عني. خفق قلبي بوجع معرفة ما حدث، لكنهم لم يخبروني... ما عدا امرأة قالت لي أخيراً: «رجل أنت... قاسيت... إلا أنك تتحملها». سألتها وأنا أكاد أعرف الحقيقة: «ماذا أتحمل؟». «أثناء حفر الخنادق... وفي إحدى الليالي... أبادهم جميعاً... البريطانيون وكلابهم من الحرس المحلي».

«لم أعرف كيف أتحمل الأمر... وبقيت أياماً وأسابيع أردد الأغنية ذاتها: إذن، قتلوا عائلتي كلها، وتركت وحيداً. فكرت... اااا.... لكن ما الفائدة؟ ما الفائدة؟ ثم تذكرت أن كيماثي فقد أخوته، وجنت أمه، وأنه هو نفسه قتل فيما بعد، كل هذا من أجل نضالنا... لكن الجرح... كان الأمر قاسياً. فقط معرفة أن ما ناضلنا من أجله سيتحقق... أرض العسل والنبيذ... هي التي أبقتني على الحياة. حسناً، أنتما تعرفان ما حصل بعد ارتفاع رايتنا... أمر حسن، أقصد رايتنا. لكني... على أي حال اشتريت حماري، وحملت حاجيات النساء إلى السوق، وهناك حيث ترمي شركة الأحذية الكبيرة نفايات معلمها وحيث يرمي أصحاب الحوانيت الذين حلوا محل الهنود قمامتهم، هناك، في أحد الأيام، وجدته. كان طفلاً ينبش القمامة

عن شيء يأكله. وجد قطعة خبز، فهجم الآخرون عليه، قائلين إنه أخذ القطعة من ركنهم في القمامة... كان يتوسل إليهم... طاردوه... هرب نحو مناشر ليمورو. كاد حماري يطأه... المهم أنني أمسكت به، وهرب الآخرون. سألته بعد أن أخبرني بسبب الحرب: «ما اسمك؟»، «ليس لي اسم... أعني أني لا أعرف». «وماذا عن أبيك وأمك؟». ذهبا بعيداً. «وأخوتك؟». ذهبوا بعيداً، أيضاً. لم يعد أحد، لكنه ظل دائماً يأمل في أن يعودوا! فكرت. لا. حتى لم أفكر بالأمر. لكن الكذبة بدت طبيعية، وخرجت الكلمات واثقة سهل. ناديته «جوزيف نجريني!»، وأنا أهزه من كتفيه «حق الأخ الصغير... أنا الأخ، ذلك الذي سافر بعيداً، وها أنذا عدت...»، أخذته إلى بيتي، فلم يعترض أي اعتراض، ولست أدري... إن كان قد صدقني أم لا. بعد أسابيع قليلة.. أخذت أشك، لكني أملت في أنه سينفعني، أنا ذو الساق الوحيدة... أرسله هنا وهناك.. ظل الأمر هكذا حتى أنقذتني وانجا من النظر إليه تلك النظرة... وعليّ أن أقول الآن إني لست نادماً...

* * *

سارا نحو بيت وانجا. لم يتناولا حكاية عبد الله الغريبة. كان بيت وانجا الخشبي يستحق الإعجاب حقاً، بعكس جحر عبد الله. ويحيط به سياج من الصنوبر المشذ والنبات المتسلق والأزهار. وثمت ضوء لطيف يغمر ساحته المكسوة بالحشيش المعتنى بقطعه، بحيث نقرأ فيه: الحب سم. فتحت فتاة الباب، وأدخلتهم في حجرة جلوس واسعة. وجاءتهم بالأشربة على عربة: تسكر. بلسنر. جن الثنغيتا. وسكي. كينيا كين. تنالو كاريغا الوسكي، وصب منيرا لنفسه جن الثنغيتا.

لقد آلمه، على الدوام، أن يسرق شعاره منه: لكنه يحس في الوقت نفسه بالارتعاشة السرية للكاتب كلما قرأ الشعار في الصحف والعلامات. جلست الفتاة وأخبرتهم أن «ماما» ستأتي سريعاً لتراهما: وفي هذا الوقت... هل يحبان الموسيقا؟ جيم ريفز. جيم براون. كونغ فو. سكوسوس. علي شغل. ثنغيتا تويست... أي شيء، وبدون انتظار الجواب، وضعت هوني سياجيتا، من تأليف إيليا مبورو:

الشبان المتسكعون بالقيثارات

لن أحبهم أبداً.

دعوتهم إلى حفلة

فأغضبوني.

أخذوا مني فتاتي

الفتاة التي اخترتها

الشبان المتسكعون بالقيثارات

لن أصادقهم ثانية، أبداً.

علقت على الجدران صور قديمة للريف الإنجليزي... والكتابة: «المسيح رأس العائلة» ومارتا تدهن جسد المسيح بالزيت. على الطاولة منحوتات أكامبا الخشبية لزرافات وخراتيت. ما إن اكتملت دورة الأسطوانة حتى انسحبت الفتاة وانتصبت وانجا أمامهما في ثوب يشف عما تحته. أحمر شفاهها أقل خشونة هذه المرة، وشعرها الأفرو المستعار يتناسب مع جسمها الممتلئ. لقد كبرت، وازداد وزنها، مما منحها حضوراً جسدياً وقوة.

للحظات قليلة، التقت عيناها وعينا كاريغا. وقفت ساكنة، ساكنة، وإن لم تبدِ أي علامة اندهاش. كاريغا من جانبه لم يتوقع رؤية هذه المرأة الغريبة... هذه السيدة. إذ لم يهيئه منيرا للأمر. لكأن منيرا يستمتع بكامل المشهد... بالارتباك الذي كان كل منهما يحاول إخفاءه. جلست على أريكة، تواجههما، ووجهت كلماتها الأولى إلى منيرا:

«يا معلم... كان بإمكانك أن تنبهني... في الأقل».

«جاء في حوالي السادسة».

وشرح كاريغا الأمر: «كانت غلطتي... ظننت الوقت غير متأخر كثيراً».

«طبعاً غير متأخر. كيف حالك؟ يجب أن أقول إنها مفاجأة سارة. شبح من الماضي».

«أنا أيضاً ظننته شبحاً... بسبب مرآه... كبر كثيراً... تغير».

«أين كنت؟ لا بد أنك جائع: هل قدم لك المعلم شيئاً؟».

ودون أن تنتظر جوابه، مالت إلى الوراء، وضغطت على زر جرس، فظهرت فجأة فتاة أخرى.

«لوسي...».

«نعم، ماما».

«هيئي بعض الطعام... وأسرعي».

كان عالم أحلام خرافياً، ولم يدر كاريغا ما يقول عنه... أعادت سؤالها.

«أماكن... في كل أنحاء الجمهورية... اشتغلت مع المحامي... بعض الوقت...». كان صوته خشناً، غليظاً.

قالت وانجا: «إنه سياسي شهير الآن...».

«في الواقع، هذا كان سبيلي إلى العمل معه. كنت قد طوّفت في المدينة طويلاً، اشتغل في أعمال متعبة هنا وهناك. ثم انضممت إلى حملته الانتخابية. لقد تذكره سكنة الأحياء الفقيرة لما قدمه من خدمات لهم. واعتقد أن إنقاذه للرحلة الخائبة إلى المدينة منذ زمن بعيد، جعله مشهوراً حتى لدى أولئك الذين لم يلتقوه شخصياً. فاز في الانتخابات، رغم كل آلة الـ«م.ث.ك» المسخرة ضده».

وأضاف منيرا «بطل الفقراء... ليكن حذراً... كل ذلك الكلام عن حد أعلى لملكية الأرض... كل تلك المساهمات في مشاريع العون الذاتي... لا يشعر الجميع بالسعادة دائماً». فجأة ارتفع صوت كاريغا مشوباً برنة عدائية: «الإحسان... الإحسان... بقيت أذكره بهذه الكلمات نفسها، لأنه هو الذي استعملها أولاً، يوم رأيناه في المدينة. اختلفنا كثيراً. حين يتحدث أرى أنه يعرف كل الغلط، ويتمكن من التقاطه كله في صورة. كان موهوب اللسان. يجب أن تقرؤوا خطبه البرلمانية. كان باستطاعته أن يرى الأخطاء بوضوح تام، بحيث يؤلمه إلا يراها آخرون. لكنه أخذ يؤكد بعد زمن، كما أظن، تأكيداً كثيراً على محاولة جعل الناس يرون الخطأ فيصلحوه... إنه مخلص جداً، أنتما تعرفان، لكنه يثق كثيراً بذات الهياكل التي بناها، الوحش، كما يقول. إنه يحتاج بأن تبرعاته ليست سوى إشارة. قلت لنفسي «لا بد من طريق آخر... لا بد من قوة أخرى قادرة على التصدي لهذا الوحش، ولملائكته. «ما خلقه البشر يغيره البشر». لكن أي بشر؟ تركته في آخر المطاف. لم يستطع فهمي، ولم أستطع فهمه. لكنه فتح عينيّ، وكنت ممتناً له... انتقلت إلى مومباسا... عمال الميناء...».

تحمست وانجا: «مومباسا؟ أما تزال تلك السفن تأتي؟ والبحارة؟ أشجار جوز الهند، والشواطئ الرملية، فورت جيسوس... وددت لو... لقد مر زمن طويل...».

«كنا نحمّل السفن ونفرغها... نعالج كل تلك الثروة... بأجسادنا العارية المتصببة عرقاً في الشمس اللاهبة».

«لكنهم يدفعون جيداً... عمال الموانئ يتقاضون أعلى الأجور... ولديهم تقاليد لقادة نقابيين جيدين مسؤولين...».

«قادة نقابيون مسؤولون؟ لا أعرف. لكن المشكلة في نقاباتنا أن قادتها في الغالب رجال أعمال... مستخدمون. كيف يقود مستخدم جهازاً يناضل ضد المستخدمين؟ ليس بإمكانك خدمة مصالح رأس المال والعمال في آن... ليس بإمكانك خدمة سيدين متعارضين... أحد السيدين يخسر... وفي هذه الحالة العمال... العمل... الحرارة... فتات المائدة... تركت... وغادرت مومباسا... ماشياً على قدميّ... أبحث عن شغل في المزارع بين العمال الزراعيين... يدفع لهم مائة شلن شهرياً... ومقابل هذا يبيعون عمل العائلة كلها... الرجل، الزوجة، الأطفال... يسكنون كوخاً واحداً، محكومون بقطاف السيزال وأوراق الشاي والقهوة... كثيراً ما جلست أفكر: نحن الشعب... بنينا كينيا. قبل 1895 كان النخاسون العرب يدمرون زراعتنا. بعد 1895 كان المستوطن الأوروبي: سرقة أرضنا أولاً، ثم سرقة عملنا، ثم ثروتنا من البقر والماعز، وأخيراً رأسمالنا عن طريق الضرائب... هكذا بنينا كينيا، وماذا كنا نحصل من كينيا التي بنيناها بعرقنا؟

«كان المحامي محقاً في حديثه عن الوحش الذي يطلب المزيد والمزيد من العرق، ولا يعطي إلا القليل القليل مما طلبه. كنت أحدث العمال في المزرعة بأفكاري. فيقولون: افرض أنهم طردونا...

قلت... الوحدة في العمل... الوحدة في العرق... العرق قوة.... ستبلغ اللكمة مسامع ملاك المزارع الأفارقة... سوف يطردونني... فأواصل طريقي». وهكذا ظللت أتنقل، أشتغل هنا وهناك، في هذه المزرعة أو تلك، متأثراً خطا أبي، حتى وجدت نفسي في غربي كينيا. كنت محظوظاً، إذ حصلت على عمل في شركة سكر. اشتغلت مأمور مخزن ـ شيئاً بين المراسل وكاتب المخزن.

كان عملي بسيطاً، تزويد المصلحين والخراطين واللحامين والميكانيكيين الآخرين بالأدوات الاحتياطية لمكائن المزرعة. كانت المضخات والمحركات تتوقف باستمرار. تحتاج إلى تصليح وإدامة. كما يجهز المخزن الأوروبيين والأفارقة المتنفذين بالحاجيات المنزلية، ورق التواليت، الغاز... وسواها. لكن تمر فترات طويلة لا تتوقف فيها المكائن. على أي حال، كان لديّ وقت للنظر والتفكير. هذه المزرعة بالذات تملكها شركة ماكميلان البريطانية وهي ذات مصالح في جنوب أفريقيا والسودان ونيجيريا وغويانا. مزرعة سكر الشركة بدأت بعيد الاستقلال... لتطوير المنطقة... ورفع مستوى المعيشة. وقد طرد عدد من الفلاحين من أراضيهم لإفساح المجال لمزارع الشركة. أما الفلاحون الذين لم يطردوا فقد شجعوا على زراعة السكر في أراضيهم بدل الغذاء. وتشتري الشركة السكر بالسعر الذي تريده. هؤلاء الفلاحون لم يكونوا منظمين كي يحتجوا أو يساوموا. هكذا كانوا يعيشون عيشة بائسة. وبعضهم لم يستطع حتى إرسال أطفالهم إلى المدرسة... آ.... نعم... للشركة مدير أفريقي... السيد أوورا وود أوموني... قليل من أهل البلد يمتلكون أسهماً في الشركة. نقل بضائع الشركة ـ السكر الأسطوانات ـ كان بيد شخصية هامة جداً في السلطة، ذات اسم طويل جداً... هكذا ترون أن المشاركة الأفريقية واسعة. الوظائف الإدارية الوسطى بأيدي الأفارقة. وفيما عدا ذلك،

فإن المراكز العليا، والجانب التقني هو بأيدي خبراء أوروبيين مغتربين ـ مجرد تلاميذ مدارس... يتحكمون بالخريجين الأفارقة الذين يتدربون هنا ليكونوا تقنيي سكر.

كان العمال فئتين: العاملين داخل المصنع، والعاملين في المزارع. وبينهم عمال مهاجرون من أوغندا. والجميع يتقاضون أجوراً تعسة قياساً بالعمل الذي يؤدونه. لكن العاملين في المزارع أسوأ حالاً، كانوا يتعرضون إلى الضرب بأيدي مراقبي العمل الأوروبيين، وحتى الأفارقة. لم يتمكنوا من تنظيم أنفسهم، لأن الإدارة فرقتهم، قبائل، وشيعاً دينية، وحتى حسب مكان العمل. فالذين يعملون داخل المصنع يشعرون بالامتياز إزاء العاملين في الحقول. لكن العاملين داخل المصنع يبدو أنهم أكثر تنظيماً. ولا يهتمون بالمدراء سواء كانوا أفارقة أو أوروبيين... وما إلى ذلك... كانوا يحتجون دائماً ويطالبون بحقوقهم.

راقبت كل شيء ـ رأيت كيف يتصرف الخبراء الأوروبيون المغتربون. قلت لنفسي، لن أسمح لأي خبير أوروبي أو مدير أفريقي بأن يتخاشن معي. وبقيت ساكتاً. وفي أحد الأيام جاء خبير تقني أوروبي، بينما كنت منشغلاً مع متدرب تقني أفريقي، وطلبت تلبية حاجته فوراً. كان يريد لفة ورق تواليت. أخبرته أن ينتظر دوره. قال: شنزي. تناولت محملاً وقذفته به، فأصابه في وجهه. استدعيت أمام المدير الأفريقي وعدد قليل من الرؤساء الأوروبيين. كان المتدرب الأفريقي شاهداً أميناً، لكنني طردت من العمل... لا استئناف... وهكذا قلت لنفسي: لأعد إلى الموروغ، فأرى ما يجري هناك!».

«حياة جوّال حقيقية...».

كانوا يتكلمون جميعاً، بأدب، متحاشين الحاضر، متحاشين الماضي المشترك، كابحين الأسئلة والأجوبة.

منيرا ووانجا يريان كاريغا قد تغير، لكنهما لا يعرفان بأي طريقة تغير. كل ما يستطيعان رؤيته هو أنه مختلف عنهما. جاءت لوسي في صينية أخرى، وأكلوا بهدوء. سألته وانجا: «ما الذي ستفعله في المورروغ؟ أم أنك مار بها مروراً فقط؟».

«ليس للعامل موطن معين.. إنه ينتسب إلى كل مكان، وإلى لا مكان، احصل على شغل هنا، اعمل فيه... إنني أحمل ممتلكي الوحيد ـ قوة عملي، يديّ ـ معي حيثما ذهبت. أبحث عن مشترٍ... بائعاً يجب أن يبيع... إنها الحياة تحت هذا النظام».

«نعم... إنها الحياة»... ردد منيرا دون أن يدرك الأهمية الكاملة للكلمات.

أكلوا صامتين. كاريغا ووانجا يتفاديان عيون بعضهما. حثتهما أن يشربا ثانية. وصبت لهما ما اختارا: التنغيتا والوسكي. اقترح كاريغا، بعد الشرب، أن يغادر. وافق منيرا. وانجا لم تقل شيئاً. ظلت تقلب القصة التي رواها كاريغا والتي تبدو ملامح منها مماثلة لما جرى في المورروغ. نهضا للمغادرة. وقفت تودعهما. آنذاك التقت عيناها بعيني كاريغا: ورف شيء... لحظة تعرّف عارية.

رحبت منهما أن يجلسا.

عادوا إلى جلستهم. صبت لهم شربة أخرى. وصبت لنفسها الجن والتونك. «أنا لا أشرب...» بدأت، بطيئة، مترددة. «لكني في صحبتكم. حسناً. أنا أيضاً أحتاج إلى صحبة... أنا سعيدة حقاً برؤيتك... فكرت بك كثيراً. ومرة ظننتك مت، أو شيئاً آخر،

جدتي... كانت متأكدة دوماً من أنك سوف تعود. أعتقد أنها لم تعرف أنك ستجدني. حسناً... نحن جميعاً تحت هذه الظروف. لقد حدثنا قليلاً عن نفسك... عن رحلاتك. ولا شك أنك تتساءل عما حل بنا. سأخبرك، إذ لا بد لي من الاعتراف لأجلك. أستطيع أن أرى ذلك... حسناً... ما زال اهتمامك بالآخرين حياً. ثمت نار في عينيك... شرارة... أوهام. قد تلومني... أنا لا أطلب شفقة أو مغفرة أو أي عذر متفهم. العالم هذا... كينيا هذه... أفريقيا هذه.... تعرف قانوناً واحداً فقط. إن لم تأكل تؤكل. اجلس على أحد، وإلا جلس عليك. مثلك تجولت، باحثة عن أمر لا أعرفه: لكني بحثت عن شيئين دون جدوى: تلهفت على طفل.. طفل مني... أتعرف ما تشعر به المرأة حين لا يكون لها طفل؟ ذهبت إلى مواثي، حين كان هنا. قال صوته من وراء الحاجز: أخطأت يا امرأة، فاعترفي!

لم أستطع إخباره. لم أستطع أن أقول له إنني كنت حبلى يوماً، وكان لي طفل... وإن العالم بدا واسعاً للتو، ومتوعداً... بالنسبة لفتاة تركت مدرستها للتو، وهربت من بيت أهلها... وإنني... إنني... رميته، رميت طفلي الوليد، في مرحاض...

خذ! لقد قلتها... لم أقلها، من قبل لأحد.. ذهل منيرا وكاريغا قليلاً. كان الأمر صادماً، لأن هذا البوح غير متوقع نهائياً. خيم صمت مربك. تحاشى الاثنان عينيها. لكنها استمرت تتحدث بالصوت نفسه: «كنت صغيرة آنذاك. لا أقول إني كنت محقة. بدا لي أن ذاك هو الأمر الوحيد الممكن أن أفعله: إذ سألت نفسي... كيف لي أن أتعهده وأرعاه... ومن أين أطعم الطفل وأكسوه؟ فيما بعد، أرهقني هذا الذنب. كل ليلة... وأحياناً كل نهار... أسمع البكاء الرقيق لذلك الطفل.. حاولت التكفير عن فعلتي... صليت لله من أجل فرصة

ثانية... فرصة أخرى... لا شيء.. حاولت حتى الانتحار.. الله يعلم أنني حاولت... وكل مرة يعيدني شيء ما إلى رغبتي في الخلاص.

بحثت عن الحب أيضاً... فتملص مني... باستثناء... باستثناء... سأذكره... لكن لا تظننا أنني أتوسل شيئاً أو أسأل شيئاً.. باستثناء علاقتي معك. حينها أحسست بأنوثتي تعود... شعرت بأني مقبولة كما أنا... للمرة الأولى أستطيع ممارسة الحب دون ذنب أو عبء... ثم ذهبت... انطويت على نفسي... الله يعلم أني أقول الحق... أردت أن أحيا شريفة، عمل شريف. ربح شريف إن أمكن هذا. الثنغيتا... ثمت ذكرى له أيضاً...

ثم حدث حادث... ماتت جدتي... وكان عليّ أن أسترد هذه الأرض... رأيت الصحيح أن أفعل ذلك... بعت البيت... واستمررت في تقطير الثنغيتا... ثم ذهبت في أحد الأيام إلى المشروع حيث بنوا قرية الأوتامادوني هذه. هل رأيتها؟ يجب أن تذهب. النسوة يذهبن هناك ليغنين أغاني محلية ويرقصن للسواح... هن يتلقين أجوراً... حسناً... تلك قصة أخرى.. على أي حال... ذهبت هناك ووجدت نديري وا ريرا... والألماني الذي التقيته مرة في نايروبي. استعدت خوف تلك الليلة وارتجافها... وكدت أصرخ، حتى أدركت أنه لم يتعرف عليّ. إنه واحد من مالكي هذه القرية السياحية، ذات الأكواخ المبنية حسب تصورهم طراز أكواخنا قبل مجيء الأوروبيين. أوتامادوني... قريتنا... متحف... لهم. انصرفت، وأنا أفكر بهذه المواجهة الغريبة. ذهبت فيما بعد لرؤية مزيغو. كان قد صدر نظام يقضي بوجوب أن يستحصل المقطرون إجازة. ظننت مزيغو سيساعدني، ما دمنا بعناه بنايتنا. كما أن الموروغ تتسع لمعملي تقطير. كان متعبداً جداً، ومراوغاً. ثم قدم لي ورقة لأقرأها... لغتي الإنجليزية

ليست بهذه الجودة... لكني استطعت أن أعرف المعنى المجمل، إذ منحت شركة عالمية امتياز تقطير الثنغيتا. أما مدراء الفرع الكيني للشركة فكانوا مزيغو. جوي. كيميريا. كان من الصعب عليّ تقبل استدارة القدر هذه... لم أعرف حتى كيف عدت إلى هنا.. لكني شرعت أفكر... كيميريا الذي جمع ثروته باعتباره حارساً محلياً ينقل أجساد الماو ماو الذي قتلهم البريطانيون... ما يزال يزداد غنى. كيميريا الذي حطم حياته، وأذلني فيما بعد، حين أرغمني على النوم معه أثناء رحلتنا إلى المدينة... كيميريا نفسه واحد من الذين سينتفعون من التقدم الاقتصادي الجديد بالموروغ. سألت نفسي. لماذا؟ لماذا؟ ألم يذنب أكثر مني؟ هكذا أدركت إدراكاً كاملاً، في ليلة ما، هذا القانون: إن لم تأكل تؤكل. إن كان لديك فرج ـ اعذروني لهذه اللغة، لكنها تبدو لعنة حواء آدم على من ولدوا به ـ إن ولدت ومعك هذا الثقب... وبدلاً من أن يكون مصدر فخر... فأنت مقضي عليك إما بتزوج شخص ما، أو باحتراف الدعارة. إن لم تأكل تؤكل. وجدت هذا القانون صحيحاً تماماً. قررت أن أعمل. وبنيت، بسرعة، هذا البيت... لن أسمح أبداً بشيء مجاني... لديّ غرف عديدة... عدة مداخل وأربع ساحات... استأجرت فتيات شابات... الأمر سهل... وعدتهم بالأمان... ولهذا تركوني أتاجر بأجسادهن... ما الفرق؟ إن كنت تتصبب عرقاً في مزرعة، في مصنع، أو مستلقياً على ظهرك؟ لديّ أنماط متعددة، لأنماط متعددة من الرجال. بعضهم يفضل القصيرة. الطويلة. ذات الأمومة. المتدينة. الرقيقة. الخشنة. الشديدة. قومية أخرى... كلهن لديّ هنا.. وأنا؟ أنا أيضاً... لم أوفر نفسي... إنها الطريقة الوحيدة التي أقهر بها جوي، مزيغو، كيميريا... إنني أذهب معهم كلهم الآن... ألعب بأحدهم ضد الآخر... الأمر سهل لأنني أستقبلهم حسب مواعيد فقط... وإن حدث خصام... فالفتيات يعرفن

كيف يعالجنه... الغريب أنهم يندفعون لهذا... يدفعون لتخاصمهم على امتلاكي... كل واحد منهم يريدني امرأته فقط... أما بالنسبة لها... فالمسألة لعبة... مال.. إن لم تأكل تؤكل.. والآن أستطيع أن أذهب حيثما شئت. حتى في نواديهم الغالية... يفتخرون بأن أشاهد معهم... حتى لليلة واحدة... وهم يدفعون... كان لا بد لي من أن أكون قاسية... إنها الطريقة الوحيدة... الطريقة الوحيدة.. انظر إلى عبد الله... تدهور إلى بائع فاكهة... برتقال... جلود خراف... لا... لن أعود إلى قطيع الضحايا... أبداً... أبداً...».

أنهت كلامها بنبرة وحشية صارخة، كأنها تجيب عن الشكوك في داخلها. أحس كاريغا بالشك، فنظر إليها محدقاً. ثمت قساوة على وجهها، عجز عن اختراقها. شعر بالحقيقة القاسية الحادة كالإبرة فيما قالت: إن لم تأكل تؤكل. ألم ير هذا منذ أن أرغم على ترك المدرسة؟ ألم يعش هذه الحقيقة نفسها في مومباسا، ونايروبي، في مزارع الشاي والقهوة؟ في مزارع القمح والسكر وفي معامل السكر؟ هذا هو المجتمع الذي يبنونه: هذا هو المجتمع الذي كانوا يبنونه منذ الاستقلال، مجتمع يستمر فيه حفنة من السود المرتبطين بمصالح أخرى من أوروبا... يستمرون باللعبة الاستعمارية في نهب عرق الآخرين، وإنكار حقهم في النمو وتفتح الأزهار في الهواء ونور الشمس.

وفجأة، لم تكن هي التي ينظر إليها، وإنما وجوه أخرى لا تحصى، في أماكن عديدة... على امتداد الجمهورية. إن لم تأكل تؤكل. إن لم تسمن على آخر، سمن عليك. لماذا؟ لماذا؟ تمرد شيء في داخله على هذا: إذ لم يستطع، في قرارة أعماقه، أن يتقبل المنطق القاسي لوضعها وكلامها. إما هذا. أو ذاك. أي أنه في عالم الفريسة

والمفترس، عليك إما أن تكون مفترساً أو فريسة. لكن ثمت من لا يملكون.. ولا يستطيعون... ولن يملكوا الأنياب والمخالب التي يفترسون بها... وهم الكثرة... ولكن ما بديل الحقيقة التي أطلقتها؟

ووجد نفسه يقول: «لا. لا. ثمت طريقة أخرى: يجب أن تكون هناك طرق أخرى». وتذكر، فجأة، وفي مثل اللمح، كل الأماكن التي عرفها... واضحة هي القوة التي كان يبحث عنها، القوة التي ستغير الأشياء وتخلق قاعدة النظام الجديد.

قالت باستهجان: «في هذا العالم؟».

«أعلينا أن نتقبل هذا العالم؟ أيوجد عالم واحد فقط؟ إذاً علينا أن نخلق عالماً آخر، أرضاً جديدة»... وتدفق كأنه يخاطب كل تلك الوجوه التي لا تحصى، والتي رآها، وعمل معها، من كالنديني، وعبر المناطق الوسطى والغربية.

غمغمت: «هـ.... م م م! عالم آخر!».

وأعاد: «نعم... عالم آخر. عالم جديد».

هتف منيرا: «يجب أن نذهب». وقف، ومضى إلى الباب، وخرج مسرعاً، كأنه مدفوع بشيطان.

وقف كاريغا، واتجه إلى الباب، ثم تردد، والتفت إلى وانجا.

لم تقف هي، ولم ترفع رأسها. ظلت جالسة في موضع واحد، ملكة عليهم جميعاً تحت نور الكهرباء. كان رأسها منحنياً قليلاً، في الضوء الأزرق، وكأن الثروة التي كدستها تثقل عليها بوطأتها، وعقد الزمرد حول عنقها يجذبها، ويجذب ظلها إلى الأرض، وهكذا لم تستطع أن تقف لتودعهم، أو تغلق الباب.

خرج كاريغا. لم يستطع أن يجد منيرا خارج البيت، فسار، مصمماً، نحو مركز البلدة، قلب المورق الجديدة، حيث الضوء والدخان. هدير المكائن البعيدة أعلن نوبة العمال الليلية... إنه المصنع يهدر في كبريائه وقوته... وسيطرته على المورق.

سقط منيرا، في بيته، على السرير، وأعاد القول: «عالم آخر، عالم جديد. أحق هذا؟ أممكن؟».

* * *

الفصل الثاني عشر

1* «وما معنى هذا... إيه... الشغل الشعري، يا سيد منيرا؟».

انحنى منيرا على الطاولة، ليتبين ما يقصده الضابط، وما التقطه من كل هذه الأشياء التي خربشها منيرا. وشعر منيرا الراحة لأنه يواجه الضابط بعد تسعة أيام من العزلة.

«أوه، أرض جديدة، عالم آخر؟» استفسر منيرا بدوره، جالساً على المصطبة الصلدة، ناظراً بإشفاق إلى الضابط.

قال الضابط وقد بدأ الضجر في عينيه: «نعم... ماذا عنت تلك الليلة بالنسبة لك؟». فكر منيرا برهة. تذكر ذلك المشهد الذي حدث قبل سنتين، في غرفة جلوس وانجا المضاءة بالأزرق، ليلة عودة كاريغا المفاجئة: شعر بأن ذلك الجسد المثقل بالحلي، ذا الثوب القصير، والذي يبدو بعيداً، وحيداً، شعر به شيطاني القوة، وأنه سيرفع رأسه، ويخترق ضعفه، ودفاعه الواهن. هاأنذا. هاأنذا. يا إلهي. سمع صوتاً داخلياً يناديه، وأحس بأمان أكثر وقدرة على مواجهة ضابط الشرطة.

إن هذا يومه العاشر في السجن. كان ينتظر هذه الزيارة بشيء من الخوف، وإن كان يتلهف إليها أحياناً، إلى إطلالته من محبسه، ومع هذا، فقد دهش حين حل موعد المقابلة الثانية، وأراد أن يؤجل المواجهة الأخيرة يوماً ثانياً. بعد فطور العصيدة المعتاد، رأى أن الشرطي بدلاً من أن يدخله الزنزانة ثانية ويغلقها عليه، أو يطلقه في ساحة الرياضة، أخذه مباشرة إلى الطاولة العارية والجدران التي تدعى

المكتب. احتج منيرا بأنه لم يكمل الوثيقة، لكن احتجاجه بدا واهناً. والحق أنه كان متعباً من المسألة كلها. أهمل المفتش جودفري اعتراضاته، ودخل رأساً في الاستجواب، متصفحاً، بعناية، مذكرات سجنه.

«هذا... إله... هذا العالم الجديد... ماذا كان... ظللت تشير إليه...» حاول منيرا. كان الأمر دائماً، واضحاً، بالنسبة له، إلا حين يحاول إيصال رؤيته إلى شخص آخر. وقد أدرك الآن، بيأس متعاظم، صعوبة المهمة التي يواجهها: كيف يمكن أن تبين لرجل يسيِّر القوانين الفاسدة لعالم فاسد، الحاجة الملحة والضرورية إلى قوانين أسمى، قوانين طاهرة، أبدية، مطلقة، ثابتة؟ كيف يعمى حتى الأكثر حكمة في ملكوت هذا العالم، عما يراه حتى الطفل واضحاً؟ النغمة التي غيَّرت حياته ونظرته، ارتفعت في المركز العصبي لكيانه الروحي:

توكياشا دامبي، مغالمي مويما

هاتا توكيفا، توتاوالا تينا

هللويا، هللويا

هاتا توكيفا، توتاوالا تينا

ود لو يغنيها بصوت عال، لكنه وجد نفسه، بدلاً من ذلك، يتحدث هادئاً عن أرضه المكتشفة.

«لم يكن شيئاً مفاجئاً، أنت تعرف. كانت الكلمات التي يتفوهها، وسط تلك القذارة المعطرة، وبعد خمس سنوات من النفي والتطواف، مقلقة بصورة غريبة. قال الرب من فم الأطفال. هذه الكلمات قيلت بعد هذه القصة، بعد الاعتراف المعذب لامرأة

خاطئة... أعتقد الآن أن كلمة الله قد تجلت لنا في مضمون ليس من اختيارنا. لقد سمعت هذه الكلمات إياها من آيرونمونغر، عن أمي، من زوجتي، لكنها لم تقرع جرساً. أرض جديدة. عالم آخر. ظللت أقلِّب الكلمات في عقلي وقلبي. ولم أستطع بعدها أن أشرب الثنغيتا بسلام. إن جسدي يريده بعد أن اعتدته خمس سنين، لكن قلبي غائب. في أعماق قصة وانجا وتجربتها ظلم فادح. عرفت قصتها الآن... ومع هذا... مع هذا غدا التدريس أشد ضجراً، فكيف أستطيع الآن أن أواصل تدريسهم كيف يتلاءمون مع عالم أخذت أرفضه، عالم غير منطقي أساساً، وشرير؟ كيف لي أن أفسر: أن آيرونمونغر استبدل بكيمبرج فرودشام، إن فرودشام استبدل بجوي، إن جوي يمتلك مصنعاً في الموروغ، إنه كان أحد عشاق وانجا، إنه يبيع البيرة بالشعار الذي ابتدعته أنا أولاً؟ كيف... كيف... كيف يمكن أن تهرب وانجا من كيميريا، لكي تسقط بصورة أكثر إهلاكاً بين ذراعيه؟ إنه الآن عاشقها أيضاً. ومزيغو... وكاريغا.. وانهيار الموروغ التي أعرفها؟ لا شيء معقول. عبد الله قاتل في سبيل الاستقلال... وهو الآن يبيع البرتقال وجلود الخراف إلى السواح، ويشرب الثنغيتا لينسى الهدم الإجباري لمخزنه.نعم. لا شيء معقول. التعليم.العمل. حياتي. الصدف. أنا كنت صدفة. كنت غلطة، قدّر لي دور المراقب خارج نافذة من بناية عالية. بدأت أذهب إلى الكنيسة. كنيسة الموروغ الجديدة الأنجليكانية بنيت بتبرعات من مسيحيي كينيا، ومن كنائس في الخارج، وهناك أمر مؤثر، هو أنه على مبعد ياردات قليلة فقط من حطام مواثي واموغو الشهير، تشاهد الآن متحف آثار. الموقر جيرود براون هو الرأس والراعي الروحي لهذه الرعية الأنجليكانية الجديد في الموروغ. سيارات كثيرة خارج الكنيسة، مختلف الأنواع من مختلف أنحاء العالم. كنت أنصت إلى

مواعظه المأخوذة من نصوص جاهزة، وهو يعنف الناس على الشراب، وكثرة الطلاق، والسياقة السريعة، والحاجة إلى التبرع للكنيسة، والخطايا الأخرى. لم يتبدل شيء في محتوى الأدعية، سوى أنهم وضعوا كلمة «الرئيس» مكان كلمة «الملك». مرة أردت أن أذهب إليه وأقول: أنا فلان ابن فلان... الذي طردته يوماً من بيتك جائعاً. أنا الآن لست جائعاً للطعام الأرضي ـ إنني أحترق في جحيم من نار ذائبة ـ ساعدني. لكني حين تذكرت تجربتي في بيته بالتلال الزرقاء، فكرت بأنه قد يكون بخيلاً أيضاً بطعامه الروحي. دأبت على الذهاب إلى الكنيسة. كنت مثقلاً بشعور بالذنب، كما لو أني أسهمت في تدهور وانجا، وفي شرور العالم. وأحسست بحاجة هائلة إلى الغفران. حتى لقد كتبت مرة إلى زوجتي. قلت إني بدأت أرى أن طريقها هو الطريق الصحيح حقاً. سر طريقك حتى نهاية الطريق. لقد أنهيته، ثم احتقرته فجأة. كنت أحياناً أنضم إلى عبد الله وهو يبيع البرتقال وجلود الخراف والفطر إلى عابري الطريق العابر أفريقيا، وإلى السواح. رجل عاجز. قالت وانجا، مرة، إننا جميعاً مثل عبد الله، لكن العجز في أرواحنا، لا في أطرافنا.

في تلك الأيام سمعنا النبأ الرهيب: اغتيل المحامي. لقد اختطف من فندق كبير، إلى مبعدة ميل أو نحوه من التلال الزرقاء وهناك أطلق عليه الرصاص، وترك فريسة للضباع. للمرة الأولى، منذ زمن طويل، التقى كاريغا، وانجا، عبد الله، ونجوغونا. لم نخطط للقاء. حدث أننا تمشينا كلنا إلى بيت نجوغونا المسقوف بالحديد. قدمت لنا زوجته حليباً لم يمسسه أحد منا. تحدثنا عن كل شيء إلا اغتيال المحامي. نجوغونا فقط أفلتت الكلمات من طرف لسانه: «كان على السبيل نفسه الذي سلكناه، مرة، ونحن في طريقنا إلى المدينة».

لم يجبه أحد. بقيت أتساءل، كيف يستطيعون اغتيال رجل كان عوناً للفقراء؟ لقد تبرع إلى كل مشروع للعون الذاتي في البلاد. كانت له ثروة، لكنه حاول أن يوزعها... بغض النظر عن الطبقة والدين والقبيلة. كيف؟ لماذا؟ سار كل منا إلى جحره. وتساءلت: كيف أستطيع أن أدع هذه الغلطة تستمر، واقفاً خارج بوابة الأشياء، وأنا معلم؟ كنت أوشك أن أتخذ قراراً. ولم أذهب إلى الكنيسة ذلك الأحد. كرهت، فجأة، حتى صوت جيرود، ومواعظه، وصلواته. مشيت من بيتي نحو قلعة المورروغ، مستعداً لإنهاء الصدفة بصدفة أخرى. لا يمكن أن تستمر اللعبة. وفجأة رأيت المجموعة. كانوا يرتدون أردية بيضاء، ويدقون الطبول، يحيط بهم أطفال مستغربون، وقليل من النساء والرجال. توقفت أستمع. كانت تعظ، وقد أثّر بي صوتها: لقد أخطأنا جميعاً، وانتأينا عن مجد الله. لم أصدق عينيّ... إنها ليليان، ليليان التي تحولت تقود مجموعة رجال ونساء في صلوات ومواعظ، وتتحدث بألسنة أرواح عديدة. تكلمت عن أرض جديدة، وعالم آخر لا يعرف طبقات ولا قبائل، يساوي بين الفقير والغني، ما داما قد تقبلا القانون الأبدي لله. لا كنائس. لا تعليم. لا مناصب. لا أعمال حسنة: القبول فقط بالإيمان، وانظر: أرض جديدة وسماء جديدة. ارتجفت. الأمر بسيط جداً... لقد أخطأنا جميعاً، وانتأينا عن مجد الله. نطقت بقوة أصوات عديدة مضت، وأصوات عديدة آتية من عالم سيكون. تقبلوا فقط. تقبلوا فقط. خفق قلبي مع صوتها والفرح الكامن فيه. لا تعليم.لا ثروة. لا أعمال حسنة. فقد تقبلوا القانون. القانون الأبدي. أتتقبلون الآن هذه الحياة الجديدة مع المسيح؟ كان السؤال موجهاً إليّ: كأنها تقرأ قلبي. كم هو غريب أن تقطع ليليان سبيلي هذا اليوم بالذات، هذه الساعة بالذات. نظرت إليها، إلى عينيها، إلى تحوّلها، وسألت نفسي: من أين جاءت بهذه

القوة في داخلها، وهي التي كانت تستعمل، أمس فقط، الدين نفسه، جزءاً من اللعبة الغرامية؟

في تلك اللحظة، انجلى كل شيء أمامي. وشاهدت حقاً أرضاً جديدة... فقد كان المسيح مخلّصي الشخصي. إنه سيمهد الجبال والوديان، ويطرح الشيطان أرضاً، ويقهر الشر في العالم. حياة جديدة مع المسيح بالمسيح. تقبلت القانون. ارتجفت ركبتاي. جلست على الأرض متواضعاً، وصرخت:

«أتقبل. أتقبل». شعرت بدموع الامتنان والبهجة. لقد مضت سنوات عذابي وشكي واتباعي المسرات الأرضية». كان في صوت منيرا اقتناع هادئ لكنه متأصل بحيث أثّر تأثيراً ما في المفتش جودفري، وجعله يصغي بدون ضجره المعتاد الذي ميز علاقته التحقيقية مع منيرا. وراء الضجر، كان بالطبع عقل متسائل، له حساباته، ينظم الكلمات، ويختزن الجمل والنظرات والتلميحات، باحثاً أيضاً عن خط وخيط ومفتاح وعلاقة، وصورة قد تساعد في ربط الأشياء معاً. تأوه الآن مائلاً بكرسيه إلى الوراء، وعاوده الضجر: «ممتع. ممتع جداً، يا سيد منيرا. أعتقد أنك كنت تشاهد دائماً إما مع كاريغا أو وانجا وعبد الله... واعتقدت أنك ـ أرجو أن تعذرني ـ لم تعد من هذا العالم الشرير... حسناً... اهجره، واصحب ليليان... المقدسة... مثلاً».

«أنت لا تفهم. نحن لا نتمتع باجتذاب الآخرين لرؤية النور. أردت أن يكتشف كل واحد منهم العالم الجديد...».

«سيد منيرا... أليس صحيحاً... واعذرني ثانية إن كانت الأمور مختلطة عليّ قليلاً... أليس صحيحاً أن كاريغا أيضاً اعتاد أن يتحدث إلى العمال عن عالم جديد؟».

قال منيرا منفعلاً: «تماماً... أنت تتابع... لقد بدأت تـرى. أردت أن أنقذه... أردت أن أنقذه أولاً من ـ!».

تشبث المفتش جودفري، فجأة، بجانبي الطاولة، وقاطعه بـصوت مرتفع نوعاً ما:

«ممّ؟ ماذا تعني؟».

«من أحلامـه... أحلامـه الـشيطانية وأوهامـه...أنقـذه مـن ارتكـاب الخطيئة التي لا تغتفر...».

«أية خطيئة؟ أرجوك يا سيد منيرا لا تتحـدث بـالرموز! أي خطـة؟ أي خطيئة؟ أرجو أن تخبرني... وبسرعة».

كانت شفة الضابط الـسفلى ترتجـف. كـان مثـل كلـب صـيد وراء رائحة. نظر منيرا إليه، إلى عينيه الحمراوين، وقال:

«من الكبرياء. من التفكير بأنه وعماله قـادرون علـى تغـيير الـشر... على تغيير هذا العالم...».

زفر الضابط، وبدا، فجـأة، منـهكاً. لقـد أضـاع الرائحـة. وود لـو يركل هذا المعلم المتعصب المقدس إلى خارج المكتب.

«هل بيَّن الطريقة التي يريد بها أن يغير العالم، عدا التحـريض عـن الإضراب، والتباطؤ في الشغل، والعمل للوصول إلى الحكـم، وكـل ذلك الهراء الشيوعي؟».

«إنها كبرياؤه التي أتحدث عنها. كبرياؤه حتى في تفكيره بأن إنـساناً واحداً، بدون مساعدة الله من خلال المسيح، قادر على تغـيير نفـسه، قادر على تغيير العالم...».

«أفهم الآن. لكن هذا كان في أول الأمـر... مـا الـشر الآخـر الـذي أردت استنقاذه منه؟».

«هي!».

«من؟».

«وانجا!».

«ماذا تقصد؟».

«بدأ يزورها سراً. أنا متأكد».

«كيف؟».

«رأيته».

«متى؟».

«قبل أسبوع من الحريق. كانا في كوخها القديم. أما عبد الله ـ».

وقف الضابط ثانية. شفتاه ترتجفان. نظر إلى منيرا.

«أأنت متأكد؟ متأكد تماماً؟».

«أجل. رأيتهما. رأيتهما».

قالها بهدوء، بينما كان خيط من الشك يمرق في ذهنه. فكر... وأراد أن يضيف شيئاً، لكن الضابط وقف فجأة، واندفع إلى الباب. لقد التقط الرائحة، وهو مصمم الآن ألا يضيعها.

هتف به منيرا:

«قف... انتظر... لم أنته».

التفت إليه الضابط، من وراء كتفه، وانتظر، بينما كانت ساقاه مستعدتين للوثوب في الطراد.

قال منيرا: «ماذا فعلت به؟ ما الذي فعلت بكاريغا؟».

«أحمق غبي» هسهس الضابط، وصدر أمراً:

«أعيدوه... سوف أراه فيما بعد». وأسرع نحو الزنزانات الأخرى.

2* كان صباحاً مزدوج المرارة، ذلك الذي ألقي عليه القبض فيه، قبل عشرة أيام. إذ كان قد سمع للتو، في أنباء الساعة السادسة، إن الإضراب المقرر إعلانه قد منع، بسبب الحالة المتوترة في المورورغ إثر مقتل كيميريا، جوي، ومزيغو. فكر، مغتاظاً، إنهم يلتزمون دائماً جانب أرباب العمل. عرفت أنهم سوف يستغلون الحادث لمنع الإضراب موجهين ضربة أخرى إلى حركة العمال الناشئة.

ظل وحده في الزنزانة يوماً كاملاً وليلة. تساءل عن الاتهامات المزورة التي سيوجهونها إليه. كان قد اعتقل مرة واحدة فقط: حين قاد مع منيرا وعبد الله وفد «الحمار» إلى المدينة. وقد أنقذهم المحامي من السجن آنذاك. حدث هذا منذ زمن بعيد. والمحامي قتل. لم يكن قادراً على فهم المحامي كاملاً: إنه يحب الشعب حباً أصيلاً، ويبصر الأحداث، ويحللها بطريقة لا يستطيع الكثيرون... لكنه يبدو في الوقت نفسه مأخوذاً بالملكية، وبالقوة الاجتماعية والسلطة اللتين تمنحهما. قال مرة لكاريغا: «هم لا يستطيعون الطعن في تعليمي وإمكاناتي المهنية. لا يستطيعون الطعن في ماضيّ النضالي. فقد أقسمت وأنا صبي قسم الباتوني، وكنت مراسلاً للوحدات القتالية. كنت ألبس بدلة الكشافة، وأذهب إلى أماكن يصعب بلوغها. وهم لا يستطيعون طعني من ناحية الأملاك... لهذا يمكنني الكلام بحرية عن الفقراء والإصلاح الزراعي ووضع حد أعلى لما يمكن أن يراكمه الشخص... رجل واحد. دكان واحد. هكذا. حقل واحد رجل واحد. شغل واحد رجل واحد... وهكذا». لقد هزّ مقتله الشنيع كاريغا، مثلما هزَّ البلاد كلها. هذا الرجل البديع، رغم كل أخطائه، كان

الأروع والأشجع في سلسلة ذات شجاعة وإيثار بين المالكين والمالكات في كينيا. هذه السلسلة تمتد من بعض السادة الإقطاعيين، في مطلع القرن، الذين وقفوا ـ رغم رشاوى الخرز والقماش وإغراء السلطة المدعومة من البيض ـ ضد قطعان المحتلين الاستعمارية، وماتوا مقاتلين مع شعبهم... حتى الآخرين الذين رفضوا في الثلاثينيات والخمسينيات، أن يخونوا الشعب لقاء صدقات البريطانيين. وفكر ثانية.. حدث هذا منذ زمن بعيد... وتذكر كيف استطاع المحامي إطلاق سراحهم من دائرة الشرطة المركزية، والمحكمة أيضاً.

ارتسمت تلك المشاهد، الآن، كأنها معالم غائمة لمناظر بعيدة في بلاد أخرى. حتى في داخله، لم يستطع أن يتعرف على الحالم الذي كان بإمكانه التحدث إلى ما لا نهاية عن ماضي أفريقيا الإقطاعية الكبرى... وكأنه هذا الحديث يكفي أن يكسو طفلاً جائعاً ويطعمه ويسقيه، ليوم واحد.

على أية حال، احتل التجار البريطانيون وكهانهم المبشرون، مرة، الصين، وأذلوها، وذلك بجعل الشعب الصيني يشتري الأفيون، ويشربه، وحين رفض الشعب استيراد الأفيون انهالوا عليه بالهراوة الغليظة... في الوقت ذاته الذي كان الباحثون البريطانيون يتغنون فيه بحضارات الصين الإقطاعية الكبرى، ويسرقون الشواهد ذهباً وفناً ومخطوطاً، ويأخذونها إلى لندن. مصر أيضاً. الهند. سورية. العراق... حتى الله ولد في فلسطين... وكل هذه المعرفة لم تردع في أحد الأيام لوردات الحرب والتجارة الأوروبية.

وقد تخلصت الصين، بالنضال المبدع لعمالها من أجل حياة أفضل، لا بالمغنين والشعراء الذين يعددون مناقب الحضارات الماضية الكبرى، لا... الأمر ليس فقط أمجاد الشعب السالفة، لكنه

أيضاً مجد نضاله الحالي، وكفاحه من أجل تصحيح الأخطاء التي جلبت الدمع إلى الكثيرين، والضحكة إلى القليل. وذهبت المورروغ التي هزته مآثرها الماضية بعد أن استمتع إلى نياكينيوا. خلال عشر سنين - كم يسرع الزمن - أخرج فلاحو المورروغ من أراضيهم: بعضهم انضم إلى جيش العمال، آخرون صاروا شبه عمال، رجل في قطعة الأرض ورجل في المعمل، بينما غدا الآخرون بائعين في جحور وأكواخ لا يملكونها على امتداد الطريق العابر أفريقيا، أو مجرمين وعاهرات، يبتزون بمسدساتهم المسروقة وفروجهن المستعملة أكثر من اللازم، حياتهم.. من أي شخص، وكل شخص - العمال. الفلاحين. أصحاب المصانع. السود. البيض - بدون تمييز.

وهناك القليل الذين جربوا حظهم في صناعة الصواني وأواني الماء وأجران علف الدجاج، والأحذية، والنجارة... لكن الام يستطيعون الاستمرار وهم يرون أنفسهم يتقهقرون إلى الوراء مع حرفهم، بسبب الإنتاج الواسع الأكثر تنظيماً لبضاعة مماثلة. ولقي الرعاة المصير ذاته: بعضهم مات. ودفع آخرون إلى المناطق الأكثر جفافاً... بعيداً عن مناطق الحيوانات البرية المسيجة للسواح. كما أن آخرين صاروا عمالاً مأجورين في حقول القمح والمزارع التي يملكها فلاحون أغنياء. وخلف هذا كله، ينتصب شاهداً على التغير، الطريق العابر أفريقيا، ومبنى المصرف الاقتصادي الأفريقي ذو الطابقين. لقد لاحظ هذه التغيرات والتقطها منذ الأيام الأولى لعودته، ذلك لأنه عرف المورروغ نياكينيوا، ومواثي الأسطوري ونجوغونا وررورو. لكنه حين يستعرض الأماكن التي رآها يستخلص منها المسار نفسه، سريعاً في بعضها بطيئاً في الأخرى، لكنه واضح فيها جميعاً. لم يبق مكان يتوجه إليه. دراسة أعلى؟ لقد أضاع فرصته: ثم... هل يوجد ما يتعلمه إلى

جانب ما خبره بعينه ويديه؟ الأرض؟ ليس ثمت أرض. فقد ولد في أسرة بلا أرض. لكن حتى تلك الاسر المالكة أرضاً: الأم يمكنهم الاستمرار في تقسيم أراضيها إلى قطع أصغر فأصغر حتى يحصل كل فرد منها على قطعة؟ ثم هذا التراب الذي يكوّن كينيا... لمّ يمتلكه فرد؟ إن تراب كينيا هو مزرعة الشعب المشتركة، وليس من حق أفراد قليلين، أو قطاع، أو قومية منفردة، أن يرثوا لاستعمالهم الخاص، ما كان ميراثاً للمجموع، كما لا يحق لأبناء وبنات قلائل أن يتملكوا أمهم أو أباهم ويحتكروهما. الخير له أن يتلاءم ووضعه الجديد: ما دام لا يملك الآن إلا يديه، فسوف يبيع قوتهما المبدعة لمن يشتريها، ثم ينضم إلى الأيدي الأخرى ليضمنوا، في الأقل، نيل حصة عادلة ما تنتجه عشرات الآلاف من أصابعهم. إنه لن يقبلن في الأقل، الرؤية السكونية لمنطق وانجا. منطق قاس لا يؤدي إلا إلى اليأس والعدم. وإلا فما معنى عالم لا يكون فيه المرء نظيفاً إلا بأن يقذف على الآخرين أوساخه وسلحه وبوله؟ عالم لا يصح فيه المرء، إلا إذا حمّل آخر، جذامه. عالم لا يكون فيه المرء قديساً طاهراً إلا إذا استعهر الآخرين. لماذا ينتظر دائماً من ضحايا صحة القليلين ونظافتهم وقداستهم وثروتهم ـ أن يقبلوا نصيبهم هذا راضين؟ كان درس التاريخ الحقيقي هكذا: هؤلاء المسمون ضحايا، الفقراء، المسحوقون، الجماهير، قاتلوا، دوماً، بالرماح والسهام، بأيديهم وأغاني شجاعتهم وأملهم، ليضعوا حداً لاضطهادهم واستغلالهم: إنه سيظلون يناضلون حتى يأتي ملكوت الإنسان: عالم تكون فيه الطيبة والجمال والقوة والشجاعة... لا في الخديعة وقوة الاضطهاد... وإنما في مساهمة المرء في خلق عالم أكثر إنسانية، لا تحتكر فيه القلة عبقرية الإنسان الخلاقة المتوارثة في الثقافة والعلم، إنما هي

للجميع... هكذا سوف تنبت كل الأزهار من مختلف الألوان، وسوف تنضج، وتحمل الثمار والبذور. هذه البذور سوف توضع في الأرض لتنبت ثانية في المطر والشمس. إن استطاع عبد الله أن يختار أخاً، فلم لا يفعلون جميعاً هذا؟ يختارون أخوة وأخوات، في العرق، والكدح، والنضال... يشد بعضهم بعضاً، مكافحين من أجل ذلك الملكوت؟

ظلت هذه الأفكار تنضج في ذهنه، مدة الأشهر الستة التي اشتغل فيها عداداً بمعامل تقطير الثنغيتا. كان يؤشر القناني التي تخرج من خط الإنتاج. كما يساعد في عدّ الصناديق التي تحمَّل في شاحنة الزبون. كانوا يسمونه الصامت لأنه يعمل صامتاً، يراقب، ويؤشر، ويتجادل بين حين وآخر مع عامل أو عاملين. كما أنه انقطع عن الشرب، لأن الكحول كان يستنفد قوته، ويضعف قدرته على التركيز. لكنه يرتاد المشارب، حين يضع شلناً أو شلنين في صندوق الأغاني لينصت إلى أغانيه المفضلة، وليكون على بينة من آخر المغنين والشعراء. لقد طرد صندوق الأغاني كل الفرق الحية. التقى في مكان أو مكانين ببعض تلاميذه القدامى، الذين هم الآن شبان. كانوا يدعونه المعلم، فلم يشجعهم. المشارب الوحيدة التي يتجنبها، هي التي قد يرتادها جوي أو كيميريا أو مزيغو، الذين يودون البقاء بعد تفتيش المعمل. ذهب مرة، أو مرتين إلى القرية السياحية. أحب أغاني الجيل القديم ورقصاته. لكنه شعر بالاشمئزاز، وأقسم ألا يعود ثانية، بعد أن رأى ما فعله نديري واريرا وشركته الألمانية اليونانية بهذه الأغاني والرقصات من تشويه واقتطاع بحيث فقدت كل عاطفة ومعنى، وبعد أن رأى السواح السمان وهم يحملون آلات تصويرهم، ويمضغون العلك، ويعدّلون قبعاتهم السفرية... هاتفين مصفقين لهذا الأكروباتيك الفارغ.

لاحظ كيف أن العمال متفرقون. كانوا فخورين بانتساباتهم اللغوية والقبلية والمنطقية، يميلون إلى رؤية أي قيادة في ضوء ما تقدم لهم من أعمال، أو تحرمهم منها... حسب الجماعات القبلية أو اللغوية. الرجال أيضاً يعتقدون أنهم خير من النساء، لأن أجورهم أعلى قليلاً منهن، ولأنهم يفضلون في أعمال معينة عليهن. ويبدو أنهم يفكرون بأن المرأة تستحق أجراً قليلاً وعملاً شاقاً، وكانوا يحتجون بين الضجة والضحك بأن شغل النساء الحقيقي هو أن يستلقين على ظهورهن، ويفتحن سيقانهن، كي يدخل الرجل إلى ممالك السرور.

إنه الآن يعرف خط هجومه وتقدمه. هذه الانقسامات يجب أن تنتهي إن كانوا يريدون أن ينجحوا في أن ينالوا الاعتراف، والحصة العادلة من عرقهم. أخذت المنشورات تظهر، من لا مكان، وهي تحمل دائماً الموضوع نفسه:

العمال كلهم هم أبناء الآلة والطريق الجديد. الذين يملكون الآلة لا يهتمون في لعبة الاستغلال بالمكان الذي جاء منه العامل.

لكن الآلة والطريق الجديد هما أبناء العمال، فعرقهم هو الذي مدّ الطريق، وبنى المصنع.

والآلة ليست أباهم، بقدر ما هم آباء الآلة.

وسوف يكون الصراع في المستقبل على ما يجب أن يتحكم بالآلة والمنتوج: أولئك الذين حرّكها عرقهم، أم أولئك الذين قوّتهم المصرف، والذين جاؤوا يحصدون وهم لم يحرثوا ولا زرعوا. كل نزاع وضع في نطاق الاستغلال الذي يتعرض له العمال من جانب رأس المال، المسروق نفسه من عملا آخرين. لماذا تستخدم قلة قليلة قوة الحياة والموت ضد الكثرة الكاثرة؟

فجأة، بعد ستة أشهر، عرف الناس أن شيئاً ما يحدث في هذا المصنع. كان العمال يتناقشون، ويتحدثون في مجموعات من اثنين أو ثلاثة. كل منشور صار موضوعاً لمناقشة حادة، وكان ينتقل سراً من يد إلى يد في المصنع. لم يعرف مصدر المنشورات إلا القليلون في الحلقة الداخلية. المنشورات تقول الحقيقة، ولهذا لم يهتم العمال بمصدرها. قرر العمال كخطوة أولى تشكيل نقابة لهم. فوجئت الإدارة. كيف تعالى هذا الضجيج من هؤلاء الذين كانوا حتى الأمس، هينين، طائعين، يصرفون أجورهم على الثنغيتا، ويتشاجرون فيما بينهم؟

جاء النزاع الأول بصدد الاعتراف بـ«نقابة عمال معامل تقطير الثنغيتا» وتسجيلها. ثبت العمال متحدين. وأعلنوا إضراباً. استجاب مجلس الإدارة: على أي حال، نقابات البلاد الأخرى تم تحييدها على أيدي أرباب العمل. لكن عليهم أن يبحثوا عن كبش فداء. طرد كاريغا، مع أنه لم يكن على الورق إلا عضو لجنة. إذ نبشت الإدارة ماضيه. لكنه اكتسب بطرده، شعبية واسعة، وانتخب على الفور، سكرتيراً عاماً للنقابة، متفرغاً. كان لانتصار نقابة عمال معامل التقطير تأثيره الشديد في عمال المورووغ الطيعين عادة. فجأة طالبت حتى فتيات المشارب بنقابة. ونظمت الراقصات أنفسهن في نقابة راقصات السياحة وطالبن بأجور أعلى لفنهن. وتبعهن العمال الزراعيون. شيء هائل يحدث في المورووغ.... وأرباب العمل يرتجفون ويتأكلهم القلق. ثم بدأت مشكلات كاريغا الحقيقية. لجأ أرباب العمل إلى إثارة الفرقة. فشجعوا الشوفينية القومية والمحلية، وحين فشلوا رفَّعوا عدداً من العمال المعروفين وألحقوهم بالإدارة. القانون يحرم على هؤلاء الإضراب. وشجعوا عمالاً آخرين على شراء سهم أو سهمين حتى

يشعروا بأن الشركة شركتهم. بالرغم من هذا، أو بسبب الازدياد في المناقشات ومجموعات البحث والمنشورات، ظلت نقابة العمال قوية.

لكن التهديد الأعظم جاء من الحركة الدينية الجديدة التي اندفعت تتحدث بصيغ مساواتية جداً. إنها ضد نفاق الكنيسة المنظمة. ولا فرق عندهم بين الفقير والغني، رب العمل والعامل، الشيء الوحيد هو تقبل المسيح. يسوع يخلِّص. الحب هو القانون المطاع الوحيد. يريدون أن يتجنبوا الصراع والنضال في هذا العالم. هذا العالم صورة مشوهة للعالم الآخر. شوَّهه الشيطان. ولهذا فإن النضال الوحيد ذا المعنى هو المعركة الروحية ضد الشيطان. وكانوا يقيمون احتفالات تدعي فيها الفتيات أن باستطاعتهن التكلم بألسنة الأرواح والاتصال بالمسيح، والشفاء بالإيمان. وكانت ليليان تقودهم.

سحبت هذه الموجة، ولفترة معينة، عمالاً كثيرين إليها. بل لقد استقال بعضهم من النقابة، مؤمنين بأن مملكة الله في متناول أيديهم القريب.

عرف كاريغا أن هذه أيضاً معركة يجب أن تخاض. كان يتمثل دائماً «أعطِ قيصر»... ليبين الفرق بين النضال الديني والنضال الدنيوي، وأنه لا ينبغي لأحدهما أن يبعد الآخر. لكنه، في أعماقه، يعرف أن الدين، أي دين، هو سلاح ضد العمال!

كان منيرا يزعجه بصورة خاصة. فلا يتركه وحده، بل يغتنم كل فرصة ليطلب منه أن يترك سبيل النضال الأرضي، ويغيِّر أولاً قلوب الناس. لو دخل أرباب العمل، الدين، والتفتوا إلى المسيح، لانتهت الأنانية. ضاق كاريغا ذرعاً به، وأخذ يستعمل معه كلمات شديدة. حتى طلب منه يوماً أن يتركه... لكن منيرا لم يسمع. وازداد إلحاحاً

حتى بدأ كاريغا يشك في أن منيرا يستخدم لتتبعه وملاحقته. علم كاريغا، فيما بعد، أن الحركة كلها تمولها كنائس بأمريكا... جمعت ثروة طائلة بإصرارها على أن يدفع أتباعها عشر مرتباتهم زكاة إليها. وقد دفع بعض من هذا المال، مساهمة من حركة الآباء والأمهات الأمريكية، في مجهود البناء الذاتي للكنائس. أما الكتب التي كان الأتباع يشجعون على قراءتها فكانت ممتعة: «معذباً من قبل المسيح» لوورمبراند. «عالم مشتعل» لبلي غراهام، وبعض الكراريس المطبوعة في أمريكا والتي تحدث عن الشيوعية باعتبارها الشيطان، وتحذر من أن قيامة المسيح الثانية وشيكة... لتبيد كل أعداء الحرية. في أحد الأيام أرسلت إليه وانجا. طلبت منه الورقة، ببساطة، أن يلقاها في الكوخ القديم: لن يتخلف. لكنه تساءل عن سبب هذه الدعوة. إذ مضى عامان ولم يتكلما إلا قليلاً... والآن تدعوه... كان هذا قبل أسبوع تقريباً من الحادثة المهلكة.

كاريغا، وهو ينتظر في الزنزانة، تساءل عما حدث لها... هل تماثلت إلى الشفاء، مثلاً، من النار.

بدأ الضابط يستجوبه، بعد اعتقاله بثلاثة أيام. كان الضابط يعرف أموراً كثيرة، وكان كاريغا يجهل استخدام الضابط مذكرات منيرا. واتضح لكاريغا، فوراً، أن المفتش يريد أن يورطه بحادثة القتل. منذ البداية كان مهتماً بحوادث معينة في حياة كاريغا. كيف فقد أخاه، مثلاً؟ أجاب بأنه لا يعرف الظروف، وأن عبد الله هو الذي أخبره بما حدث في الواقع.

«هل صرت أكثر مرارة؟».

«حدث الأمر منذ زمن بعيد. ثم إن المرء في الكفاح يجب أن يلتزم جانباً معيناً. لا أحد يستطيع الوقوف على السياج. الكفاح شكل من

الحرب. جانب واحد يخسر أو يربح. لكن حتى الجانب الذي يربح، عليه أن يخسر أفراداً».

«تبدو جد عارف بقضايا الكفاح».

«أمور بدهية».

«قل لي: لماذا تركت سيريانا؟».

«طلب مني... أن أغادر».

«لماذا؟».

«تورطت في إضراب ما».

«من كان المدير؟».

«جوي».

«المرحوم نفسه مدير معامل تقطير الثنغيتا؟».

«نفسه».

«هل شعرت بالمرارة إزاءه؟».

«اسمع. لماذا تسألني كل هذه الأسئلة؟».

«اجلس، يا سيد كاريغا. لن أخفي عليك. انظر إلى المسألة على هذا النحو: ثلاثة مديرين يحرقون حتى الموت في بيت امرأة معروفة بعلاقة معك. وأنت السكرتير العام للنقابة التي طالبت بأجور أعلى. اجتمع المديرون ليصدروا قراراً حول المطاليب. توصلوا إلى أن مطاليبكم عالية جداً. وإن كان العمال سوف يطردون إذا أعلنتم الإضراب، ويستخدم عمال جدد. في الليلة نفسها أحرق المديرون كلهم. أنا ضابط شرطة. وبخلاف القاضي أبدأ بافتراض أن أي شخص قد يكون مذنباً... حتى أنا نفسي».

«لكني أخبرتك بأني كنت في اجتماع طوال الليل.... اجتماع تنفيذي لنقرر تكتيكات الإضراب الذي دعونا إليه».

«أعرف. أعرف. أنا لا أقول. أنا لا أدعي شيئاً. أنا أعمل ـ مثل الطبيب ـ بمبدأ الحذف. لأسألك سؤالاً آخر: هل كنت يوماً معلماً في هذه المدرسة؟».

«صحيح!».

«لمَ تركت التعليم فجأة؟».

«طلب مني أن أترك».

«من؟».

«مزيغو».

«المرحوم نفسه...».

«أنت تعرف... لماذا تسألني؟».

«عليّ التأكيد من أننا نتكلم عن الشيء نفسه. حدثني عن علاقتك بوانجا».

«عرفتها، في الماضي».

«هل استأنفتما علاقتكما الودية بعد عودتك غير المتوقعة؟».

«لا... كنا نحيا في عالمين مختلفين».

«ألم تلتقيا؟».

تردد كاريغا.

«لا... لمدة عامين لم نلتق البتة».

«نعم... دعني الآن أسمعك شيئاً».

سار إلى الجدار وضغط زراً. دار شريط أو أسطوانة. سمع كاريغا صوته أثناء الاجتماعي التنفيذي الأخير للنقابة: بمقدورنا أن نضع الأساس لعالم جديد.

«كيف... كيف جرؤ...» لقد ترنح للأمر، واستغرب... من يكون الخائن. أشار الضابط إليه كي يسكت. وأوقف التسجيل.

«أنت ترى يا سيد كاريغا... طريقتنا الخاصة في العمل». فجأة دق جودفري على الطاولة، ونظر إلى كاريغا كمن يريد تنويمه مغناطيسياً. قل لي: من قتل كيميريا، مزيغو؛ جوي؟ من أصدر الأوامر؟».

قال منيرا بنبرة لاذعة وقد شعر باضطراب الرجل: «ظننتك تملك طريقتك الخاصة في العمل».

خلال الأيام الثمانية التالية، مارسا اللعبة ذاتها. أحياناً كان يهمل يومين. ثم يأتي المفتش جودفري فجأة ليمطره بالأسئلة. وكان يخزه بتعليقات حادة: أحياناً يهزأ من تورط كاريغا في العمل النقابي، وأحياناً يصدر تهديدات مباشرة. في اليوم العاشر جاء الضابط إلى زنزانته، وعلى شفتيه ابتسامة قاسية، ظافرة.

«سيد كاريغا...».

«اسمع. أنا متعب. لقد احتجزت هنا، هذه المدة كلها، وأنا أجيب عن الأسئلة الغبية نفسها. قلت لك... لا أعرف شيئاً عن حادثة القتل. لن أتظاهر بالغضب أو الحزن أو بأي شيء... سوى أن هذه الحادثة ستمنحكم وأرباب العمل فرصة الإجهاز على النقابة. لا دخل لي في الأمر. أنا لا أؤمن بالتخلص من الأفراد. في البلاد الكثير من أمثال

كيميريا وجوي. إنهم نتاج النظام الذي يحتاج إلى أن يتغير... ولا يقدر على ذلك إلا عمال كينيا وفلاحوها».

«أوه. هذا حسن، يا سيد كاريغا. لكننا سنرى حين أنتهي منك. سأسألك الآن سؤالين أو ثلاثة فقط. أجبني صادقاً، وسأتركك وحدك. أعدك بذلك. كنت تقول لي إنك لم تلقها طيلة سنتين».

«صحيح... ما عدا ليلة عودتي».

«هل عرفت ـ لا نكتم بيننا الأشياء ـ هل عرفت أنها ذات علاقة مع الثلاثة كلهم؟».

«الجميع يعرف هذا».

«قلت إنك لم تلقها ثانية؟».

«نعم».

«حتى سراً».

«لا».

«مرة في بيت نجوغونا... بعد موت المحامي؟».

«صحيح، لكنه لم يكن لقاء».

«هل تعرف المحامي؟».

«نعم».

«اشتغلت معه؟».

«نعم».

«هل شعرت ـ لكن هذا لا يهم. الآن، يا سيد كاريغا، أريد أن تنشط ذهنك. هل التقيت بوانجا قبل هذا الحريق بأسبوع؟».

تردد كاريغا، ثم قال:

«نعم».

«لم أخفيت هذا؟».

«ليس مهماً».

«لماذا».

«مسألة شخصية».

«سيد كاريغا، عمّ تحدثتما تلك الليلة؟».

«ليس بمقدوري إخبارك. مسألة شخصية».

«هل التَقَيْتُما لقاءات سرية أخرى؟».

«لا».

«كيف لي أن أصدقك؟».

«اختر أنت ما تصدقه، وما لا تصدقه».

«سيد كاريغا. هل كان عبد الله جزءاً من هذه اللقاءت السرية؟».

«أخبرتك أن الأمر حدث مرة واحدة فقط. ولم يكن عبد الله هناك».

«سيد كاريغا، أنت كاذب» وفي نوبة غضب مفاجئة ضرب كاريغا مرتين على الوجه. سال الدم من بين أسنانه. صاح جودفري بأحد الشرطة.

«خذه إلى الأسفل. إلى الحجرة الحمراء. داوه قليلاً. ليذق بعض ما سيناله مني. هل سمعت يوماً بالسوط الشهير ذي السيور السبعة؟ زعيم

العمال! سأهتم أنا بك، قطرة قطرة من الدواء ذي الملح من سوط جلد البقر، حتى تتكلم، حتى تتمنى أنك لم تسافر البتة على أي طريق عابر لأفريقيا... نحو أي مصنع في المورروغ. أخرجوه.

3* جلس عبد الله متكوماً في ركن. إنه ما يزال يشعر بالخفة والهدوء، رغم أيام الاستجواب التسعة، التي ظل فيها يسجل إفادة إثر إفادة... ويعامل معاملة سيئة أحياناً. شعر وهو في وضعه الحالي بيد الله الهادية، التي رفعت عنه ـ أو هكذا بدا له ـ عبء سنوات عديدة. أفكاره المقلقة الوحيدة كانت بصدد وانجا: هل شفيت تماماً من الصدمة؟ هل أفاقت من غيبوبتها أو خرجت من المستشفى؟ وفيما عدا ذلك... كان صافي الذهن قادراً على النظر في حياته دون مشاعر مريرة ظلت تشوش رؤياه وتقديره للماضي والحاضر.

ما الذي توقعه حقاً من الكفاح؟ لقد اتخذت آماله دوماً صورة حلم جميل، نعومة غائمة من الوعود، نوعاً من النداء نحو شيء أعلى، وأنبل، وأقدس.... شيئاً كان سيهبه حياته مرة بعد مرة. لقد خبأ الآن في المورروغ، وماتت النيران المتألقة لأحلامه، ولم يتخلف إلا الرماد.

في المورروغ القديمة، ومع حماره ـ ساقه الأخرى، أراد فقط ترميماً، ترميماً صغيراً ـ حتى دكاناً كذلك الذي كان عند أبيه في سوق ليمورو ـ رونغاي القديم، قبل أن تغلق الدكاكين عقوبة، بعد أن أطلق الرصاص في مستشفى كيامبو على راجي، المتعاون القاسي مع البريطانيين. مرّ عليه وقت في ليمورروغ القديمة. وقت قصير، حقاً ـ حين كان كاريغا بحديثه عن الأعمال السالفة للأبطال الأفارقة في مقاومتهم السيطرة الأوروبية، مقاومة الأربعمائة سنة... قد حرّك الرماد، فأحس بأن الجمرات لم تخمد بعد... وأن لهباً ضئيلاً بدأ يخفق. حتى هذا مات مع الترميم، وحيداً، بعد أن فقد حماره وكأنه

طفله بالذات. الشيء الوحيد الذي ظل يمنحه فرحاً متزايداً كان تقدم جوزيف في المدرسة. حين أعلنت النتائج في محاولة الدراسة الأولى في نيل الشهادة الابتدائية، كان جوزيف هو الأول، ووجد له مكاناً في سيريانا! كينيا، كان لا بد له من التفكير بما آلت إليه الأحداث ـ هذه المصادفة الغريبة وتكرار التاريخ نفسه ـ كينيا كانت عالماً صغيراً! وانجا كانت الينبوع الثاني لفرحه في متاهة مرارته، متاهة وعيه بالوعود الخائبة، وبالخيانة الكبرى للدم الجماعي، دم المقاتلين الكينيين، في سبيل الأرض والحرية.

منذ وصولها إلى الموروغ، تقبلته كما هو. وجعلت من السهر عليه أن يحيا، وأن ينتظر فجر اليوم التالي. وحين اشتغلا معاً في مشروع الثنغيتا أحس بإمكان استقامة الأشياء... ربما بقليل من المال... هنا وهناك.... قد لا تؤلمه الذاكرة. قد يفعل المال فعل وسادة ريش عند أي سقطة. ربما... ربما كان هذا ما قاتلوا في سبيله... الفرص... ماذا يريد المرء غير هذا؟ توقف فقط... أما الباقي فتقرره قدرته على العمل الشاق وذكاؤه الفطري. هكذا صوّر الأمور لنفسه، وأجهد نفسه في العمل، واثقاً كل الثقة بالروح العملية لوانجا وسيطرتها المتقشفة. تحت قيادتها الحازمة، أخذت الموروغ تتسع فجأة: طرق جديدة، عمال يتدفقون، مصارف، خبراء، راقصون، حرف ومهن صغيرة عديدة. لقد رأى هذه التغيرات مثل شيء جاء به سحر وانجا. أية امرأة! واحدة بين ألف! إذ بدت له، على أي حال، المركز الحقيقي لكل الأنشطة التي كانت تدور ملبية قانوناً غير مرئي.

ثم حل الخراب، ثانية، بحياته... تماماً في الوقت ذاته الذي بدا فيه النجاح والظفر قريبين... في متناول يديه. اغتبط بمأثرتها النبيلة حين استردت أرض عائلتها. لكنه خشي من تأثير ذلك فيها. إذ بدا، فجأة،

أن قبضتها أخذت تفقد توافقها مع ذلك القانون غير المرئي. كان يأمل بعد بيع المبنى، أن يظلا قادرين على الربح من محلهما القديم، ويبتاعا محلاً جديداً أو يبنياه ولم لا! قد يتمكنان حتى من التحرك أكثر على الطريق العابر أفريقيا. كان يحس دائماً بشيء شخصي إزاء الطريق، ليس فقط لأنه يسر له الحركة، وإنما لأنه اعتبر حماره قرباناً للطريق أيضاً. ولسوف يشعر أنه في بيته إذا ما استطاع أن يقيم عمله الجديد قرب الطريق. لكن القدر اختار أمراً آخر. فقد كان افتتاح الموروغ الجديدة، دماراً لالموروغ القديمة... والآن يرى ظل كيميريا يقطع عليه الطريق، ثانية.

بعد أسبوع من صدور القرار بإغلاق محلهما القذر، ظل عبد الله في مخزنه، مخزن داراماشاه، وفكر كثيراً دون أن يتحدد شيء في ذهنه أو يتشكل. ربما كان ندنغ ـ أوري يلعنه من العالم الآخر، لأنه لم ينفذ وعده بالانتقام لموته، وللخيانة التي تعرّض لها، إذاك... لو حدث أن جاء كيميريا إلى الموروغ، حتى بعد أسبوع، لقتله عبد الله. كان متأكداً من ذلك. لكن كيميريا هو بالفعل أحد ملوك المال، بحيث تقوم المصارف والوكالات بمفاوضاته ومعاملاته وصفقاته. بعد أسبوع واحد ذهب عبد الله إلى محل وانجا، إلى مبغاها، عرف ما طرأ عليها من تغير. وأحس بالمهانة الشخصية لما رآه دخولاً لها، لا رجعة عنه، في عالم البغاء. أوذي لكنه تفهم. وقف عند الباب، ثم جلس، ودخل رأساً في الموضوع. تلعثم قليلاً، وهو مرتبك، لكنه استمر «اسمعي. أرجوك. اتركي هذا العمل. لدي قليل من المال. ما زلت أحتفظ بنصيبي من المبيع الأخير. تزوجيني. قد لا تسر هيئتي الناظرين. لكنه القدر».

أتم كلامه وهو يوشك أن يبتلع الجملة الأخيرة، لشدة تأثره. نهضت. استدارت عنه. وسارت إلى الغرفة الأخرى. ثم عادت. كانت

هادئة. «قلبي ليس دامعاً لما تورطت فيه. أنت تعرف أنني حاولت. أين كنت سألقي بهؤلاء الفتيات اللواتي كن جزءاً من محل الثنغيتا القديم؟ إلى آخرين يتاجرون بأجسادهن أيضاً؟ لا... لن أفعل ذلك من أجلهم. من الآن فصاعداً ستكون المسألة دائماً: وانجا أولاً. لقد قدرت صداقتك حق قدرها. وأتمنى أن نظل صديقين. لكن هذه كأسي. يجب أن أشربها». كان يتوقع هذا. وإن لم يهوّن عليه الأمر.

حاول أن يشتغل لحسابه مختلف الأشغال. أخذ يقطر سراً، الشانغا والثنغيتا. لكن مركز الشرطة الجديد شديد في المنطقة، فاعتقل عدة مرات، وكان يشتري حريته برزم من الأوراق. ثم جرّب أن يستأجر مبنى في الموروغ الجديدة. وأنفق عليه معظم رأس المال الذي جمعه أثناء شراكته المثمرة مع وانجا. لكن الكثير من العمال كانوا يشترون بالدين، ويعجزون في الغالب عن تسديد ديونهم، وإذا بخزينه يقل بدل أن يزيد. افتتح «سوبر ماركت» قريباً منه: لم يستطع أن ينافسه. أغلق المخزن، وعاد إلى الشوارع، شبه شحاذ. راقب مصنع الثنغيتا الجديد يرتفع، فرأى القدر يسخر منه، وممن هم على شاكلته. لم يبق لديه إلا ما يكفي لشراء البرتقال وبيعه للسيارات العابرة. البرتقال، وأحياناً جلود الخراف: كم سيضحك مني كاريغا... ظل يفكر وهو يلعن حظه العاثر. شرع شرب ـ حتى يسكر. لم يكن ليريد أن يعرف أي شيء، أو يتذكر أي شيء، أو أن يفكر ويشعر بكل ما يحدث حوله. إنه يبيع البرتقال، ويشتري بربحه، مهما كان ضئيلاً، الشراب. وفي العطل الأسبوعية يذهب إلى مشرب ومطعم الموروغ الجديدة، حيث كان يذهب كيميريا وجماعته ليشربوا ويأكلوا لحم الماعز المشوي كلما زاروا الموروغ. البار ملك ضابط إداري سابق، يستخدم فتيات جميلات. يجذبن الزبائن دائماً. لم يكن عبد الله يريد الآن أن

يقتل كيميريا أو يشتمه. كان يريد أن يملأ عينيه فقط بمرأى رجل يحبه الحظ هذا الحب كله. ما معنى أي موقف أو وضع آخر؟ كيميريا مصيب. حكيم في اختياره. ومن جديد، صار عبد الله شخصية شهيرة ـ لكن باعتباره سكيراً هذه المرة، وبائع برتقال وجلود خراف. كان جد شهير بحيث أن كيميريا نفسه أومأ إليه برأسه، مرتين أو ثلاثاً، دون أن يعرف بالطبع من هو. الشيء الوحيد الذي لم يفعله عبد الله البتة، هو أن يقبل كأساً من أحد. وحين يدخل جحره متأخراً في الليل، يستلقي على فراشه، وفي الوحدة والعتمة... يأخذ بالسخرية والاستهزاء من ندنغ ـ أوري: أهكذا ظننتني منتقماً لك؟ ها! ها! ها! كنت أشد حماقة حتى مني. أي حق لك في أن تموت؟ مت! مت! مت! مت! ثانية وثالثة، مت وحيداً، ولا تتوقع حتى أدفنك أو يدفنك أي شخص. أنا، عبد الله، سأعيش، أعيش مع الثنغيتا. الثنغيتا. انظر الآن. لقد رفضنا إعلان منيرا. والآن هو شعار قومي. منيرا ـ أحمق، لكنه ليس رديئاً. ليس رديئاً على الإطلاق. نحن الآن نشرب معاً، ونتندر... وهو يتحملني حين أذكره بذلك الجبل من التغوط في ساحة المدرسة. أنت تضحك؟ اضحك. لكني أعرف الآن أن الأفضل أن أتغوّط على رؤوس الناس جميعاً، وأعيش. سوف أتمتع بثمار الحرية: الثنغيتا، الشانغ. ثيابي الممزقة المتسخة؟ ماذا يهم... إن كنت أستطيع أن أشرب وأدفع؟ دع كيميريا ومزيغو وجوي يتمتعون بمخزني. إنهم لم يسرقوه. كل ما في الأمر أنهم عقلاء ـ كيميريا في الأقل كان عاقلاً. لن ألومه على تعقله. لن ألومه، وأنا عبد الله. ليأكل هو أيضاً نصيبه من ثمار حريته، حتى وانجا. وانجا !!!!! هل تستطيع، وأنت في قبرك، أن تتخيلها عائدة إليه مرة أخرى؟ بعد كل ما ادعت من مصائب بسببه؟ هي عاقلة أيضاً، بسبب المال... بسبب المال... ندنغ

ـ أوري... أعطني مالاً أنتقم لك ألف مرة. بدون دراهم في جيبي، لا عمل.

ثم يلطم صدره... لا تسيء الظن بي. كنت أيضاً من الحمق بحيث فقدت ساقاً في سبيل القضية الوطنية. أقول: أي حق للأمهات في أن يرسلن أبناءهن إلى ميادين المعارك... بينما كان التعقل يقضي بأن يجعلنهم سعاة خدماً للجزارين البيض؟ كلهم حمقى. ليأخذوا ورقة من وانجا. نادراً ما كان يراها. لكنه يصادفها بين حين وآخر ـ سيدة. إلا أنها لا تتصرف تصرف سيدة أمامه ـ والحق أنها تحييه بحرارة على الدوام. وحاولت مرة أن تعطيه مالاً ليشتري ملابس. كان ذلك في الطريق. لكنه حاول الثبات على ساق واحدة، وأخذ الورقة الأولى وقطعها مزقاً، وابتعد وهو ينط. سيكون كلباً لو اكتسى بمال ربما أخذته من كيميريا. فيما بعد، خجل مما فعل. وهو يعرف جيداً أنها هي التي تدفع أجور جوزيف المدرسية. لم يلمها على أي حال: فهي تفعل ما يفعله الناس.

رآها مرة في مناسبة عامة. وكان من النادر أن تظهر في هذه المناسبات. واعترف بتفوقها في اللعبة التي اختارتها. كان ذلك في حفلة أقيمت في نادي الغولف الجديد لمناسبة إتمام العمل في الساحة، وترحيباً بالسير سوالو بلودال المدير العام لشركة الجن الأنجلو ـ أمريكية، وهي الشركة الأم التي استثمرت أموالاً في مشروع الثنغيتا. وظهر أن هذا المشروع كان أنجح عمل مشترك مع أهل البلاد. حضر الحفلة كثير من الشخصيات البارزة: أوروبيين وآسيويين وأفارقة، من بينهم النائب البرلماني نديرا وا ريرا وجلادي الـ«م.ث.ك»: الكرش السمين والحشرة. وقد سمح لجمهور المورروغ بالنظر عبر سياج مكون من حبلين. كانت وانجا هناك مرتدية ثوب

كوكتيل طويلاً، ولمة ضخمة من شعر الأفرو المستعار، بينما كانت أصابعها مكتظة بالخواتم والأحجار الرخيصة. كانت لها طريقة في إبقاء الجميع مشغولين بها، هامسة إلى هذا، محتكة بآخر، مبتسمة إلى ذاك، بينما تنظر عيناها إلى شخص آخر. وصفق الحاضرون كلهم حين تحدث السير سوالو بلودان عن الغولف والكريكت وفائدتهما في خلق مناخ من الاستقرار والإرادة الحسنة المتبادلة.. والضرورية للاستثمار. صفقوا جميعاً، ووقفوا ليشربوا نخباً بصحة ومستقبل المشاريع المشتركة بين رأس المال الأجنبي والخبرة التقنية الأجنبية، وبين رجال الأعمال المحليين ومعرفتهم الجيدة بالسوق والوضع السياسي.

سار عبد الله مبتعداً.

في تلك الأيام، كان منيرا صاحبه الأفضل. إنهما يشربان معاً، وأحياناً ينفجر عبد الله في أغنية مديح لوانجا، تروي ميلاد الموزوع الجديدة.

ثم عاد كاريغا، فإذا منيرا متعصباً. عبد الله وحيد الآن. كان منيرا يتبعه، ويتحدث عن عوالم جديدة مع المسيح. ومرة، وهو يتناقش مع كاريغا عن حرب الماو ماو ـ هل كانت فقط لإعادة الأراضي المرتفعة البيضاء إلى الملاكين السود، وإزالة حاجز اللون في العمارات والتجارة... أم كانت شيئاً آخر ـ تحدث كاريغا نفسه عن عوالم جديدة.

كلاهما أحمق. ليس ثمت عوالم جديدة. ليس من عالم إلا هذا. وهو، عبد الله، سيظل يشرب الثنغيتا الرخيص، ويغني لهذا العالم الواحد الأحد.

كل هذا قاله عبد الله، محاولاً أن يبيِّن للضابط أنه أضاع أي فكرة في الانتقام. ما عدا ذلك اليوم المقدر، الذي عادت فيه كل تلك المشاعر، حادة مندفعة، وغدت قوة لا تقاوم. لكنه لم يستطع إخباره، بأن هذا قد حدث أيضاً بسبب أنه اكتشف، قبل أسبوع فقط، عالمه الخاص، عالمه الجديد.

كان يوم جمعة، حين تسلَّم رسالة ووضعها في جيبه، ولم يقرأها إلا مساء وهو يوشك أن يدخل الفراش. كانت من جوزيف. لقد أعلنت النتائج وكان متفوقاً بسبب علامات. لم يكن عبد الله يعرف معنى العلامات الست. لكنه عرف أن جوزيف متفوق في سيريانا، وأحس بدفء مفاجئ وفرح لهذا الانعطاف في الأمور وسط هذا الظلام الذي كان حياته. ودّ لو يشاركه أحد فرحته، وفكّر بوانجا. تذكر يوم مزق ورقتها المالية... واليوم لديه الفرصة. اتجه نحو المبغى الخشبي، لكنه لقي كاريغا في الطريق... فحياه كاريغا، وأخبره أن وانجا في الكوخ. وجدها تبكي. وما إن أخبرها الخبر حتى توقفت عن البكاء، وضحكت بين دموعها. تحدثا طويلاً في الليل، كعهدهما في سالف الأيام. لكنه ضاجعها هذه المرة، ولم تقاوم... لقد جاء دوره ليشعر بأن العالم القديم ينأى.

* * *

لهذا السبب، أفاق صباح السبت المشؤوم، وهو يحس بالقوة وبأنفاس الفرح في الهواء. هكذا كان أسبوعاً كاملاً. لم يشرب شيئاً. لقد أعادت إليه وانجا حياته، فلم يشأ أن يبددها في الثنغيتا. وتتويجاً لهذا كله، أرادته الليلة... ليس في الكوخ... لكنه لا يعترض على بيتها الآخر. ولربما استطاع، في الوقت نفسه، إقناعها بترك البغاء... فهي غنية الآن ـ بإمكانها حتى أن تحرق البيت ـ وتشيد مبنى حجرياً. صفر

وغني: كيف استطاعت أن تسخر من حديث منيرا عن عالم آخر؟ إن له الآن عالماً... المرأة حقاً عالم آخر: له تضاريسه ووديانه وأنهاره وجداوله وتلاله وسلاسله وجباله وانعطافاته الحادة ومرتقياته البطيئة ومهابطه... وفوق ذلك كله: الينابيع السرية للحياة. أي مستكشف، بالرغم من تنافج الرجال ـ يستطيع الادعاء بأنه لمس كل ركن من ذلك العالم، وشرب من كل جدول فيها؟ ليبق الآخرون في عوالمهم الخاصة: المسطحة، الدكناء، بدون تضاريس، ولا انعطافات غير متوقعة، أو مفاجآت ـ المرأة عالم. المرأة هي العالم. حلق ذقنه، وجرّب ملابس، ليختار أقلها قذارة وتمزقاً واهتراء. لم يعرف ماذا يفعل بنفسه قبل حلول الليل، قبل أن يبدأ رحلته الاستكشافية الثانية. في الظهيرة مضى يتجول في الشوارع. صعد إلى مطعم ومشرب الموروغ الجديدة ليستمع إلى بضع أسطوانات. ثم نظر إلى أسفل، فرأى سيارة كيميريا المرسيدس وسائقها الذي ينتظر. وبعدها السيارات الأخرى لمزيغو وجوي. اليوم يجتمع مجلس الإدارة ليصدر قراره بصدد المطاليب التي قدمتها نقابة عمال الثنغيتا. أومضت في ذهنه فكرة مثل موجة حرارة مفاجئة: لو اتخذت هذه الفكرة لبوس الكلمات لكانت: قد يذهب كيميريا، الليلة، إلى منزل وانجا.

أحس بالدوار. ظل رأسه يدور، ويدور في عالم من الفوضى والظلم. ظن أنه سيهوي، وتشبث بالشرفة. ولثوان قليلة، تتابعت الصور... كأنما فقد التحكم... كأنه لا شيء... هيكل لإنسان. لا... كان كلباً يلهث، سائل الأنف. واللعاب يسيل من لسانه الممدود. إنه ينبح الآن مستجيباً لنداء سيده.

لا. إنه ليس كلباً. إنه موبوتو يعانقه نيكسون. وهو سعيد بمهمة طلبه المساعدات، بينما يشير نيكسون بوجهه إلى رجال الأعمال

والمظليين الأمريكيين، كي يسرعوا، ويستخرجوا البترول والذهب والنحاس واليورانيوم من زائير. إنه «أمين» تستقبله الملكة بعد إطاحته بأوبوتي. لا.. إنه حماره... ينهق، ويحمل طائعاً أي قدر من الأعمال لسيده. في الوقت نفسه، أحس بالوهن، كأنه يفقد آخر خيط من رجولته. ناضل بمرارة، متشبثاً بنفسه، متشبثاً بالشرفة، محاولاً السيطرة على تلك الصور، وإخضاعها لتحكمه... ولنوع من المنظور.. بدل أن تظل دوارة، طليقة... مهددة. مرت إحدى فتيات المشرب وسألته: «ما بك يا عبد الله؟» لم يجبها. لم يستطع أن يجيبها. وبالتدريج، عادت القوة إلى ساقه الوحيدة، وانحسرت موجة الحرارة التي كانت تذيب دماغه. هبط السلم وهو ينط، وعبر السيارات المنتظرة، نحو مسكنه. جلس على صندوق. وتناول الرسالة التي تلقاها، الجمعة الفائتة، من جوزيف، وقرأها ثانية، ثم أعادها إلى مكانها. انحدرت دمعة، دمعة وحيدة، على وجهه. مسحها وهو نافد الصبر. صبّ ماءً، ماءً بارداً من قدح، في يد واحدة، وغسل وجهه. وفجأة أحس بالراحة والهدوء. لقد انجاب ضباب ست عشرة سنة. لم يعد يغار من أي شيء. ذلك الداخل العميق فقط، كان يعرف... إن كيميريا... هذه الليلة... هذا السبت.. سيموت. آنذاك... حسب... سيستعيد الحق في أن يدعى رجلاً. لم يعرف الأمر. عرف فقط أنه... عبد الله... سوف يقتل كيميريا، هذه الليلة، وأنه لن يواجه وانجا أو كاريغا أو منيرا أو جوزيف أو نفسه، إلا إذا كان كيميريا ميتاً. لا غداً... ولا بعد غد... وإنما الليلة. كان جد متأكد. وكان الأمر واضحاً بسيطاً منطقياً تماماً. لم يرتجف غضباً أو أي شيء. ولم يشعر بذلك الغيظ الأخلاقي الذي اعتاده بديلاً من الفعل. سمه عدالة، أو عدلاً، أو غيرة، أو انتقاماً. لكنه اتخذ قراره: لم يكن الوقت واليوم والمكان من صنعه، لكن الفعل كان حريته. لم يفكر بالوسيلة التي سيستعملها

أو كيف، لكنه يعرف أنه قادر على تصويب مدية إلى القلب، حتى على مبعدة عدة ياردات. لقد قتل كثيراً من الأعداء، وحتى من الحيوانات، برمية مديته الشهيرة. بإمكانه أيضاً أن يحرق المنزل، ويطهر المكان كله. نعم بإمكانه ذلك. ولا يهمه كيف: سيفعلها.

عاد إلى الشوارع، وقد استعاد قوته وإحساسه بالهدف. وعبرت المورروغ ذهنه في سلسلة من الصور المتحركة. رأى نفسه يصل في عربة حمار قبل اثنتي عشرة سنة. ثم جاء منيرا، وكاريغا مع براءته الفتية المتسائلة. كل صورة ـ لوانجا، نياكينيوا، الجفاف، الطائرة، الطريق الجديد، المورروغ الجديدة ـ كانت حادة المعالم. انضم إلى حشد من العمال الذين كانوا ينتظرون أخبار القرار الذي توصل إليه مجلس الإدارة. إن لم ترتفع أجورهم، فلسوف يعلنون الإضراب ـ خلال ثمانية أيام. كان الصحفيون ينتظرون مع آلات تصويرهم ـ لقطة لأعضاء مجلس الإدارة. لديه الآن وقت للتعجب من كاريغا. جد هادئ. جد منهمك. وتمتم لنفسه... الأمر يجري في دمه. وتذكر ندنغ ـ أوري في شبابه. وأحس بالارتباك وهو يقف هناك، واستعاد مناقشاته وخلافاته مع كاريغا. وفكر الآن: هؤلاء العمال أنفسهم الذين يقودهم كاريغا، يمكن أن يكونوا مجتمعين أيضاً هناك ضده وضد وانجا. وأدهشه، إنه قبل سنوات قليلة فقط، كان يستخدم عمالاً، ولو على نطاق ضيق. أكان كاريغا سيحاربهم بالشدة نفسها؟ سئم الانتظار. ثم إن الزيادة في أجورهم لن تؤثر كثيراً في مبيع برتقاله. حسناً، قد ينفقون أكثر على البرتقال، لكنه متأكد أيضاً من أنهم سينفقون أكثر حتى على الثنغيتا. وفكر بأن المديرين حمقى حين لا يزيدون الأجور... كان كريم النفس مع أرباب العمل والعمال معاً. ثم إن العمال سيردون المال إلى المصنع. أخذ يتمشى نحو مطعم ومشرب

المورِوغ. فهو يعرف أنهم سيأتون إليه بعد الاجتماع. سار في الشارع الرئيس، ومرّ بالمزبلة قرب ساحة السوق، حيث ترمى الأقذار والأوراق وقطع البرتقال وبقايا الطعام المتعفن. توقف هناك، وراقب حشود الأطفال أنصاف العراة، منتفخي البطون، وهم يتشاجرون، مطالبين بحقوقهم في العفن والقمامة. هزّ رأسه. واستأنف سيره نحو مصيره المختار. حقاً... جاؤوا جميعاً في حوالي الساعة السابعة، وكان يبدو عليهم الظفر والثقة بالنفس. جوي كان أول من اعتذر وهو ينظر إلى ساعته، وبعده بقليل فعل مزيغو الأمر نفسه. أمسك شيطان عات بعبد الله. وأحس بالحاجة إلى أن يكلم كيميريا. أحس في نفسه بهذه القوة والسلطة لأنه كان قد أصدر حكم الإعدام، فعلاً، على كيميريا.

الشخصيات المحلية البارزة تحيط بكيميريا. خطا عبد الله خطوة على النضد، ثم صارح بصوت عال:

«كيميريا واكاميا نجا!».

هبط صمت فوري على المشرب كله. وأجفل كيميريا لأنه لا يحب اسم أبيه. لقد استخدم عدة أسماء، في عدة أماكن: في التلال الزرقاء مثلاً... كان السيد هوكنز فقط. من تراه يعرف ماضيه في المورووغ؟

«كيميريا... ها أنذا... كيف حالك؟».

«أوه.. هذا أنت... عبد الله... أنا بخير» أجاب مرتبكاً.

«هل تتذكرني؟» ضحك الناس، وهم يظنونها طرفة سكر من رجل مهدَّم.

«طبعاً، يا عبد الله... أتريد شراباً؟ أيها الساقي! قدّم لصديقي عبد الله... شراباً».

«لست صديقك: لا أريد شرابك. أتتذكر الناس الذين ألقيت عليهم القبض، مرة، في بيتك بالتلال الزرقاء؟ ناس من الموروغ؟».

آه... تأوه كيميريا مرتاحاً: إذاً... هناك رأى الرجل... ولربما عرف اسم أبيه هكذا!

«كانت فقط نكتة ـ بين رجال! ها! ها! ها! ها!».

«ها! ها!» انضم عبد الله إلى القهقهة، وصار الاثنان يقهقهان معاً. أخذ الناس في البار يقهقهون أيضاً ـ مع أنهم لم يعرفوا النكتة بين الرجلين ـ فلقد تنفسوا الصعداء حين لم يحدث أمر مزعج. لكن عبد الله استمر في كلامه: «أنت كثير الشغف بالنكات، يا سيد كيميريا. نكات بين الرجال. هل تتذكر نكتة أخرى لعبتها يوماً على ندنغ ـ أوري... عشيق أختك؟. بعته طلقات... النكات بين الرجال قد تكون باهظة الثمن...

كان كيميريا يرتجف في داخله. ودّ لو يندفع خارجاً، لكنه أرغم نفسه على البقاء مسمراً في كرسيه. بحث، مهتاجاً، عن منديل. أخرج منديلاً مع مسدس ـ مسدس صغير ـ ومسح أنفه، وأعاد الاثنين كليهما إلى جيبه. طلب شراباً آخر. تصرف ببرود تام. لكن، لم يخطئ أحد الأمر. انتظروا خطوة عبد الله الثانية. لكن عبد الله ضحك فقط، ومضى مبتعداً... وصوت في داخله: حدق فيّ ملياً... كي تتذكرني حتى بعد موتك.

خرج، وهو ينط بهدوء. عادت الضجة إلى المشرب. لكنه عرف أن الناس يراقبونه. سار عامداً إلى مسكنه. إنه ما يزال يتمتع بذلك الوضوح من الثقة بالنصر الآتي. كيف تراه لا يهاب النتائج... كيف أمكنه ألا يهاب النتائج؟ سيكون كيميريا في منزل وانجا. كان جد

متأكد. أن كيميريا من ذلك النمط الذي يريد أن يبتلع كل شيء، ولا يترك لأحد شيئاً قليلاً يلتقطه. أخذ مدية وعلبة ثقاب. ثم سار، بطيئاً، نحو منزل وانجا، ليلقى مصيره المختار. توقف، واستمع إلى الأخبار قرب جحر لأحد جيرانه. كانت الساعة التاسعة. لن تزداد أجور العمال بسبب التضخم. وقد تبع هذا الخبر، خبر عن اجتماع للبلدان المصدرة للنفط حول زيادة أسعار النفط الخام. ثم خبر صغير عن زيادة في أرباح شركات النفط. يا لهذا العالم! استمر في طريقه. بإمكانه الآن أن يرى منزل وانجا ابتعدت سيارة مرسيدس. ربما كانت سيارة كيميريا. لم يشعر بالقلق ثانية. مسألة طبيعية في منزل وانجا. الشخصيات البارزة يوصلها السواق. يصرف السائق ويعين له وقت ليعود بسيده. لن يقلق مهما حدث. يد خفية للقدر تقوده. سيدخل منزل وانجا، والمدية في يده، وربما كان الأفضل أن... الأفضل...

للوهلة الأولى لم يصدق شهادة عينيه. أترى الأمر يحدث في ذهنه؟ أتراه، ثانية، تحت ضربة حرارة في الدماغ بحيث لا يرى إلا وهماً؟ ألسنة لهب حمراء تتصاعد من منزل وانجا. ظل مسمّراً في الأرض. لكن للحظة واحدة. إذ سمع فجأة صرخة ثاقبة تنبعث من المنزل. شرع يتحرك وهو يلعن عجزه عن الإسراع. نط... نط... قدر استطاعته. لكن الناس خرجوا بسرعة من بيوتهم، واندفعوا متقدمين عبد الله. غير أنه وجدهم واقفين يتناقشون عن أفضل طريقة للعمل. إنه عبد الله، يتخذ قرارات الموت والحياة... في غابات لونغونوت وجبل كينيا. هشم بعكازه زجاج النافذة بغرفة الجلوس. أدخل يده. وجذب المزلاج، ثم رفع نفسه، وسقط في الغرفة. تلمس طريقه، وبحث بيديه وقدمه، حتى لمس جسماً قرب الباب. وتلمس طريقه، ثانية، في الدخان الخانق والحرارة، ووجد مقبض الباب، ففتحه، وسحب

في الوقت نفسه، الجسم، خلال النار والدخان. لم يتوقف ليعرف صاحب الجسد، ربما كان جسد كيميريا، أو جسد إحدى الفتيات. لم يهتم. سحب الجسد، زاحفاً على يديه... ولم يكد يتخلص من ألسنة النار، حتى تهاوى خارج المنزل. لكن الجمهور الذي كان يلقي الماء في محاولة غير مجدية لإطفاء النار، شاهد كومة الجسدين البشريين، وسحبهما إلى الأمان.

* * *

في اليوم العاشر من اعتقاله، رأى عبد الله، الضابط. يندفع داخل زنزانته، وعرف أن الرجل في مزاج عدائي. لكن عبد الله ما يزال يمتلك ذلك الصفاء في القلب، وأحس بهدوء، إنه مستعد لأي طارئ. لقد أجاب عن الأسئلة السابقة دون أن يخفي شيئاً، عدا الأمور الحميمة. لم ينتظر الضابط، وإنما دخل رأساً في الموضوع: «سيد عبد الله، كنت حتى الآن إلى، صادقاً في إجاباتك. بل لقد تطوعت في تقديم معلومات. لم تخف كرهك كيميريا، واعتزامك قتله. وأريتني المدية وعلبة الثقاب. سأكون صريحاً معك. لديّ شعور بأنك قد تتستر على شخص آخر، لأسباب تعرفها أنت. والآن أريد أن أسألك بضعة أسئلة أخرى».

«ليس عندي شيء أخفيه، ولست أتستر على أي شخص. لقد أخبرتك بكل شيء».

«أريد أن تعود بذهنك إلى الوراء قليلاً. هل عقدت اجتماعات سرية مع كاريغا في كوخ وانجا؟».

«لا... لا هناك، ولا في أي مكان آخر. أنا وكاريغا لسنا متفقين دائماً، خاصة بعد عودته من منفى السنوات الخمس».

«لماذا؟ ماذا كانت الخلافات؟».

«اعتقدت أنه يمضي أكثر من اللازم في التأكيد على تضامن العمال بمساعدة صغار الفلاحين. ماذا عن العاطلين؟ عن صغار الكسبة؟ رأيت، وقلت له هذا، إن الأرض يجب أن تتاح للجميع، وإن القروض يجب أن تتاح للفقير، وألا يتمكن شخص ما، من عدة أشغال ـ باختصار: توزيع عادل للفرص. لكنه كان يحتج دائماً بأن القروض ستعجل فقط في خراب الصغار من رجال الأعمال، وفي تغريب صغار الفلاحين... وأن العمال، باعتبارهم قوة، يزدادون باستمرار، وأنهم أناس المستقبل، وأن ـ».

«ممتع... لكني أعتقد بأننا سوف نسمع المحاضرة حين يتوفر لدينا متسع من الوقت. الآن أريد فقط أن تعود بذهنك إلى ما قبل الحادثة بأسبوع. هل زرت وانجا أم لم تزرها؟».

«زرتها».

«في مبغاها؟».

«لا».

«أين؟».

«في كوخها».

«هل كان كاريغا هناك؟».

«لا... لا أعرف... لم أسأل على أي حال».

«ماذا تقصد؟».

«حسناً... أردت أن أرى وانجا لأسباب ـ المهم أنني أردت رؤيتها. لكني وأنا في طريقي إلى مكانها، التقيت بكاريغا. حيا أحدنا الآخر.

سألني إلى أين أذهب الليلة؟ أخبرته. قال لي إنها في الكوخ، لكن لم يدر في خلدي أن أسأله كيف عرف».

«حسناً... عمّ تحدثتما؟».

«مسألة شخصية».

«لطيف. لطيف جداً... لمَ لم تقل لي هذا، قبلاً؟».

«ما ظننت الأمر مهماً. ثم إنها مسألة شخصية».

«شخصية! شخصية! شخصية!» كاد يصيح، وهو يدور في الزنزانة الضيقة، ثم توقف عامداً وواجه عبد الله.

«لمَ تتستر على كاريغا؟».

«لست أتستر... لا شيء أتستر عليه».

«لا شيء تتستر عليه؟ سنرى. أيها الحراس! أيها الحراس! داووه...» وخرج من الزنزانة متجهاً نحو الحجرة الحمراء.

4* في اليوم العاشر فقط... استعادت وانجا من صحتها ما يجعلها قادرة على التكلم بدون ذلك الرعب الحيواني في عينيها، الذي يغرقها، فجأة، في رؤى النار والدخان، ويدفعها إلى الصراخ: انظروا. انظروا. أطفئوها، أطفئوهـ ااااا....! الصدمة، الحروق على اليدين، الأرق... هدها. في اليوم الثاني عشر، سمح لضابط الشرطة بأن يراها. كان مقتنعاً بأن الجواب واقع بين هؤلاء الثلاثة، وهو مصمم على استحصاله. لقد توصل إلى عدة أشياء: مثلاً... دعت وانجا، تعييناً، مزيغو، وكيميريا، وجوي، إلى تلك الليلة: منحت حارسها وفتياتها عطلة يوم وليلة، والآن يدعي عبد الله أنها طلبت منه المجيء! لكن... لِمَ أرادت أن تحرق نفسها ومنزلها؟ وهو يرى،

شأن، الآخرين، أن هذا الرعب الحقيقي الذي لم يغادر عينيها، حتى الآن، ليس مزيفاً. تحدث إليها بلطف:

«سرعان ما تتغلبين على المسألة. لا تقلقي كثيراً. سوف نتوصل إلى قرارة الأمر. سنعرف المجرمين. لسنا رديئي العمل تماماً. ثمت حلقة أو حلقتان مفقودتان. قد تساعدينا».

«لا أريد الحديث عن تلك الليلة. لكن إن وجب الأمر، فأرجو أن تمنحني مهلةً لشفاء ـ من الداخل».

«آسف أسفاً شديداً لنكئ الجراح القديمة ـ لكنك تعرفين أن هذه المسألة خطيرة جداً، إنها اغتيال... إقرئي الصحف. توتر متزايد في البلاد. ونحن نشك بوجود دوافع سياسية. تفهمين إذاً، أنك يجب أن تتذكرين وأن عليّ أن أسجل إفادتك عن ليلتين بصورة خاصة».

«استمر...».

«أولاً ـ أتشكين بأحد؟».

«لا... لا أشك بأحد... هكذا كان الأمر دائماً».

«ماذا تقصدين؟».

«أظن الأمر غير مهم. لكن النار كانت كابوساً في عائلتنا. ماتت عمتي بسبب الحريق المتعمد. أنا تركت مشرب بوليبو لأن الحجرة التي استأجرتها هناك أحرقت. هكذا ترى أنني هاربة دائماً من نار واحد إلى نيران عظمى».

«نعم. قبل أسبوع من هذا الحريق: هل زارك كاريغا؟».

«أجل... أردت أن أراه».

«في بيتك ـ».

«في كوخي».

«وعبد الله.... أكان هناك أيضاً؟».

«نعم، ولا».

«معنى؟».

«إن كاريغا جاء أولاً. وتبعه عبد الله. كانت ـ مصادفة غريبة».

«ربما ساعدتنا في التفسير. رفض كاريغا وعبد الله كلاهما الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بتلك الجمعة. يقولان إنها مسألة شخصية. لكن يجب أن تفهمي أن لا مسألة شخصية تقف في طريق الحقيقة... وكشفها... إزاء حريق متعمد واغتيال».

«هل رفضا؟ أعتقد أن المسألة كانت شخصية. لكن ليس فيها ما أخفيه».

ومع هذا وجدت الكثير مما ينبغي كتمانه، حين حاولت أن تحدثه عن تلك الجمعة. أرادت أن تبين له الوقائع الرئيسية، وتترك التفاصيل الحميمة. في شبابها تعاملت مع قلة من رجال الشرطة، وهي تعرف تدقيقهم وشكوكهم حتى في أهون التفاصيل، خاصة حين يكونون قد توصلوا إلى بناء نظرية مهما كانت مغلوطة. كما تعرف أيضاً أن كاريغا وعبد الله قد يغدوان جد عنيدين فيسببان لنفسيهما المتاعب. هكذا قامت بإعداد للقصة أثناء روايتها. والسرد الجيد، على أي حال، يعتمد على التفاصيل التي تذكر، وتلك التي تهمل. لكنها لم تستطع حتى أن تسر نفسها بالسبب الذي دفعها إلى دعوة كاريغا تلك الليلة بالذات، ولماذا اختارت الكوخ خصوصاً. ربما كانت الذكرى الدافئة لعلاقتهما السابقة. أو احترام مشاعره إزاء المبغى. لقد مسحت أحمر الشفاه، ونزعت الشعر المستعار، ولم تبق إلا خرزها، وبعض

الأساور. وكان قلبها، وهي تنتظره، يخفق في أمل غامض. وقد دهشت ألأنها ما تزال تحس هذه الأحاسيس.

لقد استهلكت خفقة القلب: بسبب المال المنزلق بين يديها، وذكائها في التلاعب بالأوضاع، وقدراتها على قراءة وجه الرجل قراءتها لكتاب. عارفة أي أوهام يريد، واي إحباطات يرجو درءها، ثم الإثارة المتأتية من برهنة الصواب: لقد اعتادت كثيراً هذه الهزة، حتى تصورت جسدها وقلبها عصبين ميتين.

حين جاء ووقف عند الباب، عاودتها كل أوهام الأيام الأولى. فقط.. صار الآن كبيراً، محكم الجسد، شهيراً في المنطقة، وفي البلاد بأسرها كما تصورت. آلمتها طهارة الفرح التي أحست بها عند رؤيتها ـ ثمت شيء يناضل ليولد، ويبلغ النور... إزاء الركام والصدأ والقمة. كاريغا أيضاً، أحس بوهم العودة إلى الماي. لاحظ أن الفراش ما يزال الفراش نفسه، الملاءات نفسها، والمصباح والأثاث. لقد احتفظت بها مثلما خلفها: لحظة في فضاء متجمد. المورووغ تغيرت: الكل تغير: قوى جديدة ولدت، وخطوط المعركة أكثر وضوحاً. وبالرغم من هذا... لم يستطع وهو ينظر إليها إلا أن يدهش: كيف يمكن لوانجا أن تكون أشخاصاً مختلفة، في أزمنة وأماكن وأوضاع مختلفة؟ وأفترض أن هذا هو سر نجاحها المستمر: فبإمكانها أن تجتذب أناساً مختلفين في أوقات مختلفة، كأن كل واحد منهم يجد شرط كينونته منعكساً عليها. ولم يملك إلا التأوه أسفاً على هذه الموهبة الضائعة.

قال لها وهو يجلس على ما كان كرسيه المنطوي المفضل:

«إنها تذكرني كثيراً بنياكينيوا، وليلة شربنا الثنغيتا للمرة الأولى».

قالت: «نعم. أتشربُ الشاي؟».

«كوب... سيكون بديعاً».

راقبها، راكعة على ركبتيها، تدفع ضغطات في الوابور، بينما نضج قلائدها وأساورها في توافق مع حركتها. كانت مستغرقة تماماً في العمل ـ وكانت، حقاً، جميلة. كيف استطاعت هذه المرأة أن ترمي طفلاً، حياةً، في مرحاض؟ كيف تتاجر امرأة كهذه بأجساد الفتيات؟ لن يكون قاضياً عليها، ومع ذلك... فقد عكرت هذه الأفكار المزعجة، إعجابه بها.

سألها، ليقول شيئاً، حسب: «لمَ احتفظت بالكوخ؟».

«لا أريد نسيان الموروغ القديمة. لن أنسى أبداً كيف عشنا قبل أن يشطر الطريق عابر أفريقيا، الموروغ، شطرين».

«ما الأمر؟».

«لشد ما تغيرت. كنت تقول إن الماضي هام جداً للحاضر، وأشياء مماثلة».

«صحيح... لكن فقط باعتباره درساً حياً للحاضر. أقصد أن علينا ألا نحتفظ بماضينا كمتحف: بل يجب أن ندرسه نقدياً، بلا أوهام، ونرى أي دروس يمكن أن نستخلصها منه، في ميدان معركتنا اليوم من أجل المستقبل والحاضر. لكن لا نعبده ـ لا. ربما كنت أعبده: لكني لا أود الاستمرار في التعبد داخل هياكل ماضٍ بلا طرق معبدة، ولا مطابخ كهربائية... داخل عالم محكوم بالعبودية للطبيعة».

«أنت أيضاً ـ تبدو لي واعظاً، جد مخلص! ومع هذا كنت تجلس عند قدمي جدتي، وتظل تسألها: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ ثم تسرح متفكراً... ضائعاً في جبروت صوتها وحكاياتها».

«كنت امرأة عظيمة. لقد أسفت حقاً حين سمعت كيف دفعوها إلى الموت. هذا هو نظامك: إن لم تأكل تؤكل».

صبت الشاي في كوبين ـ الكوبين القديمين نفسهيما ـ وجلست.

«كانت تقول دائماً إنك ستعود... حتى على فراش موتها... غريب.. استدعتني، وظللنا نتحدث يومين: أو أنها التي تحدثت، بحيث أعادت إلي طفولتي نقية... ومعها أشياء كثيرة. مرة أراحت يدها على رأسي، وقالت دون أن تنظر إلي كثير من الأسف والحزن في عينيك وقلبك... أنا أعرف سبب حزنك... لكنه سيعود، سيعود، فقط أخشى ألا تكوني هناك لتستقبليه... قلت لها: لن أغادر الموروغ أبداً. لم تجب. انتظرت أن تستمر في كلامها ـ لكنها لم تزد شيئاً حول الأمر... ولم تتحدث عن المستقبل أو الحاضر. بل ظلت تتكلم عن جدي. ثم سألتها السؤال الذي كنت وجهته إليها مرة: «أخبريني كيف لقي جدي حتفه؟»».

«كان رجلاً ـ ينتسب إلى جنس من الرجال لن يوجد مثله أبداً. أعرف الأمر: ألم يأخذني تحت نبات الدخن، فشعرت بقوته تخلق مني، وأنا البنت، امرأة؟ ألم نعمل الثنغيتا معاً؟ لا هذا الشيء الملفق الذي تغشين به الناس، مع عبد الله. لكنه كان مؤرقاً دائماً بذكريات الماضي ومخاوف المستقبل. وقد أخبرني أن هذا كان بسبب ما شاهده بأم عينيه حين كان ولداً ـ فتى على أبواب الرجولة. لقد سمع بما حدث مرة في سوق الموروغ. كما سمع بوقائع أخرى، لكن في بلاد بعيدة فقط. آنذاك كانت المعارك الضارية مشتدة ضد الغرباء ـ أنت تعرفين أن تلك الجهة من داغوريتي كان يسكنها الايتونغاتي بقيادة واياكي: سيري عبر وانجيجي، واجعلي سلسلة وايناجنجي إلى يمينك، تصلي إلى غيثيغا، عشيرة مونيو، التي جاءت أمك منها.

سمع بهذا كله، لكنه حسب أنه لن يحدث في الموروغ أبداً. ثم وقعت الواقعة. اختبأ النساء والأطفال في الكهوف والغابات. وصمم شبان الموروغ ألا يؤخذوا على حين غرة... وأن يدافعوا عن ماعزهم وأرضهم، ممتثلين للعنة نديمي. اختبأ جدك في جرن.... رفض أن يهرب مع النساء والأولاد الآخرين. بكى لأنه لم يختن بعد... فلم يستطع المشاركة في الدفاع عن هذه الأرض. حدثني كي رأى ألفاً من أسنة الرماح التي يحملها محاربونا، تتألق بشمس الغروب، فتتوهج مثل ألسنة لهب من بيت يحترق... إنهم يسيرون ليلاقوا العدو. ألف محارب شجاع يسيرون نحو موتهم... مبادين بالنار والانفجار من تلك العصي... لكنهم وقعوا على العدو... صارخين تحدياً، حتى أرغموا العدو على الفرار... لكن كان على الأرض زهرة رجال الموروغ... بكى لعجزه عن المشاركة... وأقسم... المرة الثانية.. المرة الثانية... لكنه في المرة الثانية كان شيخاً... لا عمل إلا أن يكون حمالاً... هناك سمع الهمس... كيف حمل الفلاحون... في بلاد اسمها روسيا، رماحهم، واستولوا على البنادق، وطردوا العدو. أكانوا سوداً مثله؟ هل كان الذي طردوه أوروبياً؟ في أحد المعسكرات... سرق شيئاً... وأقسم.. المرة الثانية... لكن أبناءه هم الذين أخذوا في المرة الثانية. لكنه احتفظ بالسر، وأخفاه، حتى عني... كان يشيخ... والأحلام تؤرقه... حيوان الأرض...

ظن أن أباك سيكون ممتعاً بعد أن رأى الحرب الكبيرة... شبان آخرون كانوا يتحدثون عن حرب أخرى... كما في الهند... كما في الصين. لكن أباك هرب... فأوجعه الأمر... وبدا له أنه لن تكون ثمت مرة ثانية. وظلت أحلامه تؤرقه حتى التأوه والأنين... لقد يئس... أخبرني بالسر... قلت له: انس حماقتك. وظننته نسي.

وفي أحد الأيام جاء وايتينا مزونغو السمين ـ أنت تعرفين ـ ذلك الذي كان يأمر الناس أن يحفروا قبورهم بأيديهم...

أراد أن يعرف من يساعدون المجموعة التي يقودوها أولي ماساي. جمعونا. ثم قال إنه سيقدم عبرة لمن يعتبرون، واختار شابين: سيقتلان. وقال: شيخان يحفران قبرين للشابين. طلب متطوعين للحفر... فبرز جدك ـ حسبناه كلنا قد جن ـ متطوعاً. انتابني خجل شديد، وبكيت: إذاً كان رجلي امرأة بعد هذا كله؟ أيذهب، ويأتي بمعول ليحفر قبراً للشباب؟ إذاً كانت تلك الأحلام كلها بسبب البول والغائط في عظامه؟ راقبناه جميعاً وهو يدخل الكوخ... إلى الجرن... ثم يخرج، وعلى كتفيه معول... أوشكت النسوة أن يصرخن به.. كنت أعرف أنهن سيصرخن، وأردت إيقافه عن هذا العمل الغادر... وإذا به.. تلك الساعة لن أنساها أبداً... إذا به يرمي المعول، ويسحب السر من تحت ردائه، ويصوّبه إلى وايتينا... ارتعد وايتينا، رأينا رجلاً أبيض يرتعد، وانتظرنا جميعاً صوت الإطلاق... آه لو كنت هناك... كنت فخورة، فخورة جداً... أستطيع الآن أن أرفع رأسي بين النساء... حسناً... لم ينطلق السلاح... كان قديماً جداً... سحب وسحب... هكذا أمسكوا به وشنقوه... لكنه لم ينطق كلمة «آسف» البتة، ولا أطلق صيحة تطلب العفو... كان رجلاً، رجلي.. كان رجلاً!».

«ماتت في الليلة نفسها... ولن أنسى كلمات فخرها وفرحها... «أنا ذاهبة لألتحق بك، يا محاربي...» وأغمضت عينيها». شعر كاريغا كأنه بين أولئك الذين راقبوا جد وانجا وهو يسير إلى موته البطولي، وفياً لوعد قطعه على نفسه، أيام شبابه... في القرن الماضي.

«إذ ذاك عرفت لماذا لم يعد أبي البتة، ولماذا كان مع أمي في خصام دائم.... وأورثا أبناءهما عبء التوتر بينهما... قل لي يا كاريغا،

قل لي... كيف تراني أستطيع أن أدع هذه الأرض تنتقل إلى المصرف الاقتصادي الأفريقي... بعد هذا؟ حتى لو اضطررت إلى بيع نفسي مراراً وتكراراً»...

أحس بالنار القديمة تتقد... مد يده ليلمسها... انتظرت معلقة... لكن وسط الهواء، أحس بلا جدوى العمل، وحك رأسه، كمن يبحث عن كلمات مناسبة.

«ذاك نوع الدرس الذي نستطيع أن نتعلمه من ماضينا... دليلاً للعمل... لكننا نتعلم أيضاً من جدك الميل إلى العمل انفرادياً ـ

انقطع الخيط السحري بينهما، نهائياً.

ودّ لو ابتلع الكلمات. فلقد آذاها.

تخلت وانجا، فجأة، عنه: شعرت أيضاً، وعرفت أنها النهاية: لم تكن هناك حين عاد، ولن تبكي للأمر. ليذهب، ويعظ عماله، والجماهير. لقد اكتنزت حلماً: وتبدد. عادت إلى الطبيعة العملية:

«أنت تتساءل ثانية لماذا دعوتك؟ أردت تنبيهك إلى ضرورة الحذر. لقد أقسموا على قتلك ـ على تصفيتك... كما فعلوا بالمحامي. كل من ضد الـ«م.ث.ك» يجب أن يبادروا تماماً مثل المحامي».

«من»؟

«كيميريا... جوي... مزيغو... الجميع... أعرف الأمر. لا تسألني كيف. إنه جزء من خطة كبيرة. يريدون أن يشجعوا تشكيل منظمات قبلية مختلفة. كل نقابة قبلية لها قسمها الملزم أعضاءها، تحت تهديد الموت، بالولاء المطلق للجماعة. وسوف يشكل القادة من كل النقابات، جبهة وطنية، مع الـ«م.ث.ك» باعتبارها القوة الرئيسة.

وسيكون من واجب كل نقابة أن تصفي العناصر غير الموالية تحت ستاران هذه العناصر كانت تخون القبيلة وثقافتها وثروتها، لمصلحة قبائل أخرى».

«وكيف يتأهل الشخص للقيادة؟».

«بالأملاك... لكني أظنهم لم يضعوا، بعد، كل التفاصيل. غير أن الـ«م.ث.ك» أنموذج جيد. يقودها ذوو الأملاك».

صمت كاريغا برهة، ثم قال محدثاً نفسه أكثر: «مقدر لهم الفشل. ألا ترين أننا، نحن العمال، والفلاحين الفقراء، والناس البسطاء، والجماهير، جد يقظين بحيث لن تضللنا الولاءات القبلية، والجماعات المحلية، وأمجاد الماضي، وكل ذلك ـ بينما نحن جياع، عاطلون، أو ذوو أجور بائسة. أتظنيننا نترك الشركات الأجنبية، والمصارف، وشركات التأمين ـ ذلك كله ـ والأغنياء المحليين ذوي شركات الثنغيتا، ونبلاء الأرض السود الجدد ذوي الأراضي الواسعة والمنازل العديدة ـ أتظنين الشعب يترك هذه التشكيلة من هاتين الطبقتين، والناطقين باسمها، في البرلمان، والجامعات، والمدارس، والكنائس، مع كل جيوشهم وشرطتهم التي تحرس مصالحهم ـ أتظنيننا نترك مالكي المسروقات هؤلاء يتحكمون بنا إلى الأبد؟ لا... الوقت جد متأخر، يا وانجا... لن نترك الآخرين يحصدون ما زرعناه، ويجنون ما لم يتعهدوه، ويأخذون إلى مصارفهم ما لم يتصببوا له عرقاً... قولي لهم هذا:

ثمت مليون كاريغا مقابل عشرة كيميريا. بإمكانهم أن يقتلوا المحامي أو عشرة محامين مثله، لكن الفقراء، المحرومين، وملايين الشغيلة والفلاحين الفقراء، هم محامو أنفسهم. بالبنادق والسيوف

والتنظيم، يستطيعون أن يغيروا ظروف اضطهادهم، ولسوف يغيرونها. لسوف يستولون على الثروة التي هي ثروتهم بحق. لِمَ لا؟ ـ إنه يحدث حولنا ـ موزبيق، أنغولا، زيمبابوي. حتى قبل لحظة كنت أظن أنني غير متأثر بقصة جدك. سأختار جدك للمرة العاشرة... لا أباك... أبداً! لقد استيقظ عمال كينيا وفلاحوها».

وقف ليغادر «لكني أشكرك لأنك حذرتني. إنني أعنيها تماماً... لقد أثرت فيّ... وأنا آسف فقط، آسف حقاً، لأنك إلى جانبهم. الـ«م.ث.ك» والاستعمار مع الأغنياء ضد الفقراء. إنهما يسلبان الفقراء، ولهذا لا يطيقان أن يريا الفقراء ينظمون أنفسهم، وأنت تساعدينهما».

وقفت مواجهة إياه، والبغضاء في عينيها، والغضب في صوتها، متكبرة...

«لا... ليس صحيحاً، ليس صحيحاً، حاولت محاربتهم، بالطريقة الوحيدة التي أستطيعها. وماذا عنك؟ أنت الذي صنعت من أنا. رحلت بعيداً. ذهبت بعيداً. توسلت إليك. سكبت الدموع. لكنك ذهبت بعيداً، والآن تتجرأ فتلومني».

فجأة تغيّر صوتها، وغدا ناعماً.

«كنت جد وحيدة. جد وحيدة. هذه الثروة أحسها ثقيلة على رأسي. أرجوك.. ابق هنا الليلة... الليلة حسب، مثل تلك الأيام...».

لكنها تبدلت ثانية. صرخت هذه المرة... أبعد من كاريغا... صرخت صرخة احتجاج وحشية.

«آه... ليس صحيحاً... ليس صحيحاً... لقد أحببت الحياة! الحياة!

الحياة! كاريغا... هبني حياة... إنني أحتضر... أحتضر.. ولا طفل... لا طفل!».

لم ينظر إليها. كان صلباً. لكن هذا، بالنسبة له، الطريق الوحيد. كان حازماً واثقاً!

«كوني من تكونين. لقد اخترت. لست أكرهك. لا أصدر حكماً عليك... لكني أعرف أننا لن نهزم أمثال كيميريا، بأن نكون إياهم... بأن ننضم إليهم... لن نهزمهم بتلك اللعبة... لا... نحن نريد عالماً... علينا أن نناضل في سبيل عالم خال من الكيميريين والجويين، عالم تكون فيه ثروة أرضنا لنا جميعاً، عالم خال من الطفيليات التي تملي علينا حيواتنا، عالم نكون فيه كلنا عمالاً من أجل سعادة الآخر ورفاهه».

تركها، واقفة عند الباب، حيث وجدها عبد الله، فيما بعد.

* * *

خلال الأيام القليلة التالية، فكَّرت وانجا بما حدث. لكأن كل شيء كان محتوماً: قطع علاقتها مع كاريغا، ومضاجعتها عبد الله. لقد وجدت شيئاً من الفخر والأمل في الخبر الذي جاء به عبد الله، مباشرة بعد كاريغا، عن نجاح جوزيف في سيريانا. وبدا لها أنه الفضل الوحيد الذي فعلته. إنه في الأقل الأمر الوحيد الذي بادرت إليه دون أن يخلف إرجاعاً مخالفة، على حياتها الخاصة. وأي حياة! لقد حملت الأحلام في سفينة كسيرة. هذا حق. لقد تركته. لقد اختارت. وليس بمستطاعها أن تلقي اللوم على والديها، أو على كيميريا. في الأقل كان عليها أن تختار النضال بطريقة أخرى. جدها اختار. أبوها اختار. كاريغا اختار. كل إنسان اختار أن يتقبل، أو ألا يتقبل. الاختيار

يضع المرء في هذا الجانب أو ذاك من خط المعركة. وبدا لها، أنها كانت المحارب الذي عاد ليروي هزائمه، كما تقول الحكاية، لا خجلاً، بل تباهياً، وكأن الهزيمة مأثرة. وهي، وانجا، اختارت أن تغتال طفلها. وبعملها هذا، اغتالت حياتها هي، وتقوم الآن بإجراءات الدفن في التملك والانحطاط باعتبارها عملاً مجيداً. حاولت أن تنظر إلى الأمر ببرود، دون أن تلقي اللوم على الآخرين. لم يعد بمستطاعها الآن العودة إلى حالة البراءة السابقة. لكنها تعرف ما ينبغي أن تفعله: أحست فقط بالحاجة إلى أن تفعل شيئاً. وكبداية، ستقطع علاقتها بكيميريا. أجل. يجب أن تنهيها. لكنها ستنهيها هذه المرة بموجب شروطها. سوف تختار الساعة، والمكان، والجو. ستنتقم. وكلما فكرت أكثر ازدادت تعلقاً بالفكرة التي سرعان ما غدت هاجساً. وكأن طريقة إنهائها أهم كثيراً من فعل الإنهاء. ولم ترَ أي تناقض في اختيارها عبد الله وسيلة للانتقام. أما قبولها إياه في حياتها فأمر طبيعي، كما ارتأت . كانت الفكرة بسيطة. سوف تدعو مزيغو، جوي، كيميريا. وضعت الخطة. ستبعد كل الفتيات، والحارس، فقد اعتزمت، حقّ، إنهاء طريقة حياتها الراهنة ووسائلها في كسب المعيشة. وسوف تتوصل فيما بعد إلى سبل لاستخدام الفتيات في مشاريعها الأخرى. لكنها يجب أن يكن بعيدات، ليلة انتقامها. كانت خطتها تقضي بإبقاء مزيغو، كيميريا، جوي... في غرف مختلفة حتى وصول عبد الله. وأوكلت إلى خبرتها الطويلة ولسانها أن يؤديا تسليات منفصلة، لكنها متساوقة. ستكون نوعاً من حفل وداع ضخم لمهنة مسحوقة دائماً، مهنة عار دائم وانحطاط.

كل شيء سار حسب الخطة حتى اليوم الأخير. وصل جوي أولاً. أدخلته غرفة، وتحدثت معه قليلاً، ثم اعتذرت منه، لتعد العشاء،

وأغلقت الباب بعدها بعناية. دخلت المطبخ، وشرعت تقطع اللحم قطعاً صغيرة. قطعت ما يكفي أربعة، ووضعته في صينية. ووصل مزيغو ثانياً، فوضعته في غرفة أخرى، وتحدثت إليه قليلاً، ثم اعتذرت للذهاب إلى المطبخ. صار الطبخ والمطبخ الحلقة الأهم في الدراما وأخذت تستمتع بهما. وحين يسألونها عن السبب في أن الفتيات لا يطبخن، كانت ترد على كل واحد منهم بالحكاية نفسها: هذه أمسية خاصة به وبها. وإلا كان من الصعب تسليتهم: جوي يجب أن تستمع إليه وهو يتحدث عن جنوب أفريقيا، وإنجلترا، وأميركا. كما يحب أيضاً أن يحذف أسماء شخصيات بارزة أخرى. «ذلك اليوم تحدثت مع فلان»، أو «ذلك اليوم أكلت لحم ماعز مشوياً مع فلان وفلان أقول لك لو ألقيت قنبلة لمات كل رجال النخبة الكينية».. وكان شغوفاً بأن يبدي الآخرون دهشتهم من الأماكن التي زارها، ومن عدد الفتيات الإنجليزيات اللواتي ضاجعهن. مزيغو مولع بالحديث عن السيارات، منتقصاً منها، وبخاصة المرسيدس، التي يعتبرها أكبر شر في العالم. كيميريا يحب أن يدفع إلى الشعور بالغيرة، آنذاك يتودد إليها، ويقدم الهدايا أو يعدها بها. كما أنه يتحدث بين حين وآخر، عن حفلات مع رجال بارزين، رجال يأتون بصناديق فقط من الشمبانيا والوسكي. «تلك القناني الكبيرة التي تكلف الواحدة منها خمسمائة شلن». كأن حجم القنينة وثمنها هما اللذان يكسبان الحفلة أهمية. إنها الآن تنتظر كيميريا نافدة الصبر. وأحست بقلبها يخفق فجأة، خوفاً من خطأ ممكن. فكرت ثانية بحياتها، متسائلة إن كانت ستختلف لو لم تلتق بكيميريا ذلك اللقاء الأول. تحوّلت بتفكيرها إلى أبيها: لو كان أبوها مثل جدها، أترى الأمور ستختلف؟ هذا وذاك، هذا وذاك. وها هي ذي صورة جدها ماثلة بوضوح، بينما كان كيميريا

يدق الباب. فتحت له الباب: دخل مسرعاً، مستعداً للحب. كنت ما تزال ممسكة بالساطور الذي قطعت به الخضر القوية. ابتسم لها.. وأدخلته غرفته. أثناء ما كانت ذاهبة لترى إن كان عبد الله قد حضر... رأت فجأة، اللهب والدخان، فصرخت، صرخت مستغيثة، قبل أن تسقط مغشياً عليها.

هذا ما قالته بشكل عام للمفتش جودفري. وهو صحيح. الأمر الذي لم تقله له، ولن تقوله لأي شخص آخر، ما دامت حية، وما دام الدليل قد احترق، أنها هي التي قتلت كيميريا... ضربته بالساطور الذي كانت تحمله.

5* «قل لي، يا سيد منيرا... هل عرفت جوي جيداً؟» سأل المفتش جودفري. كان منشرحاً، وقد زال الضجر والمرارة عن أساريره. كانت عيناه لاعبتين، مضاءتين بفضول أصيل.

«لقد أخبرتك أننا كنا صديقين في المدرسة نفسها. فصلنا ـ سنة 1946 كما أظن ـ وكانت تلك السنة تسمى كوغيني/ مبوراكي».

«أي السوق السوداء؟».

«نعم. لأننا بعد الحرب. والأشياء شحيحة جداً. أثناء هذه السنوات صار كاروغو السائق شخصاً شهيراً. ذلك لأنه كان ينقل البضائع والذرة من المنطقة السكنية إلى «الاحتياط الأفريقي» دون أن تتمكن سيارة شرطة من القبض عليه».

«ألهذا يقال: تورا ناسيا كاروغو؟».

«نعم».

«وأبوك ما يزال ـ ملاكاً كبيراً؟».

«نعم».

«بديع جداً».

«اليوم يسمى الأمر نفسه ماغندو... لكنه هذه المرة بالعاج والزمرد، والذرة والفحم. الفرق هو أن المجرمين لا يطاردهم أحد من الشرطة».

«ها! ها! ها! سيد منيرا... يبدو أنك تعرف شيئاً عن ثقافتكم. لكني أظن والديك كانا مسيحيين؟».

«نعم».

«كما أن أخويك ذوا وضع حسن. أحدهما شخصية بارزة في شركة نفط... أليس كذلك؟».

«نعم».

«وأبوك ما يزال ـ ملاكاً كبيراً».

«نعم».

«ماذا كانت العلاقة بينك وبين والديك؟ ودية؟».

«يمكن القول إنها متوترة».

«كيف يمكن أن تصف نفسك؟ فاشلاً؟ الرجل الغريب، النعجة السوداء في العائلة البيضاء؟».

«لا يخفق من ولدوا من جديد في المسيح. هذا العالم ليس بيتي».

«صحيح... لكن قل لي: هل التقيت بجوي ثانية بعد مغامرتكما الصغيرة في سيريانا؟».

«لا... لم نلتق حقاً».

توقف منيرا، وفكر لبضع دقائق. ثم ضحك.

«لم نلتق فعلاً... تعرف. رأيته عدة مرات في الموروغ. أردت أن أقدّم نفسي. لكني لم أفعل... أو ظللت أؤجل القرار. ثم قدمت له نفسي يوماً. كان الأمر مضحكاً. أثناء افتتاح نادي الموروغ للغولف. دعينا أيضاً نحن المعلمين. هذه المرة اتجهت إليه رأساً. للوهلة الأولى لم يتذكرني، حدثته عن جوي لاعب كرة القدم، ودعوته جو ليوس ـ شكسبير. انفجر ضاحكاً. أمسك كرشه الضخم بيد، وكأس الشمبانيا بالأخرى: «كيف حالك يا صديقي؟ ها! ها! أظنهم كانوا سيسمونني الآن محمد علي أو بروس لي، أو بيبه. إذاً صرت معلماً؟ مثلي؟ مثل فرودشام؟ هل حضرت جنازته؟»، تحدثنا قليلاً عن الزوجين آيرونمونغر، وفرودشام، وسيريانا أيام دراستنا. قال: «التلاميذ... هذه الأيام... ليسوا مثلما كنا». ثم سألني ماذا أشرب.. لم لا أجرّب الثنغيتا... هل أعرف الجبر الحديث: ب = 3ث؟ «رياضيات حديثة». قال هذا ثم ضحك وهو يضربني على كتفي بيده الطليقة. لم أرد أن أشرب ذلك اليوم، قلت سأشرب الزنجبيل. قال وهو يشجعني، ويضربني بقوة على كتفي: «تعال... تعال... الخمر مخلوق أليف لطيف إذا أحسن استعماله». لكني أصررت على الزنجبيل، واستذكرت مما أحفظ: «أيتها الروح الخفية لخمر، إن لم يكن لك اسم تسمين به... فدعينا نسميك الشيطان». قال: «ما زلت تتذكر السيد بيلي شكسبير؟» وضحك ثانية. ثم دار نقاش حول الزنجبيل.. أهو مسكر أم لا؟ قال: يمكن أن يكون له مفعول كحولي اعتماداً على شاربه. وروى حكاية عن حفلة بمنزله في التلال الزرقاء، وكيف أن سيدة سكرت من الزنجبيل. مضت إلى الباب، وصرخت، وأغمي عليها، ثم ادعت فيما بعد أنها رأت شبحاً...».

«بديع... وكيميريا؟ هل تعرفه؟».

«لا... لا أعرفه جيداً... سوى أنه حطم حياة وانجا، وخان شقيق كاريغا».

«وكاريغا... هل تكلم يوماً بطريقة توحي بـ... إيه؟».

«بماذا؟».

«بالمرارة.. أو كيف سيحقق عالمه الجديد؟ هل فكر في الإسراع بتحقيقه؟».

«أخبرتك كيف أني لا أؤمن بالإنسان الـ....».

سكت. كان الضابط ينظر إليه بطريقة غريبة. غيّر المفتش جودفري لهجته فجأة... لم يعد الناظر المتسلي:

«سيد منيرا... ماذا كنت تفعل على تل الموروغ صباح الأحد الذي تلا الحريق المتعمد؟».

نظر منيرا بهدوء: «إذاً... تعرف؟».

«نعم، يا سيد منيرا... إن لحكام كل عالم قوانينهم، وشرطتهم، وقضاتهم و.... ومنفذي قانونهم... أليس كذلك؟ أخشى، يا سيد منيرا، أنني شرطي فقط في هذا العالم. وسألتهمك الآن، رسمياً، بإحراق منزل وانجا، والتسبب في موت الرجال الثلاثة. وأحذرك من أن أي شيء تقوله قد يستخدم ضدك في محكمة قانونية. قل لي: لماذا فعلتها؟».

قال منيرا: «أردت أن أخلص كاريغا».

* * *

كان منيرا مقتنعاً تمام الاقتناع بأن هذا العالم خطأ، غلطة، وأراد أن يعرف كل أصدقائه هذا، وينجوا قبل فوات الأوان. وكان هذا سبب إلحاحه الشديد على كاريغا. في النهاية صار مسكوناً بهذا الهاجس. طارد وانجا. طارد عبد الله. طارد كاريغا. لكنه اهتم أكثر بكاريغا. كأنّ في ذهنه شكاً لا تمكن إزالته إلا بهداية كاريغا. وكانت مصادفة محضاً أنه رأى ظل كاريغا يوم الجمعة الحاسم ذاك. تتبعه. رآه يدخل كوخ وانجا. «إذاً كانا يريان بعضهما في الكوخ!». انتظر في الظلام، مرهقاً بالتفكير. تذكر وصوله إلى المورووغ أول مرة: وكيف هزّت وانجا عالمه، العالم الذي خلقه حول نفسه. استعاد تورطه معها، ثم انجرافه، فيما بعد، في الكسل والسكر، وهي تتبدى له، مشتهاة، مثل ثمرة في بستان ذهبي. وناداه صوت من لا مكان: إنها جيزيل، لن ينجو كاريغا منها، ومن ضمتها الشريرة. كانت الرسالة واضحة في الظلام: يجب أن يخلِّص كاريغا منها. وإلا هبط ذات السلالم التي هبطها منيرا... والتي لم ينقذه منها إلا عودة كاريغا وليليان. وألح الصوت: أنقذه، أنقذه. عرف منيرا أنه سيمتثل للصوت. لقد انتصر المسيح، أخيراً، على التجار الذين كانوا يدنسون الهيكل، هيكل الرب. الطاعة السلبية لقانون الله الكوني. كان تجلياً هائلاً. رأى كاريغا يخرج.

وتساءل... هل سيتحرك الليلة... وكيف يتحرك. كان يوشك أن يتبع كاريغا لولا مشاهدته عبد الله يدخل الكوخ. فكر منيرا، وهو يبتعد: «حتى هو...». أسبوعاً كاملاً ظل يصلي كي يريه الله السبيل. اشترى نفطاً مساء السبت... سار إلى منزل وانجا. لم يكن هو.. منيرا. كان يفعل هذا، امتثالاً فقط للقانون. لقد أوكل إليه أن يحرق المبغى ـ الذي يسيء إلى عمل الله في الأرض. سكب النفط على كل الأبواب

وأشعله. وسار مبتعداً نحو تـل المـوروغ. وقـف علـى التـل، وراقـب المبغى يحترق، وألـسنة اللـهب المتعاليـة مـن أركانـه الأربعـة تـشكل تويجات دم، وشفقاً في السماء المعتمة. هو... منيرا... اعتزم، وفعل، وأحس وهو يركع مصلياً، إنـه لم يعـد غريبـاً... فقـد حقـق، أخـيراً، توحده والقانون.



الفصل الثالث عشر

1* جلس المفتش جودفري لصق النافذة، في عربة من الدرجة الأولى، ونظر إلى الحقول وهي تمر أمامه: جمال دقيق من صنع الإنسان... جمال مزارع القهوة والشاي على سفوح التلال، والوديان، والجبال. لم يكن ذهنه منشغلاً الانشغال كله بما يتموج أمامه من مناظر بين روا ـ ايني ونايروبي، لكنه... ما يزال في المورروغ الجديدة. كان ينبغي أن يتمتع الآن بذلك الرضا الداخلي الذي يحس به دائماً كلما نجح في إلصاق أجزاء الجريمة المتناثرة ببعضها: أحس بدلاً من هذا بنوع من الضيق، والانزعاج الخفيف. استغرب من هذا القلق البعيد تماماً عن طبيعته في النظر إلى مجريات الأمور الاجتماعية والسياسية. ليس معنى هذا أنه مهتم بأمثال كاريغا. إذ ليست لديه أي مشاعر إزاء مخربي النظام هؤلاء. إن المفتش جودفري شخص عصامي، لم يتجاوز تعليمه الصف الثاني، ومع هذا... انظر إلى أين وصل... أي ذرى بلغها بالدرس والانكباب، وبخوف غريزي من تحريك قاع البركة. لقد تربى على الإيمان بقدسية الملكية الخاصة. إن نظام الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، والتبادل والتوزيع، هو بالنسبة له مرادف لقانون الأشياء الطبيعي، كالشمس، والقمر، والنجوم... التي تبدو ثابتة، باقية، في القبة الزرقاء. وكل من يتدخل في ثبات الأشياء وبقائها، هو غير طبيعي، ولا يستحق الرأفة: ألا تراه مسبباً الفوضى، تماماً مثلما يحدث حين يذهب رجل فضاء، ويدفع الشمس أو القمر عن مستقريهما؟ أناس مثل كاريغا بنقاباتهم المتطرفة وشيوعيتهم يهددون بنية الرأسمالية ذاتها: لهذا... فهم أسوأ من القتلة.

إن المفتش جودفري يشعر دائماً بعلاقة حماية إزاء المجتمع. لا يهمه أنه كسب قليلاً، عبر هذه السنين كلها. أو ليست الشرطة هي القوة التي تضمن، وحدها، التراكم الطليق للثروة؟ الجميع حتى هؤلاء المليونيرات المتضامون تحت لواء الـ«م.ث.ك»، مدينون بوضعهم للشرطة. وهو يشعر، دائماً، إن الشرطة هي الصانعة الحقيقية لكينيا الحديثة.

أما هؤلاء الكاريغات وأمثالهم، فيجب أن يبعدوا إلى تنزانيا والصين!

لكن أناساً مثل منيرا، هم الذين يزعجونه حقاً. كيف تأتى لمنيرا أن يرفض ثروة أبيه الهائلة؟ أيمكن للملكية، والثروة، والمركز، والدين، ألا تلم شمل العائلة؟ ماذا يريد المرء غير هذا؟ قرر منيرا أن ذلك تعصب ديني! لكنه من خبرته في سلك الشرطة عرف أن هذا التعصب يوجد عادة بين الفقراء. البشر: لن يرضوا أبداً! إلا أن منيرا مصيب بطريقة ما. فنظام الرأسمالية، والديمقراطية الرأسمالية، هذا، بحاجة إلى نقاء أخلاقي، إن أراد البقاء والاستمرار. إن الهياكل التي رآها، ومر بها في الموروغ الجديدة لا يمكن أن تندرج تماماً تحت علامة النقاء الأخلاقي. لقد رأى بالطبع، أشياء مماثلة، أو مقاربة، في نايروبي، وممباسا، وماليندي، وواتامو، وأماكن أخرى، لكنه لم يعرها انتباهاً... وهو يفترض الآن أن سبب عدم اهتمامه يعود إلى أنه لم يصادف أبداً شخصاً كمنيرا، مستعداً للقتل، باسم النقاء الأخلاقي. لم يكن المفتش جودفري يفكر بـ«منزل الشمس» لوانجا. كان يفكر مثلاً بمركز أوتامادوني الثقافي السياحي في الموروغ. في الظاهر أقيم المركز للترفيه عن السواح القادمين من الولايات المتحدة، واليابان، وألمانيا الغربية، وبلدان أوروبا الغربية الأخرى. لكن هذه تغمية فقط،

تتستر على أنشطة أكثر شراً: تهريب الأحجار الكريمة والعاج والحيوان إضافة إلى الجلود البشرية. كان مركزاً لنهب ثروة البلاد الطبيعية والبشرية. النساء، الفتيات الصغيرات، يستخدمن لإرضاء أي نزوة من النزوات الجسدية للسائح. أما اللواتي يعدن ـ بالمزيد، ممن يتمتعن بالذكاء، ويتمتمن كلمات إنجليزية أو ألمانية، فيتم إغراؤهن بالذهاب إلى أوروبا، حيث يمسين هناك، رقيقاً عاهرات... من أفريقيا! ليس لدى المفتش جودفري أدنى شك في أن هذه التجارة الشريرة بالعاج الأسود تجري بعلم نديري وا ريرا، نائب المنطقة... أوليس هو مالك المركز؟ إنه يملكه شراكة مع شخص ألماني غربي. عاج أسود لتصدير: جالب عملة أجنبية من الطراز الأول. لكن... ألا يمكننا الاستغناء عن هذا؟ فكر المفتش جودفري، وهو يتذكر العاصفة التي انفجرت قبل سنوات، حين اكتشفت تجارة مماثلة بالأجساد الفتية، في خليج واتامو. ربما تحدث إلى رؤسائه حول الأمر: وربما قدم لهم التقرير المنفصل الذي عده. لكنه تذكر كم من الأشخاص المهمين قد يكونون مرتبطين بمركز أوتامادوني السياحي، فكف عن الموضوع. سوف يحتفظ بالتقرير والمعلومات لنفسه. ربما نفعته يوماً في لصق الأجزاء المتناثرة لجريمة ما. إنه مخبر جرائم، لا قائد فرقة لمكافحة الرذيلة! ثم إن السياحة هي من الصناعات الكبرى في هذا البلد... وكل شيء حسن، فيه جوانب سيئة. واجبه، باعتباره شرطياً، هو الحفاظ على الأمن والقانون والنظام، الذي يعتمد عليه النمو الناجح لكل الصناعات والاستثمارات الأجنبية. ضحك مع نفسه. أحس بالتحسن. كم هو غبي.. حين سمح لنفسه بالانجرار إلى مسائل أخلاقية... وكيف، ولماذا؟ أتراه وهن مع تقدم السن؟ اعتدل في جلسته بعربة القطار، واستقر ذهنه على المسائل الرسمية الأكثر إراحة... حول تحقيقه في القتل، حرقاً، لكيميريا، وجوي، ومزيغو.

وانجا، منيرا، عبد الله، حتى كاريغا... مروا في ذهنه... بينما كان القطار يأخذه، أقرب، فأقرب، إلى المدينة، التي لا تشكل المورغ الجديدة، إلا نسخة صغيرة، صغيرة، منها...

2* فكرت بأمر أبيها: ما الذي يجعل البعض يختار جانب الشعب في الكفاح، ويبيع آخرون أنفسهم إلى المصالح الأجنبية، ويظل آخرون حائرين عند السياج؟ ما الأمر؟ وحين تذكرت عبد الله، وكاريغا، ومنيرا، وجدها، وكل الأشخاص الذين دخلوا حياتها، وخرجوا منها... قالت ربما كانت المسألة، ببساطة، مسألة حب أو كره.

الحب والكره ـ توأمان سياميان ـ متلاصقان بالظهر في القلب البشري. أنت تكره لأنك أحببت. وأنت تحب لأنك كرهت. ما أحببته عين ما سوف تكرهه بناء على ما أحببت. وما كرهته عين ما سوف تحبه بناء على ما كرهت. وأنى للمرء أن يعرف ماذا أحب وماذا كره؟ عادت تفكر في حياتها ثانية، عادت إلى مسألة الاختيار. أنت تعرف ما أحببت، وما كرهت، عن طريق ما فعلته، والجانب الذي اخترته. ليس بإمكانك، مثلاً، أن تعمل مع المستوطنين على اضطهاد الشعب، ثم تقول إن الشعب يحبك. ليس بإمكانك أن تبقى عند السياج في كفاح ما، ثم تقول إنك كنت إلى جانب الذين يحاربون الشر. أراد أبوها أن يكسب المال، ويكدس الثروة: اختار الحياد، وكره أي اقتراح بالانضمام إلى جانب الشعب إن كان هذا يخرب فرصه في جمع المال. مأساة أبيها، الذي اختار، بحياده، جانب المستوطنين، هي أنه، بالرغم من بيعه نفسه، وإنكاره ضميره، وأباه، انتهى إلى الخراب، ورأى العالم ينحل من حوله. إنها قادرة على أن ترى ذلك بوضوح، بسبب علاقتها بالنقل الخفيف، فهي تعرف أي

ضغوط يتعرض لها الكاسب الصغير، وسائق سيارة الإجرة، ومالك الحافلة الوحيدة، وصاحب الدكان ـ كل هؤلاء وأكثر.

إذاً، ما الفرق بين موقفها وموقف أبيها؟ ألم تختر، شأن أبيها من قبل، جانبها في الصراع... لأنها انجذبت أخيراً إلى ما تحب: المال، وجمع المال؟ لقد اختارت، إذاً، جانب الكيميريات، في كينيا ما بعد الاستقلال: كيف لها، إذن، أن تلوم أباها؟ ودت الآن لو عرفت حقيقة: ودت لو أنها تحدثت معه طويلاً! لكن عمَّ كانا سيتحدثان؟ ألم تزد مهانته مهانة؟ لا يمكن تدارك الأمر الآن. لكن... هل مر عليها وقت تستطيع فيه أن تتداركه؟ فكرت في محاولتها الرجوع إلى البيت أكثر من مرة، وفي كل إخفاقاتها. ذات يوم، حزمت كل أشيائها، وأخبرت الفتيات الأخريات أنها ستغادر تلك الحياة نهائياً. في اليوم التالي وجدت كل ملابسها مسروقة. استولى عليها الذعر: كيف تعود إلى البيت صفر اليدين؟ في أحد الأيام سماها أبوها عاهرة، وطردها من البيت، قولاً إن لم يكن فعلاً. مرة طلب منها المحامي أن تعود إلى البيت. كانت ستعود. استقلت الحافلة معتزمة العودة. لكنها بمجرد وصولها إلى مكانها غيرت رأيها. لقد طعنها الشعور بالذنب، ليس فقط لأنها فارغة اليدين، وإنما بسبب ذكرى اللقاء الأخير مع أبيها أيضاً. الذكرى تجرح وما تزال تؤلم.

كانت قد قررت، قبل زيارتها الأولى إلى الموروغ، أن تتصالح مع والديها، وتطلب بركتهما: من تراه يعرف مفعول لعنة الوالدين؟ عادت إلى البيت ظهراً، ووجدته مستلقياً على العشب، قرب الجرن. عرفت من وجهه المغضن أنه جد مريض. أحست فجأة بالعطف إزاءه. كان وحيداً. تكلم معها بصعوبة. طلب منها ماء. دخلت البيت، وصبت له ماءً في كأس، وأخذته إليه. ارتجفت يداه. رفع رأسه ونظر

إليها. ثم هز رأسه ببطء «أنت تشبهين تماماً أمك في شبابها». وكان صوته ناعماً. وفكرت أنه ربما كان يتذكر زمناً فيه الحب ممكن. وتذكرت هي أيضاً، في تلك اللحظة، أيام كانت تجلس على ركبتي أبيها، وهو يغني لها. كانت بقعة متألقة مشمسة في طفولتها قبل أن تستولي عليها فكرة جمع المال. حن قلبها له. أرادت أن تعترف بكل أخطائها وتسأله الغفران. نظر إليها ثانية: «ألديك شيء من المال؟ خمسة شلنات. عشرون شلناً؟» تناولت محفظتها اليدوية. رأت وجهه يتقد فجأة، ويديه المغضنتين ترتعشان تلهفاً. وأخذ يبالغ في الثناء عليها، قائلاً إنه عرف دائماً أنها ستكون بركة شيخوخته. واشتكى من معاملة أمها، وكيف غشته وأخذت ماله. ليس أمها فقط: لكأن جيرانه جميعاً اتفقوا على حرمانه من نصيبه في أموال كينيا. لم يبق إله إلا وانجا.

فجأة تجمدت يداها وهي تسحب ورقة العملة. إذاً... الدراهم فقط، وليكن مصدرها ما يكون، هي التي تفتديها في عينيه؟ وفكرت: لن تتحمل شراء حبه، أو بركاته، أو العودة إلى البيت، بالدراهم. قالت: «لا شيء لدي» وأغلقت محفظتها. إذاك شرع يلعن الجميع: لقد عرف أن أبناءه كلهم غير نافعين... تركته، ودخلت أقرب مشرب. بكت، وشربت بكل دراهمها. بعد مدة سمعت نبأ موته، ولم تبك. مات بالسرطان.

بقيت على فراشها في الكوخ القديم، تقلب هذه الشؤون في رأسها... خيالات الماضي هذه... والصور التي رفضت أن تحترق فتبدد من حياتها وذاكرتها. أرادت حياة جديدة... نظيفة... شعرت أن هذا كان معنى هروبها الأخير!

ها هي ذي تسمع حركة شخص جديد... ولقد تعمدت بالنار. لكن

أن يكـون هـذا الـشخص مـنيرا أو عبـد الله... وسـيلتيها في هروباتهـا المزدوجة، وفي محاولتـها فرصـة ثانيـة لبلـوغ سـبل جديـدة؟. مهمـا حدث لها فلسوف ترتعد دائماً من رعب تلك اللحظة... إنها مـستغربة حتى الآن... كيف ومن أين جاءتها تلك القوة لتفعل ما فعلت...

سمعت طرقاً على الباب. مـن تـراه يكـون؟ طرقـة ثانيـة. ثم انفـتح الباب.

قالت وانجا لاهثة: «أمي!».

«يا طفلتي... النار ثانية!» أمها، العجوز الآن، تبكي. انتحبتا معـاً، كل واحدة تبكي ذكرى مختلفة.

«شـهر كامـل، ولم أدر. سمعـت فقـط بـالأمس. ومـن شـخص غريب!».

وتحدثت كيف أن إحدى معارفها سألتها عن صـحة وانجـا، وهـل شفيت من النار. وأحسَّت أم وانجا بالوهن في ركبتيها، استطاعت فقط أن تقف، وتمشي بسبب إيمانها برحمة المسيح وعدله اللامنتهي.

طوال الأسابيع القليلـة التاليـة ظلتـا تتحـدثان، بنعومـة، تهجـسان الماضي وتجسانه، دون أن تـسحباه إلى العلـن. الأمـر الوحيـد الـذي ناقشتاه طويلاً كان رفضهما الذهاب إلى الشاي. وانجا كانت تفكر: قـد لا ينجو أحد من قدره. ربمـا كانـت الحيـاة بـدايات زائفـة، يكتـشفها المرء، ليبذل جهوداً جديدة في بدايات جديـدة. لكنـها لم تـستطع أن تكتم مخاوفها وآمالها عن المرأة العجوز:

«أظن... إنني... أظن... عنـدي طفـل. لا. أنـا متأكـدة، يـا أمـي». صمتت أمها بضع ثوان.

«طفل من؟.. من؟».

تناولت وانجا قطعة فحم، وقطعة ورق مقوى. ولساعة كاملة ظلت منهمكة، مستغرقة في تخطيطاتها. وفجأة شعرت بأنها تعلو على نفسها، وبأمواج من العاطفة لم تعهدها قبلاً. أخذ الشكل يتضح على لوحة المقوى. كان مزيجاً من المنحوتة التي رأتها مرة في بيت المحامي بنايروبي، وصور كيماثي في لحظات انتصاره وضحكه وألمه ورعبه ـ لكنه فاقد أحد أطرافه. وعندما انتهت من تخطيطاتها، غمرها هدوء، وثقة بإمكانات نوع جديد من القوة. سلمت أمها الصورة. «من... من هذا... بكل هذا العذاب والألم على وجهه؟ ثم لماذا يضحك في الوقت نفسه؟».

3* جلس عبد الله وجوزيف خارج جحرهما بأورشليم الجديدة، وهما يتحدثان. جوزيف الآن شاب طويل يرتدي بزة جيدة التفصيل من قميص وسراويل قصيرة من الخاكي. كان يمسك بيديه رواية سمبين عثمان «قطع الله الخشبية»، لكنه لم يكن ليقرأ كثيراً. كانت الشمس دافئة متألقة على الموروغ، لكنها جعلت روائح البول والقمامة المتعفنة تتعالى منتشرة في الهواء، حيث يجلسان. لكنهما اعتادا الروائح. جوزيف كان يقول إنه واثق من اجتيازه الامتحان. كان يود لو ذهب إلى مدرسة أخرى ليؤدي شهادته الثانوية، لكن هذا غير ممكن لأنه لم يتقدم بطلب انتقال. أما ذهن عبد الله فكان في موضع آخر. إنه سعيد لإنقاذه وانجا. إلا أنه ما يزال يجهل معنى ما حدث. هكذا كان منيرا قادراً على فعل كهذا؟ لم يدر... أيعجب به، أم يغضب منه؟ أيلعن جبنه، أم يمتدح شجاعته؟ على أي حال... لقد نفذ منيرا، ما كان يعتزمه عبد الله، ويفكر فيه، دون أن يحمل نفسه على فعله. جوزيف ما يزال يثرثر:

«غريب جداً... غريب جداً أن يقتل جوي... في وقت مقتله ذاك». سأله عبد الله بلا مبالاة «لماذا؟» لكن جواب جوزيف أربكه: «لأن الطلبة كانوا يخططون لإضراب آخر».

«إضراب آخر؟ لماذا؟».

«لأن جوي يسيِّر المدرسة من نوادي الغولف وغرف الإدارة في الشركات العديدة التي يديرها، وإلا... فمن حقول قمحه الكثيرة في وادي ريفت. وكان من المؤمل أن ينضم إلينا الموظفون الشبان وعمال المدرسة. كما تعاطف معنا أستاذ أو أستاذان. إن لديهم شكاواهم أيضاً، بصدد الاجور وظروف العمل وإهمال جوي... هذه المرة كنا سنطالب، بأن تدير المدرسة، لجنة من الطلبة والموظفين والعمال... لكننا ما نزال مصممين على وضع حد للنظام القائم بأسره... وإن كل دراساتنا يجب أن توجه نحو تحرير شعبنا».

سئم عبد الله سجل جوزيف الطويل عن أدواء سيريانا. وكان يستعرض حياته هو. تذكر طفولته في كينيوغوري، تذكر مسنين عديدين، رجالاً ونساء، كانوا يأتون، ويتحدثون طويلاً في الليل. نغانغا وا ريونغي. يوهانا كيراكا. نفتالي ميتشوكي. زيبورا نديري. وطنيون كينيون حقيقيون. كانوا يتحدثون ويتهامسون طويلاً في الليل، مستعرضين تاريخ ليمورو، مستنكرين من باعوا أنفسهم للمصالح الأجنبية، مثل لوقا، وممتدحين من وقفوا وحاربوا زحف الاستيطان. تحدثوا كيف ستعود الأرض، في ليمورو كلها، إلى جميع فلاحي ليمورو، أطفال الأرض... تحدثوا عن الأحزاب الكينية، عن هذا الشأن أو ذاك... ثم ينتهون بإنشاد أغاني الأمل والكفاح. كم أحب عبد الله تلك الأغاني! رأى ندنغ ـ أوري،

واستعرض هروبه الصعب، وفراره إلى الغابة، القبض عليه وإيداعه المعتقل، عودته إلى الخسران وإلى نوع من الربح. وفجأة شعر عبد الله بأن عليه أن يخبر جوزيف عن ماضيه. كان يحس بالذنب حين يتذكر كيف كان يشتم جوزيف، محملاً الصغير إخفاقاته... والصغير يتحمل، وهو يظن الشتائم من شقيقه العائد. غريب أن جوزيف لم يسأله مرة عن والديـ«هما»، ولم يشر إلى طفولته، إلا في هذيان الحمى، أثناء الرحلة إلى المدينة. ربما كان يعرف الحقيقة. ربما....

قال عبد الله، فجأة، كأنه لم يسمع عن إضراب سيريانا: «جوزيف! اغفر لي إن أسأت معاملتك في الماضي» «لماذا؟... لا شيء لأغفره»... أجاب جوزيف مصعوقاً بالتغير المفاجئ في الموضوع والصوت لدى عبد الله «إنني ممتن كثيراً لما أسديته لي. وكذلك لمنيرا ووانجا وكاريغا. حين أكبر، وأنهي الثانوية والجامعة أريد أن أكون مثلك: أريد أن أشعر بالفخر لأنني أديت شيئاً لشعبنا. أنت قاتلت في سبيل الاستقلال السياسي لهذه البلاد. أنا أريد أن أسهم في تحرير شعب هذه البلاد. لقد قرأتُ الكثير عن الماو ماو. آمل في أن نستطيع، يوماً ما، أن نجعل من كارونا ـ ايني حيث ولد كيماثي، ومن أوثايا حيث ولد ج.ك، مزارين قوميين. ونبني مسرحاً يخلد كيماثي، لأنه أسس، وهو معلم، حركة غيشامو المسرحية، في تيتو... كنت أقرأ الكثير عما فعله عمال البلدان الأخرى وفلاحوها في التاريخ. قرأتُ ـ عن ثورات الشعب في الصين، وكوبا، وفيتنام، وكمبوديا، ولاوس، وأنغولا، وغينيا، وموزبيق... نعم... ومؤلفات لينين وماو...».

فكر عبد الله بأنه يتكلم مثل كاريغا. لكنه لم يقل شيئاً. ربما.. ربما كان التاريخ رقصة في ساحة الله الواسعة. تقوم أنت بدورك، مهما كان دورك المختار، ثم تترك الساحة، مدفوعاً خارجها بأمواج الخطوة الجديدة، الحركة الجديدة في الرقصة. لقد جاء راقصون آخرون، أكثر شباباً، وذكاء، وابتداعاً... يرقصون بمهارة أعظم، وحركات أرجل أشد تعقيداً... قبل أن تدفعهم خارج الساحة أيضاً، موجة أعظم هي الأخرى في الحركة التي شاركوا في خلقها... ويخرج راقصون آخرون ليؤدي الرقصة جيل أشد فتوة، يوصلها إلى مرتقيات جديدة وإمكانات لم يدركها حلم من قبل.

ليكن... ليكن... لقد مضى زمنه.

قدر له في الظروف الحاضرة أن يظل بائع فاكهة صغيراً على حافة الخراب. لكنه سعيد بأنه أنقذ حياة، بينما كان ذاهباً ليأخذ حياة. وسوف يكون سعيداً بأن يعرف أن وانجا سعيدة، وأنها تتذكره بين حين وحين.

4* قبل المحاكمة تماماً، جاء أبو منيرا وأمه وزوجته، برفقة الموقر جيرود، كي يروه. ووجد الجميع صعوبة في الاهتداء إلى موضوع للحديث مناسب. نظر منيرا إلى أبيه الطويل، الذي ما يزال، رغم مروره بتاريخ كينيا الكولونيالي ـ عمره الآن أكثر من خمس وسبعين سنة ـ قوياً جداً متمتعاً بالصحة. ما رأيه في هذا العالم؟ هو الذي شهد انحلال وسقوط رؤساء القبائل الإقطاعيين في الفترة السابقة للاستعمار، هو الذي شهد وصول المبشرين، والقطار، والحربين الأولى والثانية، وجيشانات الماو ماو، ومحاكمات ما بعد الاستقلال

ـ اغتيالات بنتو، مبويا، كنغو كارومبا، ج.م، اعتقال شيكوكو، سيروني، إيمان حماية الملكية ـ كل هذا: ما رأيه فيه؟ استفسر منيرا عن إخوته وأخواته كأنهم ليسوا من لحمه ودمه، ويبدون بعيدين تماماً عن الظروف الراهنة:

وسأل: «أين الأطفال؟» ظهر عليهم الضيق. وهز منيرا رأسه غضباً. هتف بهم: «أنتم لا تريدونهم يشاهدون أباهم... الفاشل.. إيه؟» وفجأة انهارت أمه.

سألته: «كيف فعلتها؟ كيف فعلت هذا الأمر؟».

لقد كسرت حرمة السكوت عن الموضوع. تدخل الموقر جيرود: «لو كنت أعلم أنك هنا طوال هذه المدة... لساعدتك».

صعق منيرا، أكثر من ذي قبل، بالمواقف المنافقة حوله. تذكر صراحة المفتش جودفري، الذي كان واضحاً تجاه نوعية القوانين التي يخدمها، وأحس باللطف إزاء المخبر وطرقه الغريبة في تقصي الجرائم.

قال منيرا: «عودوا إلى السبيل... التفتوا إلى النور»... كان واقفاً فوقهم، ممتلئاً، فجأة، بالشفقة والغضب في آن. أما الآخرون فقد نظر أحدهم إلى الآخر، باستثناء واويرو، الواقف وحده، كأنه بعيد عن ماضيه.

ناداه منيرا بنبرة تفعمها الثقة: «أنت، يا أبي ـ»؟

«نعم؟».

«سؤال واحد حسب، سؤال واحد حسب أريد أن أوجهه إليك.

هل تتذكر أنك رفضت سنة 1952 أن تقسم قسم الماو ماو في سبيل الأرض الأفريقية والحرية؟ «ما دخل هذا بـ ـ؟» تقاصر واويرو، متسائلاً عن «إغراءات الشيطان» الجديدة.

«مع هذا، في الستينيات، بعد الاستقلال، أقسمت على تفرقة شعب كينيا والحفاظ على الثروة في أيدي القلة. ماذا كان الفرق؟ أليس القسم قسماً؟ اركع أيها الشيخ، واطلب المغفرة من المسيح. في السماء، في عيني الله، لا فقير ولا غني، لا هذه القبيلة أو تلك، النادمون كلهم سواء في عينيه. أنت أيضاً، أيها الموقر ـ» صرخت أمه ثانية، وهي مرتعبة: «ماذا دخل رأسه؟».

«تتذكر، مرة، في التلال الزرقاء، أنك استقبلت أناساً من الموروغ ـ».

«أتذكر تماماً، إيه، أتذكر ـ» أجاب الموقر جيرود:

«وبينهم شخص عاجز؟ جفاف؟».

«نعم... آه... نعم».

«كنت واحداً منهم: وطردتنا أنت جياعاً عطاشاً».

«لم أعرف... لو كنت عرفت... لكن...».

سعل منيرا، وتنحنح، ثم صوب إصبعه إليهم بطريقة مسرحية: «القانون... هل أطعت قانون الإله الواحد؟ ابتعدوا عني أيها الملعونون، في النار المخلدة للشيطان وأبالسته، إذ كنت جائعاً ولم تطعموني، وكن ظمآن، ولم تسقوني، وكنت غريباً ولم تؤووني، عارياً ولم تكسوني، عليلاً في الحبس ولم تعودوني. وسوف يقولون،

متى رأينا جياعك أو ظمأك أو عراياك أو مرضاك أو سجناءك، ولم نمد يد العون إليك؟ إذاك سيجيبهم: الحق أقول لكم، إن لم تمدوها لواحد من هؤلاء، فلم تمدوها إليّ. وسيدخلون النار الأبدية، لكن الصالحين يدخلون الحياة الأبدية». انصرفوا وهم يبكون من أجله. وفي كنيسة الموروغ الأنجيلكانية ركعوا، وصلوا جميعاً، من أجل منيرا. قال الموقر جيرود، بأسى: «هذه العبادات الإحيائية، التي تدعي التكلم بألسنة الأرواح، واجتراح المعجزات... قد ذهبت أبعد من اللازم... ويجب أن تمنع».

«نعم». وافقه والد منيرا. لكنه كان يفكر بكاريغا ومريم، وكيف وجهت إليه تلك المرأة ضربتها مرتين... عبر أبنائها. ربما كانت خطيئته، محاولة الزنا... ضعف الجسد... لكن كيف يتم هذا... وهو لم يفعل... كما أبدى ندمه؟ ثم تذكر مصادفة أخيرة.

فإن كاجوهي الذي باعه في العشرينيات، كل أراضي كاجوندا، ثم اختفى في وادي ريفت، عاد الآن، شيخاً مهدماً، نصف أعمى، ليسأله المساعدة. حزقيال واويرو، عبر علاقاته وأصدقائه، وجد له مكاناً في ملجأ تديره الكنيسة في المدينة... وتمتم حزقيال أن الله يفعل عجائبه بطرق غامضة. إنه يريد الآن كتابة وصيته... فكيف له، إذن، أن يضع حكمة الله موضع التساؤل؟

5* تلقى كاريغا الأنباء، فلم تبد على وجهه أي حركة. لكن دمعة تحدرت على خده الأيمن، رغم محاولته ضبط نفسه والسيطرة عليها. راقب الدمعة تسقط على أرضية الإسمنت. كان منهك الجسم، بسبب ما تعرض له من ضرب، وصدمات

كهربائية، وتعذيب نفسي. هذه استطاع أن يتحملها. لكن أن يسمع بأن أمه ميتة ـ ميتة! وأنه لن يراها ثانية... إنه لم يفعل شيئاً من أجلها البتة... إنها ظلت طيلة حياتها بدون أرض تعمل في: المزارع الأوروبية، في حقول والد منيرا... وأخيراً تشتغل عند كل من يعطيها ما تسد به رمقها! وتأوه: «لماذا؟ لماذا؟ لقد فشلت». وانحدرت دمعة أخرى على أرضية الإسمنت. وفجأة ضرب جدار الزنزانة في إشارة احتجاج لا مجدية. ماذا عن كل مريمات كينيا؟ كل مريمات أفريقيا الاستعمار الجديد؟ ماذا عن كل النساء والرجال والأطفال الذين ما يزالون يئنون تحت وطأة الاستعمار؟

لم يأكل شيئاً طيلة يومين.

في اليوم الثالث، عاد الحارس الذي أبلغه الخبر السيئ. «سيد كاريغا، أنا... نحن نريدك أن تعرف أنه بالرغم مما حدث، فإن بعضنا يسرهم أن يعرفوا عن نضالك في سبيلنا نحن العمال... إن شعورنا معك... لكننا نتحمل، لأننا يجب أن نأكل...». في سبيلنا نحن العمال ـ ردد كاريغا العبارة في قلبه. أمه عملت طوال حياتها تكسر سطح الأرض للملاك القلة: وأي فرق... إن كانوا سمراً أو سوداً. إن قدرتهم على شرب دم الكثيرين وعرقهم لم تنقصها قرابة اللون أو اللغة أو الإقليم! لم تكن كثيرة الشكوى، مع إصرارها على حقوقها، مؤمنة بأن الله سيجعل من العسر يسراً. لكنها ماتت الآن، ولم يجعل الله عسرها يسراً.

أترى وانجا على حق: إن لم تأكل تؤكل؟

رأى الفتاة من بعيد، وتساءل عمن تكون. وكلما اقتربت من سياج الأسلاك الشائكة، بدا وجهها أليفاً بصورة غائمة. ثم تذكر أنه رآها في العمل:

كانت تهتم ببذور الدخن لصنع الثنغيتا ـ تنشرها لتجف في الشمس، وما إلى ذلك. كانت خجولة تتحدث بالسواحلية.

«أرسلت إليك. كنت أتوسل إليهم كي يسمحوا لي برؤيتك. هذا الحارس ساعدني».

«ما اسمك؟».

«اكينيي. أرسلوني ـ».

«من؟».

«العمال الآخرون... برسالة. إنهم معك... وهم... يخططون لإضراب آخر، ومسيرة عبر المورووغ».

«ولكن من؟».

«الحركة العمالية في المورووغ... ليس فقط نقابة العمال في معامل التقطير. كل العمال والعاطلين في المورووغ سينضمون إلينا. والفلاحون الفقراء... حتى بعض صغار الكسبة...».

وقف ساكناً... جد ساكن. الحركة العمالية... لا بد أنها أمر جديد... أمر بدأ بعد اعتقاله.

حدثته أكثر عن احتجاج العمال وتمردهم ذاك الأحد الذي اعتقل فيه، وكذلك عن حالة العمال الذين جرحوا آنذاك. كما أخبرته بمقتل شخصية مهمة جداً في السلطة. استفسر منها: «حقاً؟».

«نعم. في نايروبي. أطلق عليه الرصاص بينما كان ينتظر في سيارته بايستليه، خارج وادي ماثيري. كان ينتظر عودة سائقه الحارس بالإيجارات...».

«كان يثري من تعاسة الفقراء. ربما فعل ذلك اللصوص. ومع هذا ـ».

«ليسوا لصوصاً. الأمر أكثر من ذلك حسب ما يقول روما مونغ. فقد تركوا ورقة. إنهم يسمون أنفسهم واكومبوزي ـ جمعية تحرير العالم الواحد... ويقولون إن ستانلي ماثنغي عاد من أثيوبيا ليكمل الحرب التي بداها هو وكيماثي... وهناك شائعات عن العودة إلى الغابات والجبال...».

«ماثنغي عاد؟» قلَّب المسألة في ذهنه. ليس ممكناً. لكن ماذا يهم؟ ماثنغيون جدد... كويتاليليون جدد... كيماثيون جدد... أواشيون جدد... إنهم يولدون كل يوم بين الناس..

قاطعت مجرى أفكاره: «ماذا تراهم صانعين بك؟».

«الاعتقال... فهم يشكون بأني شيوعي».

قالت فجأة، وهي تنظر إليه بجسارة: «ستعود». أثار صوتها مزيداً من الصور التي تحركت بفعل ما أبلغته من أنباء. الاستعمار: الرأسمالية: ملاكو الأرض: ديدان الأرض. هذا النظام الذي ربى جحافل من البراغيث، وبق الفراش المنتفخة الكروش، على الطفيلية وأكل لحوم البشر، باعتبارهما الهدف الأسمى في المجتمع. هذا النظام وآلهته المنتفعون ظل يطارد أمه حتى القبر. إن هذه الطفيليات تظل تطلب قرابين دم جديدة من جماهير الشغيلة. وإن هذه القلة التي استعهرت البلاد كلها، وقدمتها إلى الأجانب فريسة للاستغلال، ستظل تشرب دم

الشعب وتقول صلوات منافقة عن الإخلاص لتوحد لـون البـشرة والوطنية، حتى لو غدت هياكل عظمية تـسير إلى قبـور منفـردة. هذا النظام وآلهته وملائكته يجـب أن يكافحـه الـشغيلة جميعـاً، بوعي، وإصـرار، وحـزم. مـن كويتاليـل، عـبر كـانغيثي، وإلى كيمائي، كـان الفلاحـون، بمـساعدة العمـال، وصـغار الكـسبة والملاكـين، هـم الـذين كـشفوا الـسبيل. وغـدا... العمـال والفلاحـون هـم يقـودون النـضال، ويـستولون علـى الـسلطة، ليقلبوا النظام بكل آلهته المفترسة المتعطـشة للـدم... وملائكتـه الأقزام، فيضعوا نهاية لتحكم القلـة في الكثـرة، ولعهـد شـرب الدم، وأكل اللحـم البـشري. آنـذاك، آنـذاك فقـط، يبـدأ حقـاً ملكوت الرجال والنساء.. الذين يفرحـون، ويحبـون في عملـهم الخلاق...

لدقيقـة أو نحوهـا، حملتـه علـى أمواجهـا رؤيـاه هـذه، والآفـاق المشرعة أمام جماهير عمال كينيا وفلاحيها، بحيث نـسي المـرأة الـتي كانت إلى جانبه.

قالـت ثانيـة، وهـي تؤكـد، هادئـة، ثقتـها بالنـصر الآتي: «ستعود».

نظـر إليهـا محـدقاً... ثم نظـر عبرهـا إلى موكـامي المنـاقع، فـإلى نياكينيوا، وأمه، وحتى أبعد من أكيني... إلى المـستقبل! وابتـسم مـن خلال أساه.

وتمتم مع نفسه: «غداً... غداً».

«غداً...» وعرف أنه لم يعد وحيداً.

تشرين أول 1970 ـ تشرين أول 1975

* * *



Ngugi wa Thiong'o

Petals of Blood

من قتل المديرين الأفارقة لشركة تقطير الثنغيتا التي يملكها أجانب؟ الشرطة تحقق مع أربعة أشخاص من بلدة المورووغ الجديدة الواقعة على الطريق العابر أفريقيا.

إن حياة منيرا، مدير المدرسة، مشتبكة مع حياة المشكوك بهم الثلاثة: وانجا فتاة المشرب الجذابة، كاريغا المتمرد دائماً والذي تحول من معلم إلى نقابي، وعبد الله صاحب الدكان ذو الماضي البطولي، باعتباره مقاتلاً فدائياً في النضال من أجل استقلال كينيا.

تحمل الرواية تاريخ النضال السابق ضد الحكم الكولونيالي والاضطهاد، وكذلك نضال الشعوب المستمر ضد استغلال أشد وأبشع... قائم على تحالف الأجانب والطبقة المالكة الجديدة من الأفارقة.

ترى الرواية أمل أفريقيا الوحيد في استمرار نضال الجماهير ضد هذا التحالف، بغية التغلب على الجفافات المدمرة التي يسببها استنزاف ثروة الشعب، من المناطق الريفية إلى المدن، ومن الأمة بأسرها إلى البلدان الأجنبية. وحين يهطل المطر، لينبت ازدهاراً ذات تويجات دم... فأي ثمار ننتظر؟

Translator
Saadi Yousef

www.attakwin.com